

بِحُورٍ

فِي الْمَلَأِ وَالْحِكْمِ

وَالْحِكْمِ وَالْحِكْمِ

تَأَلَّفَتْ

الْفَهْمِ وَالْحَقِّ آيَةَ اللَّهِ

الشَّيْخِ بِجَعْفَرِ الشَّيْخِ كَلَانِي

الجزء الرابع

مؤسسة الإمام الخميني

قم - إيران

بحوث
في الملل والنحل
٤

بَحْثٌ

فِي الْمَلِكِ وَالنَّحْلِ

دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية

الجزء الرابع

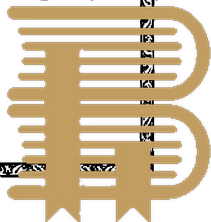
يتناول حياة ابن تيمية وابن عبد الوهاب ومقائدهما

تأليف

الفقيه العدفي

آية الله جعفر السبحاني

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

التبریزی، جعفر سبحانی ۱۳۰۸ هـ.

بُحُوثُ فِي الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ / تأليف جعفر سبحانی	ISBN 964 - 357 - 230 - 7 (ج ۱)
مركز تحقيقات كتابي تبريز، نوم اسلامي	ISBN 964 - 357 - 246 - 3 (ج ۲)
شمار ثبت: ۴۶۷۸۳	ISBN 964 - 357 - 248 - x (ج ۳)
تاريخ ثبت:	ISBN 964 - 357 - 255 - 2 (ج ۴)
کتابخانه:	ISBN 964 - 357 - 247 - 1 (دوره)

کتاب حاضر قبلاً توسط جامعه مدرسین حوزه علمیه قم منتشر شده است.
فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیما

۱- اسلام .. فرقه ها، الف. مؤسسه امام صادق علیه السلام. ب. عنوان.

۲۹۷/۵

BP ۱۳۸۵ ج ۲ / ۲۳۶

اسم الكتاب: بحوث في الملل والنحل
الجزء: الرابع
المؤلف: آية الله جعفر سبحانی
الموضوع: حياة ابن تيمية وابن عبد الوهاب وعقائدهما
المطبعة: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: ۱۴۲۷ هـ
الكمية: ۱۵۰۰ نسخة
الناشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
الصف والإخراج الفني: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام - السيد محسن البطاط
حقوق الطبع محفوظة للمؤسسة

توزيع

مكتبة التوحيد

ایران - قم : ساحة الشهداء

۲۹۲۵۱۵۲ - ۷۷۴۵۴۵۷ ☎

البريد الإلكتروني: imamsadiq@gmail.com

العنوان في شبكة المعلومات: www.imamsadeq.org

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الخاتم وعلى آله
المصطفين الأخيار.

أما بعد: فهذا هو الجزء الرابع من موسوعتنا الكلامية حول المذاهب
الإسلامية، ونستعرض فيه دراسة المذهب الوهابي الذي نشأ في أواسط
القرن الثاني عشر في إقليم «نجد» وقد غاب نجمه يوم طلوعه، وصار خامل
الذكر، ثم أعيد إلى الساحة الإسلامية في أواسط القرن الرابع عشر، بعد
استيلاء العائلة السعودية على الحرمين الشريفين (مكة و المدينة)، وتبنت
الدعايات السياسية الزمنية ترويح ذلك المسلك بترغيب وإرهاب، وقامت
الدوائر الإعلامية العالمية - عن طريق المجلات والصحف، والمؤلفين
المأجورين الجدد - بنشر تعاليمه و تفاصيله. أسأل الله سبحانه أن يوفقنا في
هذا الجزء، ويعيننا في هذه الدراسة، ويوصلنا إلى الحق الصواب إنه قريب
مجيب.

إن المذهب الوهابي المفروض على الشعب المسلم في الجزيرة
العربية وغيرها، قام على الأفكار التي ورثها مؤسسها محمد بن عبد الوهاب

(١١١٥ - ١٢٠٧ هـ) من أحمد بن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) الذي بذر هذه الأفكار في أواخر القرن السابع (٦٩٨ هـ) وأوائل القرن الثامن، وكانت بذرته التي بذرها مودوعة في الكتب وزوايا المكتبات، إلى أن أحيا محمد بن عبد الوهاب ما دثره الدهر، واتخذ من عقائد شيخه في المذهب ابن تيمية قاعدة لمذهبه، وحذف منها ما يمت إلى مسألة التشبيه والتجسيم وإثبات الجهة والفوقية بصله، واهتم بما يرجع من عقائده إلى مسألة التوحيد والشرك .

ولأجل أن تكون الدراسة متكاملة الأطراف، مترامية الجوانب، نشرع بادئ بدء في دراسة حياة شيخه ابن تيمية أولاً، ثم نعقبها بدراسة مجدد مذهبه ومسلكه في القرن الثاني عشر الهجري، وإليك البحث عن حياة ابن تيمية وآراء معاصريه في حقّه، وآرائه، مع تحليل ما اعتمد عليه من الأصول لمذهبه، ولكن بعد تقديم مقدّمة تكشف عن الظروف العصيبة التي أقيت فيها هذه البذرة، ونشأ فيها هذا المذهب .

جعفر السبهاني

قم - العوزة العلمية

شوال المكرم / ١٤١٠ هـ

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة

دعامتان للإسلام

بُنِيَ الإسلام على كلمتين هما دعامتا المبدئيتان: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة؛ أمّا الأولى فقد دعا إليها النبي الأعظم ﷺ، بل الأنبياء والمرسلون قاطبة، ولم يكن لهم هدف سوى إرساء قاعدة التوحيد والقضاء على الوثنية، وما سوى ذلك من التعاليم من فروع تلك الشجرة الطيبة وأغصانها وثمارها، ولولا هذا الأصل لما قام للدين عمود ولا اخضر للإسلام عود. قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. (١)

وأما الثانية فهي الدعامة الثانية لإرساء صرح الإسلام، بل هي الركن الركين لنشر تعاليمه وكبح جماح الجبايرة والطواغيت، ولولا وحدة الكلمة لكان الإسلام في بدء طلوعه فريسة لمطامع الظالمين، وقد دعا إليها الذكر

الحكيم في غير مورد من آياته. قال سبحانه: ﴿وَوَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا نَفَرُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(١). وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾^(٢).

وقد قام النبي الأكرم ﷺ في دار هجرته بتجسيد مفهوم الأخوة بين أصحابه، فأخى بين الأوس و الخزرج، وبين المهاجرين والأنصار، وأخى بين نفسه وصنوه وصهره علي صلوات الله عليه.^(٣)

ثم إن الرسول الأكرم ﷺ - انطلاقاً من هذا المبدأ - شبه المؤمنين مع كرتهم ووفرتهم بالجسد الواحد وقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد (الواحد) إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».^(٤)

ولقد كان النبي الأكرم ﷺ يراقب أمر الأمة، لا يشق عصاها منازع جاهل أو عدو غاشم، وكان يقودها إلى الأمام برعايته الحكيمة، وكلما واجه خلافاً أو شقاقاً ونزاعاً بادر إلى ترميم صدعها بحزم عظيم وتدبير وثيق، ولقد شهد التاريخ له بمواقف في هذا المجال انتخبنا منها ما يلي:

١- انتصر المسلمون على قبيلة بني المصطلق وقتل من قتل من العدو

١. آل عمران: ١٠٣.

٢. الحجرات: ١٠.

٣. راجع في الوقوف على مصادر الحديث كتاب الغدير: ١١٢/٣ - ١٢٤.

٤. مسند أحمد: ٢٧٠/٤.

وأُسِرَ من أُسِرَ منهم؛ فبينما رسول الله ﷺ على مائهم، نشب النزاع بين رجل من الأنصار ورجل من المهاجرين، فصرخ الأنصاري فقال: يا معشر الأنصار، وصرخ الآخر وقال: يا معشر المهاجرين، فلَمَّا سمعها النبي، قال: دعوها فإنها منتنة. ^(١) - يعني إنها كلمة خبيثة، لأنها من دعوى الجاهلية، والله سبحانه جعل المؤمنين إخوة وصيّرهم حزباً واحداً، فينبغي أن تكون الدعوة في كل مكان وزمان لصالح الإسلام والمسلمين عامة، لا لصالح قوم ضد الآخرين، فمن دعا في الإسلام بدعوى الجاهلية يُعزَّر.

فالنبي الأكرم ﷺ يصف كل دعوى تشق عصا المسلمين وتمرق وحدتهم بأنها دعوى منتنة، فكيف لا يكون كذلك وهي توجب انهدام الدعامة للكيان الإسلامي، وبالتالي انقضا صرح الإسلام.

٢- نزل النبي الأكرم ﷺ دار هجرته والتفت حوله القبيلتان: الأوس والخزرج، فمرَّ شأس بن قيس - الذي كان شيخاً عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملأبني غيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم من قرار، فأمر فتى شاباً من اليهود كان معهم فقال: إعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعثت، يوم اقتلت في الأوس

١. السيرة النبوية: ٣/٣٠٣، غزوة بني المصطلق. ولا حظ التعليق للسهيبي، وراجع مجمع البيان: ١٥ /

والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهري، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعاً .

دخل الشاب اليهودي مجتمع القوم فأخذ يذكر مقاتلتهم ومضاربتهم في عصر الجاهلية، فأحيا فيهم حميتها حتى استعدوا للنزاع والجدال بحجة أنهم قتل بعضهم بعضاً في العصر الجاهلي يوم بعث، وأخذ الشاب يُؤجج نار الفتنة ويصب الزيت على النار حتى تواتب رجلان من الحثيين فتقاولا .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين، حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين! الله، الله، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله بالإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستفدكم من الكفر وألف به بين قلوبكم؟!» .

كانت كلمة النبي كالماء المصبوب على النار بشدة وقوة، حيث عرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ مدعين، متسالمين، مطيعين قد دفع الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس، فأنزل الله تعالى في شأس وما صنع. ^(١)

٣- كان لقضية الإفك في عصر الرسول دوي بين أعدائه، فكان عدو الله «عبد الله بن أبي» يشيع الفاحشة ويؤذي النبي ﷺ، فقام رسول الله في

الناس يخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك الرجل، والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي». وكان كبر ذلك الإفك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج.

فلما قال رسول الله تلك المقالة، قال «أسيد بن حضير» وكان أوسياً: يا رسول الله! إن يكونوا من الأوس نكفكمهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم، فقال سعد بن عباد - وكان خزرجياً -: كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا. فقال أسيد: ولكنك منافق تجادل عن المنافقين. وعندئذ تساور الناس حتى كاد أن يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شراً. وفي لفظ البخاري: فصار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت. (١)

هذه نماذج من مواقف النبي الأعظم حيال الخلافات التي كانت تنشب أحياناً بين أمته، وهو ﷺ كان يصنع من الخلاف واثماً، ومن النزاع وفاقاً، ويدفع الشر بقيادته الحكيمة، وما هذا إلا لأن صرح الإسلام قائم على كلمتين: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

وهذا صنو النبي الأكرم ووصيّه وخليفته - إذ حرم من حقّه المشروع،

وبدلت الخلافة التنصيبية إلى تداول الخلافة بين تيم وعدي، ثم إلى أمية -
 قد بقي حليف بيته وأليف كتاب الله، وهو يرى المفضلون يمارس الخلافة
 مع وجود الفاضل، بل يرى تراثه نهياً، ومع ذلك كله لم ينسب بنت شفة إلا
 في موارد خاصة، حفظاً للوفاق والوئام، وهو ﷺ يشرح لنا تلك الواقعة
 بقوله: «فوالله ما كان يُلْقَى في رُوعي، وَلَا يَخْطُرُ ببالي، أَنْ الْعَرَبَ تُرْعِجَ هَذَا
 الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ﷺ عَنِ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَا أَنْهُمْ مُنْحَوَةٌ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ، فَمَا رَاعَنِي
 إِلَّا اثْنِيالِ النَّاسِ عَلَى فَلَانٍ يَبْتَاعُونَ فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ
 قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ
 الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثُلْمًا أَوْ هَذَا تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ
 قَوْتٍ وَلَا يَتِيكُمُ، الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ...»^(١).

وعندما تسنم سدة الخلافة ورجع الحق إلى مداره، قام خطيباً فقال:
 «وَالزَّمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّاذَّ
 مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذُّئْبِ. أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشُّعَارِ
 فَأَقْتُلُوهُ وَ لَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ.»^(٢)

هذه هي سيرة النبي الأكرم ﷺ وسيرة وصيه وتلميذه، وهما تعربان
 عن أن حفظ الوحدة من أهم الواجبات وأوجب الفرائض، ولكن يا للأسف
 لم تراع الأمة نصيح النبي الأكرم ﷺ عبر القرون والأجيال، وهذه مأساة
 سقيفة بني ساعدة المسرحية وما تمخض عنها إذا قرأتها بدقة وامعان ترى

١. نهج البلاغة: الرسالة ٦٢.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٢٧.

أنَّ الجانبين المهاجرين والأنصار تشبَّثوا بدعاوي متتنة تشبه دعوى الجاهلية، فمندوب الأنصار يجرّ النار إلى قرصه بحجة أنَّهم نصرُوا النبي الأكرم وأووه، كما أنَّ المتكلم عن جانب المهاجرين (ولم يكن في السقيفة منهم آنذاك إلا خمسة أشخاص) يراهم أحقَّ بتداول الخلافة بحجة أنَّهم عشيرة النبي الأكرم، وفي الوقت نفسه لم نجد في كلامهما ما يشير إلى ما يخدم صالح الإسلام والمسلمين، وأنَّ المصالح الكبرى تكمن ضمانتها في تنصيب من توفّرت فيه شرائط وسمات وملاحم القيادة الربانية دون سائر أفراد الأمة .

وقد توالى الخلاف والشقاق، ودارت الدوائر على المسلمين بعد مقتل عثمان وانتخاب عليٍّ عليه السلام للزعامة باتفاق المهاجرين والأنصار، إلا من شدَّ ولا يتجاوز عددهم خمسة، وعند ذلك ثقل على الأمة عدل عليٍّ وسيرته، فثارت الضغائن البدرية ضدَّه فوق ما وقع، وتوالت الوقائع والأحداث، فجاءت وقعة الجمل التي أريقَت فيها دماء المسلمين، لأجل إزالة الإمام وتنحيته عن حقِّه ومقامه. وبعد ما انتصر الإمام على الناكثين وعاد الحق إلى مقره، نجم قرن آخر تمثل في وقعة صفين التي ذهبت ضحيتها عشرات الآلاف من المسلمين، إلى أن انتهى الأمر إلى وقعة النهروان التي شغلت بال الإمام واستنفدت طاقات المسلمين، واستشهد الإمام، والمسلمون بعد لم يتدمل جرحهم، وبويع ولده الإمام الحسن السبط للخلافة، وأخذ بزمام الأمر أشهراً قلائل، غير أنَّ ابن ابي سفيان شنَّ الغارة على العراق وشيعة الحسن عليه السلام ومبايعيه، فانجرَّ الأمر إلى التصالح، وأنسخ

جمل الخلافة على باب بني أمية يتداول كرتها واحد بعد واحد، حتى انتكث عليهم قتلهم وأجهز عليهم عملهم بانتفاضة الأمة ضدّهم، إلى أن استولى العباسيون فصاروا خلفاء الأمة وقادتها، ولم يكونوا بأحسن من الأمويين .

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار
كان العباسيون يتوارثون الخلافة من الآباء إلى الأولاد، وكان للإسلام صولة وللمسلمين هيبة، ولم تكن تجترئ القوى الكافرة في العالم عبر قرون على غزو المسلمين، وإن كانت الفتنة والحروب الداخلية دائرة بينهم. غير أن تلك الحروب وضعف القيادة الإسلامية أتاحت فرصة صالحة للقوى الكافرة المتربصة بالمسلمين لشنّ الغارة على الوطن الإسلامي وضرب الإسلام والمسلمين ضربة قاضية في أوائل القرن السادس، حيث أنشبت مخالبتها في جسد الإسلام والمسلمين، وانقضت عليهما بالحملة الصليبية في أوائل ذلك القرن، وكان منطلق شنّ تلك الحملات والغارات من جانب الغرب، عن طريق البحر تارة على سواحل الشامات، وأخرى عن طريق البر عبر القسطنطينية.

كانت تلك الحروب لا تزال طاحنة ومشتعلة يتصر فيها المسلمون على العدو في فترة بعد فترة، إذ بدأت الحملات الأخرى من جانب الشرق على يد التتار والمغول، فكان مختتم الحروب الصليبية مبدأ للحروب الوثنية بأيدي عبدة الشمس والكواكب، ولعلّ هذا يعرب عن اتفاق الصليب والصنم، وبالتالي الصليبيين والصنميين على تدمير الحضارة الإسلامية...

ولسنا أوّل من تنبّه إلى اتفاق هاتين القوتين في ذلك العصر المظلم، بل يظهر عن طريق الإمعان في ثنايا التاريخ أنّ ذلك كان أمراً مدبّراً، ولو لم يكن هناك اتفاق في بدء الأمر لكن حصل الاتفاق بين الصليبي والوثني في أثناء تلك الحروب، وفي كلام ابن الأثير المعاصر لهذه الحروب إشارة إلى ذلك حيث يقول: «وقد بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يتل بها أحد من الأمم. منها هؤلاء التتار - قبحهم الله - أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها، ومنها خروج الإفرنج - لعنهم الله - من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر، وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم»^(١).

ثم إنّ ابن الأثير يشير إلى ضعف القيادة الإسلامية في تلك العصور، ويزيح النقاب عنها بقوله: «يسر الله للمسلمين و الإسلام من يحفظهم ويحوظهم، فلقد دفعوا من العدو إلى عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه...»^(٢).

ولأجل إيقاف القارئ على مدى الخسائر الفادحة الواردة على الإسلام والمسلمين، الناجمة عن هذه الحروب الصليبية والتترية، نذكر لمحة خاطفة من هاتين الحربين كنموذج تمثيلي، ليعلم بذلك داء المسلمين فيه، ثم نبحث عن الدواء الذي كان ينبغي لعلماء الإسلام أن

١. الكامل في التاريخ: ١٢ / ٣٦٠.

٢. الكامل في التاريخ: ١٢ / ٣٧٦.

يقدموه إلى المجتمع الإسلامي، والمصل الناجع، ونقدم الكلام عن الحروب الصليبية أولاً، ثم عن التتربة ثانياً، ثم تنامي رقعة الهجمات الصليبية في الوطن الإسلامي بهجومهم على الأندلس ثالثاً، وقد استمرت هذه الهجمات الصليبية والتتربة من أواخر القرن الخامس إلى القرن التاسع.

الحروب الصليبية (٤٩١ - ٦٩٠ هـ)

كانت النصارى بالمرصاد للمسلمين، وكان من أمنياتهم الاستيلاء على بيت المقدس و سلبه من أيدي المسلمين بحجة أنه قبلة الأمم المسيحية ومثوى ومنتجع عواطفهم الدينية، فشنوا الغارة على بلاد المسلمين حوالي سنة ٤٩١ إلى أواخر القرن السابع، وكانت للحروب الصليبية مراحل ثمان أو تسع، فكانوا يتصرون في بعضها، كما تلحقهم الهزيمة في بعضها الآخر، ومن المراحل التي انتصروا فيها على المسلمين المرحلة المعروفة التي: «ساروا فيها إلى بيت المقدس، فحاصروه ونصبوا عليه برجين، وملكوه من الجانب الشمالي، وسلط على الناس السيف، ولبت الإفرنج في البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، وقتل بالمسجد ما يزيد على سبعين ألفاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء».^(١)

إن التواريخ الإسلامية تعرف صلاح الدين يوسف بن أيوب (المتوفى ٥٨٩ هـ) بالقائد الذي صمد في وجه الصليبيين حيث طرد الإفرنج عن الشامات، غير أنه لم يقض في فتوحاته على غائلة الحروب الصليبية بشكل

١. تاريخ مختصر الدول، للملطي المعروف بابن العربي، المتوفى ٦٧٥ هـ.

نهائي، بل امتدت هذه الحروب في الوطن الإسلامي بعده أيضاً. كيف وقد وقعت حرب ضروس في سنة ٥٩٣ هـ بين الملك العادل أبي بكر بن أيوب وبين الإفرنج، فأنقذ مدينة يافا من الساحل الشامي من يد الإفرنج.^(١)

وقد ذكر ابن الأثير أيضاً في حوادث سنة ٦١٤: «أن الإفرنج أقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة ٦١٥ فساروا في البحر إلى دمياط، فوصلوا في صفر، فأرسلوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل...»^(٢).

زحف التتار إلى البلاد الإسلامية

قد ذكر المؤرخون بعض الدوافع لاشتعال هذه الحرب في أوائل القرن السابع بين الوثنيين والمسلمين قالوا: إن ملك التتار المعروف بـ «جنكيز خان» قد سير جماعة من التجار ومعهم شيء كثير من النقرة والقندر وغيرهما إلى ما وراء النهر، سمرقند وبخارى، ليشتروا به ثياباً للكسوة، فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمى «أوترار» وهي آخر ولاية «خوارزم شاه» وكان له نائب هناك، فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتار أرسل إلى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال، فقتلهم وسيّر ما معهم، وكان شيئاً كثيراً، فلما وصل إلى خوارزم شاه فرقه على تجار بخارى وسمرقند، وأخذ ثمنه منهم، فبلغ الخبر إلى جنكيزخان فأرسل رسولاً إلى

١. الكامل: ١٢/١٢٦.

٢. الكامل: ١٢/٣٢٣.

خوارزم شاه يقول: «تقتلون أصحابي و تجاري وتأخذون مالي منهم، فاستعدوا للحرب فإنني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به»^(١).

ويظهر من بعض الآثار أن يد بعض الأساقفة كان وراء تحريض ملك التتار على الزحف والحرب، يقول ابن العبري: «عظم الأمر عند جنكيزخان وتأثر منه إلى الغاية وهجره النوم، وصار يحدث نفسه ويفكر في ما يفعله، ففي الليلة الثالثة رأى في منامه راهباً عليه السواد ويده عكازة وهو قائم، فذكر رؤياه للأسقف فقال الأسقف: يكون الخان قد رأى بعض قديسينا، ومن ذلك الوقت صار يميل إلى النصرى ويحسن الظن بهم ويكرمهم، ومن هذه السنة (٦١٦) قصد جنكيزخان البلاد الإسلامية»^(٢).

الداهية العظمى أو خروج التتار إلى بلاد الإسلام

إن عظمة الداهية بلغت حداً لا يستطيع القلم واللسان تبينها وترسيمها، ولا يستطيع المسلم أن يسمع ذكراً منها أو يقرأ فصلاً من فصولها، حتى أن ابن الأثير بقي عدة سنين معرضاً عن ذكر الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فبقي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ثم علل إعراضه عن تحرير هذه الواقعة بقوله: «ومن ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن ذا الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً، إلا أنه حثني جماعة من الأصدقاء

١. الكامل: ١٢ / ٣٦١ - ٣٦٢.

٢. تاريخ مختصر الدول: ٢٣٠.

على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثله لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها .

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس، وما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد، التي كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لن يروا مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفتى الدنيا، إلا بأجوج ومأجوج .

وأما الدجال فإنه يبقى على من أتبعه ويهلك من خلفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإننا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وصارت في البلاد كالسحاب استدبرته الرياح، فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاسون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً، وتخريباً وقتلاً، ثم يتجاوزونها إلى الري، وهمدان، وبلد الجبل وما فيها من البلاد إلى حد العراق، ثم

يقصدون بلاد آذربيجان وأرانية يخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينجُ إلا الشريد الغاز (فعلوا كل ذلك) في أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله .

ثم لما فرغوا من آذربيجان وأرانية صاروا إلى دريند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز، ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوسعهم، قتلاً، ونهباً، وتخريباً، ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عدداً، فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها في أسرع زمان، ولم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير.

ومضت طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل ما فعل هؤلاء وأشد. وهذا ما لم يطرق الأسماع مثله. فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة، إنما ملكها في نحو عشر سنين ولم يقتل أحداً. وإنما رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه، وأكثره عمارة وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبق في البلاد التي لم يطرقتها إلا وهو خائف يتوقعهم ويتربص وصولهم إليه»^(١).

ثم إن ابن الأثير تتبع مسير التتار وهجماتهم الوحشية، فذكر الحوادث المفجعة سنة بعد سنة، إلى أن وصل إلى حوادث (٦٢٨ هـ) وبعدها بقليل .

و أظن أن فيما ذكره على وجه الإجمال غنى وكفاية، ولا يحتاج إلى سرد التفاصيل التي جاءت بعد هذا الإجمال، ولكنه لم يدرك الهزيمة النكراء التي أصابت المسلمين عند سقوط بغداد، ولكن المؤرخين الذين جاءوا بعدهم ذكروا سقوط العاصمة في أيدي أولئك الوحوش الضواري، وقد ارتكبوا جرائم لا تغسل عن ساحة الذاكرة الإنسانية بماء المحيط، فضلاً عن البحر والنهر، ولأجل إيقاف القارئ على مدى الخسائر الفادحة الروحية والجسدية الواردة على المسلمين، نذكر من تلك الهجمات العديدة هجومهم على بغداد، فإنه يوقفنا على حقيقة ما جرى في غيرها، معتمدين في ذلك على ما سطره ابن كثير في تاريخه.

سقوط الخلافة العباسية بأيدي وحوش التتار

لم تستهل هذه السنة إلا وجنود التتار قد أحاطت ببغداد بصحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار، هولاكوخان، وقد جاءت إليهم أمداد صايح الموصل يساعدهم على البغادة وميرته وهداياهم وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار، ومصانعة لهم قبَّحهم الله تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئاً، كما ورد في الأثر (لن يغني حذر عن قدر) وكما قال تعالى: **«إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ»** ^(١) وقال تعالى: **«إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ»^(١). وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة خطاياهم وكانت مولدة تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشباب فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِنْقَازَ قَضَائِهِ وَقَدْرَهُ أَذْهَبَ عَنِ ذَوِي الْعُقُولِ عَقُولَهُمْ» فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة وكان قدوم هولاء كان بجنوده كلها - وكانوا نحو مائتي ألف مقاتل - إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة.

ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وعلى أبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثونهم ويحزنون على الإسلام وأهله.

ولما فتحوا البلد، قتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحوش، وقني الوسخ، وكمناوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان

الجماعة من الناس يجتمعون في الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهبون منهم إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإننا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم... وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً، وبذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم، وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها، كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة .

وقد جرى على بني إسرائيل بيت المقدس قريب مما جرى على أهل بغداد، كما قص الله تعالى، علينا ذلك في كتابه العزيز، حيث يقول: «وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا»^(١) .

وقد قتل من بني إسرائيل خلق من الصلحاء، وأسر جماعة من أولاد الأنبياء، وخرب بيت المقدس بعد ما كان معموراً بالعباد والزهاد والأحبار والأنبياء، فصار خاوياً على عروشه واهي البناء .

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الواقعة. فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت

القتلى ألفي ألف نفس، فإننا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً.

ولما انقضى الأمر المقدور وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، القتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام؛ فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والطعن والطاعون فإننا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد الأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، وكان رحيل السلطان المسلط هولوكوخان عن بغداد في جمادى الأولى من هذه السنة (٦٦٦ هـ) إلى مقر ملكه. (١)

ثم امتدت الهجمات بعد سقوط بغداد حتى وصل جيش العدو إلى عين جالوت وغزة في فلسطين، وكانت الأمنية الكبرى للعدو هي الاستيلاء على الشامات ثم مصر، ولكن الزحف توقف بتدبير الملك الظاهر بيبرس

(٦٥٩ - ٦٧٦ هـ) ولكن العدو حاول الاستيلاء ثانياً على الشامات...^(١).

وهذا الياضي يتتبع مسير التتار وهجومهم، فيقول في حوادث عام

٧٠٠ هـ:

«حصلت أراجيف بالتتار وجاء غازان بجيشه الفرات وقصد حلب

فتشوشت الخواطر...» .

ويقول في حوادث عام ٧٠٢ هـ: «طرق غازان الشام ولكن انهزم عند

سور دمشق وتفرقت جيوشه، ثم جهز غازان جيوشه فصاروا إلى مرج

دمشق وتأخر المسلمون وبات أهل دمشق في بكاء واستغاثة وخطب

شديد، وقدم السلطان وانضمت إليه جيوشه...»^(٢).

هذا قليل من كثير مما جنت يد التتار على الإسلام والمسلمين، وقد

امتدّ الدمار والهلاك بعد هذه السنة حتى تجاوز القرن السابع إلى أواخر

القرن الثامن. فابتدأت الحروب التتارية من عام ٦٠٣ هـ وانتهت عام ٨٠٧ هـ

بموت تيمورلنك الذي تظاهر هو بالإسلام وبعض من قبله، ولكن لمن نزل

القلوب مضطربة باستيلاء هؤلاء على المناطق الإسلامية .



١. فيليب حتي. تاريخ العرب المترجم إلى الفارسية: ٢ / ٨٢٨، ٨٥١، ٨٨٣.

٢. مرآة الجنان: ٤ / ٢٣٤ - ٢٣٥.

إبادة المسلمين في الأندلس

انتهت الحروب الصليبية والتتربة في مختتم القرن الثامن، ولكن نار الحرب بين المسلمين والمسيحيين كانت مشتعلة في الوطن الإسلامي «الأندلس» عن طريق إبادة المسلمين وإجلانهم عن وطنهم والتنكيل بهم . إن المسلمين بفضل المجاهدين الإسلاميين وصلوا إلى تلك البلدة الخصبة عام ٩٢ هـ واستمرّوا في الفتح إلى أن وصلوا إلى قلب فرنسا عند مدينتي «تور» و«بواتيه» عام ١١٢ هـ^(١) وهناك توقفت الفتوحات بسبب ضعف القيادة الإسلامية في بغداد، وقطع صلة الحكام بالأندلس عنها، وعند ذلك طمع الصليبيون في سلب تلك البلاد من أيدي المسلمين، فبدأوا بالحروب ضدهم، وكانت الأندلس في نهاية القرن الخامس الهجري قد انقسمت إلى عدة ممالك صغيرة، عرف حكامها بملوك الطوائف، وكان نصارى الشمال يهددون هذه المنطقة^(٢) .

إلى أن حلت الهزيمة بالمسلمين في موقعة العقاب في ١٥ صفر ٦٠٩ هـ، أي في نفس الوقت الذي كان التار قد بدأوا بشنّ الغارة على المسلمين من الشرق إلى الغرب وبالتالي زال سلطان «الموحدين» وسقطت هذه البلاد في يد «الإسبان»، ولم يبق في أيدي المسلمين سوى منطقة جبلية في جنوب شرقي إسبانية حيث قامت مملكة «غرناطة» الإسلامية

١. دائرة المعارف الإسلامية، مادة «أندلس» .

٢. تاريخ الإسلام، تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن: ٥٣٧ / ٤ .

على أيدي بني نصر (بني الأحمر) الذين بايعوا الخليفة الحفصي أقوى حكام المغرب في ذلك الحين^(١).

ولكن العدو لم يرض بما اكتسب من الفتوح، فشن الغارة عليهم حتى أبادهم عام ٨٩٨ هـ، فصار الأندلس كله للإسبان.

ثم إن التاريخ يحكي لنا تعامل الإفرنج مع المسلمين معاملة سوء، حيث أجبروهم على التنصر وعلى خروج النساء مكشوفات، فهرب المسلمون إلى الجبال فصاروا يطاردونهم كما تطارد الفرائس. وقد عدّ بعض المؤرخين عدد العرب المطرودين في قرن واحد (أي من عام ٧٩١ إلى عام ٨٩٨ هـ) نحواً من ثلاثة ملايين كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة وعلماً.

وأنت إذا قرأت التاريخ وقلبت صفحاته تقف على أن هذه القرون الأربعة أي من بداية ٥٠٠ إلى ٩٠٠ هـ شرّ القرون وأسوأها بالنسبة إلى المسلمين، فقد حلت بهم عقوبات وخسائر لم يسجل التاريخ لواحد من الأمم مثلها، وإليك مبدأ هذه الحروب ومختمها:

١- الحروب الصليبية. بدأت من عام ٤٨٩ هـ واستمرت إلى عام

٦٦٠ هـ.

٢- الحروب التترية، ابتدأت من عام ٦٠٣ وانتهت عام ٨٠٧ هـ بموت

تيمور لنگ الذي تظاهر بالإسلام.

٣- إبادة المسلمين في الأندلس وإجلاؤهم بعد انحصار سلطانهم في

منطقة صغيرة في غرناطة، ابتدأت من عام ٦٠٩ إلى ٨٩٨ هـ.

حصيلة البحث

نحن نستتج من هذا البحث الضافي أن الخلافة العباسية وملوكها وسلاطينها بلغوا من الفساد والانحلال إلى حدّ غاب عنهم معه ما كان يجري خارج قصورهم، فقد كانت القوى الكافرة محيطة بدار الخلافة، والخليفة كان غافلاً عما يجري خارج القصر، وكانت تلعب بين يديه جاريته فلم يوظفه من الغفلة أو السكرة إلا إصابة نبل الخصم لجاريته، فإذا كان هذا هو الإسلام وهذا خليفته، وهذا شعوره وإحساسه، فعلى الإسلام السلام، وعلى تلك الخلافة العفاء .

وقد عرفت أن ابن الأثير كان من المشاهدين للقضايا عن كثب، ويعرف الخلفاء وسلاطينهم بأنهم بلغوا من العقلية إلى درجة لا يهتمهم إلا ما يهتمّ البهيمه من إشباع بطنها وإرضاء فرجها. (١)

ومن المعلوم أن الفساد لم يكن مقتصرأ على بلاط الخلفاء، بل الانحلال الخلقي والانحطاط المعنوي كان سائداً على الغالبية العظمى من المجتمع، إذ الناس على دين ملوكهم، ومن العجب أن المؤرخين الأبعاد يحملون وزر سقوط الخلافة العباسية على عاتق الوزير الشيعي مؤيد الدين ابن العلقمي، الذي يصفه ابن كثير بقوله: «وكان عنده فضيلة في الإنشاء ولديه فضيلة في الأدب» ويضيف أيضاً: «إنه أشار على الخليفة بأن يبعث

إلى هولاءكو بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عمّا يريد من قصد بلادهم، فخذل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير «أبيك» وغيره، وقالوا إنّ الوزير إنّما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشاروا بأن يبعث بشيء يسير، فأرسل شيئاً من الهدايا فاحتقرها هولاءكوخان»^(١).

ومن الظلم إلقاء جريرة سقوط بغداد على عاتق هذا الوزير مع كون الخليفة على الحال التي سمعتها من ابن كثير، وكون الملوك والسلاطين لا يهتمهم إلا بطنهم وشهوتهم، مع اشتعال نار الخلاف بين الرؤساء والقادة الشاغلين منصّة قيادة المجتمع الإسلامي، فلا تنتج تلك المقدمات إلا هذا الوضع الوييل، إنّنا لله وإنا إليه راجعون .

الحواضر الإسلامية آنذاك، داؤها ودواؤها

قد تعرّفت على الأوضاع المؤسفة السائدة في الحواضر الإسلامية، وما آلت إليه من الدمار والهلاك والمذابح الفظيعة، والمجازر الرهيبة التي تعرّض لها سكانها الأبرياء، بسبب تلك الحملات العدوانية، وعندئذ نسال كل مسلم حر الضمير عن دواء هذا الداء الذي ألمّ بالمسلمين، وعلاج تلك المأساة التي وقع فيها الإسلام ؟

ولا أشك في أنّ دواءها الوحيد كان هو إحياء التعاليم الإسلامية - آنذاك - في مجال الجهاد والمقاومة، وإعادة الثقة إلى النفوس، والعمل على

تقوية المعنويات ورفع المستوى العسكري لدى المسلمين عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ﴾^(١).

ثم السعي في توحيد ما تفرَّق وتشتت من صفوف المسلمين، وحثهم على تعبير ما تهتم من حضارة الإسلام، وإحياء شتى مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مما انهارت تحت ضربات الأعداء من الشرق والغرب.

ولا يكون ذلك إلا بإعادة العلم الناجع إلى الساحة، وتناسي الخلافات الفرعية، والدعوة إلى التمسك بمبادئ الوحدة، وتجسيد قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢) ورفض البحث عن الخلافات التي تثير النزاع، وتوجد الفرقة وتمزق الصفوف.

هذا ما يحكم به ضمير كل إنسان حر، فلو وجدنا في مثل هذه الظروف العصبية من يثير نار الخلافات الطائفية والمذهبية، وبالتالي يضرب المسلم بالمسلم ويشغلهم بالبحث عن فروع ليس لها من الأهمية بالقياس إلى علاج الدمار الرهيب الذي حلَّ بالمسلمين - لو وجدنا رجلاً بهذا الوصف والنعته - فلان شك أن نعته نكرة جاهلية، وحركته حركة مشبوهة، ودعوته دعوة منتنة حسب تعبير النبي، ومن الظلم والجناية على الإسلام والمسلمين تلقب هذا الداعي بـ «شيخ الإسلام» أو «محيي الشريعة» أو

١. الأنفال: ٦٠.

٢. الحجرات: ١٠.

«محيي الستة» أو غير ذلك من ألفاظ الثناء الوافر الذي يوصف به هذا الرجل في هذا القرن، بترغيب وترهيب من أصحاب الثراء والسلطة، بعد أن كان معروفاً بغيرها في القرون الغابرة، كما ستوافيك كلمات معاصريه ومن جاء بعدهم إلى هذه الأعصار.

إن طرح الخلافات الكلامية والفقهية - في العصر الذي كانت القوارع تنصب فيه على رؤوس المسلمين من الشرق والغرب، وتهدم الديار وتقتل النفوس البريئة، وتشق بطون النساء الحوامل، ويرفع الرجال على أعواد المشائق وتخضب الأراضي بدماء المسلمين - ما هو إلا من قبيل صب الزيت على النار، وتعميق الجرح غير المندمل.

إن طرح المسائل على ضوء العقل إذا كان لغاية التعرف على الحقائق أمر يستحسنه العقل ويقبله الشرع في جميع الحالات ولكن طرح هذه المسائل على وجه يتضمن تكفير الفرق الإسلامية واتهامهم بالشرك، وتجويز قتلهم وإهدار دمائهم، في الوقت الذي غمس العدو يده في دمائهم إلى مرفقه، وقتل منهم الملايين، لا يصح تفسيره إلا بأحد وجهين: إما أن يكون رجلاً غيبياً لا يعرف الداء ولا الدواء، أو رجلاً مُعقداً مغرماً بالشهرة وحبّ العظمة.

وما هذا الرجل إلا أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) فقد ولد في شر القرون وعاش في أجوائها الصعبة على المسلمين، ومات في ظروف الهزيمة التي حلت بالمسلمين، لعل تعرفت عليها، فقد أثار في تلك الظروف العصبية مسائل خلافية لا تزيد في الطين إلا بلة ولا في الجرح إلا

تعميقاً، فهو بدل أن يعبد إلى الساحة الإسلامية الأخلاق والعمل بالإسلام، ويعظ الملوك والساسة بالقيام بالوظائف وفتح معسكرات لإعداد الشباب وتدريبهم، وإيجاد روح الكفاح، تجده يرفع عقيرته بالمسائل التي لا تعود على المسلمين في تلك الظروف العصيبة بشيء سوى تعميق الخلاف وتعكير الصفو، وتشديد النزاعات المذهبية والطائفية .

ورؤوس المسائل التي طرحها ابن تيمية وأصرَ عليها وخالف الرأي العام للمسلمين - ولأجل ذلك اعتقل ونفي إلى مصر - هي الأمور التالية:

١- يجب توصيفه سبحانه بالصفات الخيرية بنفس المعاني اللغوية من دون تصرف، كالاستواء على العرش، وأن له يداً ووجهاً، وأن له نزولاً وصعوداً.

٢- يحرم شد الرحال إلى زيارة النبي وتعظيمه بحجة أنها تؤدي إلى الشرك.

٣- يحرم التوسل بالأولياء والصالحين.

٤- تحرم الاستغاثة بالأولياء ودعوتهم.

٥- يحرم بناء القبور وتعميرها.

٦- لا يصح أكثر الفضائل المنقولة في الصحاح والسنن في حق علي وآله .

إلى غير ذلك من المسائل الفرعية في أبواب الطلاق وغيرها كما ستقف عليها عند عرض آرائه. هب أيها القارىء أن لما تبناه من الآراء

مسحة من الحق - وليست آراء ساقطة تضاد القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة المسلمين - هب أنها آراء صحيحة - ولكنها هل كانت مفيدة في تلك الظروف، هل كانت دواءً لداء الأمة الإسلامية؟ أو كانت أموراً غريبة عما يجب القيام به، بل كانت مؤيدة لما يتوخاه العدو من تشتيت الشمل وتمزيق الصفوف!!؟

إن من البداهة بمكان أن هذه المسائل لم تكن ممّا يخشاه العدو، فإن هذا النوع من المسائل الجدلية لا تفضح نوايا العدو ولا تعرقل خطته، لأنها لا تعيد إلى المسلمين روح الوثبة والمقاومة والاستبسال، بل من شأنها أن تستنفد طاقاتهم من دون جدوى، و تفني قواهم من دون أثر يتصل بالواقع .

فلو كان ابن تيمية «شيخ الإسلام» حقاً لكان عليه أن يدع ما يلهي المسلمين عن مصيرهم، بل ما يعمق محنتهم، ويتصدى لمواجهة العدو بإعادة الروح الجهادية إلى نفوسهم، وبث المعنويات في قلوبهم، وتوجيه همم المسلمين، إلى إعادة بناء كيانهم العسكري والصناعي والعلوم الناجعة، حتى يستعيدوا بذلك مجدهم المندثر الذي تألق في القرن الرابع الهجري .

ويا للأسف إنه بدل القيام بوظائف شيخوخة الإسلام الحقيقية انصرف إلى مسائل اجتهادية ليست ناجعة في ذلك العصر ولا بعده .

ابن تيمية لم يكن سلفياً

إنّ الموالين لابن تيمية والمقتفين أثره يصفونه بالسلفية، ويقولون فيه بأنّه محيي مذهب السلف. هب أنّ السلفية مسلك ومذهب، ولكن السلفي عبارة عمّن لا يتخطى عمّا سلكه السلف الصالح طيلة قرون سبعة، ولكن آراءه وأفكاره على طرف النقيض من آراء السلف. إنّ المسلمين طيلة قرون كانوا يحترمون قبر النبي ويزورونه، ولم تقع الزيارة في تلك العصور ولو مرة واحدة ذريعة إلى الشرك، بل كان الداعي إلى زيارته في كل فترة من الفترات، كونه نبيّ الإسلام نبيّ التوحيد، ومكافح الشرك ومنابذه، فيجب احترامه وتكريمه وحفظ آثاره وقبره، وأثار أصحابه وزوجاته وأبنائه انطلاقاً من هذا المبدأ (أي كونه نبيّ التوحيد، مشيد بنائه الشامخ) ولكننا نرى أنّ ابن تيمية يخالف هذه السيرة الموروثة من الصحابة إلى زمانه، ويحرّم شدّ الرحال إلى زيارته تمسكاً بحديث غير دال على ما يرتثيه، كما سيوافيك.

إنّ المسلمين طيلة القرون الغابرة إلى ميلاد ابن تيمية كانوا يتبرّكون بالنبي وآثاره، ولا يرون ذلك شركاً ولا ذريعة إليه، حتّى أنّ الشيخين أوصيا بمواراتهما في جوار النبي، لما استقرّ في قرارة ضميرهما بأنّ للمكان شرافة ومكانة بالغين، وأنّ المواراة في ساحة النبي لها كرامة، ولم ينس أحد من الصحابة ببنت شفة بأنّ ذلك ذريعة إلى الشرك، إلى أن ألقى الشر بجرانه إلى

الأرض بميلاد ابن تيمية وأرائه الساقطة، فجعل ينكر هذا العمل ويخالف السلف.

إن السلف الصالح في حياة النبي وبعده كانوا يستغيثون بالنبي لما له من كرامة عند الله، لما أمرهم الله سبحانه بالمجيء إليه وطلب الاستغفار منه، ولم يخطر ببال أحد أن الاستغاثة بالمخلوق شرك أو ذريعة إلى الشرك، وكان هذا ديدن السلف في جميع القرون، فجاء ابن تيمية ينكر الاستغاثة والتوسل، ثم يصف نفسه سلفياً، فما معنى هذه السلفية؟ (ما هكذا تورد يا سعد الإبل).

تقييم إنجازات ابن تيمية

إن قيمة كل امرئ بما يقدمه إلى الأمة من خدمات وخيرات، فإما أن يشيد بناء ثقافتهم ويضمن تقدمهم في ميادين العلم والعمل، ويرفع من مستوى أخلاقهم وسلوكهم الإنساني والإسلامي، وإما أن يرفع مستوى معيشتهم ويسعى في ترفيهم بمشاريع البر والإحسان، من بناء المدارس ومراكز التعليم والمستشفيات والمستوصفات، ودعم الكفاح بالتدريب العسكري وغيره مما يرجع إلى دعم البنية المادية للمجتمع.

هلم معي نطرح إنجازات ابن تيمية على طاولة النقاش والمحاسبة، فهل قام بأحد الأمرين؟

أما من جانب المعنى فلم نر أنه قدم إلى المجتمع، دراسة نافعة في

الحقوق والسياسة والاقتصاد أو الاجتماع، أو ألف جامعاً حديثاً يكون هو المرجع للمسلمين كما قام بعض معاصريه بهذا الأمر، فلم يبق منه إلا التركيز على المسائل التي قدمنا رؤوسها والتي كُفِّرَ بها مخالفيه، وبالتالي كُفِّرَ جمهور المسلمين الذين عاشوا طيلة سبعة قرون .

هب أنه قدم إلى المسلمين دراسات توحيدية، ولكن ما كانت نتيجة تلك الدراسات، فغاية ما أنجز وأتى - بعد ما تصوب وتصعد - أنه يجب توصيفه سبحانه بنفس الصفات الخيرية بمعناها اللغوي، فصار معناه هو التجسيم والتشبيه وإثبات الجهة والفوقية لله سبحانه، وقد فهم الكل هذا المعنى من دراساته. هب أنه لم يقصد من إثبات هذه الصفات ما نسب إليه من الجسمية، ولكنه صب ما رآه في قوالب أدْعَنَ الكُلُّ - الداني منهم والنائي - بأنه مُجَسِّمٌ مشَبِّهٌ مُثَبِّتٌ لله سبحانه الجهة والفوقية، مع أنه سبحانه ليس بجسم ولا جسماني، وأنه ليس كمثلته شيء .

ما معنى هذه الدراسات العميقة التي لم تورث إلا هذه الأفكار الباطلة، وسوف يوافقك أن الرجل مجسّم وإن كان لا يتفوه به، ولكن جُمَلُهُ وألفاظه وعباراته وما أصرَّ عليه لا تنتج إلا ذلك.

وقس عليه سائر إنجازاته من جانب المعنى، فقد منع شدَّ الرحال إلى زيارة النبي الأكرم، مع أن قبور الأنبياء لم تزل تزار من عصر النبي وقبله وبعده، وليست الغاية من زيارتهم إلا التوقير والتكريم و عقد الميثاق مع ما جاءوا به من أسس التوحيد، فكيف يكون ذلك ذريعة إلى الشرك؟

وحصيلة البحث هي أننا لم نجد في جميع إنجازاته شيئاً بديعاً يرفع به رأسه ويفتخر به على من سواه، سوى ما في كلامه من الغلظة والأذى .

اللسان والقلم مرآتان للضمير

إنَّ اللسان والقلم مرآتان لضمير صاحبهما يعربان عن نفسيته الخبيثة أو الطيبة، الشريرة أو الخيرة، فاللسان والقلم البذيء يكشف عن نفسيته المستهتره المريضة، كما أنَّ اللسان ومثله القلم النزيهين يكشفان عن ملكة فاضلة. ومن رجع إلى كتب ابن تيمية يعرف أنه ما كان يملك لسانه وقلمه عن التقوّل على المسلمين والتهجّم عليهم فجاءت كتاباته مليئة بالقول البذيء وإساءة الأدب، الذي هو على طرف النقيض من الإسلام والعلم.

ابن تيمية في مرآة الرأي العام

ولقد كانت ثورة الرأي العام الإسلامي عليه من جانب الفقهاء والحكام والمتكلمين والمحدثين أدلّ دليل على انحرافه عن الخط المستقيم والطريق المهيع، فليس من القضاء الصحيح تخطئة جمهور المسلمين وتصويب رجل واحد، فمنذ نشر الرجل رأيه حول الصفات الخيرية عام ٦٩٨ هـ في «الرسالة الحموية» جاءت الاستنكارات تترى من جميع الطوائف، وكلما تعرض الرجل للعقائد الإسلامية التي أطبقت عليها الأمة في جميع القرون، تعالى الاستنكار، حتّى أُلقي عليه القبض ونفي من

بلد إلى بلد، وتعرض لاعتقال بعد اعتقال، إلى أن منع من القرطاس والكتابة، حتى مات في السجن ممنوعاً من كل شيء .

ولو كان الرجل شيخ الإسلام ورائده وناصحه، لما ضاق عليه المجال من جانب أبناء جلدته من قضاة وحكام: شوافع وأحناف .

نعم الأسف كله على الناشئة الجدد الذين وقعوا فرائس في أحابيل الدعاية الوهابية التي يقودها النظام السعودي ويغذيها بثروته الواسعة، ويدعمها الاستعمار الغاشم لغاية إضعاف المسلمين بالخلافات وإشغالهم بقضايا ومسائل لا تمت إلى الحياة بصلة.

ولأجل ذلك نضع حياة الرجل وشخصيته أولاً، وآراء معاصريه ومن جاء بعده في القرون اللاحقة في حقه في ميزان النقد والقضاء ثانياً، ثم نبحث عن آرائه و أفكاره ونعرضها على الكتاب والسنة ثالثاً، ثم نخرج إلى حياة تلميذه ومحبي دعوته محمد بن عبد الوهاب وتاريخ العائلة السعودية الحاكمة ضمن فصول سبعة حتى يتبين الحق ويظهر، ويزهق الباطل .

الفصل الأول

ابن تيمية: حياته والرأي العام فيه

هو أحمد بن عبد الحلیم الحراني الدمشقي، ولد في العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ، بعد خمس سنوات من سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد، وانغمار المسلمين في مشاكل كثيرة.

كان مولده بمدينة حران مهد الصابئة والصابئين منذ أقدم العصور، وقد نشأ النشأة الأولى إلى أن بلغ السابعة من عمره، فلما أغار عليها التتار، فرّ سكانها منها، وكان ممن هاجر أسرة ابن تيمية، حيث هاجرت إلى دمشق، وقد اتجه إلى العلم منذ صغره، وكان يدرس الفقه الحنبلي ويتبع سير ذلك المذهب، وكان أبوه من شيوخ هذا المذهب، ففي المدارس الحنبلية تخرج ابن تيمية، ودرس في كنف أبيه وتوجيهه ولم ير منه بادرة إلا بعد ما كتب رسالة في جواب سؤال أهل حماة، سألوه بقولهم: «ما قول السادة العلماء أئمة الدين - أحسن الله إليهم أجمعين - في آيات الصفات، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ إلى غير ذلك من الآيات وأحاديث الصفات، وأيضاً كقوله (صلى الله عليه وآله): ﴿إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ اصْبِعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ﴾ وقوله: «يضع الجبار

قدمه في النار» إلى غير ذلك، وما قالت العلماء فيه، وليسطوا القول في ذلك مأجورين إن شاء الله؟»^(١).

فأجاب بما هو نص في التجسيم، وإن ذيل كلامه بشيء يريد به الستر على عاره، ولكنه لا يسمن ولا يغني من جوع، وسيوافيك نصه عند تبين عقائده، فأوجد الجواب ضجة كبرى، وعرف بالشذوذ والانحراف، وكان ذلك عام ٦٩٨ هـ.

يقول تلميذه «ابن كثير» في حوادث تلك السنة: «قام عليه جماعة من الفقهاء وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي «جلال الدين الحنفي» فلم يحضر، فنودي في البلد في العقيدة التي كان قد سأله عنها أهل حماة، المسماة بالحموية...»^(٢).

المحنة الثانية:

وقد كانت له محنة أخرى في عام ٧٠٥ هـ يذكرها ابن كثير في حوادث تلك السنة ويقول: «وفي يوم الاثنين ثامن رجب حضر القضاء وفيهم «الشيخ تقي الدين ابن تيمية» عند نائب السلطنة بالقصر، وقرأت عقيدة الشيخ تقي الدين (الواسطية)، وحصل بحث في أماكن منها، وأُخترت مواضع إلى المجلس الثاني، فاجتمعوا يوم الجمعة بعد الصلاة ثاني عشر الشهر المذكور، وحضر الشيخ صفي الدين الهندي وتكلم مع الشيخ تقي

١. الرسالة الحموية: ٤٢٥ - طبعت في ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ج ١.

٢. البداية والنهاية: ١٤/٤ و ٢٦.

الدين كلاماً كثيراً، ثم اصطلحوا على أن يكون الشيخ كمال الدين الزملكاني هو الذي يحاqqه من غير مسامحة، فتناظرا في ذلك وشكر الناس من فضائل الشيخ كمال الدين الزملكاني، وجودة ذهنه، وحسن بحثه، حيث قاوم «ابن تيمية» في البحث وتكلم معه...

ثم عقد المجلس في يوم سابع شعبان بالقصر، واجتمع الجماعة على الرضى، إلى أن صدر القرار بنفي الشيخ إلى مصر إن لم يعزف عن بواده وعقائده، فأدى به الأمر إلى انتدابه في مجلس بالقلعة اجتمع فيه القضاة، وانتدب للبحث معه شمس بن عدنان، وأدعى عليه عند «ابن مخلوف» المالكي أنه يقول: إن الله فوق العرش حقيقة، وإن الله يتكلم بحرف وصوت، فحكم عليه القاضي بالحبس في برج أياماً، ثم نقل منه إلى الحبس المعروف بالجب، وكتب كتاب نودي به في البلاد الشامية والمصرية، وفيه الحط على الشيخ تقي الدين، فانضم إلى صفه جماعة كثيرة من الفقهاء والفقراء، وجرت فتن كثيرة منتشرة، وحصل للحنابلة بالديار المصرية إهانة عظيمة.^(١)

بقي الشيخ في السجن بسبب عقيدته التي لا تجتمع مع عقيدة جمهور المسلمين حتى مطلع سنة (٧٠٦هـ).

يقول ابن كثير: وفي ليلة عيد الفطر من تلك السنة، أحضر الأمير سيف الدين سلار نائب مصر، القضاة الثلاثة وجماعة من الفقهاء، فالقضاة: الشافعي والمالكي والحنفي، والفقهاء: الباجي، والجزري، والنمواري،

وتكلموا في إخراج الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الحبس، فاشتراط بعض الحاضرين عليه شروطاً في ذلك منها أنه يلتزم بالرجوع عن بعض عقائده، فأرسلوا إليه ليحضر ليتكلموا معه في ذلك، فامتنع عن الحضور .

استهلت سنة (٧٠٧هـ) والشيخ معتقل في قلعة الجبل بمصر، إلى أن أُطلق سراحه يوم الجمعة ٢٣ من ربيع الأول، وخير بين الإقامة بمصر أو الرواح إلى موطنه الشام، وقد اختار هو الإقامة بمصر، ولكنه لم يبرح في غلوائه وأفكاره إلى أن واجهته محنة ثالثة، وقد ذكرها ابن كثير أيضاً في تاريخه.

المحنة الثالثة

وفي شوال عام ٧٠٧هـ، شكى منه أيضاً، فردَّ الأمر إلى القاضي الشافعي، فعقد له مجلس، وأدعى له ابن عطاء بأشياء ورأى القاضي بدر الدين بن جماعة أن في آرائه قلة أدب بساحة النبي ﷺ فحضرت رسالة إلى القاضي إلى أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة، فتمَّ الأمر بحسبه في سجن القضاة، ودخل السجن، وأُفرج عنه في مستهل سنة ٧٠٨هـ وبقي في القاهرة إلى أن توجه منفياً إلى الإسكندرية في ليلة سلخ صفر في عام ٧٠٩هـ، وأقام هناك ثمانية أشهر إلى أن تغيرت الظروف، فعاد الشيخ منها إلى القاهرة يوم عيد الفطر سنة ٧٠٩هـ فأقام بها إلى سنة ٧١٢هـ ثم رجع إلى الشام.^(١)

وشغل الشيخ منصة التدريس والإفتاء إلى سنة ٧١٨هـ. وقد صدر منه

فتاوى شاذة، وكان مصرّاً عليها، فعقد له يوم الخميس ثاني رجب من شهور سنة ٧٢٠ هـ مجلس بدار السعادة، فحضر نائب السلطنة، وحضر القضاة والمعنيون من المذاهب، وحضر الشيخ وعاتبوه، ثم حبس في القلعة خمسة أشهر، إلى أن ورد مرسوم من السلطان بإخراجه يوم الإثنين يوم عاشوراء، سنة ٧٢١ هـ.

وظل الشيخ بعد خروجه من الحبس مستمراً في التدريس إلى عام ٧٢٦ هـ.

يقول جمال الدين يوسف بن تغري الأتابكي: «ورد مرسوم شريف من السلطان في شعبان سنة ٧٢٦ بأن يجعل في قلعة دمشق، فأقام فيها مدة مشغولاً بالتصنيف، ثم بعد مدة منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما كان عنده من الكتب، ولم يتركوا عنده دواة ولا قلماً ولا ورقاً»^(١).

وقال الياضي: «مات بقلعة دمشق الشيخ الحافظ الكبير، تقي الدين أحمد بن تيمية، ومنع قبل وفاته بخمسة أشهر عن الدواة والورق»^(٢).

هذا، وقد لفظ الرجل أنفاسه، ومات في قلعة دمشق عام ٧٢٨ هـ، وبذلك طويت صحيفة حياته، وبقيت آثاره، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

إن ما تلوناه عليك من حياته يعرب:

أولاً: أنه لم يكن رجلاً موضوعياً يهتم ما كان يعاني منه المسلمون في

١. المنهل الصافي والمستوفي بعد الرافي: ٣٤٠.

٢. مرآة الجنان: ٤/ ٢٧٧.

تلك الظروف العصيبة، التي كانت الدعوة إلى الوحدة فيها أحوج ما يحتاج إليه الناس، فكان يبتّ بذور الخلاف فترة بعد فترة، ويشغل الحكومات والقضاة عن القيام بالواجب والانشغال بنقل الشيخ من مقام إلى مقام .

وثانياً: أنّ جماهير الفقهاء والقضاة كانوا يخالفونه فيما يبدية من الآراء الشاذة، في مجال الأصول والفروع، وإنّ آراءه كانت مخالفة لما هو المشهور المجمع عليه بين العلماء .

وثالثاً: أنّ الرجل كان معروفاً بالقول بالتجسيم والتشبيه والجهة، وكان اعتقاله لأجل التفوّه بها، فكّل من أراد تنزيهه عن هذه التهمة، خالف الرأي العام في حقّه وما عرّف منه أيام حياته .

نعم إنّ هناك أناساً ترجموا للرجل ترجمة وافية، فأتوا عليه الشناءة البالغ، وذكروا ذكاهه وتوقّد ذهنه، وإحاطته بالكتاب والسنة، كما ذكروا آثاره العلمية من كتب ورسائل، ولكن يؤخذ عليهم بأنّه لمّا ذكروا على جانب واحد من حياته، ولم يسيروا إلى الجانب السلبي منها؟ فإنه لا يمكن لأحد تخطئة أولئك العلماء الذين ناظروه، وباحثوه، وأصدروا آراءهم فيه، وهم كثيرون، ولأجل ذلك نشير إلى المصادر التي أخذتها العصبية العمياء فجاءوا كأنهم يعرفون رجلاً أطبق علماء عصره على نزاهته وصفاء فكره، فمن أراد أن يقف عليها فليرجع إلى المصادر التالية:

١- تذكرة الحفاظ للذهبي ١٤٩٦/٤، بالرقم ١١٧٥. وإن استدرك زلته

هذه بيعت رسالة مستقلة إلى ابن تيمية يستنكر فيها عليه أعماله وأقواله كما ستوافيك .

٢- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ٦ / ٨٠، لأبي الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي (المتوفى ١٠٩٨).

٣- طبقات الحفاظ: ٥٢، لجلال الدين السيوطي، (المتوفى ٩١١ هـ).

٤- الذيل على طبقات الحنابلة: ٢ / ٣٨٧، برقم ٤٩٥، لابن رجب زين الدين، أبي الفرج، عبدالرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، (٧٣٦ - ٧٩٥ هـ).

٥- الوافي بالوفيات: ٧ / ١٥ - ٣٣ برقم ٢٩٦٤، لصالح الدين، خليل بن أبيك الصفدي.

٦- طبقات المفسرين: ٤٥ - ٤٩ برقم ٤٢، للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي (المتوفى ٩٤٥ هـ).

٧- تاريخ الشيخ زين الدين عمر، الوردی، المعروف بتاريخ ابن الوردی: ٢ / ٤٠٦.

٨- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: ١ / ٦٣ - ٧٢ برقم ٤٠، تأليف محمد بن علي الشوكاني (المتوفى ١٢٥٠ هـ).

٩- البداية والنهاية: ج ١٤، في حوادث سنة (٦٩٨ هـ)، للحافظ عماد الدين، أبي الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير، (المتوفى ٧٤٤ هـ)، وغيرها. ولكنه أشار في مواضع أخر إلى بعض زلاته ومخالفته للرأي العام في ذلك اليوم كما عرفت.

نعم هؤلاء هم الذين ركّزوا على الجانب الإيجابي وتناسوا الجانب السلبي، مع أن التقييم لا يصحّ إلا بملاحظة كلا الجانبين، ولكن هناك جماعة موضوعيين واقعيين، لم تملأ عيونهم كتب الرجل ورسائله، فجاءوا بتقييم آرائه فيما صار سبباً لاشتهاره، واليك نصوص هؤلاء حتّى لا نخرج في التقييم عن حد العدل .

آراء معاصريه ومقاربي عصره في حقه

قد تعرّفت على حياة الشيخ وأنه لم يزل ينتقل من معتقل إلى آخر، ومن مصر إلى مصر، وكان الرأي المتفق عليه بين القضاة والمعنيين من الحكام هو أنه رجل يصدر عن عقائد وآراء في مجال العقائد والأحكام تخالف الرأي العام بين أهل السنة، ولأجل ذلك كانوا يصدرون الحكم عليه بعد الحكم، ويعاقبونه مرة بعد أخرى؛ وقد علمت أنه منع من الكتابة حتّى في نفس السجن، فما حال من كان على طرف الخلاف من قضاة المذاهب وحكامهم وعلمائهم؟

وبذلك تعرف أنّ الدعايات الأخيرة هي التي تريد أن تعرفه بشيخ الإسلام و محيي السنة، فما معنى هذه الشيوخوخة لأهل السنّة مع أنهم أجمعوا على ضلاله وشدوذه؟!

ولأجل أن يقف القارئ على آراء معاصريه في حقه ومقاربي زمانه، نقنطف من غضون التاريخ جملأ تكشف عن إطباق العلماء، على الرد عليه

ونقد آرائه، وستوافيك في أثناء البحث رسالة الذهبى إليه بنصها.

واليك قائمة الشخصيات الذين ردوا عليه في عصره أو بعده بقليل:

١- الشيخ صفى الدين الهندى الأرموى «المتوفى ٧١٥ هـ»

عرفه السبكي بقوله: «متكلم على مذهب الأشعري، كان من أعلم الناس بمذهب الشيخ أبى الحسن وأدراهم بأسراره، متضلماً بالأصلين، ومن تصانيفه في علم الكلام «الزبدة»، وفي أصول الفقه: «النهاية»، وكل مصنفاته حسنة جامعة، لاسيما «النهاية».

مولده ببلاد الهند سنة ٦٤٤ هـ، ثم قدم دمشق سنة ٦٨٥ هـ واستوطنها وتوفى بها سنة ٧١٥ هـ. ولما وقع من ابن تيمية في «المسألة الحموية» ما وقع، وعقد له المجلس بدار السعادة^(١) بين يدي الأمير «تنكز» وجمعت العلماء، أشاروا بأن الشيخ الهندى يحضر، فحضر، وكان الهندى طويل النفس في التقرير، إذا شرع في وجه يقرره لا يدع شبهة ولا اعتراضاً إلا أشار إليه في التقرير، بحيث لا يتم التقرير إلا وقد بعد على المعترض مقاومته، فلما شرع يقرر، أخذ ابن تيمية يعجل عليه على عادته، ويخرج من شيء إلى شيء.

فقال له الهندى: ما أراك يا بن تيمية إلا كالعصفور حيث أردت أن أقبضه من مكان، فر إلى مكان آخر.

١. قال المعلق: كان ذلك سنة (٧٠٥ هـ)، راجع البداية والنهاية: ١٤ / ٣٦ - ٣٨.

وكان الأمير تنكر يعظم الهندي ويعتقده، وكان الهندي شيخ الحاضرين كلهم، فكلمهم صدر عن رأيه، وحس ابن تيمية بسبب تلك المسألة، وهي التي تضمنت قوله بالجهة، ونودي عليه في البلاد وعلى أصحابه، وعزلوا من وظائفهم.^(١)

٢- الشيخ شعاب الدين ابن جهل الكلابي الحلبي (المتوفى ٧٣٣ هـ)

قال «السبكي»: «درس وأفتى وشغل بالعلم مدة بالقدس ودمشق. مات سنة ٧٣٣ هـ ووقفت له على تصنيف صنفه في نفي الجهة رداً على ابن تيمية» وبما أن الرسالة مفصلة نكتفي في المقام بذكر مقدمتها. يقول: «أما بعد فالذي دعا إلى تصدير هذه النبذة. ما وقع في هذه المدة، مما علّقه بعضهم في إثبات الجهة واغترّبها من لم يرسخ له في التعليم قدم، ولم يتعلّق بأذيال المعرفة، ولا كبّحه لجام الفهم ولا استبصر بنور الحكمة فأحببت أن أذكر عقيدة أهل السنّة وأهل الجماعة ثم أبين فساد ما ذكره، مع أنه لم يدع دعوى إلا نقضها، ولا أظّد قاعدة إلا هدمها».^(٢)

٣- قاضي القضاة كمال الدين الزملكاني (٦٦٧ - ٧٣٣ هـ)

عرّفه السبكي بقوله: «الإمام العلامة المناظر، ولد في شوال سنة ٦٦٧ هـ ودرس بالشامية البرانية - إلى أن قال - ثم ولي قضاء حلب، وصنّف

١. طبقات الشافعية الكبرى: ١٦٢/٩ - ١٦٤.

٢. طبقات الشافعية الكبرى: ٣٤/٩ - ٣٥.

الرد على ابن تيمية في مسألتي الطلاق والزياره.^(١)

٤- العاقبة شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (المتوفى

٧٤٨ هـ)

ترجمه في «تذكرة الحفاظ» غير أنه لم يذكر ماردة عليه بشيء، وهذا عجيب من الحفاظ الذهبي، ولكنه نصحه في رسالة بعثها إليه ويذكر ما فيه ويقول:

«الحمد لله على ذلتي، يا رب ارحمني، وأقمني عثرتي، واحفظ علي إيماني، واحزنه على قلة حزني، وأسفاه على السنة وذهاب أهلها، واشوقه إلى إخوان مؤمنين يعاونوني على البكاء، واحزنه على فقد أناس كانوا مصابيح العلم وأهل التقوى وكنوز الخيرات، آه على وجود درهم حلال وأخ مؤنس، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وتباً لمن شغله عيوب الناس عن عيبه.

إلى كم ترى القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع في عينك؟ إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعبارتك وتذم العلماء وتب عورات الناس؟ مع علمك بنهي الرسول ﷺ [وآله] : «لا تذكروا موتاكم إلا بخير، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا» بل اعرف أنك تقول لي لتنصر نفسك: إنما الواقعة في هؤلاء الذين ما شتموا رائحة الإسلام، ولا عرفوا ما جاء به محمد ﷺ

[وآله] وهو جهاد، بلى واللّه عرفوا أخيراً كثيراً مما إذا عمل به العبد فقد فاز، وجعلوا شيئاً كثيراً مما لا يعينهم، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، يا رجل! باللّه عليك كَفْ عَنَّا، فَإِنَّكَ مُحْجَّاجٌ عَلِيمُ اللِّسَانِ لَا تَقْرُ وَلَا تَنَامُ، يَا كُمْ وَالغُلُوطَاتُ فِي الدِّينِ، كَرِهَ نَبِيُّكَ ﷺ [وآله] المسائل وعابها، ونهى عن كثرة السؤال وقال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مَنْافِقٍ عَلِيمٍ اللِّسَانِ» وكثرة الكلام بغير زلل، تقسي القلب إذا كان في الحلال والحرام، فكيف إذا كان في عبارات اليونانية والفلاسفة وتلك الكفرات التي تعمي القلوب، واللّه قد صرنا ضحكة في الوجود، فإلى كم تنبش دقائق الكفرات الفلسفية؟.

نرد عليها بعقولنا، يا رجل! قد بلعت «سموم» الفلاسفة وتصنيفاتهم مرات، وكثرة استعمال السموم يدمن عليه الجسم، وتكمن واللّه في البدن، واشوقاه إلى مجلس فيه تلاوة بتدبر وخشية بتذكّر وصمت بتفكّر. وهاهنا لمجلس يذكر فيه الأبرار، فعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، بل عند ذكر الصالحين يذكرون بالازدراء واللعنة، كان سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخيتهما، باللّه خلّونا من ذكر بدعة الخميس وأكل الحبوب، وجدّوا في ذكر بدع كُنّا نعدّها من أساس الضلال، قد صارت هي محض السنة وأساس التوحيد، ومن لم يعرفها فهو كافر أو حمار، ومن لم يكفر فهو أكفر من فرعون، وتعذّ النصارى مثلنا، واللّه في القلوب شكوك، إن سلم لك إيمانك بالشهادتين فأنت سعيد، يا خيبة من أتبعك فإنه معرض للزندقة والانحلال، لاسيما إذا كان قليل العلم والدين باطولياً شهوانياً، لكنّه ينفعك

ويجاهد عنك بيده ولسانه، وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه .

فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل؟ أو عامي كذاب بليد
الذهن، أو غريب واجم قوي المكر؟ أو ناشف صالح عديم الفهم؟ فإن لم
تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل، يا مسلم اقدم حمار شهوتك لمدح نفسك،
إلى كم تصادقها وتعادي الأخيار؟ إلى كم تصادقها وتزدرى الأبرار؟ إلى كم
تعظمها وتصغر العباد؟ إلى متى تخاللها وتمقت الزهاد؟ إلى متى تمدح
كلامك بكيفية لا تمدح - والله - بها أحاديث الصحيحين؟ يا ليت أحاديث
الصحيحين تسلم منك .

بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار، أو بالتأويل والإنكار،
أما أن لك أن ترعوي؟ أما حان لك أن تتوب وتنب؟ أما أنت في
عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟ بلى - والله - ما أذكر أنك تذكر الموت،
بل تزدرى بمن يذكر الموت. فما أظنك تقبل علي قولي ولا تصفي
إلى وعظي، بل لك همة كبيرة في نقض هذه الورقة بمجلدات، وتقطع
لي أذنان الكلام، ولا تزال تنتصر حتى أقول البتة سكت، فإذا كان هذا
حالك عندي وأنا الشفوق المحب الواد، فكيف حالك عند أعدائك؟
وأعدائك - والله - فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء، كما أن أولياءك فيهم فجرة
وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر، قد رضيت منك بأن تسبني علانية، وتتفع
بمقاتلي سرأ، فرحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي، فإني كثير العيوب، غزير
الذنوب، الويل لي إن أنا لا أتوب، وافضحني من علام الغيوب! ودواني عفو
الله ومسامحته وتوفيقه وهدايته، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على

سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين»^(١).

٥- الشيخ الإمام صدر الدين العرجل (المتوفى حوالي ٧٥٠هـ)

عزفه السبكي بقوله: «كان إماماً كبيراً، بارعاً في المذهب والأصلين، يضرب المثل باسمه، فارساً في البحث، نظاراً مفرط الذكاء، عجيب الحافظة - إلى أن قال -: وله مع ابن تيمية، المناظرات الحسنة، وبها حصل عليه التعصب من أتباع ابن تيمية، قيل فيه ما هو بعيد عنه، وكثر القائل فارتاب العاقل، وكان الوالد يعظم الشيخ صدر الدين ويحبّه، ويشني عليه بالعلم وحسن العقيدة ومعرفة الكلام على مذهب الأشعري»^(٢).

٦- الحافظ علي بن عبد الكافي السبكي (المتوفى ٧٥٦هـ)

ترجمه ولده في طبقات الشافعية، وهو أحد من ردّ علي ابن تيمية، وألف فيه كتاباً أسماه «شفاء السقام في زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام» وربما سمي «شنّ الغارة على من أنكر السفر للزيارة»^(٣) وهو

١. تكملة السيف الصقيل، للمحقق المعاصر الكوثري: ١٩٠ - ١٩٢ كنه من خط ابن قاضي شهبة، منقولاً من خط قاضي القضاة برهان الدين ابن جماعة وكتبه، هو من خط الشيخ الحافظ أبي سعيد العلاتي المنسوخ من خط الذهبي، وجاء شطر منه في «فرقان القرآن» تأليف الشيخ سلامة القضاة العزامي الشافعي في مقدمة كتاب «الأسماء والصفات» لليهقي: ١٢٩. وقد طبعت صورة خط ابن قاضي شهبة في تكملة السيف الصقيل: ١٨٧ - ١٨٩.

٢. طبقات الشافعية الكبرى: ٢٥٣/٩.

٣. طبقات الشافعية: ٣٠٨/١٠.

يعرّف والده ويقول: «إمام ناضح عن رسول الله بنضاله، وجاهد بجداله، حمى جناب النبوة الشريف، بقيامه في نصره، وتسديد سهامه للذّب عنه من كنانة مصره... إلى نلّغ قال: قام حنين خلط على ابن تيمية الأمر، وسول له قرينه الخوض في ضحضاح ذلك الجمر، حين سد باب الوسيلة وأنكر شدّ الرحال لمجرّد الزيارة، وما برح يدلج ويسير حتى نصر صاحب ذلك الحمى الذي لا ينتهك، وقد كادت تذود عنه قسراً صدور الركائب. وتجر قهراً أئنة القلوب بتلك الشبهة التي كادت شرارتها تعلق بحداد الأوهام... كيف يزار المسجد ويخفى صاحبه، أو يخفيه الإبهام؟ ولولاه - عليه السلام - لما عرف تفضيل ذلك المسجد، ولولاه لما قدّس الوالي، ولا أسس على التقوى مسجد في ذلك النادي شكر الله له، قام في لزوم ما انعقد عليه الإجماع»^(١).

وكان لهذا الكتاب دوي في ذلك العصر، حيث جابه السبكي ضوضاء الباطل بكتابه الهادي، وصار مدار الدراسة والقراءة، وهذا هو الشيخ صلاح الدين الصفدي قرأ الكتاب على المؤلف، يقول السبكي (ولد المؤلف): قرأ علي الشيخ الإمام (المراد تقي الدين السبكي) - رحمه الله - جميع كتاب «شفاء السقام في زيارة خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام»^(٢).

وقال أيضاً في خطبة كتابه «الدرة المضيئة في الرد على ابن تيمية» ما هذا لفظه: «أما بعد فإنّه لما أحدث ابن تيمية ما أحدث في أصول العقائد،

١. طبقات الشافعية: ١٠/١٤٩ - ١٥٠ وللکلام صلة.

٢. المصدر نفسه: ٥.

ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاهد، بعد أن كان مستتراً بشعبية الكتاب والسنة، مظهراً أنه داع إلى الحق، هادٍ إلى الجنة، فخرج عن الاتباع إلى الابتداع، وشذ عن جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع، وقال بما يقتضي الجسمية والتركيب في الذات المقدسة، وإن الافتقار إلى الجزء ليس بمحال، وقال بحلول الحوادث بذات الله تعالى، وإن القرآن محدث تكلم الله به بعد أن لم يكن، وإنه يتكلم ويسكت، ويحدث في ذاته الإرادات بحسب المخلوقات، وتعدى في ذلك إلى استلزام قدم العالم، والتزم بالقول بأنه لا أول للمخلوقات فقال بحوادث لا أول لها، فأثبت الصفة القديمة حادثة، والمخلوق الحادث قديماً، ولم يجمع أحد هذين القولين في ملة من الملل، ولا نحلة من النحل، فلم يدخل في فرقة من الفرق الثلاث والسبعين التي افتقرت عليها الأمة، ولا وقفت به مع أمة من الأمم همة. وكل ذلك وإن كان كفراً شنيعاً، لكنّه تقل جملته بالنسبة إلى ما أحدث في الفروع.

ثم إن السبكي لما وقف على كتاب «منهاج السنة» في الرد على «منهاج الكرامة» للعلامة الحلبي، أنشأ قصيدة، ومما جاء فيها ناقداً لابن تيمية قوله:

ولا بن تيمية رد عليه وفي	بمقصد الرد واستيفاء أضربه
لكنّه خلط الحق المبين بما	يشوبه كدراً في صفو مشربه
يرى حوادث لا مبداً لأولها	في الله سبحانه عما يظن به
لو كان حياً يرى قولي ويفهمه	رددت ما قال أقفو اثر سبببه

كما رددت عليه بالطلاق وفي ترك الزيارة ردأ غير مشتبه^(١)

إن الشيخ الذهبي من الحنابلة الذين يتعصبون للمذهب الحنبلي، ومع ذلك نرى أنه يصف تقي الدين السبكي الذي ولي مشيخة دار الحديث وخطابة الجامع الأموي بدمشق بقوله:

لِيَهْنُ الْمَنْبَرُ الْأُمَوِيُّ لِمَا عَلاهُ الْحَاكِمُ الْبَحْرُ التَّقِيُّ

شيوخ العصر أحفظهم جميعاً وأخطبهم «وأقضاهم علي»

فإذا كان هذا مقام السبكي عند الذهبي، فليكن حجة على الحنابلة ممن يبغض السبكي لتقده نظرية ابن تيمية في الزيارة وغيرها.^(٢)

٧- محمد بن شاكر الكتبي (المتوفى ٧٦٤ هـ)

قال في «فوات الوفيات» في ترجمته: «إنه ألف رسالة في فضل معاوية، وفي أن ابنه يزيد لا يسب».^(٣)

هذه الرسالة تعرب عن نزعة الأموية، ويكفي القول في الوالد والولد: «وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ»^(٤) أنه بدّل الحكومة الإسلامية إلى الملكية الوراثية، ودعا عباد الله إلى ابنه يزيد، المتكبر، الخمير، صاحب الديوك

١. المصدر نفسه: ١٠ / ١٨٦. توفي السبكي تقي الدين والد تاج الدين عام (٧٥٦ هـ)، وتوفي الولد عام (٧٧١ هـ).

٢. فرقان القرآن: ١٢٩.

٣. فوات الوفيات: ١ / ٧٧.

٤. البلد: ٣.

والفهود والقروء، وأخذ البيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسطوة والتوعيد والإخافة والتهديد والرهبه، وهو يطلع على خبثه ورهقه، ويعاين سكره وفجوره، ولما استتب الأمر ليزيد، أوقع بأهل الحره الواقعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش، وظن أنه قد انتقم من أولياء الله فقال مجاهراً بكفره:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

وهذا هو المروق من الدين، وقول من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى كتابه ولا إلى رسوله. ثم من أغلظ ما انتهك وأعظم ما اخترم سفكه دم الحسين بن علي، بن فاطمة بنت رسول الله، مع موقعه من رسول الله ﷺ ومكانه منه، ومنزله من الدين والفضل، وشهادة رسول الله له ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنة؛ اجترأ على الله، وكفراً بدينه، وعداوة لرسوله، ومجاهدة لعترته، واستهانة بحرمة، فكأنما يقتل به وبأهل بيته، قوماً من الكفار.^(١)

٨- أبو محمد المعروف بالياضي (المتوفى ٧٦٨ هـ)

قال في كتابه «مرآة الجنان» في ترجمة ابن تيمية: «مات بقلعة دمشق الشيخ الحافظ الكبير تقي الدين أحمد بن تيمية معتقلاً، ومنع قبل وفاته بخمسة أشهر عن الدواة والورق، وسمع من جماعة وله مسائل غريبة - أنكر

١. مأخوذ من كتاب (المعتضد) الذي تلي على رؤوس الأشهاد في أيامه. نقله الطبري في تاريخه:

عليها وحبس بسببها - مباينة لمذهب أهل السنة، ومن أقبحها نهيه عن زيارة النبي - عليه الصلاة والسلام - وطعنه مشايخ الصوفية، وكذلك ما قد عرف من مذهبه كمسألة الطلاق وغيرها، وكذلك عقيدته في الجهة، وما نقل فيها من الأقوال الباطلة، وغير ذلك ما هو معروف من مذهبه، ولقد رأيت مناماً في وقت مبارك يتعلّق بعضه بعقيدته، ويدل على خطئه فيها، وقد قدمت ذكره في حوادث سنة ٥٥٨ هـ في ترجمة صاحب «البيان» .

وقال: كان ابن تيمية يقول: قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»، استواء حقيقة، وإنه يتكلم بحرف وصوت، وقد نودي في دمشق وغيرها: من كان على عقيدة ابن تيمية حل ماله ودمه! (١) .

وقال في حوادث سنة ٧٢٨ هـ: وله مسائل غريبة أنكر عليها وحبس بسببها مباينة لمذهب (أهل السنة) ثم (عدّ له) قبائح، قال: ومن أقبحها نهيه عن زيارة النبي ﷺ .

٩- أبوبكر الحصني الدمشقي (المتوفى ٨٢٩ هـ)

يقول: «فاعلم أنني نظرت في كلام هذا الخبيث الذي في قلبه مرض الزيف، المتتبع ما تشابه من الكتاب والسنة ابتغاء الفتنة، وتبعه على ذلك خلق من العوام وغيرهم ممن أراد الله عزوجل إهلاكه، فوجدت فيه ما لا أقدر على النطق به، ولا لي أنامل تطاوعني على رسمه وتسطيره، لما فيه من تكذيب رب العالمين، في تنزيهه لنفسه في كتابه المبين، وكذا الأزدراء

بأصفيائه، المتخيين وخلفائهم الراشدين، واتباعهم الموقفين، فعدلت عن ذلك إلى ذكر ما ذكره الأئمة المتقون، وما أنفقوا عليه من تبعيده وإخراجه بيغضه من الدين.^(١)

١- شيخ الإسلام، شهاب الدين، أحمد بن حجر، العسقلاني (المتوفى ٨٥٢ هـ)

ترجمه ابن حجر في كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» وذكر حياته على وجه التفصيل وقال: «وأول ما أنكروا عليه من مقالاته في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ قام عليه جماعة من الفقهاء بسبب الفتوى الحموية، وبحثوا معه، ومنع من الكلام» ثم ذكر معتقلاته وسجونه إلى أن أدركته المنية بما لا حاجة إلى ذكره، ونقتبس مما ذكره الجمل التالية:

أ - يقول: «حكّم المالكي بحبسه فأقيم من المجلس وحبس في برج، ثم بلغ المالكي أنّ الناس يترددون عليه، فقال: يجب التضييق عليه إن لم يقتل، وإلا فقد ثبت كفره، فنقلوه ليلة عيد الفطر إلى الجب، وعاد القاضي الشافعي إلى ولايته، ونودي بدمشق: من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله، خصوصاً الحنابلة، وقرأ المرسوم وقرأها ابن الشهاب محمود في الجامع، ثم جمعوا الحنابلة من الصالحية وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الإمام الشافعي».

ب - نقل عن جمال الدين السرمرى أنّه قال: وكان ابن تيمية يتكلم

١. دفع شبهة من شبّه وتمزّد: ٢١٦، طبع بمصر عام ١٣٥٠ هـ.

على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث، فيورد في ساعة من الكتاب والسنة واللغة والنظر ما لا يقدر أحد على أن يورده في عدة مجالس: «... ومن ثم نصب أصحابه إلى الغلو فيه، واقتضى ذلك العجب بنفسه حتى زها على أبناء جنسه، واستشعر أنه مجتهد يرد على صغير العلماء وكبيرهم، قديمهم وحديثهم، حتى انتهى إلى عمر فخطأه في شيء، وقال في حق علي: أخطأ في سبعة عشر شيئاً، ثم خالف فيها، وكان لتعصبه لمذهب الحنابلة يقع في الأشاعرة، حتى أنه سب الغزالي... فعظم ذلك على الشيخ نصر المنبجي، وأعاناه عليه قوم آخرون ضبطوا عليه كلمات في العقائد المثيرة وقعت منه في مواعيده وفتاواه، فذكروا أنه ذكر حديث النزول، فنزل عن المنبر درجتين فقال: كنزولي هذا^(١)، فنسب إلى التجسيم، وردّه علي من توّسل بالنبي، فأشخص من دمشق في رمضان سنة (٧٠٥هـ).

ثم يقول: إنّه اختلف الناس بعد إخراجه عن بعض معتقلاته، فمنهم من نسبه إلى التجسيم، لما ذكر في العقيدة الحموية والواسطية وغيرهما من ذلك، كقوله إنّ اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله، وإنّه مستو على العرش بذاته، فقيل له يلزم من ذلك التحييز والانقسام، ومنهم من أنكر كون التحييز والانقسام من خواص الأجسام^(٢).

ومنهم من ينسبه إلى الزندقة، لقوله: إنّ النبي لا يستغاث به، وإنّ في ذلك تنقيصاً ومنعاً من تعظيم النبي، ومنهم من ينسبه إلى النفاق لقوله في

١. سيوافيك نص ابن بطرطة السباح المعروف في ذلك، وأنه سمعه بأذنه ورآه بعينه، فانظر.

٢. اقرأ واضحك على عقلية القائل.

علي ماتقدم، ولقوله إنه كان مخذولاً حيثما توجه، وأنه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها، إنما قاتل للرئاسة لا للديانة، ولقوله إنه كان يحب الرئاسة، وإن عثمان كان يحب المال، ولقوله أبو بكر أسلم شيخاً يدري ما يقول، وعلي أسلم صبيّاً والصبي لا يصح إسلامه على قول.^(١)

١١- جمال الدين يوسف بن تغري الأتابكي (٨١٢ - ٨٧٤ هـ)

وقد ترجمه جمال الدين في كتابه: «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» ومما جاء فيه: قال القاضي كمال الدين الزمكاني: «ثم جرت له محن في مسألة الطلاق الثلاث، وشدّ الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، وحبّب للناس القيام عليه، وحبس مرات في القاهرة والإسكندرية ودمشق، وعقد له مجالس بالقاهرة ودمشق، إلى أن ورد مرسوم شريف من السلطان في شعبان سنة (٧٢٦ هـ) بأن يجعل في قلعة دمشق، فاقام فيها مدة مشغولاً بالتصنيف، ثم بعد مدة منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما كان عنده من الكتب، ولم يتركوا عنده دواة ولا قلماً ولا ورقة.

ومما وقع له قبل حبسه أنه ناظر بعض الفقهاء، وكتب محضراً، فإنه قال. أنا أشعريّ ثم أخذ خطه بما نصه:

أنا أعتقد أنّ القرآن معنى قائم بذات الله، وهو صفة من صفات ذاته القديمة، وهو غير مخلوق، وليس بحرف ولا صوت، وأنّ قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» ليس على ظاهره، ولا أعلم كنه المراد به،

بل لا يعلمه إلا الله، والقول في النزول كالقول في الاستواء، وكتبه أحمد بن تيمية، ثم أشهدوا عليه جماعة أنه تاب مما ينافي ذلك مختاراً، وشهد عليه بذلك جمع من العلماء وغيرهم^(١).

وترجمه أيضاً في كتابه الآخر: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»^(٢) بنفس النص الوارد في «المنهل الصافي».

١٢- شهاب الدين، ابن حجر، الهيثمي (المتوفى ٩٧٣ هـ)

قال في ترجمة ابن تيمية: «ابن تيمية عبد خذله الله، وأضله وأعماه وأصمته وأذله، بذلك صرح الأئمة الذين بينوا فساد أحواله وكذب أقواله، ومن أراد ذلك فعليه بمطالعة كلام الإمام المجتهد المتفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهاد، أبي الحسن السبكي وولده التاج والشيخ الإمام العز بن جماعة، وأهل عصرهم وغيرهم من الشافعية والمالكية والحنفية ولم يقصر اعتراضه على متأخري السلف الصوفية، بل اعترض على مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

والحاصل أنه لا يقام لكلامه وزن، بل يرمى في كل وعر وحزن ويعتقد فيه أنه مبتدع، ضال، مضل، غالي، عامله الله بعدله، وأجارنا من مثل طريقته وعقيدته وفعله. أمين إلى أن قال: إنه قاتل بالجهة، وله في إثباتها

١. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: ١ / ٣٣٦ - ٣٤٠، والزملكاني هو كمال الدين محمد بن علي بن عبد الواحد الشافعي، ولد سنة (٦٦٧ هـ) وتوفي سنة (٧٣٣ هـ).

٢. النجوم الزاهرة: ٢ / ٢٧٩.

جزء، ويلزم أهل هذا المذهب الجسمية والمحاذاة والاستقرار. أي فلعلّه بعض الأحيان كان يصرح بتلك اللوازم فنسبت إليه، وممن نسب إليه ذلك من أئمة الإسلام المتفق على جلالته وإمامته وديانته، وإنه الثقة العدل المرتضى المحقق المدقق، فلا يقول شيئاً إلا عن تثبت، وتحقق، ومزيد احتياط، و تحر، لا سيما إن نسب إلى مسلم ما يقتضي كفره، وردّته، وضلاله، وإهدار دمه»^(١).

وقال أيضاً في كتابه: «الجوهر المنظم في زيارة القبر الشريف النبوي المكرم»: «فإن قلت: كيف تحكي الإجماع السابق على مشروعية الزيارة والسفر إليها وطلبها، وابن تيمية من متأخري الحنابلة منكر لمشروعية ذلك كله، كما رآه السبكي في خطه، وأطال ابن تيمية في الاستدلال بذلك بما تمجّه الأسماع وتنفّر منه الطباع، بل زعم حرمة السفر لها إجماعاً، وأنه لا تقصر فيه الصلاة، وأن جميع الأحاديث الواردة فيها موضوعة، وتبعه بعض من تأخّر عنه من أهل مذهبه.

قلت: من هو ابن تيمية حتى ينظر إليه؟ أو يعول في شيء من أمور الدين عليه؟ وهل هو إلا كما قال جماعة من الأئمة الذين تعقّبوا كلماته الفاسدة، و حججه الكاسدة، حتى أظهروا عوار سقطاته، وقبائح أوهامه وغلطاته، كالعز بن جماعة: عبد أذله الله وأغواه، وألبسه رداء الخزي ويؤأه من قوة الافتراء والكذب ما أعقبه الهوان، وأوجب له الحرمان...»^(٢).

١. الفتاوى الحديثية: ٨٦ ونقله العلامة الشيخ محمد بخيت (م ١٣٥٤ هـ) في كتابه «تطهير الفزاة»: ٩ ط مصر.

٢. لفرقان القرآن: ١٣٢ - طبع في مقدمة كتاب الأسماء والصفات لليهقي.

١٣- ملأ علي القارئ الحنفي (المتوفى ١٠١٦ هـ)

وقال ملأ علي القارئ الحنفي في شرحه على الشفاء^(١): «وقد أفرط ابن تيمية من الحنابلة حيث حرم السفر لزيارة النبي ﷺ كما أفرط غيره حيث قال: كون الزيارة قرية معلوم من الدين بالضرورة. وجاحده محكوم عليه بالكفر، ولعل الثاني أقرب إلى الصواب، لأنَّ تحريم ما أجمع العلماء فيه على الاستحباب يكون ككفرًا، لأنه فوق تحريم المباح المتفق عليه في هذا الباب».

١٤- أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي، الشهير بابن القاضي (٩٦٠ - ١٠٢٥ هـ)

وقد ترجمه ابن القاضي في ذيل وفيات الأعيان المسمى بـ «درة الحجال في أسماء الرجال» قال: «أحمد بن عبد الحلیم مفتي الشام ومحدثه وحافظه، وكان يرتكب شواذ الفتاوى، ويزعم أنه مجتهد»^(٢).

١٥- النبهاني (المتوفى ١٣٥٠ هـ)

قال النبهاني في تأليفه «شواهد الحق» بعد نقل أسماء عدة من الطاعنين به: «فقد ثبت وتحقق وظهر ظهور الشمس في رابعة النهار أنَّ

١. شرح الشفاء في هامش نسيم الرياض: ٥١٤/٣.

٢. درة الحجال في أسماء الرجال: ٣٠/١.

علماء المذاهب الأربعة قد اتفقوا على ردّ بدع ابن تيمية، ومنهم من طعنوا بصحة نقله، كما طعنوا بكمال عقله، فضلاً عن شدة تشنيعهم عليه في خطبه الفاحش في تلك المسائل التي شدّ بها في الدين، وخالف بها إجماع المسلمين، ولا سيما فيما يتعلّق بسيد المرسلين ﷺ .

١٦- المحقق الشيخ محمد الكوثري المصري (المتوفى ١٣٧١هـ)

إنّ الشيخ الكوثري هو أكثر الناس تتبّعاً لمكان حياة ابن تيمية، وقد شهره وفضحه، بنشر كتاب «السيف الصقيل» للسبكي وجعل له تكملة، نشرهما، معاً فمن وقف على هذا الكتاب وما ذيل به، لعرف مواقع الرجل، وإليك كلمة من الكوثري في حق الحشوية، يقول في تقديمه لكتاب «الأسماء والصفات» للحافظ البيهقي - بعد ما يسرد أسماء عدة من كتب الحشوية كالاستقامة لخشيش بن أصرم، والسنة لعبد الله بن أحمد «والنقض» لعثمان بن سعيد الدارمي السجزي المجسم - : «إنّ السجزي أول من اجترأ بالقول «إنّ الله لو شاء لا استقرّ على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته، فكيف على عرش عظيم» وتابعه الشيخ ابن تيمية الحراني في ذلك، كما تجد نص كلامه في «غوث العباد» المطبوع سنة ١٣٥١ بمطبعة الحلبي»^(١).

وقال أيضاً في مقدمته على السيف الصقيل:

جزى الله علماء أصول الدين عن الإسلام خيراً، فإنّ لهم فضلاً

١. مقدمة الأسماء والصفات للبيهقي، ص ١٥.

جسيماً في صيانة عقائد المسلمين بأدلة ناهضة مدى القرون، أمام كل فرقة زائفة - إلى أن قال - :

ومن طالع من ألفه بعض الرواة على طول القرون من كتب في التوحيد والصفات والسنة، والردود على أهل النظر، يشكر الله سبحانه على النور الذي أفاضه على عقله، حتى نبذ مثل تلك الطامات بأول نظرة.

وقد استمرت فتن المخدوعين من الرواة على طول القرون مجلبة لسخط الله تعالى، ولاستسخاف العقلاء، من غير أن يخطر ببال عاقل أن يناضل عن سخافات هؤلاء، إلى أن نبغ في أواخر القرن السابع بدمشق، حرّاني تجرّد للدعوة إلى مذهب هؤلاء الحشوية السخفاء، متظاهراً بالجمع بين العقل والنقل على حسب فهمه من الكتب، بدون أستاذ يرشده في مواطن الزلل، وحاشا العقل الناهض والنقل الصحيح أن يتضافرا في الدفاع عن تحريف السخفاء إلا إذا كان العقل عقل صابئي والنقل نقل صبي، وكم انخدع بخزعبلاته أناس ليسوا من التأهل للجمع بين الرواية والدراية في شيء، وله مع خلطائه هؤلاء، موقف في يوم القيامة لا يغبط عليه.

ومن درس حياته يجدها كلها فتناً لا يثيرها حافظ بعقله، غير مصاب في دينه، وأتى يوجد نصّ صريح منقول أو برهان صحيح معقول يثبت الجهة والحركة والثقل والمكان ونحوها لله سبحانه؟ .

وكل ما في الرجل أنه كان له لسان طلق، وقلم سيال، وحافظة جيدة، قلب - بنفسه بدون أستاذ رشيد - صفحات كتب كثيرة جداً من كتب النحل

التي كانت دمشق امتلأت بها بواسطة الجوافل من استيلاء المغول على بلاد الشرق، فاعتزّ بما فهمه من تلك الكتب من الوسوس والهواجس، حتى طمحت نفسه إلى أن تكون قدوة في المعتقد والأحكام العملية، ففاه في القبيلين بما لم يفه به أحد من العالمين، مما هو وصمة عار وأمانة مروق في نظر الناظرين، فانفضّ من حوله أناس كانوا تعجلوا في إطرانه - بادئ بدء - قبل تجربيه، وتخلّوا عنه واحداً إثر واحد على تعاب فتنة المدونة في كتب التاريخ، ولم يبق^(١) معه إلا أهل مذهبه في الحشو من جهلة المقلدة، ومن ظن أن علماء عصره صاروا كلهم إلباً واحداً ضدّه حسداً من عند أنفسهم، فلقيتهم عقله وإدراكه قبل اتهام الآخرين، بعد أن درس مبلغ بشاعة شواذه في الاعتقاد والعمل، وهو لم يزل يستتاب استتابة إثر استتابة، ويتقل من سجن إلى سجن إلى أن أفضى إلى ما عمل وهو مسجون فقير، هو وأهواؤه في البابين، بموته ويردود العلماء عليه، وماهي ببعيدة عن تناول رواد الحقائق.

كلامه في حق تلميذه ابن القيم

وكان ابن زفيل الزرعي المعروف بابن القيم يسايره في شواذه حياً وميتاً، ويقلده فيها تقليداً أعمى في الحق والباطل، وإن كان يتظاهر بمظهر الاستدلال، لكن لم يكن استدلاله المصطنع سوى ترديد منه لتشغيب قدوته، دائماً على إذاعة شواذ شيخه، متوخياً - في غالب مؤلفاته - تلطيف

١. وقال في التعليق: وثناء بعض المتأخرين عليه لم يكن إلا عن جهل بمضلات الفن في كلامه، ووجوه الزيف في مؤلفاته، ومنهم من ظن أنه دام على توبته بعد ما استتيب فدام على الشناء، ولا حجة في مثل تلك الأئنية، وأقواله المائلة أمامنا في كتبه لا يؤيدها إلا غاي غري، نسأل الله السلامة.

لهجة أستاذه في تلك الشواذ لتنتظلي وتنشق على الضعفاء، وعمله كله التلبس والمخادعة والنضال عن تلك الأهواء المخزية، حتى أفنى عمره بالدندنة حول مفردات الشيخ الحراني .

تراه يثرثر في كل وادٍ ويخطب بكل نادٍ، بكلام لا محصل له عند أهل التحصيل، ولم يكن له حظ من المعقول، وإن كان كثير السرد لأراء أهل النظر، ويظهر مبلغ تهافته لمن طالع شفاء العليل له بتبصّر، ونونيته^(١) وعزّوه من الدلائل على أنّه لم يكن ممن له علم بالرجال ولا بتقد الحديث، حيث أثنى فيهما على أناس هلكى، واستدل فيهما بأخبار غير صحيحة على صفات الله سبحانه.

وقد ذكره الذهبي في المعجم المختص بما فيه عبرة، ولم يترجم له الحسيني ولا ابن فهد ولا السيوطي في عداد الحفاظ في ذيولهم على طبقات الحفاظ، وما يقع من القارىء بموقع الأعجاب من أبحاثه الحديثية في زاد المعاد وغيره، فمختزل مأخوذ مما عنده عن كتب قيّمة لأهل العلم بالحديث، ك«المورد الهني في شرح سير عبدالغني» للقطب الحلبي ونحوه .

ولو لا محلى ابن حزم «وأحكامه» و«مصنف» ابن أبي شيبة «وتمهيد» ابن عبدالبر لما تمكن من مغالطاته ونهويلاته في «أعلام الموقعين» .

وكم استتيب وعذر مع شيخه وبعده على مخازٍ في الاعتقاد والعمل،

١ . وهي قصيدته البالغة خمسة آلاف بيت في العقائد، وهي التي رد عليها السبكي بتأليف كتاب السيف الصقيل، وأكمله محمد الكوثري وأسماء تكملة السيف الصقيل، وها نحن ننقل هاتيك العبارات منها.

تستبين منها ما ينطوي عليه من المضي على صنوف الزيغ تقليداً لشيخه الزائف، وسيلقى جزاء عمله هذا في الآخرة - إن لم يكن ختم له بالتوبة والأمانة - كما لقي بعض ذلك في الدنيا .

كلام الحافظ الذهبي وغيره في حق ابن القيم

قال الذهبي في المعجم المختص عن ابن القيم هذا: «عني بالحديث بمتونه وبعض رجاله وكان يشتغل في الفقه ويجيد تقريره، وفي النحو ويدريه، وفي الأصلين. وقد حبس مدة لإنكاره على شد الرحل لزيارة قبر الخليل (إبراهيم ﷺ) ثم تصدر للاشتغال ونشر العلم، لكنّه معجب برأيه جريء على الأمور .

قال ابن حجر في الدرر الكامنة: «غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل يتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه... واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة، بعد أن أهدى وطيف به على جمل مضروباً بالدرّة، فلما مات أفرج عنه، وامتنح مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وكان ينال من علماء عصره وينالون منه».

قال ابن كثير: «كان يقصد للإفتاء بمسألة الطلاق، حتى جرت له بسببها أمور يطول بسطها مع ابن السبكي وغيره... وكان جماعاً للكتب فحصل منها ما لا يحصر، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرأ طويلاً سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم.. وهو طويل النفس في مصنفاته، يتعاني

الإيضاح جهده، فيسهب جداً، ومعظمها من كلام شيخه بتصرف في ذلك، وله في ذلك ملكة قوية، ولا يزال يدندن حول مفرداته وينصرها ويحتج لها.. وجرت له محن مع القضاة، منها في ربيع الأول طلبه السبكي بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير محلل فأنكر عليه، وآل الأمر إلى أنه رجع عما كان يفتي به من ذلك» .

كلام ابن الحصني في حقه

وقال التقي الحصني: كان ابن تيمية ممن يعتمد ويفتي بأن شد الرحال إلى قبور الأنبياء حرام لا تقصر فيه الصلاة، ويصرح بقبر الخليل وقبر النبي (صلى الله عليهما وسلم)، وكان على هذا الاعتقاد تلميذه ابن قيم الجوزية الزرعي، وإسماعيل بن كثير الشركيني، فاتفق أن ابن قيم الجوزية سافر إلى القدس الشريف، ورقى على منبر في الحرم ووعظ وقال في أثناء وعظه بعد أن ذكر المسألة: وها أنا راجع ولا أزور الخليل.

ثم جاء إلى نابلس، وعمل له مجلس وعظ، وذكر المسألة بعينها حتى قال: فلا يزور قبر النبي ﷺ، فقام إليه الناس وأرادوا قتله، فحماه منهم والي نابلس، وكتب أهل القدس وأهل نابلس إلى دمشق يعرفون صورة ما وقع منه، فطلبه القاضي المالكي فتردد وصعد إلى الصالحية إلى القاضي شمس الدين بن مسلم الحنبلي وأسلم على يديه، فقبل توبته وحكم بإسلامه وحقن دمه، ولم يعزره لأجل ابن تيمية... ثم أحضر ابن قيم الجوزية وأدعى عليه بما قاله في القدس الشريف وفي نابلس فأنكر، فقامت عليه البيعة بما

قاله، فأدب وحُمل على جمل، ثم أُعيد إلى السجن، ثم أحضر إلى مجلس شمس الدين المالكي وأرادوا ضرب عنقه، فما كان جوابه إلا أن قال: إن القاضي الحنبلي حكم بحقن دمي وبإسلامي وقبول توبتي، فأُعيد إلى الحبس إلى أن أحضر الحنبلي فأخبر بما قاله، فأحضر وعزّر وضرب بالدرّة، وأركب حماراً وطيف به في البلد والصالحية، وردّوه إلى الحبس - وجرسوا ابن القيم وابن كثير، وطيف بهما في البلد وعلى باب الجوزية لفتواهم في مسألة الطلاق.

قال ابن رجب: قد امتحن و أُوذي مرات، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المدة الأخيرة بالقلعة منفرداً، لم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ . وقد سقت هنا نماذج من كلمات أصحابه و أصداده والمتحايدين في حقه، ليعتبرها المغرورون به. على أن الخبر اليقين فيما يجده القارئ الكريم في حقه في هذا الكتاب، وأرجو أن الحق لا يتعدى ما دلت عليه في حقه فيما كتبناه.

وأحق الناس بالثناء وأجدرهم بالترحم من أفنى عمره في سبيل العلم منصاعاً لمبتدع يرديه من غير أن يتخيّر أستاذاً رشيداً يهديه، ومثله إذا دَوّن أسفاراً لا يزداد بها بعداً عن الله وأوزاراً، وهو الذي يصبح متفانياً في شيخه الزائف بحيث لا يسمع إلا بسمعه ولا يبصر إلا ببصره في جميع شؤونه، ويبقى في أحط دركات الجهل من التقليد الأعمى، ولو فكر قليلاً لكان أدرك أن من السخف بمكان، وضعه لشيخه في إحدى كفتي الميزان ليوازن به جميع العلماء والفقهاء من هذه الأمة في كفته الأخرى فيزنهم ويغالبهم به

فيغلبهم في علومهم!! وهذا ما لا يصدر من حافظ بعقله، ولا سيما بعد التفكير في تلك المخازي من شواذه .

نعم، يمكن أن يكون عنده أو عند شيخه بعض تفوق في بعض العلوم على بعض مشايخ حارته، أو أهل خطته أو قرينته أو مضرب خيام عشيرته، لكن لا يوجب هذا أن يصدق ظنه في حق نفسه أن جوّ هذه الأرض يضيق عن واسع فهمه، وعرض هذه البحار لا يتسع لزاخر علومه.^(١)

١٧- الشيخ سلامة القطاعي العزامي (المتوفى ١٣٧٩ هـ)

قال: «بدأ ابن تيمية حياته بطلب العلم على ذكاء وتصالح، ورفق به أكابر العلماء، لأن أباه كان رجلاً هادئاً وكان من بيت علم، فساندوه وشجعوه وأثنوا عليه خيراً، حتى إذا أقبل عليه الناس بدأ يظهر بالبدع، وأبطرته الغرة، فتمادى في التعصب لأرائه، وما زال يتلاعب به الهوى حتى كان مجموعة بدع شنعاء، ودائرة جهالات وأباطيل شوهاء، فتجدد في مسائل من علم التوحيد حشواً كرامياً، يقول في الله بالأجزاء والجهة والمكان، والنزول والصعود الحسينين، وحلول الحوادث بذاته تعالى، ومن ناحية أخرى تجد فيه حضيضة الخوارج، يكفر أكابر الأمة ويخطئ أعاضم الأئمة وقال: من نذر شيئاً للنبي أو غيره من النبيين والأولياء من أهل القبور، أو ذبح له ذبيحة كان كالمشركين الذين يذبحون لأوثانهم وينذرون لها، فهو عابد لغير الله فيكون بذلك كافراً، ويطلق في ذلك الكلام، واغترّ بكلامه بعض من

١. تكملة السيف الصقيل : ٤-٩.

تأخر عنه من العلماء ممن ابتلي بصحبته أو صحبة تلاميذه، وهو منه تلبس في الدين، وصرف إلى معنى لا يريده مسلم من المسلمين، ومن خبر حال من فعل ذلك من المسلمين وجدهم لا يقصدون بذبائحهم ونذورهم للمتقين من الأنبياء والأولياء إلا الصدقة عنهم، وجعل ثوابها إليهم، وقد علموا أن إجماع أهل السنة منعقدة على أن صدقة الأحياء نافعة للأموات واصله إليهم.

ولقد تعدى هذا الرجل حتى على الجناب المحمدي فقال: إن شذ الرحال إلى زيارته معصية، وإن من ناداه مستغيثاً به بعد وفاته فقد أشرك، فتارة يجعله شركاً أصغر، وأخرى يجعله شركاً أكبر، وإن كان المستغيث ممتلئ القلب بأنه لا خالق ولا مؤثر إلا الله، وأن النبي إنما ترفع إليه الحوائج ويستغاث به، على أن الله جعله منبع كل خير، مقبول الشفاعة، مستجاب الدعاء كما هي عقيدة جميع المسلمين مهما كانوا من العامة.

وقد أوضح ذلك كل الإيضاح قبلنا أكابر جهابذة العلم لا سيما علم أعلام هذا العصر، حامل لواء الحكمة الإسلامية، وأحد جماعة كبار العلماء بحق، الشيخ يوسف الدجوي، فيما كتبه في مجلة الأزهر - أدم الله تأييده بروح منه، وجلله بالعافية من لدنه - .

وهذه البدعة من مبتكراته قد اغتربها ناس، فقالوا بكفر من عداهم من جماهير المسلمين، وسفكت في ذلك دماء لا تحصى، وقد ألقت الكتب الكثيرة في رد هذه البدعة وفروعها، بين مطول قد جوده صاحبه، ومختصر أفاده مؤلفه وأجاد.

ومن عجيب أمر هذا الرجل أنه إذا ابتدع شيئاً حكى عليه إجماع الأولين والآخرين كذباً وزوراً، وربما تجد تناقضه في الصفحة الواحدة، فتجده في منهاجه مثلاً يدعي أنه ما من حادث إلا وقبله حادث إلى ما لا نهاية له في جانب الماضي، ثم يقول: وعلى ذلك أجمع الصحابة والتابعون. وبعد قليل يحكي اختلافاً لحق الصحابة في أول مخلوق ما هو؟ أهو القلم أم الماء؟ وبينما تراه يتكلم بلسان أهل الحق المنزهين، إذا بك تراه قد انقلب جهولاً^(١)، وسمى كل من لا يقول بذلك معطلاً، وزنديقاً، وكافراً، وقد جمع تلميذه «ابن زفيل» سفاهاته ووساوسه في علم أصول الدين، في قصيدته النونية، وبينما تراه يسب جهماً والجهمية، إذا بك تراه يأخذ بقوله في أن النار تغني، وأن أهلها ليسوا خالدين فيها أبداً - إلى أن قال -: وليس من غرضنا بسط الكلام في بدع هذا الرجل، فقد كفانا العلماء - شكر الله سعيهم - من عصره إلى هذا العهد، المؤنة بالتصانيف الممتعة في الرد عليها، ولكن رفع الجهل رأسه في عصرنا هذا، وانتدب ناس من شيعته لطبع الكثير من كُتبه وكتب تلميذه ابن زفيل، ففضحوا الرجل وشهروا به عند المحققين من أهل الفقه في الدين، وتبينت صحة نسبة ما كان يتورع العلماء عن نسبه إليه، وإن نصيحتي التي أسديتها لكن مسلم نصيحة لله ولرسوله ولكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم، هي لزوم جماعة المسلمين في أصول الدين وفروعه، ولولا آتي أشفق على القارئ أن يملّ لتحدثت إليه طويلاً فيما

١. كذا في النسخة ولعل المراد: «جهولاً».

أو لعل المراد: نسبه إلى من يقول في الله بالجهة.

أصاب الإسلام والمسلمين من عظام هذا الرجل، ولبسطت له ما قال أكابر العلماء فيه وفي شيعته، ولكنني أرجو أن يكون ما قدّمته كافياً لذوي النهي»^(١).

١٨- الشيخ محمد أبو زهرة (١٣١٦ - ١٣٩٦ هـ)

ألّف الشيخ محمد أبو زهرة، كتاباً في حياة ابن تيمية وشخصيته، ومع أنّه أغمض عن كثير من الجوانب السلبية في حياته، وأخرج كتابه على وجه يلائم روح المحايدة في الكتابة، ومع ذلك انتقده في موارد، ومنها: منعه التبرك بأثار النبي. يقول: «دفن النبي في حجرة عائشة لأنّ يكون قبره قريباً من المسجد، وأن يكون قبره معروفاً غير مجهول، فإنّه لو دفن بالبقيع في الصحراء، فقد يجهل موضعه، ويكون بعيداً عن مسجده، وأمّا إذا دفن في حجرة عائشة فإنّه يكون قريباً من مهبط الوحي ومبعث الدعوة ومكان التنزيل، وبعد فإنّا نخالف ابن تيمية منعه التبرك بزيارة قبر الرسول والمناجاة عنده، وعدم التذب إليه، وإنّ التبرك الذي نريده ليس هو العبادة أو التقرب إلى الله بالمكان. إنّما التبرك هو التذكّر والاعتبار والاستبصار. وأي امرئ مسلم علم حياة النبي ﷺ وسيرته، وهدايته، وغزواته وجهاده، ثم يذهب إلى المدينة ولا يحس بأنّه في هذا المكان كان يسير الرسول ويدعو ويعمل ويدبّر ويجاهد، أو لا يعتبر ولا يستبصر، أو لا يحس بروحانية الإسلام وعبقرية النبي الأمين، أو لا تهزّ أعطافه محبة لله ورسوله والأخذ بما أمر الله

به، والانتهاه عما نهى عنه إلا من أعرض عن ذكر الله ولم يكن من أولي الأبصار؟ إن الزيارة إلى قبر الرسول هي الذكرى والاعتبار، والهدى والاستبصار والدعاء عند القبر دعاء، القلب خاشع، العقل خاضع، والنفس مخلصه، والوجدان مستيقظ، وإن ذلك أبرك الدعاء»^(١).

وهذه النصوص الرائعة من أئمة الحديث والتفسير والكلام في حق الرجل تغنينا عن إفاضة القول فيه، وقد اكتفينا بهذا المقدار عن الكثير، فإن الناقدين له أكثر مما ذكرنا. وقد نشر كتيب باسم «الوهابية في نظر المسلمين»^(٢)، وذكر بعض من لم نذكره، كما أنه لم يذكر بعض ما ذكرنا من النصوص.

والذي يعرب عن أن الرأي العام يوم ذاك كان ضده هو أن لفيفاً من العلماء من معاصريه والمتأخرين عنه ردوا عليه بكتب ورسائل فندوا فيها شبه الرجل حول الصفات الخبرية أولاً، والزيارة والتوسل ثانياً، إلى غير ذلك مما أثار عجباً في الساحة الإسلامية، وإليك الإيعاز بالردود التي كتبت على آرائه.

الناقضون والراذون على ابن تيمية

واليك قائمة ممن ألف كتاباً أو رسالة حول آرائه:

١- شفاء السقام في زيارة خير الأنام، لتقي الدين السبكي.

١. ابن تيمية حياته وشخصيته: ٢٢٨.

٢. تأليف: إحسان عبداللطيف البكري.

- ٢- الدرّة المضيئة في الرد على ابن تيمية، له أيضاً .
- ٣- المقالة المرضية، لقاضي قضاة المالكية تقي الدين أبي عبد الله الأحنائي .
- ٤- نجم المهتدي ورجم المقتدي، للخضر ابن المعلم القرشي .
- ٥- دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى الإمام أحمد، لتقي الدين الإمام أبي بكر الحصني الدمشقي (المتوفى ٧٢٩ هـ) .
- ٦- التحفة المختارة في الرد على منكري الزيارة، لتاج الدين عمر بن علي اللخمي المالكي الفاكهازي (المتوفى ٧٣٤ هـ) .
- ومما جاء فيه قوله: أخبر جمال الدين عبدالله بن محمد الأنصاري المحدث قال: رحلنا مع شيخنا تاج الدين الفاكهازي إلى دمشق، فقصد زيارة نعل رسول الله التي بدار الحديث الأشرفية بدمشق، وكنت معه، فلما رأى النعل المكرمة، حسر عن رأسه، وجعل يقبله ويمرغ وجهه عليه ودموعه تسيل وأنشد:
- فلو قيل للمجنون: ليلى ووصلها تريد أم الدنيا وما في طواياها
لقال غبار من تراب نعالها أحب إلى نفسي وأشقى لبلواها^(١)
- ٧- اعتراضات على ابن تيمية، لأحمد بن إبراهيم السروطي

الحنفي. (١)

٨- إكمال السنة في نقض منهاج السنة، للسيد مهدي بن صالح الموسوي القزويني الكاظمي (المتوفى ١٣٥٨ هـ). (٢)

٩- الإنصاف والانتصاف لأهل الحق من الإسراف، في الرد على ابن تيمية الحنبلي الحراني، فرغ منه مؤلفه سنة (٧٥٧ هـ)، توجد نسخة منه في المكتبة الرضوية - مشهد - رقم ٥٦٤٣.

١٠- البراهين الجلية في ضلال ابن تيمية، للسيد حسن الصدر الكاظمي (المتوفى ١٣٥٤ هـ). (٣)

١١- البراهين الساطعة، للشيخ سلامة العزامي (المتوفى ١٣٧٩ هـ) (٤).

١٢- جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (أحمد بن تيمية وأحمد بن حجر)، للشيخ نعمان بن محمود الألويسي. (٥)

١٣- الدرة المضية في الرد على ابن تيمية، لمحمد بن حميد الدين الحنفي الدمشقي كمال الدين المعروف بابن الزملكاني. (٦)

١٤- الرد على ابن تيمية في الاعتقاد، لمحمد بن حميد الدين الحنفي

١. معجم المؤلفين: ١٤٠/١.

٢. الذريعة: ١٠/١٧٦.

٣. الذريعة: ٧٩/٣.

٤. التوسل بالنبي والصالحين وجهلة الوهابية: ٢٥٣.

٥. إيضاح المكنون: ٢٦٣/١؛ معجم المؤلفين: ١٣/١٠٧.

٦. كشف الظنون: ٧٤٤/١؛ معجم المؤلفين: ٢٢/١١.

الدمشقي. (١)

الفتيا التي أصدرها الشاميون في حق ابن تيمية

وفي الختام نثبت في المقام صورة الفتيا التي أصدرها الشاميون ونقلها الشيخ محمد زاهد الكوثري في «تكملة السيف الصقيل»، واليك ما ذكره:

«وقد أصدر الشاميون فتياً وكتب عليها البرهان ابن الفركاح الفزاري نحو أربعين سطراً بأشياء، إلى أن قال بتكفيره، ووافقه على ذلك الشهاب بن جهيل، وكتب تحت خطه، كذلك المالكي، ثم عرضت الفتيا لقاضي القضاة الشافعية بمصر: البدر بن جماعة، فكتب على ظاهر الفتوى:

الحمد لله، هذا المنقول باطنها جواب عن السؤال عن قوله: إن زيارة الأنبياء والصالحين بدعة، وما ذكره من نحو ذلك، ومن أنه لا يرخص بالسفر لزيارة الأنبياء، باطل مردود عليه، وقد نقل جماعة من العلماء أن زيارة النبي فضيلة وسنة مجمع عليها، وهذا المفتي المذكور - يعني: ابن تيمية - ينبغي أن يزجر عن مثل هذه الفتاوى الباطلة عند الأئمة والعلماء، ويمنع من الفتاوى الغريبة، ويحبس إذا لم يمتنع من ذلك، ويشهر أمره ليحتفظ الناس من الاقتداء به.

وكتبه محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الشافعي .

وكذلك يقول محمد بن الجريري الأنصاري، الحنفي: لكن يحبس الآن جزءاً مطلقاً، وكذلك يقول محمد بن أبي بكر المالكي، ويبالغ في زجره حسبما تندفع تلك المفسدة وغيرها من المفاسد .

وكذلك يقول أحمد بن عمر المقدسي الحنبلي:

وهؤلاء الأربعة قضاة المذاهب الأربعة بمصر أيام تلك الفتنة في سنة

(١٧٢٦هـ).^(١)

ولو أردنا أن نستقصي كل ما كتب ردأعلى ابن تيمية، لخرجنا عمّا هو الهدف، وكفى في ذلك ما نشر باسم «الوهابية في نظر المسلمين».^(٢)

إلى هنا تمّ تبين الرأي العام في ابن تيمية، في حياته ومماته، وقد عرفت ما هو الحق، غير أن تقييم الرجل بنقل آراء الأكابر من العلماء وإن كان له قيمة - ولكنه تقييم تقليدي لهم - ومن أراد تقييمه عن اجتهاد وإمعان فيجب أن يستعرض آراءه وأقواله من كتبه ورسائله، ليعرف ما هو الحق في ذلك المجال، وعندئذٍ يصدر القاضي عن اجتهاد وإمعان، لا عن تقليد واقتداء بالغير، ولأجل ذلك نخص الفصل الآتي بنقل آرائه في مواضع مختلفة، ونكتفي ببعضها الذي أوجد ضجة في الأيام الغابرة، وقام العلماء في وجهه كصف واحد، وزجروه وعاتبوه ونفوه وسجنوه، إلى أن مات في سجن دمشق، ولا ينافي كل ذلك ما للرجل من فضل وفضيلة في نواح من

١. راجع تكلمة السيف الصقيل: ١٥٥؛ دفع الشبهة لفتي الدين الحصري: ٤٥ - ٤٧.

٢. تأليف إحسان عبداللطيف البكري: الطبعة الرابعة، ومجلة «تراثنا».

العلوم الإسلامية، فإنه لولا تحلّيه بالذكاء والتوقّد، أو بالعلم بالكتاب والسنة لما اكتسب مقاماً في الأوساط الإسلامية، ولم يكن لأرائه قيمة، فالمبدع لا يكون ناجحاً في بدعه وضلاله إلا إذا خلط الحق بالباطل - وإلا - فالباطل المطلق لا يكون له نجاح ونفوذ، ولنعم ما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالاً، على غير دين الله. فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق، لم يخف على المرتادين، ولو أنّ الحق خلص من لبس الباطل، انقطعت عنه أسنّ المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنی»^(١).

الفصل الثاني

ابن تيمية وملاكات التوحيد والشرك في العبادة

الاتهام بالشرك والبدعة

إن أكثر شيء تداولاً وأرخصه في كتب الوهابيين ودعاياتهم هو اتهام المسلمين بالشرك والبدعة، وكأنهم لا يجدون في كنانتهم شيئاً يرمون به المسلمين سوى هاتين الفريتين.

ترى أنهم يتهمون جميع المسلمين من عرب وعجم وسنة وشيعة بالشرك في العبادة، وأنه ليس تحت السماء وفوق أديم الأرض أمة موحدة سوى محمد بن عبد الوهاب وأتباعه .

كما أنهم بدل تكريم المسلمين عند اللقاء، وتهنئتهم بالتسليم ونشر العطور ونثر الأزاهير عليهم، يتهمونهم بالابتداع، ويسمّونهم بالمبتدعة.

ولأجل ذلك يجب على كل محقق وناقد لمزاعم الوهابيين الموروثة من ابن تيمية القيام بأمرين مهمين وهما:

١- تحديد العبادة تحديداً منطقياً بحيث يكون جامعاً ومانعاً .

٢- تحديد البدعة تحديداً دقيقاً مثل الشرك في العبادة .

ثم القيام بتطبيق ما أوقفه عليه البحث والتنقيب على ما يصفونه بالشرك والبدعة، حتى يتبين أن التطبيق صحيح أو لا؟ فهذا نقدم إليك أيها القارئ الكريم بحثاً ضافياً حول هذين الموضوعين المهمين، حتى يتضح الحق بأجل مظاهره، وتقف على أن أكثر من يصفونه بالشرك والبدعة خيال وضلال وجهل بحقيقتهما.

إن المفتاح الوحيد لرد شبه الوهابيين هو تحديد العبادة وتمييزها عن غيرها، فما لم يتحدد مفهوم العبادة بشكل منطقي حتى تتميز في ضوئه العبادة من غيرها، لم يكن البحث والنقاش ناجحاً، ولأجل ذلك نخصص هذا الفصل لتعريف العبادة، ونبين ما ذكر حولها من التعاريف.

مراتب التوحيد

إن للتوحيد مراتب بيّنها علماء الإسلام في الكتب الكلامية والتفسيرية، ونحن نشير إلى هذه المراتب على وجه الإجمال، ونركز على التوحيد في العبادة:

الأولى: التوحيد في الذات، أو التوحيد الذاتي، والمراد منه هو: أنه سبحانه واحد لا نظير له، فرد لا مثيل له. قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١).

الثانية: التوحيد في الخالقية، والمراد منه هو: أنه ليس في صفحة

الوجود خالق أصيل غير الله، ولا مؤثر مستقل سواه، وأن تأثير سائر الأسباب الطبيعية وغيرها بأمره وإذنه وإرادته سبحانه. قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(١).

الثالثة: التوحيد في الربوبية والتدبير، والمراد منه أن للكون مدبراً واحداً ومتصرفاً فرداً لا يشاركه في التدبير شيء آخر، وأن تدبير الملائكة وسائر الأسباب بأمره وإذنه، فلم يفوض أمر التدبير إلى الأجرام السماوية والملائكة والجن. قال سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاهْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

والمراد من الشفيع هو العلل الطولية، وسُمي بالشفيع لأن تأثيره متوقف على ضمّ إذنه سبحانه إليه، والشفع هو الضم، سمي السبب شافعاً، لأنه يؤثر بانضمام إذنه تعالى.

وإذا انتهى إليه كل تدبير من دون الاستعانة بمعين، أو الاعتضاد بأعضاء، لم يكن لشيء من الأشياء أن يتوسط في تدبير أمر من الأمور - وهو الشفاعة - إلا من بعد إذنه تعالى، فهو سبحانه السبب الأصلي الذي لا سبب بالأصالة دونه، وأما الأسباب فإنها أسباب بتسبيبه، وشفعاء من بعد إذنه^(٣).

الرابعة: التوحيد في التشريع والتقنين، والمراد منه حصر الحاكمية التشريعية في الله، فليس لأحد أن يأمر وينهى ويحرّم ويحلّل إلا الله

٢. يونس: ٣.

١. الرعد: ١٦.

٣. الميزان: ٧٦/١٠.

سبحانه. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(١).

الخامسة: التوحيد في الطاعة، والمراد منه هو: أنه ليس هناك من تجب طاعته بالذات إلا الله تعالى، فهو وحده الذي يجب أن يطاع، ولو وجبت طاعة النبي فإنما هو بإذنه. قال سبحانه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾^(٢).

السادسة: التوحيد في الحاكمية، والمراد منه هو: أن جميع الناس سواسية، فلا ولاية لأحد على أحد بالذات، بل الولاية لله المالك الخالق، فمن مارس الحكم في الحياة يجب أن يكون بإذنه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾^(٣).

السابعة: التوحيد في الشفاعة والمغفرة، والمراد منه هو: أن كلا من الشفاعة والمغفرة حق مختص به فلا يغفر الذنوب إلا هو، ولا يشفع أحد إلا بإذنه. قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٤).

وقال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٥).

الثامنة: التوحيد في العبادة، وحصرها في الله سبحانه، فلا معبود إلا هو، لا يشاركه فيها شيء، وهذا الأصل مما اتفق عليه الموحدون، فلا تجد موحداً يجوز عبادة غير الله. إنما الكلام في المصاديق والجزئيات، وأن هذا العمل مثلاً (الاستغاثة بالأولياء وطلب الدعاء منهم والتوسل بهم) هل هو

١. يوسف: ٤٠.

٢. التغابن: ١٦.

٣. الأنعام: ٥٧.

٤. آل عمران: ١٣٥.

٥. البقرة: الآية ٢٥٥.

عبادة لهم حتى يحكم على المرتكب بالشرك، لأنه عبد غير الله، أو لا؟ وهذا هو البحث الذي عقدنا هذا الفصل لبيان، وما تقدم ذكره من أقسام التوحيد كان استطراداً في الكلام.^(١)

تعريف العبادة

جاءت لفظة العبادة في المعاجم بمعنى الخضوع والتذلل. قال ابن منظور: أصل العبودية: الخضوع والتذلل، وقال الراغب: العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، ولكن هذه التعاريف وأمثالها كتفسيرها بالطاعة كما في القاموس، كلها تفسير بالمعنى الأعم، فليس التذلل وإظهار الخضوع والطاعة نفس العبادة، ولأ يلزم الالتزام بأمر لا يصح لمسلم أن يلتزم بها:

١- يلزم أن يكون خضوع الولد أمام الوالد، والتلميذ أمام الأستاذ، والجندي أمام القائد، عبادة لهم.

١. إن الوهابية تعترف بنوعين من التوحيد وهما التوحيد الربوبي والتوحيد الإلهومي، ويفسرون الأول بالتوحيد في الخالقية، والثاني بالتوحيد في العبادة، وكلا الاصطلاحين خطأ. أما الأول فالمراد من الربوبية هو تدبير المربوب وإدارته، وأن وظيفة الرب الذي هو بمعنى الصاحب، إدارة مربوبه، كرب الدابة والدار والبستان بالنسبة إليها. فالتوحيد في الربوبية غير التوحيد في الخالقية، وإن كان ربما تنتهي الربوبية إلى الخالقية. راجع مفاهيم القرآن: ١/ ٣٧٩، فصل التوحيد في الربوبية والتدبير. وأما الثاني، أعني التوحيد في الإلهوية فهو مبني على أن الإله بمعنى المعبود، ولكنه خطأ، بل هو لفظ الجلالة بمعنى واحد، غير أن الأول كلي والثاني علم لواحد من مصاديق ذلك الكلي. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى مفاهيم القرآن، الجزء الأول: ٤٨٧، باب ما معنى الإلهوية وما هو ملاكها. وعلى ضوء هذا كلاً ما أطلقنا لفظ الإله أو الإلهوية فلا نريد منه إلا هذا، لا المعبود.

قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(١).

٢- يلزم أن يكون سجود الملائكة لآدم، الذي هو من أعلى مظاهر الخضوع، عبادة لآدم. قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾^(٢).

٣- يلزم أن يكون سجود يعقوب وزوجته وأبنائه ليوסף عبادة له. قال سبحانه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي حَقًّا﴾^(٣).

٤- يلزم أن يكون تذلل المؤمن عبادة له، مع أنه من صفاته الحميدة، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٤).

كل ذلك يدفع بنا إلى القول بأن تفسير العبادة بالتذلل والتخضع أو إظهارهما، وبالطاعة وما يشابه ذلك تفسير بالمعنى الأعم، ولا يكون الخضوع ضعيفه وشديده عبادة إلا إذا دخل فيه عنصر قلبي خاص يميزه عن مماثلاته ومشابهاته، وهذا العنصر عبارة عن أحد الأمور التالية:

١- الاعتقاد بالوهية المعبود.

٢- الاعتقاد بربوبيته.

٣- الاعتقاد باستقلاله في الفعل من دون أن يستعين بمعين أو يعتمد

على معاضد.

٢. البقرة: ٣٤.

١. الإسراء: ٢٤.

٤. المائدة: ٥٤.

٣. يوسف: ١٠٠.

إن هذه العبارات الثلاثة تهدف إلى أمر واحد، وهو أن مقوم العبادة ليس هو ظواهر الأفعال وصورها، بل مقومها هو باطن الأعمال ومناشئها، والخضوع الذي ينبعث عن اعتقاد خاص في حق المعبود، وهو:

إما عبارة عن الاعتقاد بألوهية المعبود، سواء أكانت ألوهية حقيقية أم ألوهية كاذبة مدعاة، فالله سبحانه إله العالم وهو الإله الحقيقي الذي اعترف به كل موحد على وجه الأرض، كما أن الأوثان والأصنام آلهة مدعاة اعتقد بألوهيتها عبدتها والعاكفون عليها، فالله سبحانه عند المشركين كان إلهاً كبيراً وهؤلاء آلهة صغيرة، وزعت شؤون الإله الكبير عليهم.

أو عبارة عن الاعتقاد بربوبية المعبود، وأنه المدبّر والمدبر بنفسه.

أو عبارة عن الاعتقاد باستقلال الفاعل في فعله وإيجاده، سواء أكان مستقلاً في وجوده وذاته كما هو شأن الإله الكبير عند المشركين، أم غير مستقل في ذاته ومخلوقاً لله سبحانه، ولكنه يملك شؤونه سبحانه من المغفرة والشفاعة، أو التدبير والرزق أو الخلق، إلى غير ذلك مما هو من شؤونه سبحانه، والمراد من تملكه بعض هذه الشؤون أو كلها، هو استقلاله في ذلك المجال، فكانه سبحانه فوضها إليه وتقاعد هو عن العمل.

هذه هي الملاكات التي تضي على كل خضوع خفيف أو شديد، لونه العبادة وتميزه عن أي تكريم وتعظيم للغير. وفي الآيات القرآنية إلماعات إلى هذه القيود التي ترجع حقيقتها إلى أمور ثلاثة:

أما الأول: فإليك بعض الآيات: قال سبحانه: «أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ»^(١)، فقد جعل في هذه الآية اعتقادهم بألوهية غير الله هو الملاك للشرك. يقول سبحانه: «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ»^(٢)، أي إنهم يرفضون هذا الكلام لأنهم يعتقدون بألوهية معبوداتهم، ويعبدونها بما أنها آلهة حسب تصورهم، ولأجل تلك العقيدة السخيفة، قال تعالى: «إِذَا ذُهِبَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ»^(٣).

وقال سبحانه: «وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ»^(٤).

والآيات في هذا المجال وافرة جداً لا حاجة لنقلها، ومن تدبر في هذه الآيات يرى أن التنديد بالمشركين لأجل اعتقادهم بألوهية أصنامهم وأوثانهم. قال سبحانه: «الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»^(٥).

وأما الثاني: أي كون الاعتقاد بالربوبية مؤثراً في إضفاء طابع العبادة على الخضوع، فيكفي قوله سبحانه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ»^(٦).

وقال تعالى: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ»^(٧).

٢. الصافات: ٣٥.

١. الطور: ٤٣.

٤. الزمر: ٤٥.

٣. غافر: ١٢.

٦. البقرة: ٢١.

٥. الحجر: ٩٦.

٧. الأنعام: ١٠٢.

فتعليل لزوم العبادة بكونه سبحانه «ربكم» في الآية الأولى أو «ربكم وخالق كل شيء» في الآية الثانية، يعرب عن أن الدافع إلى العبادة هو ذلك الاعتقاد، وبالتالي يتج أنه لا يتصف الخضوع بصفة العبادة إلا إذا اعتقد الإنسان أن المخضوع له خالق ورب أو ما يقاربه، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه ينفي صلاحية من في السماوات والأرض لأن يكون معبوداً لأجل أنهم عباد الرحمن، قال: **﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾**^(١)، فليسوا أرباباً ليدبروا أمورهم، ولا خالقين ليخلقوهم .

نعم، الاعتقاد بالربوبية ينحل إلى الاعتقاد بأنه يملك شؤون العابد، إما في جميع الجهات كما هو الحال في إله العالم عند الموحدين، أو بعض الشؤون كالشفاعة والمغفرة، أو قضاء الحوائج ورفع النوازل، كما هو الحال في الآلهة الكاذبة عند المشركين، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه ينفي عن معبوداتهم كونهم مالكين لكشف الضر. قال: **﴿لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾**^(٢)، وقال تعالى: **﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيلًا﴾**^(٣) وقال: **﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾**^(٤).

وقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾**^(٥) إلى غير ذلك من الآيات التي تنفي بتاتا، تملك معبوداتهم المدعاة شيئاً من شؤونه سبحانه .

٢. الرعد: ١٦.

١. مريم: ٩٣.

٤. مريم: ٨٧.

٣. الإسراء: ٥٦.

٥. العنكبوت: ١٧.

وهذا يعرب عن أن وجه اتّصاف خضوعهم بالعبادة ودعائهم لها، هو اعتقادهم بأنهم أرباب يملكون ما ينفع في حياتهم عاجلاً أو آجلاً، ويؤيد ذلك ما كانوا يرّدون في ألسنتهم حين الطواف والسعي ويقولون: لبيك اللهمّ لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك .

وأما الثالث: وهو الاعتقاد بكون المنخضوع له مستقلاً إما في ذاته وفعله، أو في فعله فقط، فترى الإلماح إليه في غير موضع من كتاب الله العزيز، وهو توصيفه سبحانه بالقيوم، قال سبحانه: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»^(١)، وقال: «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ»^(٢). والمراد منه هو الموجود القائم بنفسه، ليس فيه شائبة من الفقر والحاجة، وأن كل ما سواه قائم به، ومن المعلوم أن القائم بنفسه والغني في ذاته، غني في فعله عن غيره، فلو استغننا بأحد باعتقاد أنه يملك كشف الضر عنا فقد طلبنا فعل الله سبحانه من غيره، لأنه تعالى وحده الذي يملك كشف الضر لا غيره، والغني في الفعل هو الله سبحانه، فلو أقمنا موجوداً آخر مكان الله سبحانه في مجال الإيجاد، وزعمنا أنه يخلق ويرزق ويدبّر الأمور، أو أنه يغفر الذنوب ويقضي الحاجات من عند نفسه، أو بتفويض من الله سبحانه واعتزاله عن الساحة، فقد وصفناه بالربوبية أولاً (التعريف الثاني)، ولو زعمنا أنه قائم بنفس الفعل الذي يقوم به سبحانه ثانياً، فكأننا أعطينا غيره صفة من صفاته سبحانه، وهي القيومية ولو في مجال الإيجاد (التعريف الثالث) .

١. البقرة: ٢٥٥ .

٢. طه: ١١١ .

هذا وللتفويض شؤون واسعة:

منها تفويض الله تدبير العالم إلى خيار عباده من الملائكة والأنبياء والأولياء، ويسمى بالتفويض التكويني .

ومنها تفويض الشؤون الإلهية إلى عباده كالتقنين والتشريع والمغفرة والشفاعة، ويسمى بالتفويض التشريعي .

وهذا هو الذكر الحكيم يصف أهل الكتاب بأنهم اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرهبَانَهُمْ أرباباً من دون الله يقول: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرهبَانَهُمْ أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريمَ وما أمروا إلا ليعْبُدُوا إلهاً واحداً لا إله هو سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»^(١) .

إن أهل الكتاب لم يعبدوهم من طريق الصلاة والصوم لهم، وإنما أشركوهم في تفويض أمر التشريع والتقنين إليهم، وزعموا أنهم يملكون شأناً من شؤونه سبحانه.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «والله ما صاموا لهم، ولا صلوا لهم، ولكن أحلوا حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فاتبعوهم»^(٢) .

روى الثعلبي في تفسيره: عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله وفي عنقي صليب من ذهب، فقال لي: «يا عدي، اطرح هذا الربق من عنقك» قال: فطرحته، ثم انتهيت إليه وهو يقرأ هذه الآية: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً» حتى فرغ منها، فقلت: إنا لسنا نعبدهم، فقال: أليس

يحرّمون ما أحلّه الله، فتحرمّونه، ويحلّون ما حرّم الله فتستحلّونه؟ قال: فقلت: بلى. قال: فتلك عبادة. (١)

وفي ضوء هذا البحث الضافي تستطيع أن تميّز العبادة عن غيرها، والتعبّد عن التكريم، والخضوع العبادي عن التعظيم العرفي وتقف على أنّ سجود الملائكة لأدم، ويعقوب وزوجته وأبنائه ليوسف، لم تكن عبادة قط، وما هذا إلا لأن خضوعهم لم يكن نابعاً عن الاعتقاد بألوهيتهما أو ربوبيتهما، أو أنّهما يملكان شؤون الله سبحانه، كلها أو بعضها، ويقومان بحاجة المستنجد بنفسهما وذاتهما.

ومما يؤيد أنّ خضوع المشركين أمام أوثانهم وأصنامهم كان ممزوجاً بالاعتقاد بكونهم آلهة صغيرة، أو أرباباً، وموجودات تملك شؤون الرب أو بعضها، أنهم كانوا يصفونها بأنّها أنداد لله سبحانه. قال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (٢)، ولما زعموا أنّ معبوداتهم المصطنعة، تستجيب دعاءهم وتشفع لهم مثله، عادوا يحبونها كحب الله، ويذكر في آية أخرى أنّ المشركين كانوا يسوّون آلهتهم برب العالمين.

قال سبحانه: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نَسَوِيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣).

١. مجمع البيان: ٢٣/٣؛ البرهان في تفسير القرآن: ١٢٠/٢.

٢. البقرة: ١٦٥.

٣. الشعراء: ٩٧-٩٨.

والمراد هو التسوية في شؤونه سبحانه جميعها أو بعضها، وأما التسوية في العبادة فكانت من شؤون ذلك الاعتقاد، فإن العبادة خضوع من الإنسان للمعبود، فلا تتحقق إلا أن يكون هناك إحساس من صميم ذاته بأن للمعبود سيطرة غيبية عليه، يملك شؤونه في حياته، وكان المشركون في ظل هذه العقيدة يسوون أوثانهم برب العالمين. وبالتالي يعبدونهم. وليس المراد من التسوية هو التسوية في خصوص توجيه العبادة، إذ لم يعهد من المشركين المتواجدين في عصر الرسول توجيه العبادة إلى الله، ويؤيد ذلك: أن الوثنية دخلت مكة ونواحيها أول ما دخلت بصورة الشرك في الربوبية، وفي ذلك يكتب ابن هشام:

كان عمرو بن لحي أول من أدخل الوثنية إلى مكة ونواحيها، فقد رأى في سفره إلى البلقاء من أراضي الشام أناساً يعبدون الأوثان، وعندما سألهم عما يفعلون بقوله: «ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟» قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: أفلا تعطونني منه فأسير به إلى أرض العرب فيعبدون؟^١.

ثم إنه استصحب معه إلى مكة صنماً كبيراً باسم (هبل)، ووضع على سطح الكعبة المشرفة ودعا الناس إلى عبادتها.^(١) فطلب المطر من هذه الأوثان يكشف عن اعتقادهم بأن لهذه الأوثان دخلاً في تدبير شؤون الكون وحياة الإنسان.

الوهابيون وملاكات التوحيد و الشرك

ثم إنَّ الوهابيين لما لم يضعوا للعبادة حدًّا منطقيًّا تميِّز به عن غيرها، عمدوا إلى وضع ملاكات للعبادة، عجيبة جدًّا، وهي مبثوثة في كتبهم وثنايا دعاياتهم وهي:

١- الاعتقاد بالسلطة الغيبية .

٢- الاعتقاد بأنَّ المدعو يقضي حاجته بسبب غير عادي .

٣- طلب الحاجة من الميت .

٤- طلب الحاجة مع كون المطلوب منه عاجزاً .

إلى غير ذلك من المعايير التي لا تمت إلى التوحيد والشرك بصلة أبداً ولكون هذه الملاكات تدور على ألسنتهم وتكرر في كتبهم، نركِّز على هذه المعايير وأشباهاها لنخرج بنتيجة قطعية، وهي أنَّ الملاك في تمييز التوحيد عن الشرك أمر واحد، وهو الاعتقاد بالألوهية والربوبية، أو كون الفاعل مستقلاً ومفوضاً إليه الأمر، وأما هذه المعايير فكلها معايير عرضية، بل لا تمت إلى مسألة العبادة بصلة أصلاً، بل كل منها يوصف بالتوحيد على وجهه، وبالشرك على آخره، وإليك البيان:

١- هل الاعتقاد بالسلطة الغيبية معيار للشرك ؟

إن هناك من يتصور أن الاعتقاد بالسلطة الغيبية في المدعو يلازم الاعتقاد بكونه إلهاً. يقول الكاتب المودودي: «إن التصور الذي لأجله يدعو الإنسان الإله ويستغيثه ويتضرع إليه هو - لا جرم - تصور كونه مالكا للسلطة المهيمنة على الطبيعة، وللقوى الخارجة عن دائرة نفوذ قوانين الطبيعة». (١) وهذا الكلام صريح في أنه جعل الاعتقاد بهذه السلطة ملازماً للاعتقاد بالإلهية، وعلى ضوء ذلك فكل من اعتقد في واحد من الصالحين بأن له تلك السلطة فهو معتقد بالإلهية، فيصبح دعاؤه عبادة، والداعي عابداً له .

وهو مردود من وجهين:

أولاً: أن التصور الذي لأجله يدعو الإنسان الإله، لا ينحصر في تصور كونه مالكا للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة، بل يكفي الاعتقاد بكونه مالكا للشفاعة والمغفرة، كما كان عليه فريق من عرب الجاهلية، إذ كانوا يعتقدون في شأن أصنامهم بأنها ألهمتهم لأنها تملك الشفاعة والمغفرة، وهو غير القول: بوجود السلطة على عالم التكوين، وبذلك يظهر الضعف في كلام آخر له، حيث يقول:

«إن كلاً من السلطة والإلهية تستلزم الأخرى». (٢)

١. المصطلحات الأربعة: ١٧.

٢. المصطلحات الأربعة: ٣٠.

والحال أن الاعتقاد بالإلوهية أعمّ من الاعتقاد بالسلطة، فلو افترضنا أن الاعتقاد بالسلطة يستلزم الإلوهية، ولكن الاعتقاد بالإلوهية لا يستلزم الاعتقاد بالسلطة، بل يكفي أن يعتقد أن المدعو يملك مقام الشفاعة والمغفرة، أو شأناً من شؤونه سبحانه .

وثانياً: أن الاعتقاد بالسلطة إنما يستلزم الاعتقاد بالإلوهية إذا كان ينطوي على الاعتقاد بأنه فوّضت إليه تلك السلطة تفويضاً، بحيث يقوم بأعمالها باختياره من دون استئذان من الله سبحانه واعتماد عليه، وعلى ضوء ذلك لا يكون الاعتقاد بها - إذا كان إعمال تلك السلطة بإذن الله - ملازماً للاعتقاد بالإلوهية، وإلا وجب أن لا نسجل أحداً من المسلمين المعتقدين بالقرآن في ديوان الموحّدين، فإنه يثبت ليوسف وموسى وسليمان والمسيح، بل لأناس آخرين ليسوا بأنبياء سلطة غيبية. هذا قوله سبحانه في قصة سليمان:

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾^(١)

ولا يرتاب أحد في أن سليمان سأل ما سأل بعد اعتقاده بكونهم

أصحاب السلطة الغيبية، أفصح للمودودي أن يرمي ذلك النبي العظيم بما لا يليق بساحته، بل لا يحتمل في حقه؟ .

إن الذكر الحكيم يثبت - لسليمان - نفسه سلطة غيبية، وأنه كان له سلطة على الجن والطير حتى أصبحا من جنوده، كما يقول: «وَخَيْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ...»^(١).

وكانت له السلطة على عالم الحيوانات حتى أنه كان يخاطبهم ويطلب منهم تنفيذ أوامره، كما يقول: «وَوَفَّقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لِأَعَذَّبْنَاهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْبَحْنَاهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ»^(٢)، وكانت له السلطة على الجن، فكانوا يعملون بأمره وإرادته، كما يقول:

«وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ... يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ...»^(٣)، وكانت له السلطة على الريح أيما تسليط كما يقول: «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ»^(٤).

وعلى أي تقدير فآية سلطة أعظم وأوضح من هذه السلطة التي كانت لسليمان؟ والجدير بالذكر أن بعض الآيات صرحت بأن كل هذه الأمور غير العادية كانت تتحقق بأمره .

هذا ما ذكره القرآن في حق سليمان، وقد ذكر نظيره في حق غير واحد

٢. النمل: ٢٠ - ٢١.

٤. الأنبياء: ٨١.

١. النمل: ١٧.

٣. سبأ: ١٢ - ١٣.

من الأنبياء، لاحظ الآيات^(١) فكيف يكون الاعتقاد بالسلطة الغيبية المهيمنة على الطبيعة على وجه الإطلاق ملازماً للاعتقاد بالإلوهية ؟

٢- هل طلب قضاء الحاجة بأسباب غير طبيعية معيار للشرك ؟

يرى المودودي أن التوسل بالأسباب الطبيعية ليس بشرك، أما طلب الحاجة وإنجازها بأسباب غيرها فهو يلازم الشرك. يقول: فالمرء إذا كان أصابه العطش فدعا خادمه وأمره بإحضار الماء، لا يطلق عليه حكم الدعاء، ولا أن الرجل اتخذ إلهاً، وذلك أن كل ما فعله الرجل جارٍ على قانون العلل والأسباب، ولكن إذا استغاث بولي في هذا الحال فلا شك أنه دعاه لتفريج الكربة واتخذته إلهاً، فكأنني به يراه سميعاً بصيراً، ويزعم أن له نوعاً من السلطة على عالم الأسباب ممّا يجعله قادراً على أن يقوم بإبلاغه الماء، أو شفائه من المرض.^(٢)

أقول: إن ما ذكره صورة أخرى للمعيار الأول، وكلاهما وجهان لعملة واحدة، فإن طلب التوسل بالأسباب غير الطبيعية لا ينفك عن الاعتقاد بكونه مالكا للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة .

يلاحظ عليه: أن المودودي تصوّر أن طلب التوسل بالأسباب الطبيعية ليس بشرك، وإنما الشرك هو طلب التوسل بغيرها. والحال أن كلاهما على

١. يوسف: ٩٣-٩٦، الشعراء: ٦٣، البقرة: ٦٠ (في حق موسى)، آل عمران: ٤٩ (في حق المسيح)، المائدة: ١١٠ (في حقه أيضاً).

٢. المصطلحات الأربعة: ٣٠.

وجهين: فلو تصوّر أن القائم بعمل على وفق الأصول الطبيعية، إنّما يقوم به من عند نفسه وباقتدار مستقل من دون اعتماد على إقداره سبحانه واستئذان منه، فقد اعتقد بالوهيته وطلب فعل الإله من غيره، وأمّا إذا اعتقد أن الخادم يحضر الماء بقدرة مكتسبة واستئذان منه فهو نفس التوحيد. ومثله الكلام في الأسباب غير الطبيعية، فلا شك أن أمة المسيح كانوا يعتقدون في حقه - بعدما رأوا الآيات والمعجزات منه - أن له سلطة غيبية، وكانوا يسألونه إبراء مرضاهم وإحياء موتاهم، أفهل يتصوّر أن سؤالهم هذا كان شركاً؟ وأن المسيح كان مجيباً لدعوتهم الشركية؟ فمن ذا الذي يسمع قول المسيح بين بني إسرائيل: «أَتَى أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَاتَفَعَّ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا يَأْذِنُ اللَّهُ وَ أُبْرَى الْأَحْمَمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَ أَحْيَى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْتَكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»^(١).

فَمَنْ ذا الذي يسمع كلامه هذا ولا يعتقد بسلطته الغيبية؟ ولا يسأله كشف الكرب والملمات بإذنه سبحانه؟ أفيصح للمودودي أن يتهم أمة المسيح وفيهم الحواريون الذين أنزلت عليهم مائدة من السماء ومدحهم سبحانه في الذكر الحكيم^(٢) بالشرك؟

هذا هو الذكر الحكيم ينقل عن السامري قوله: «بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي»^(٣).

ومدلول الآية يعني أن السامري توّسل بالتراب المأخوذ من أثر الرسول، وكان له أثر خاص في إخراج العجل الذي كان له خوار. فلو اعتقد المسلم - تبعاً للقرآن - بأنه توّسل بأسباب غير طبيعية لإضلال قومه، فهل يصحّ اتّهامه بالشرك؟!

وبالجملة: ليس الاعتقاد بالسلطة الغيبية في مقابل الاعتقاد بالسلطة العادية، كما وليس التوّسل بالأسباب غير العادية في مقابل التوّسل بالأسباب العادية، معيارين للتوحيد والشرك، بل كل واحد منهما يمكن أن يقع على وجهين، فعلى وجه يوافق الأصول التوحيدية، وعلى آخر يخالفها .

٣- هل الموت والحياة ملاكان للتوحيد والشرك؟

يظهر من الوهابيين أنهم يجوّزون الاستغاثة بالأحياء، وفي الوقت نفسه يرون الاستغاثة بالأموات شركاً. يقول محمد بن عبدالوهاب: وهذا جائز في الدنيا والآخرة أن تأتي رجلاً صالحاً تقول له: ادع الله لي، كما كان أصحاب الرسول ﷺ يسألونه في حياته، وأما بعد مماته فحاشا وكلاً أن يكونوا سألوا ذلك، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف بدعاء نفسه. (١)

عجيب جداً أن يكون عمل محدد ومشخص إذا طلب من الحي، نفس التوحيد، وإذا طلب من الميت يكون عين الشرك. إن القرآن ينقل عن بعض شيعة موسى ويقول: «فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ

فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ^(١)، فنفس هذه الاستغاثة في حال الحياة، يتصور على وجهين، يحكم على أحدهما أنه موافق لأصول التوحيد، وعلى الآخر بخلافها!!

إن هذه الاستغاثة إنما تكون على وفق التوحيد إذا اعتقد أن موسى في حال حياته يقوم بالإغاثة بقدره مكتسبة وإذن منه سبحانه، ولو اعتقد بأصالته في إغاثة المستغيث فقد اعتقد بالوهيته، فإذا كان هذا هو المعيار في الاستغاثة من الحي، فليكن هذا هو المعيار عند الاستمداد بالأرواح المقدسة العالمة الشاعرة حسب أخبار القرآن (أو الأموات) على زعم الوهابيين .

فلو فرضنا أن أحداً من شيعة موسى استغاث به بعد خروج روحه الشريف عن بدنه على نحو الاستغاثة الأولى، فهل يتصور أنه أشرك بالله؟ وأنه عبد موسى لاعتقاده أنه يغيث المستغيث حياً وميتاً؟!

ولو كانت حياة المستغاث ومماته معياراً، فإنما يصح أن يكون معياراً في الجدوائية وخلافها، لا في الشرك والتوحيد.

وبذلك تقف على ضعف كلام تلميذ ابن تيمية حيث يقول: «و من أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً»^(٢).

يلاحظ عليه: أن ما ذكره من الدليلين لا يثبت مدعاه، لأن قوله: «فإن

١. القصص: ١٥.

٢. فتح المجيد، تأليف حفيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب من ٦٧ الطبعة السادسة.

الميت قد انقطع عمله» على فرض صحته، يثبت عدم الفائدة في الاستغاثة بالميت، لأنه شرك، وأما قوله: «ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً» فهو جار في الحي والميت، فليس في صفحة الوجود من يملك لنفسه شيئاً، فإنما يملك بإذنه وإرادته سواء أكان حياً أم ميتاً، ومع الإذن الإلهي يقدر على إيصال النفع والضرر أحياءً وأمواتاً.

هذا كلام التلميذ، فهل ندرس كلام أستاذه ابن تيمية وهو يقول: كل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية وجعل يقول: يا سيدي فلان أنصرتني وأغثنني... فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب، وإلا قتل.^(١)

يلاحظ عليه: أن الاستغاثة بالأموات - حسب تعبير الوهابيين، أو الأرواح المقدسة حسب تعبيرنا - إذا كانت ملازمة للاعتقاد بنوع من الإلهوية، يلزم أن تكون الاستغاثة بالأحياء ملازمة لذلك، لأن حياة المستغاث ومماته حدّ لجدوائية الاستغاثة وعدمها، وليس حدّاً للتوحيد والشرك، في حين أن الاستغاثة بالحي تعد من أشد الضروريات للحياة الاجتماعية.

وهناك كلام آخر له هلم معي نستمع إليه يقول:

«والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق، أو تنزل المطر، وإنما كانوا يعبدونهم

أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم؛ يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، أو هؤلاء شفعاؤنا.^(١)

إن قياس استغاثة المسلمين بما يقوم به المسيحيون والوثنيون، والخلط بينهما ابتعاد عن الموضوعية، لأنَّ المسيحيين يعتقدون بالوهية المسيح، والوثنيين يعتقدون بتملك الأوثان مقام الشفاعة والمغفرة، بل مقام التصرف في الكون كإرسال الأمطار على ما نقله ابن هشام.^(٢) ولأجل هذا الاعتقاد كان طلبهم واستغاثتهم بالمسيح والأوثان عبادة لها .

وأما استغاثة المسلمين بالأرواح المقدسة فخالية من هذه الشوائب فعندئذٍ، لا يكون شركاً ولا عبادة، بل استغاثة بعبد لا يقوم بشيء إلا بإذنه سبحانه، فإن أذن أجاب، وإن لم يأذن سكت، فما معنى توصيف هذا بالشرك ؟

٤- هل القدرة والعجز حدان للتوحيد والشرك ؟

وهناك معيار مزعوم آخر يظهر من كلمات ابن تيمية، وهو أنَّ قدرة المستغاث على تحقيق الحاجة يوجب أن لا يكون الطلب شركاً ولكن عجزه عن قضاء الحاجة يضمني على الطلب لون الشرك، يقول ابن تيمية: «مَنْ يَأْتِي إِلَى قَبْرِ نَبِيٍّ أَوْ صَالِحٍ وَيَسْأَلُ حَاجَتَهُ وَيَسْتَنْجِدُ بِهِ، مِثْلَ أَنْ يَسْأَلَ أَنْ يَزِيلَ مَرَضَهُ وَيَقْضِيَ دِينَهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

فهذا شرك صريح يجب أن يستتاب صاحبه، فإن تاب وألّا قتل»^(١).
 وليس هذا ملاكاً جديداً بل هو وجه آخر للملاك السابق، غير أنه عبّر
 في السابق بموت المستغاث وحياته، وهنا بالعجز والقدرة، يقول الصنعاني:
 «الاستغاثة بالمخلوقين في ما يقدرون عليه ممّا لا ينكرها أحد، وإنّما
 الكلام في استغاثة القبوريين وغيرهم بأوليائهم، وطلبهم منهم أموراً لا يقدر
 عليها إلاّ الله تعالى، من عافية المرض وغيرها، وقد قالت أمّ سليم: يا رسول
 الله. خادمك أنس، ادع الله له، وقد كان الصحابة يطلبون الدعاء منه وهو
 حي، وهذا أمر متفق على جوازه، والكلام في طلب القبوريين من الأموات
 أو من الأحياء أن يشفوا مرضاهم ويردوا غائبهم، ونحو ذلك من المطالب
 التي لا يقدر عليها إلاّ الله»^(٢).

وعلى أيّ تقدير، فسواء أكان هذا وجهاً آخر للملاك السابق أم ملاكاً
 آخر بقرينة عطف الأحياء على الأموات في هذا الكلام، فليست القدرة
 والعجز ملاكين للتوحيد والشرك، وإنّما هما ملاك الجدوائية وعدمها.

٥- طلب فعل الله من غيره

هذا هو الملاك الحقيقي الذي أوعز إليه الصنعاني، ويوجد في كلمات
 ابن تيمية وقد عرفت قوله:

«مَنْ يَأْتِي إِلَى قَبْرِ نَبِيٍّ أَوْ صَالِحٍ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَزِيلَ مَرَضَهُ وَيَقْضِي دِينَهُ

١. زيارة القبور والاستنجاد بالمقبر: ١٥٦؛ الهدية السنية: ٤٠.

٢. كشف الارتباب: ٢٧٢ نقلًا عن الصنعاني.

أو نحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى» وهذا مما لا إشكال فيه، غير أن الكلام في تمييز فعل الله عن فعل غيره، أما الكبرى فمسلّمة عند الكلّ، فقد اتفق الموحّدون على أن طلب فعله سبحانه من غيره، ملازم للاعتقاد بالوهية المسؤول وربوبيته، فاللازم دراسة الصغرى، وأن فعل الله ما هو؟ والتركيز عليه .

ترى أن ابن تيمية قد سلم أن شفاء المريض وقضاء الدين على وجه الإطلاق من أفعاله سبحانه، مع أن الحق أن قسماً منهما يعدّ فعلاً لله سبحانه دون قسم آخر .

إن إبراء المريض وقضاء الدين ورد الضالّة وغيرها بالسنن الطبيعية أو غيرها على وجه الاستقلال ومن دون استعانة بأحد هو فعل الله سبحانه، فلو طلب نفس ذلك من غيره لا ينفك عن الاعتقاد بالإلوهية والربوبية .

وأما لو طلب منه مع الاعتقاد بأنه مستغاث يقوم بهذه الأمور عن طريق العلل الطبيعية أو غيرها، مستمداً من قدرة الله وقائماً بإذنه ومشيتته، فليس هذا فعل الله حتّى يكون طلبه من غيره شركاً. لأنّه سبحانه يقوم بالفعل مستقلاً وبلا استمداد.

كيف وقد صرح القرآن بأنّ المسيح «يبرئ الأكمه والأبرص بإذنه» مع أن ابن تيمية وأتباعه زعموا أنّها من أفعاله سبحانه، قال سبحانه: «وَتُسَبِّحُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ المَوْتَى بِإِذْنِي»^(١)، وقد نسب الذكر

الحكيم كثيراً من الأمور الخارقة للعادة إلى أنبيائه، فلم تكن هذه النسبة إلا لأجل أنهم يقومون بما يقومون، بإذنه سبحانه .

وحصيلة الكلام: التوسل بالأسباب بقيد أنها أسباب - سواء أكانت طبيعية أم غير طبيعية - لا يلزم الشرك، نعم، السبب ربما يكون سبباً واقعياً، وأخرى سبباً كاذباً وخاطئاً، والاشتباه في سببية السبب لا يستلزم الاعتقاد بالوهية السبب أو ربوبيته، أو كون الطلب منه طلب فعل الله من غيره .

ونعيد الكلام حتى يتضح الحق بأجلى مظاهره فنقول: إن التعلق بالشيء والطلب منه مع الاعتقاد بالسببية، وأن الله سبحانه أعطاه المقدرة على إنجاز المأمول يمتنع أن يتصف بالشرك، لأن المفروض أن المتوسل إنما تعلق به بقيد كونه رابطاً وسبباً.

نعم يمكن أن يكون المتوسل صائباً في الاعتقاد بالسببية أو خاطئاً، ولكن الاشتباه في الموضوع لا يكون دليلاً على الاعتقاد .

وأما إذا كان التعلق بالشيء لا بوصف السببية والرابطة، بل بما أن المطلوب منه، موجود مستقل في فعله وإيجاده، يقوم بالفعل بنفسه، ويقوم بحاجة المستنجد من صميم ذاته من دون أن يكون سبباً وربطاً بين الإنسان وربّه، فهذا يكون ملازماً للاعتقاد بالإلهية من دون نقاش .

كان اللائق بابن تيمية ونظرانه دراسة فعل الله سبحانه وتمييزه عن غيره، حتى لا يحكموا بضرر قاطع بأن الإعانة والإماتة والشفاعة وغيرها على الإطلاق من أفعال الله سبحانه، بل الحق أن كلاً من هذه الأفعال يقع

على وجهين، فهو على وجه فعله سبحانه، وعلى وجه آخر يصح أن يعدّ فعلاً للسبب، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه ينسب فعلاً واحداً لذاته، وفي الوقت نفسه ينسبه لمخلوق من مخلوقاته، وإليك نماذج من ذلك:

١- يعدّ القرآن - في بعض آياته - قبض الأرواح فعلاً لله تعالى، ويصرح بأن الله هو الذي يتوفى الأنفس حين موتها، إذ يقول سبحانه: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا»^(١).

بينما تجده ينسب التوفى في موضع آخر، إلى غيره، قال: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا»^(٢).

٢- يأمر القرآن - في سورة الحمد - بالاستعانة بالله وحده إذ يقول: «وَايَاكَ نَسْتَعِينُ»^(٣)، في حين نجده في آية أخرى يأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة، إذ يقول: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ»^(٤).

٣- يعتبر القرآن الكريم الشفاعة حقاً مختصاً بالله وحده، إذ يقول: «قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً»^(٥).

بينما يخبرنا - في آية أخرى - عن وجود شفعاء غير الله كالملائكة ويقول: «وَوَكَّمِ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعَدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ»^(٦).

٢. الأنعام: ٦١.

٤. البقرة: ٤٥.

١. الزمر: ٤٢.

٣. الفاتحة: ٥.

٥. الزمر: ٤٤.

٦. النجم: ٢٦.

٤- إِنْ اللَّهُ هُوَ الْكَاتِبُ لِأَعْمَالِ عِبَادِهِ، إِذْ يَقُولُ: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾^(١) فِي حِينَ أَنْ الْقُرْآنَ يَعْتَبِرُ الْمَلَائِكَةُ كِتَابَةَ أَعْمَالِ الْعِبَادِ، إِذْ يَقُولُ: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾^(٢).

٥- قَدْ تَصَافَرَتِ الْآيَاتُ عَلَى أَنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْمُدَبِّرُ، يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾^(٣)، بَيْنَمَا يَصْرَحُ الْقُرْآنُ بِمُدْبَرِيَّةِ غَيْرِهِ وَيَقُولُ: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾^(٤).

هذه نماذج من الآيات مما نسب الفعل إلى الله سبحانه، وفي الوقت نفسه نسب إلى عباده، وما المصحح إلا ما ذكرنا، وهو أن المنسوب إليه سبحانه غير المنسوب إلى العباد، وأن قيامه سبحانه بالأفعال على وجه الاستقلال من دون أن يعتمد على سبب عال أو قوة عليا، وأما قيام غيره فإنما هو بالسببية والرابطة والمأمورية.

وفي ضوء هذا تقدر على تمييز فعله سبحانه عن فعل غيره، فليس شفاء المريض وقضاء الدين وردّ الضالة على وجه الإطلاق، من فعله سبحانه، ولا من فعل عباده، بل لكل سمة وعلامة، بها يتميز عن غيره. والحد الفاصل بين فعله سبحانه وفعل غيره هو كون الفاعل مستقلاً في الوجود، ومالكاً لفعله، وكونه غير مستقل في الفعل وغير مالك له، والأول (أي الذي يصدر عن الفاعل على وجه الاستقلال) لا يطلب إلا منه، والثاني يطلب من غيره.

٢. الزخرف: ٨٠.

١. النساء: ٨١.

٤. التازعات: ٥.

٣. يونس: ٣١.

فتلخص من هذا البحث الضافي أن كل خضوع قلبي أو لساني أو خضوع فعلي لا يتصف بالعبادة إلا إذا اعتقد الخاضع بأن في المخضوع له، عنصر الإلوهية والربوبية، وأنه مستقل في الذات والفعل، أو في الفعل فقط، وأما إذا كان قلب الخاضع خالياً عن الاعتقاد بهذا العنصر، بل كان معتقداً بعبوديته وعدم مالكيته شيئاً، وعدم قيامه بأمر إلا بإذنه، وأنه ليس له دور سوى دور السببية، فطلب أي شيء منه لا يتسم بالعبادة، سواء أطلب منه القيام عن طريق أسباب طبيعية، أم القيام به عن طريق أسباب خارقة للعادة . وسواء اعتقد أن فيه سلطة غيبية يقوم بأعمال خارقة للعادة في ظلها أو لا

وسواء أكان المطلوب منه عاجزاً أم قادراً.

وسواء أطلب أموراً عادية كالسقي، أم أموراً غير عادية كبرء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى .

إذ ليس شيء منها هو العامل المؤثر لإضفاء العبادة على الطلب، وإنما المؤثر هو ما ذكرناه، وبذلك نقدر على القضاء في الموضوعات التالية التي وصفتها الوهاية بأنها شرك محرّم وهي:

١- طلب الشفاعة من الأنبياء والصالحين .

٢- الاستعانة بأولياء الله .

٣- طلب شفاء المريض من غير الله .

٤- دعوة الصالحين، مثل: يا محمد أغثني .

فإن الوهابيين تبعاً لشيخهم في المنهج يصورون جميع هذه الدعوات دعوات شركية أشبه بدعاء عبدة الأصنام .

ولكنك بعدما أحطت خبيراً بما ذكرنا سرعان ما ترجع وتقضي بحكمين مختلفين ينشآن من اختلاف عقيدة الداعي وتقول: إن كل واحد من هذه الأمور على وجهه، شرك، وعلى وجه آخر ليس بشرك، ولا يعلم أي واحد منهما إلا أن نقف على عقيدة السائل .

فلو كان المدعو في اعتقاد الداعي هو الله العالم أو غيره، لكن باعتقاد أن له سهماً من الإلهية أو الربوبية، فهو عبادة بلا شك، حتى لو سئل منه السقي بالماء وإيصاد الباب، وما شابههما من الأمور العادية البسيطة والمتعارفة.

وأما إذا كان المدعو حسب اعتقاد الداعي عبداً مرزوقاً ومربوباً محتاجاً، قائماً في ذاته بالله سبحانه، مستمداً في فعله منه، ولا يقوم بفعل إلا بإفاداره وإذنه، فلا يكون الطلب منه ولا دعاؤه متسماً بوصف العبادة، بل أقصى ما يمكن أن يقال هو أنه إذا كان المسؤول والمدعو قادراً على العمل، يكون الطلب مفيداً، وإلا يكون لغواً .

وبذلك يظهر أن الميزان في توصيف العمل بالشرك والانحراف عن خط التوحيد ليس هو صور الأعمال وظواهرها، بل المراد حقائقها وبواطنها. فما ورد في كلمات القوم من تشبيه عمل المسلمين بعمل عبدة الأصنام تشبيه باطل لا يعول عليه.

بقيت هنا كلمة وهي :

ما هو المراد من النهي عن دعوة غير الله ؟

إن الآفة كل الآفة هي أن الوهابيين كشيخهم ابن تيمية يسردون الآيات والروايات من دون أن يتفكروا في مفادها ومواردتها، ولكنهم يأخذون بالظواهر الابتدائية مع تناسي ما حول الآيات من القرائن، فتراهم يعدون دعاء الصالحين والاستغاثة بهم والطلب منهم شركاً، بحجة أنه سبحانه عد دعاء المشركين للأصنام والأوثان شركاً وقال:

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(١).

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾^(٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلَكُمْ﴾^(٣).

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾^(٤).

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾^(٥).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ...﴾^(٦).

٢. الرعد: ١٤.

٤. فاطر: ١٣.

١. الجن: ١٨.

٣. الأعراف: ١٩٤.

٥. الإسراء: ٥٦.

٦. الإسراء: ٥٧.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ...﴾^(١).

﴿وَمَنْ أَضَلَّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ﴾^(٢).

ترى أنهم يسردون هذه الآيات الواردة في حق المشركين المعتقدين بالوهية الأصنام وربوبيتهم، وكونهم مفوضاً إليهم القيام بالأفعال والأعمال، من الشفاعة والمغفرة، والشفاء وغيرها. يسردون هذه الآيات بصلافة وقحة في حق المسلمين الإلهيين الذين لا يعتقدون في حق الأنبياء والصالحين سوى كونهم عباداً مقربين، تستجاب دعوتهم إذا دعوا، ويقومون بحاجة المستنجد بإذنه سبحانه وقدرته، وإليك محصلها:

١- إن هذه الآيات وما ضاهاها تختص بالمشركين الذين كانوا يصورون أوثانهم وأصنامهم آلهة يملكون كشف الضر والتحويل، وينصرون بلا استئذان منه سبحانه، لأنهم يملكون هذا الجانب من الأفعال الإلهية، وأين هو من عقيدة المسلم الموحد في حق الأنبياء والصالحين من أنهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، وهم بأمره يعملون، وبإذنه يشفعون و...؟

٢- إن المراد من الدعاء في هذه الآيات، ليس الدعوة المجردة بمعنى النداء بل المراد هو الدعاء الخاص المرادف للعبادة، وليس ذلك بغريب، فقد جمع سبحانه في آية واحدة، بين الدعوة والعبادة، وفسر الأولى بالثانية

نحو قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١).

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «وسميت دعاءك عبادة، وتركه استكباراً، وتوعدت على تركه دخول جهنم داخرين»^(٢).

وما ورد في الحديث: «الدعاء مع العبادة» فالمراد هو هذا القسم من الدعاء، أي الدعاء المقرون بالوهبة المدعو بنحو من الأنحاء.

٣- إن المنهي عنه هو جعل المدعو في مرتبة الله الخالق، كما يعرب عنه قوله: ﴿وَ أَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٣) وكان هو أساس عبادة المشركين، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٤)، وقال: ﴿إِذْ نَسَوْنَكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥)، وأين هذه الآيات من الموحدنين الذين لا يرون مع الله شيئاً، بل يرون الكلّ دونه لكونهم مربوبين؟!

١. غافر: ٦٠.

٢. الصحيفة السجادية، الدعاء ٤٩.

٣. الجن: ١٨.

٤. سورة إبراهيم: الآية ٣٠.

٥. الشعراء: ٩٨.

الفصل الثالث

البدعة في الدين وما هو حدها؟

للتوحيد الإبراهيمي - و الذي يمثل حجر الأساس لجميع الأديان السماوية - مراتب ودرجات تعرّض لها المتكلّمون الإسلاميون بالبحث والدراسة بصورة شاملة ومفصلة، وسلّطوا الأضواء على جميع أبعادها وزواياها، وألّفوا في هذا المجال الكثير من الرسائل والكتب.

ومن مراتب التوحيد تلك مرتبة «التوحيد في التشريع والتقنين» بمعنى الاعتقاد الراسخ أن «حقّ التقنين» منحصر باللّٰه تعالى وحده، ولا يحق لأحد غيره مهما كان شأنه أن يصدر قانوناً أو تشريعاً من عند نفسه ليعالج به قضية، أو يرسم به خطأً معيّنًا، ويجبر الناس على السير على وفق ذلك القانون ويحدّ من حريّاتهم من خلال إلزامهم بذلك التشريع، بل يجب على كلّ موحد أن يلتزم نظرياً وعملياً بأنّ حقّ التقنين وإصدار التشريعات والتوجيهات ورسم الخطط وتحديد حرية الإنسان في هذا المجال، كلّها من شؤون اللّٰه وحده لا يشاركه فيها سواه. فهو صاحب الحقّ المطلق في التشريع، والتصرّف في الأنفس والأموال، وهو صاحب الأمر والنهي كما يصطلح عليه.

ويمكن إثبات هذه المرتبة من التوحيد من خلال سلوك منهجين،
هما:

١. المنهج العقلي.

٢. المنهج النقلي.

وهانحن نشرع في دراسة وتحليل المنهج الأول ثم نعرِّج على
الحديث عن المنهج الثاني منهما.

المنهج العقلي

إن قضية حصر التشريع والتقنين بالله وحده ليست وليدة ضيق الأفق
وقصر النظر والتعصب الأعمى، بل هي وليدة النظرة الموضوعية والرؤية
الواقعية للأمر، ونحن إذا أردنا أن ندرس الأمور بموضوعية وواقعية، لابد
أن نسلط الضوء على الخصائص والمواصفات التي ينبغي أن يتوفر عليها
المقنن الموضوعي الذي تكون تشريعاته وأحكامه مطابقة للواقع وتمتلك
خاصية المعالجة الموضوعية للأمر.

ومن هذا المنطلق نقول: إنه ينبغي للمقنن أن يتوفر على مجموعة من
الشروط والمواصفات التي لا تتوفر إلا بالله وحده وتنحصر به سبحانه،
وهي:

١. أن يكون المقنن ذا معرفة تامة وكاملة بالإنسان من جميع أبعاد
شخصيته وما يحيط بها ويؤثر عليها من العوامل.

٢. أن لا يتتفع المقتن بما يسنه من القوانين والتشريعات.

٣. أن يكون المقتن منزهاً عن الميول الحزبية والتكتلات الفئوية، ومتحرراً من ضغوط السلطات الحكومية وأصحاب النفوذ.

ومثلاً لا ريب فيه أن هذه الشروط الثلاثة لا يمكن توفرها إلا في خالق العالم وموجده لا غير، وذلك لأن:

ألف: لا بد أن يكون المقتن عالماً بالإنسان عالماً تماماً كي يتسنى له من خلال معرفة الإنسان والإحاطة بميوله وغرائزه وعواطفه أن يرسم له خطأ، ويسن لها قانوناً ينسجم مع تلك الغرائز والميول، ويمتلك القدرة على تهذيبها وتربيتها بنحو يسوقها نحو الهداية والكمال المنشود من وراء خلقها.

كذلك لا بد أن يكون المقتن ذا معرفة كاملة وعلم تام بالمجتمع بجميع أبعاده وخصوصياته وزواياه، حتى يتمكن من معرفة مهام ووظائف الأفراد في المجتمع من جهة ويعرف حقوقهم التي ينبغي للمجتمع توفيرها من جهة أخرى، كذلك يعرف أسلوب حركة الأفراد في المجتمع والعوامل المؤثرة على حركتهم، وردود الفعل التي يبدونها اتجاه تلك العوامل والضغوط.

ولا ريب أن هذه الخصوصية - المعرفة الكاملة بالمجتمع - هي الأخرى من خصائصه سبحانه ولا يشاركه فيها أحد من خلقه مهما كان، ولقد أشارت آيات الذكر الحكيم إلى هذه المسألة، حيث قال سبحانه:

«أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»^(١).

ثم إنَّ الله الذي خلق ذرات الإنسان وخلاياه التي لا تحصى وخلق أعضائه ومكوّناته المختلفة، هو وحده العارف بمتطلّباته وحاجاته المعلنة والخبفية، وما ينفعه وما يضرّه، ومصالحه ومفاسده، على أكمل وجه وأتم صورة، لا يدانيه في هذه المعرفة أحد أبداً، وهو وحده العالم بطريقة وأسلوب حركة المجتمع، ومنهج التعايش الذي ينبغي أن يعتمدونه، وردود الفعل التي يبدونها تجاه القوانين والتشريعات، وتحديد المهام والوظائف التي تكون عاملاً في انسجام المجتمع وسوقه إلى الاستقرار والرقي والكمال، ووضع الإنسان في الموضوع الذي يليق به ويستحقه.

ب: إنَّ الواقعية ورعاية مصالح الإنسان ومنافعه تقتضي أن يكون المقتن بعيداً عن كل أنواع الهوى، ومنزهاً عن حب الذات، والسعي لجلب المنفعة الشخصية أو الفئوية في سنّه للقوانين والتشريعات، وذلك لأنَّ الفرائز والميول الضاغطة على الإنسان كالأنانية والنفعية تُعدّ حجاً غليظاً ومانعاً قوياً بين المقتن وبين الرؤية الواقعية للأمور، وإنَّ المقتن مهما سعى أن يكون إنساناً موضوعياً منزهاً عن تلك الميول ومتحرراً منها، إلا أنها تفعل فعلها في اللاشعور ومن دون إرادته واختياره، وتؤثّر أثرها في التلاعب بالقانون والميل به عن جادة الواقعية والموضوعية.

ج: إنَّ الميول الحزبية والتوجّهات الفئوية والخوف من أصحاب النفوذ والقدرة في المجتمع تُعدّ هي الأخرى من العوامل التي تجنح بالمقتن

إلى الميل عن جادة الحق والموضوعية، وتحرفه عن أصول وأسس التفتين المتزنة والمحايدة، وتبعده عن النظرة الشمولية واعتماد منهج العدل والإنصاف، ولذلك تجد المقنن والمشرع وتحت ضغط عامل الخوف والخشية من أصحاب النفوذ والسطوة في المجتمع يسنّ القوانين بطريقة تؤمن مصالح ومنافع تلك الثلّة حتى لو كان ذلك على حساب المصلحة العامة وسحق الطبقات الأخرى.

ثم إن عامل الخشية والخوف من مراكز القدرة وأصحاب السطوة - أفراداً كانوا أو جماعات - يبقى كالسيف المرهف المسلط على رقبة المقنن يسوقه إلى الجهة التي يريدها صاحب السيف وذو السلطة والنفوذ بنحو تجعل المقنن يعيش بين خيارين: إما الخضوع إلى السلطة وتلبية رغباتها وسن القانون وفقاً لميولها وإرادتها والانجراف مع تيارها؛ وأما تحمّل أشدّ الضغوط والمصاعب كالسجن والإبعاد، أو على أقل تقدير المحاربة بلقمة العيش.

من هنا ندرك أهمية هذا الشرط وقيّمته في التشريع، وكيف يكون استقلال المقنن وتحزّره عاملاً فاعلاً في الرؤية الموضوعية، ومما لا شكّ فيه أنّ التحرر الكامل والنفوذ المطلق والغنى التام هو من خصائصه سبحانه وحده لا شريك له، ولهذا فهو الجدير بمقام التشريع وسن القانون ولا يستحق هذا المنصب غيره مهما كان.

ومن حسن الحظ أنّ بعض المحقّقين والمفكرين الغربيين تنبّهوا إلى هذا الشرط ومدى أهميّته في موضوعية القانون وواقعته من أمثال المفكّر

جان جاك روسو حيث يقول في كتابه «العقد الاجتماعي»: «لاكتشاف أفضل القوانين المفيدة للشعوب لابد من وجود عقل يرى جميع الشهوات البشرية ولكن لا يجد في ذاته ميلاً نحوها. عقل لا يرتبط بالطبيعة ولا يخضع لضغوطها، ولكنه يعرفها تمام المعرفة، عقل لا ترتبط سعادته بنا ولكنه مستعد لئن يعيننا في سعادتنا»^(١).

إلى هنا اتضح لنا حكم العقل في حصر حق التقنين والتشريع في الله وحده لا يشاركه في هذا الحق غيره مهما كان، وقد حان الوقت لدراسة المسألة من الزاوية الأخرى لنرى ما هي الرؤية القرآنية في هذه القضية الحساسة والمهمة؟

القرآن وحصر التشريع بالله سبحانه

لقد أقر القرآن الكريم حكم العقل بحصر حق التشريع بالله تعالى حيث اعتبرت آيات الذكر الحكيم أن حق التقنين خاصاً بالله وحده، ولا يحق لأحد مهما كان أن يتجاوز على هذا الحق أو يخترق حدود هذا المقام كائناً من كان، ومن الملاحظ أن الآيات التي وردت في هذا المجال كثيرة، نكتفي هنا بذكر نموذجين منها - فقط - روماً للاختصار:

١. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ

الْقَيِّمُ﴾^(٢).

فإن جملة: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» تحكي وبوضوح تام أن كافة أنواع الحكم والقوانين والدساتير من شؤونه ومختصاته وحده سبحانه وتعالى، وبما أن شأن الحكم والتقنين مختص به أردفت الآية الجملة المذكورة بالأمر بعبادته وحده والخضوع له لا لغيره «أَمْرًا أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ».

٢. وقوله تعالى: «وَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ»^(١).

إن الآية المباركة تشير وبوضوح تام إلى أن أهل الكتاب قد تجاوزوا الخط المرسوم لهم، واقتحموا دائرة الحق الإلهي في الانفراد في التشريع والتقنين، فمنحوا أحبارهم ورهبانهم هذا الحق، وأنهم بدلاً من الرجوع إلى الكتاب السماوي وأخذ الأحكام منه رجعوا في ذلك إلى أحبارهم ورهبانهم، ومن الواضح أن الرهبان والأحبار قد يحلّلون - ولأسباب ما - ما حرّم الله ويحرّمون ما أحلّ الله.

من هنا اعتبر القرآن الكريم أهل الكتاب غير موحدّين في التشريع ومنحرفين عن خط التوحيد.

روى الثعلبي بإسناده عن عدي بن حاتم - وقد كان نصرانياً - قال: أتيت رسول الله وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي «اطرح هذا الربق من عنقك» قال: فطرحتّه، ثم انتهيت إليه وهو يقرأ هذه الآية: «وَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا». حتى فرغ منها. فقلت: إننا لسنا

نعبدهم . فقال: «أليس يحرمون ما أحله الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟» قال: قلت: بلى. قال: «فتلك عبادة»^(١).

يتضح مما سبق أن مركز التشريع وسنّ القوانين وتنظيمها من مختصاته سبحانه وحده لا يشاركه فيها سواه. وأما عمل الأنبياء والأئمة ووظيفتهم فيكمّن في بيان تلك التشريعات والقوانين الإلهية، وأنهم عليهم السلام لا يتصرفون في القانون أبداً.^(٢)

سؤال وإجابة

إذا كان حقّ التشريع من شؤونه سبحانه وأنّ زمام أمر القانون بيده تعالى، فما هي ياترى وظيفة ومهام المجلس التشريعي في الجمهورية الإسلامية والمسمى «بمجلس الشورى»، فهل يعتبر وجود هذا المجلس تجاوزاً على الحق الإلهي واعتداء على حدود مقامه سبحانه في التشريع؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تكمن في مآلتين:

الأولى منهما هي: أنه ممّا لا ريب فيه أنّ كلّ دولة تسعى إلى الرقي

١. نور الثقلين: ٢/ ٢٠٩؛ بحار الأنوار: ٩/ ٩٨. وقد روى العلامة البحراني في تفسيره «البرهان» أحاديث جمّة بهذا المضمون فراجع ج ٢، ص ١٢٠.

٢. إذا ثبت أنّ حقّ التشريع وزمامه بيد الله سبحانه وحده دون سواه، فكيف يفسّر ما ورد في الكافي: ٢٠٩/ ١ - ٢١٠ من الأحاديث التي ثبت أنّ الرسول صلى الله عليه وآله قد شرع بعض الأحكام، والجواب: أنّ هذه الروايات لها تفسير خاص لا يتنافى مع القول بالترديد في التشريع وقد أجبنا عن الشبهة بصورة مفصلة في موسوعتنا «مفاهيم القرآن» فمن أراد الاطلاع فعليه بمراجعة: الجزء الأول ص ٥٥٣ - ٥٥٤، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ ط. إيران.

والرفاه وتنظيم أمورها وتسيير الحياة فيها على أكمل وجه، لا بد لها من وضع مؤسسة تتكفل بهذه المهمة، وتقوم برسم الخطط ووضع البرامج التي تسهل عملية حركة الشعب وتنظيم مسيرته. فإذا وجود مجلس أو مؤسسة تقوم بهذه المهمة أمر ضروري وحيوي لا يمكن الاستغناء عنه وتجاوزه. وهذا من الأمور الضرورية التي لا تحتاج إلى مزيد بحث ودراسة.

المسألة الثانية: بعد أن عرفنا أهمية المجلس التشريعي أو مجلس الشورى في إدارة البلاد وتنظيم حركتها لا بد من التركيز على هذه المسألة، وهي بيان الدائرة التي يتحرك فيها هؤلاء النواب وأعضاء المجلس المذكور، فهل هم يسيرون في دائرة مستقلة عن دائرة القوانين الإلهية وفي خط موازٍ للتشريع الإلهي؟ أم أنهم يتحركون في دائرة وإطار التشريعات الإلهية والقوانين السماوية، ويدورون في فلكها، ويعتمدون على الأصول الكلية والعامّة للإسلام؟

الحقيقة أن مجلس الشورى الإسلامي يتحرك في إطار القوانين العامة للإسلام، وليس مهمته إلا رسم الخطط والبرامج في هذا الإطار واعتماداً على هذه القوانين الكلية والأصول المسلمة، وليس له حق التشريع المقابل، ومن هنا نجد الدستور في الجمهورية الإسلامية وضع مؤسسة أخرى للتأكد من صيانة القوانين التي بسنها المجلس عن الانحراف عن الخط العام للتشريع الإسلامي، وقد أطلق على هذه المؤسسة اسم «مجلس صيانة الدستور».

ومن هنا يتضح أن تشكيل مجلس الشورى لا يمثل أبداً جهة مقابلة

ومضادة للحق الإلهي في التشريع، بل هو في الواقع يدور في فلكتها ويتحرك في إطارها وضمن أصولها المسلمة.

التصرف في التشريع الإلهي أو «البدعة في الدين»

كما أن حقّ التقنين والتشريع - وكما أثبتنا - منحصر بالله تعالى وحده ولا يحق لأحد مهما كان أن يتجاوز على هذا الحقّ ويعطي لنفسه أو لغيره حقّ التشريع وسن القوانين، كذلك لا يحق لأحد مهما كان التصرف والتلاعب في الأحكام والقوانين والتشريعات الإلهية الصادرة منه تعالى، سواء كان هذا التصرف يتمثل في الزيادة والإضافة، أو في الحذف والنقصان، فالكل «بدعة» لا يحق لأحد القيام بها. وإنّ المبتدع خارج عن إطار التوحيد في التشريع.

وبسبب المفسد والمخاطر التي تكمن في التصرف في القوانين والتشريعات الإلهية والتي عبر عنها «بالبدعة» اعتبرت «البدعة» من الذنوب الكبيرة والموبقات التي تهوي بصاحبها إلى الدرك الأسفل من النار.

ومن هنا اقتضت الأمور أن نعرف البدعة تعريفاً دقيقاً، ونحدّها «نعرفها» حدّاً منطقيّاً وعلمياً، ونسلط الضوء على جميع أبعادها وزواياها لتتضح لنا حقيقة الأمر وينجلي لنا الواقع، وذلك لأنّه يترتب على تعريف البدعة وتحديدّها بصورة دقيقة الكثير من الشمار العملية، ويمكن من خلالها أيضاً الإجابة عن الكثير من الإشكالات والتساؤلات والشبهات التي تثار في هذا المجال.

تعريف البدعة

في مقام تعريف البدعة لا بدّ من التحرك في محورين: التعريف اللغوي والاصطلاحي للبدعة.

البدعة لغة

تعرّض اللغويون لتعريف البدعة في مصنفاتهم التي دونوها لبيان معاني المصطلحات اللغوية.

فقال الخليل: البدع إحداث شيء لم يكن له من قبل خلق ولا ذكر ولا معرفة.^(١)

وقال ابن فارس: البدع له أصلان: ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال، والآخر الانقطاع والكلال.^(٢)

وقال الراغب: الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء ولا اقتداء.^(٣)

هذه هي بعض أقوال العلماء في هذا المجال.

ومما لا شكّ فيه أنّ روحية التجديد والحدائثة حاکمة على الإنسان، فهو يطمع إلى الجديد وترنو عينه إلى الحديث فلذلك تراه يعمل الحياة

٢. مقاييس اللغة: ١/٢٠٩، مادة وبدع.

١. كتاب العين: ٧٢.

٣. مفردات الراغب: ٣٨-٣٩.

الرتيبة الثابتة ويسعى إلى التجديد والتغيير، ومن هنا نجد المهندسين والمصممين للأزياء والأشكال في حركة دؤوبة وسباق جاد، بحيث تجد أنهم في كل يوم يأتون بنمط جديد يختلف عما سبقه على جميع الأصعدة. وقد يطلق على عملهم هذا لغة «البدعة» أو «البديع»، ومن هنا أطلق مصطلح «البديع» على الله سبحانه نفسه، حيث قال تعالى: «بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»،^(١) لأنه سبحانه قد ابتدع خلق السماوات والأرض والإنسان من دون مثال سابق.

والجدير بالذكر أن البدعة بهذا المعنى ليست هي محط بحثنا هنا، وبعبارة أخرى: ليست هي موضوع التحريم والنهي الذي ورد في النصوص. وذلك لأن الدين لا يضاد الحدائث، ولا يخالف التجديد، سواء على الصعيد الفردي أو الاجتماعي، فالمجتمع البشري الآن يعيش حالة من التنوع والتجديد في جميع نواحي حياته من المسكن والملبس والمركب والمشرب ووسائل التعليم وأساليبها... بنحو يختلف اختلافاً جوهرياً عما كان عليه الإنسان في الماضي، وهذه الأمور وإن كان التعريف اللغوي للبدعة يشملها بحيث يصح إطلاق لفظ البدعة لفة عليها، ولكن ذلك ليس من مصاديق البدعة في الاصطلاح والتي تعد من الذنوب الكبيرة.

ولقد حدثنا المؤرخون: أن أول بدعة حدثت بعد رحيل رسول الله ﷺ بين المسلمين أنهم عمدوا إلى نخل الدقيق وفصل السبوس «قشور الحب» عنه، ولا ريب أن هذه الظاهرة الفتية تُعد بدعة مستحدثة في

الحياة ليس لها سابقة، ولكن ذلك لا يعني أنها من مصاديق البدعة التي قال بحرمتها فقهاء المسلمين. ومن هنا اقتضى الأمر البحث في بيان البدعة التي هي موضوع الحكم الشرعي، أي البدعة التي حرّمها الشارع ونهى عنها.

البدعة في اصطلاح المتكلمين والفقهاء

لا ريب أن البدعة من المحرمات الشرعية والتي أكد الشارع على النهي عنها واجتنابها، واعتبرها من الذنوب الكبيرة التي تورد صاحبها النار، وتلقيه في المهالك، سواء كانت هذه البدعة بإضافة أشياء جديدة وتشريع قوانين مستحدثة، أو كانت تتمثل في حذف ونقصان بعض التشريعات. ومن هنا أولى المتكلمون والفقهاء هذه المسألة أهمية وعناية خاصة، وأشبعوها بحثاً وتحقيقاً، الأمر الذي يكشف عن أهميتها وخطورها في مجال الفكر الإسلامي.

وقد عرّف المحققون البدعة بتعاريف مختلفة، منها:

الف: عرّفها الشريف المرتضى بقوله: الزيادة في الدين، أو النقصان منه، مع إسناد إلى الدين.^(١)

ب: وعرّفها ابن حجر العسقلاني بقوله: المراد بالبدعة ما أحدث وليس له أصل في الشرع، وما كان له أصل يدلّ عليه الشرع فليس ببدعة.^(٢)

ج: وعرفها ابن حجر الهيثمي بقوله: ما أحدث وليس له أصل في الشرع، ويسمى في عرف الشرع بدعة.^(١)

ونكتفي بذكر هذه التعريفات الثلاثة ونغض النظر عن التعاريف الأخرى والتي لا تختلف عن هذه التعريفات اختلافاً جوهرياً.

وإذا أمعنا النظر في التعاريف المذكورة للبدعة، نجد أنها تعتبر مقومات البدعة المحرمة والتي تميزها عن «السنة» ثلاثة أمور أساسية، هي:

الأول: التدخل والتصرف في الدين عقيدة أو حكماً بزيادة أو نقيصة.

الثاني: أن لا تكون لها جذور في الشرع تدعم جوازها لا بالخصوص ولا بالعموم.

الثالث: أن تكون هناك إشاعة بين الناس.

وبعد أن عرفنا الأسس والمقومات الأساسية للبدعة - بصورة إجمالية -

نشرع في دراسة تلك المقومات بصورة مستقلة وعلى نحو التفصيل.

١. التدخل والتصرف في الدين عقيدة أو حكماً

لا ريب أن التدخل في الدين بالزيادة أو النقيصة، أو بعبارة أخرى: استهداف روح الدين وأحكامه وعقائده وإيجاد حالة من التحول والتغير فيه ونسبة ذلك إلى الله ورسوله ﷺ، يُعدّ من أنواع التصرف في الدين المنهي عنه تحت عنوان «البدعة»، وأما التجديد والحدائث التي لا يستهدف صاحبها

روح الدين وأحكامه وعقائده ولم يتصرّف فيها ولم ينسب ذلك إلى الله ورسوله ﷺ، وإنما يوجد حالة من التحوّل والتطوير في برامج الإجابة وطريقة الطرح ومنهجية العرض فقط، فإنّ كلّ ذلك لا يُعدّ من البدعة المصطلحة التي وقعت موضوعاً للنهي والحرمة، وإن كان يصدق عليه معنى البدعة لفة.

نعم قد يكون التصرّف هذا في حدّ ذاته غير جائز لسبب ما، ولكنّه على كلّ حال ليس من مصاديق البدعة المصطلحة.

يتّضح من البيان السابق أنّ قسماً من أعمالنا وتصرفاتنا - الأعمّ من الجائزة والمحرمة - لا يمكن أن تدخل تحت مظلة البدعة وإطارها، من قبيل لعبة كرة القدم والسلة والطائرة وأمثال ذلك، فإنّ كلّ هذه الأمور المستحدثة بالرغم من انتشارها في المجتمع وشيوعها في الأوساط لا يصدق عليها مصطلح البدعة أبداً.

وخذ على سبيل المثال أيضاً حالة الانفلات الجنسي ورفع الحواجز والموانع بين الرجال والنساء في المجتمع الغربي، واعتبار ذلك من الأمور الطبيعية التي يتلقاها المجتمع الغربي بالقبول، فإنّ هذه الحالة من الانفلات الأخلاقي والتهوّر الجنسي بما أنّها لم تنسب من قبل أصحابها إلى الله ورسوله ولم توسم بسمّة الشرعية، لا تُعدّ بدعة وإن كانت من وجهة نظر المشرّع الإسلامي تُعدّ من المحرّمات والذنوب الكبيرة.

الخلاصة: اتّضح لنا - من خلال ما سبق - أنّه قد أخذ في مصطلح

البدعة قيد «التصرّف في الدين».

وعلى هذا الأساس نحكم على الأمور المستحدثة بحكمين مختلفين تبعاً لتوفر الشرط وعدمه ، فإذا كانت الأمور المستحدثة لا تستهدف الدين ولا تنسب نفسها إلى الشرع ودين الله ورسوله، لا تدخل حيثئذ في إطار البدعة المصطلحة، سواء كانت تلك المستحدثات محللة كلعبة كرة القدم وغيرها، أو كانت محرمة كالاختلاط ورفع الحواجز بين الجنسين.

وأما إذا توفر الشرط «التصرف في الدين» فهي بدعة محرمة منهي عنها.

٢. عدم وجود الدليل الداعم للنظرية المطروحة من الكتاب والسنة

الشرط الثاني لصدق عنوان البدعة المصطلحة هو أن تفتقد الظاهرة المستحدثة الدليل الداعم والمؤيد لها من الكتاب والسنة لا على نحو الخصوص ولا على نحو العموم، ولذلك تعتبر - لهذا السبب - تصرفاً في الدين وتجاوزاً على حدود الشريعة، وأما إذا كانت الظاهرة المستحدثة تتوفر على السند الشرعي المؤيد لها فحيثئذ لا يمكن اعتبارها تصرفاً في الدين وبدعة في الإسلام، بل تعتبر في حقيقة الأمر تجسماً وتفعيلاً لأصل قد غفل عنه الآخرون في الوقت الذي التفت إليه صاحب النظرية المستحدثة.

وهذا الشرط المذكور أعلاه قد صرح به في تعريف البدعة حيث قالوا: «البدعة ما أحدث وليس له أصل في الشرع».

وعلى هذا الأساس يتضح أن الكثير من الأمور المستحدثة المعاصرة لا تُعدّ من مصاديق البدعة في الدين، وإن نسبها إلى الدين، وذلك لأنّ هذه الأنواع من الخدائثة لها جذورها في الشريعة بنحو يمكن استنباط مشروعيتها من الكتاب والسنة إما على نحو الخصوص، أو ثبت مشروعيتها بصورة عامة.

خذ على سبيل المثال الجيوش في البلاد الإسلامية عامة وفي الجمهورية الإسلامية خاصة، فإنها مجهزة بأحدث التجهيزات والمعدات العسكرية الحديثة والمتطورة، بنحو ترفع درجة القدرات القتالية للمجندى المسلم إلى درجة عليا، ومن الواضح أنّ هذه المعدات وأسلوب التدريب العسكري والنظام الذي يعتمد في الجيوش المذكورة ليست له سابقة مماثلة في الجيوش في صدر الإسلام وما تلاه من القرون الطويلة. ولكن ذلك التطور وهذا التحول يمكن أن نلنفس له دليله الشرعي الداعم والمؤيد له في كتاب الله المجيد حيث قال سبحانه:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(١)

فقد ورد في الآية المباركة أمران، أحدهما خاص والآخر عام.

١. أما الدستور والأمر العام فيتمثل في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا

اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

٢. وأما الدستور الخاص فيتمثل في قوله تعالى: «وَمِنْ رِيسَاطِ

الغَيْلِ».

وعلى هذا الأساس يكون تجهيز الجيش بأحدث الأسلحة المتطورة وتدريب الجندي على أحدث الفنون القتالية وتعليمه أنواع الأساليب الحربية، داخلاً تحت إطار الأمر الأول «العام» المتمثل في قوله تعالى: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»، ومن هنا يمكن ويلا ريب الاستناد إلى هذه الآية لرفع القدرات القتالية للجيش الإسلامي ونسبتها إلى الله سبحانه والشرع الإسلامي، إذ يمكن لنا أن نقول - و بحق - : إنَّ الله أمرنا بإعداد القوة وتطوير الجيوش الإسلامية، ولا يعتبر عملنا هذا بدعة في الدين وتجاوزاً على الحدود الإلهية. بالرغم من أنه لم تتم الإشارة إلى ذكر المعدات الحربية والوسائل القتالية بصورة خاصة. إذاً الآية أشارت إلى الأمر بصورة كلية، وتركت الأمر في تحديد الوسائل والطرق إلى الحكومة هي التي تتكفل بوضع الخطط المناسبة وشراء المعدات الحديثة التي تحقق المفهوم الكلي والمعنى العام الذي صدر الأمر الإلهي به، وهو إعداد القوة والتهيؤ لمواجهة العدو «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ».

٣. الإشاعة بين الناس

الشرط الثالث لتحقيق مفهوم البدعة وصدقها هو أن تكون هناك إشاعة، ونشر للأمر المستحدث بين الناس، وهذا الشرط وإن لم يؤخذ في تعاريف «البدعة» إلا أنه كامن في حقيقتها. وهناك الكثير من القرائن التي

تدلّ عليه، فعلى سبيل المثال قد وردت روايات كثيرة توجب الرد على البدع والمبتدعين ومواجهتهم والتصدي لهم.

ولاشكّ أنّ هذا الأمر يكشف عن رواج وانتشار البدعة وشيوعها من قبل أصحابها ونشرها في أوساط المسلمين.

روى مسلم في صحيحه عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(١).

إنّ هذه الرواية وأمثالها تحكي عن أنّ الظاهرة المستحدثة والتصرف في الدين في الزيادة أو النقيصة إذا كان لوحده وفي بيته ومنزله ولم يطلع عليه أحد من الناس بأن يزيد في صلاته أو ينقص منها أو ...، فإنّ ذلك كله لا يُعدّ «بدعة» وإن كان معصية وحراماً، نعم البدعة تتوقّف على إشاعة الفكرة الخاطئة والنظرية المبتدعة بين الناس وفي المجتمع ودعوتهم إليه بعنوان أنّه من الشرع.

ومع الالتفات إلى هذه الشروط الثلاثة للبدعة يتّضح لنا جانب مهم من جوانب «مفهوم البدعة».

تحريم البدعة في القرآن الكريم

كما ذكرنا ان البدعة تعتبر تدخلاً في الشأن الربوبي وتجاوزاً على حدود الله في التقنين والتشريع، وذلك لأن مهمة «التقنين» حق خاص به سبحانه ولا يتعدى منه إلى غيره، وان كل أنواع التدخّل في هذا الشأن يعتبر اعتداءً وانتهاكاً لحدوده سبحانه وتجاوزاً على حقه تعالى. أضف إلى ذلك أن نسبة أي حكم أو تشريع أو قانون إلى الله تعالى من دون دليل وسند شرعي، يعتبر «افتراءً» و«كذباً» على الله ورسوله ﷺ.

وبسبب وجود هاتين الخاصيتين في البدعة نجد القرآن الكريم قد ذم البدعة والمبتدعين وردّ عليهم، فعلى سبيل المثال نجده يردّ على المشركين في تقسيمهم النعم الإلهية إلى قسمين بعضها حلال وبعضها الآخر حرام، ونسبوا ذلك إلى الله سبحانه بلا دليل فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾^(١)

وقال تعالى في آية أخرى:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾^(٢)

١. يونس: ٥٩.

٢. النحل: ١١٦.

إن ذم المبتدع في هذه الآية المباركة ينطلق من كون عمله تدخلاً في التشريع والتقنين الإلهي، وأنه افتراء على الله سبحانه، حيث حرّموا وحلّلوا من عند أنفسهم ومن دون إذنه سبحانه ونسبوا كل ذلك إليه تعالى.

كما ذم القرآن الكريم اليهود والنصارى لتلاعبهم وتصرفهم في كتبهم السماوية وتحريفهم لكلام الله وأحكامه سبحانه ثم نسبة ذلك التصرف كله والتغيير إلى الله سبحانه ليصلوا من خلال هذا الطريق المنحرف والمنهج الملتوي إلى تحقيق أهدافهم ومآربهم المادية والدينية، قال تعالى:

﴿قَوْلِيلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

البدعة في السنة

لقد تصدّى الرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته بقوة لأصحاب البدع والمتلاعبين بأحكام الله وقوانينه، واعتبروا عمل المبتدعين تصرفاً مذموماً في الدين والشريعة، وأن عملهم هذا يعدّ ضلالاً وغواية لهم وللآخرين ممن يتبعهم في بدعتهم وتحريفهم. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى الرواية التي نقلها علماء المسلمين عن الرسول الأكرم ﷺ والتي يكثر خطباء الجمعة افتتاح الخطبة بها، وهي قوله ﷺ:

«أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهدى هدى محمد،

وشرُّ الأمور محدثاتها، وكلُّ بدعة ضلالة»^(١).

نكتفي بهذه الرواية من بين الروايات الكثيرة التي وردت في هذا المجال، والتي ذكرنا ثلاثين رواية منها في كتابنا «في ظلال التوحيد» فمن أراد المزيد من الاطلاع فعليه بمراجعة المصدر المذكور.^(٢)

وبالإضافة إلى موقف القرآن الكريم والسنة المطهرة الصارم من البدعة والمبتدعين، نجد العقل أيضاً يذمُّ ذلك الفعل الشنيع ويستقبجه، لأنه في الحقيقة يعدّه تعدياً على حدود الله، وتجاوزاً على حريمه سبحانه وتعالى من جهة أخرى، وافتراء وكذباً عليه سبحانه، وكلُّ ذلك من الأمور الشنيعة والقيحة التي يذمُّ العقل صاحبها، وينهى عن ارتكابها بنحو لا يحتاج إلى مزيد تفصيل وبحث ودراسة.

خلاصة البحث

قد خرجنا من البحوث السابقة بالنتيجة التالية:

١. انَّ حقَّ التّقين أمرٌ منحصرٌ بالله وحده، وأيُّ نوعٍ تدخّل في هذا الحقِّ وتجاوز على حدوده، أمرٌ يستقبجه العقل ويذمه الشرع وينهى عنه.
٢. انَّ انحصار حقِّ التّقين بالله تعالى ينطلق من كون المقتنّ لا بدّ أن يتوفّر على الخصائص والشروط التالية:

١. مسند أحمد: ٣ / ٣١٠؛ ومثله في سنن ابن ماجه: ١ / ١٧، الباب ٧، الحديث ٤٥.

٢. انظر ص ٦٣ - ٦٩.

أ. المعرفة الكاملة بالإنسان وخصوصياته.

ب. عدم الانتفاع والاستفادة من القانون الذي يسُنّه ويقرره.

ج. عدم الخوف والخشية من أصحاب النفوذ والسطوة والتحرر من

هيمنتهم.

ولا ريب أن هذه الخصوصيات لا يمكن توفرها مجتمعة وبالنحو

الأكمل إلا في الله سبحانه لا يشاركه فيها سواه.

وأما القوة التشريعية في النظام الإسلامي، فمهمتها الحركة في فلك

التشريع الإسلامي وإطار الأصول الكلية المسلمة، وسن القوانين والأحكام

والتشريعات، ورسم الخطط على أساسها، ولا يحق لتلك القوة بأي وجه

الاستقلال في التقنين والتشريع.

٣. إن أي تجاوز على حدود التقنين يُعدّ أمراً محرّماً وممنوعاً، فعلى

هذا الأساس تعتبر أي زيادة في أحكام الله وقوانينه أو الإنقاص منها أمراً

محرّماً، وتقع تحت عنوان البدعة المصطلحة التي نهى الشارع عنها.

٤. إن عنوان البدعة المصطلحة إنما يصدق على الأمور المستحدثة إذا

توفرت فيها الشروط الثلاثة التالية:

أ. التدخّل في الدين عقيدة وحكماً بزيادة أو نقيصة ونسبة ذلك إلى

الدين.

ب. أن تكون هناك إشاعة ودعوة في أوساط المجتمع.

ج. أن لا يكون هناك دليل في الشرع يدعم جوازها لا بالخصوص ولا بالعموم.

٥. لقد ذمَّ القرآن الكريم المبتدعين باعتبارهم مفترين على الله ورسوله، واعتبر ما قاموا به من التدخُّل في التقنين أمراً محرماً، كما ذمَّ أهل الكتاب لتصرفهم وتلاعبهم في الكتب المقدَّسة وتحريفهم لها.

وهكذا كان موقف السنَّة الشريفة من البدعة والمبتدعين حيث وقفت موقفاً صارماً منها بدرجة اعتبرت الروايات الصادرة من الرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته ﷺ ذلك الفعل من أقبح الأفعال وحكمت عليه بالضلالة والانحراف الموجبين لإثارة الغضب الإلهي والدخول في الجحيم.

٦. إنَّ العقل هو الآخر ذمَّ البدعة واعتبرها أمراً قبيحاً لا ينبغي ارتكابه، وبذلك أيدَّ العقل حكم الشرع في هذه القضية المهمة.



بعد أن تعرَّفنا على المعنى اللغوي والاصطلاحي للبدعة وموقف العقل والنقل منها، لابدَّ من الانتقال إلى الحديث عن بعض الأمور الفرعية التي لا يخلو البحث فيها هنا من الفائدة، وهي:

تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة

من التقسيمات الرائجة لدى بعض الكتاب تقسيم البدعة إلى جميلة وقبيحة، أو حسنة وسيئة.

وفي الحقيقة تعود جذور هذا التقسيم تاريخياً إلى قول الخليفة عمر بن الخطاب، وبالتحديد إلى السنة الرابعة عشرة للهجرة عندما جمع الخليفة الناس للصلاة بإمامة أبي بن كعب في شهر رمضان في صلاة النافلة. ووصف الجماعة المذكورة بقوله: «نعم البدعة هذه».

فقد روى البخاري ذلك في صحيحه وقال: قال عبد الرحمن بن عبد القاري: خرجت مع عمر بن الخطاب ليلة رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون ... فقال عمر: إنني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب، ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم. فقال عمر: «نعم البدعة هذه».^(١)

ونحن هنا لسنا بصدد البحث عن جواز إقامة الصلاة المستحبة جماعة أو عدم جوازه، بل نحن في الحقيقة في مقام البحث في التقسيم المذكور الذي كان مصدره كلام الخليفة الثاني.

لقد ذكرنا سابقاً أن البدعة التي تحدث عنها الكتاب والسنة هي التدخل في أمر الدين بالزيادة أو النقص، والتصرف في التشريع الإسلامي من دون أن تكون لهذا التصرف والتدخل جذور في التشريع الإسلامي تدعمه لا على نحو العموم ولا على نحو الخصوص، ومن هنا لا تكون البدعة إلا أمراً قبيحاً محرماً، ولا يصح تقسيمها إلى حسنة وقبيحة بأي وجه من الوجوه.

١. فتح الباري: ٢٠٣/٤؛ عمدة القاري: ١٢٥/٦؛ وانظر الصحيح: ٥٨/٣، كتاب الصوم، باب فضل قيام

نعم البدعة بالمعنى اللغوي تنقسم إلى قسمين، فكل شيء مستحدث أو ظاهرة مستجدة يعتمدها الناس في حياتهم اليومية من العادات والتقاليد والرسوم، إذا قاموا به من دون إسناده إلى الدين ولم يكن ذلك الشيء محرماً بالذات شرعاً، كان بدعة حسنة، أي كونه أمراً جديداً مفيداً للمجتمع، كما إذا احتفل الشعب بذكرى استقلاله في كل عام، أو اجتمع للبراءة من أعدائه.

وأما ما كان محرماً في ذاته فهو محرّم ومنهي عنه ولكن ليس من باب البدعة، لأن الحرمة ناشئة من سبب آخر وهو وجود المفسدة في نفس ذلك الفعل، مثل دخول النساء متبرجات في مجالس الرجال.

إذا البدعة المصطلحة ليس لها إلا قسم واحد وهو كونها أمراً قبيحاً ومذموماً، ولا يصح وصفها بحال من الأحوال بالحسنة، وأما البدعة لغة فيمكن أن تقسم إلى التقسيمين المذكورين.

وفي الحقيقة أن هذا التقسيم للبدعة إلى حسنة وسيئة في حقيقته خلط للبدعة في المصطلح الشرعي بالبدعة اللغوية.

عوامل التحريف في الدين

بالرغم من أن حقيقة الدين وجوهره تكمن في «التسليم والخضوع أمام الله سبحانه» وأن قسماً كبيراً من العقائد والأحكام الإسلامية تنبع من هذا الأصل الكلي، من هنا يطرح السؤال التالي:

كيف يتسنى للإنسان المسلم القيام بعملية التحريف؟ وما هي العوامل

التي تحثه على القيام بذلك العمل؟ وما هي الغاية التي يتوخاها من وراء ذلك؟

نشير هنا إلى بعض تلك العوامل والأهداف والتي تندرج جميعها تحت مظلة «الاجتهاد في مقابل النص»:

١. التقدّس والتجبر

هناك بعض الناس ممن يضيفي على تصرفاته الشخصية وتلاعبه في الأمور الدينية وتدخله في التشريع نوعاً من القداسة، وقد حدّثنا التاريخ عن الكثير من هذه النماذج، نشير إلى نموذج واحد منها، وهو:

من المسلم به أن الصوم محرّم على المسافرين، ومن هنا حينما خرج الرسول الأكرم ﷺ لفتح مكة المكرمة في شهر رمضان، فعندما وصل إلى نقطة يجب عليه الإفطار فيها دعا ﷺ بقدرح من الماء ليفطر به وينهي صومه وأفطر معه جمع كبير من المسلمين، ولكن - وللأسف الشديد - وقف أمام هذا الحكم الإلهي مجموعة من المتجبرين والمتقدّسين حيث استمروا على صيامهم تحت ذريعة أن التوجّه إلى الجهاد وهم صيام أفضل من غيره وأكثر ثواباً! ولكن حينما وصل خبرهم إلى النبي الأكرم ﷺ وصفهم بالعصاة والمذنبين.

روى الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن رسول الله ﷺ خرج من المدينة إلى مكة في شهر رمضان ومعه الناس وفيهم المشاة، فلما انتهى

إلى كُرَاع الغمِيم دعا بقَدَح من ماء فيما بين الظهر والعصر، فشرب وأفطر، ثم أفطر الناس معه، وتم أناس على صومهم، فسَمَّاهم رسول الله العِصاة، وإنما يؤخذ بآخر أمر رسول الله. (١)

٢. اتباع الهوى

من الواضح أن لكل موضوع حكماً واحداً في الشريعة وقانوناً فardاً لا غير، فلا يمكن أن يكون للموضوع الواحد أكثر من حكم واحد في آن واحد وبلحاظ واحد. ولهذا نجد أن القسم الأعظم من الاختلافات التي وقعت بين المسلمين في الأحكام والمفاهيم نابعة من اتباع الهوى والرغبات والميول الشخصية، وإذا أحسننا الظن نقول: إنها ناتجة من الاختلاف في الذوق والسليقة الشخصية، ولقد أشار أمير المؤمنين في إحدى خطبه إلى هذا الأمر بقوله عليه السلام:

«أيها الناس إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله». (٢)

ولقد حدثنا التاريخ الإسلامي بشواهد كثيرة من هذه البدع التي أحدثت في الإسلام، نكتفي بذكر نموذجين منها فقط، هما:

١. من المعلوم أن أحد أقسام الحج هو حج التمتع، وهو وظيفة المسلم الذي يبعد موطنه عن مكة المكرمة ٤٨ ميلاً شرعياً أو أكثر، وإن

١. الكافي: ٤ / ١٢٧، باب كراهية الصوم في السفر، ح ٥؛ صحيح مسلم: ٧ / ٣٣٢.

٢. الكافي: ١ / ٥٤، الحديث ١، باب البدع.

وظيفة من يحجّ حجّ التمتع أن يحل من إحرامه بعد أداء مناسك العمرة، فتحل له محرّمات الحجّ جميعاً إلا الصيد، ثمّ يحرم مجدداً في اليوم التاسع من ذي الحجة بنية حجّ التمتع ويأتي بأعمال الحجّ المفروضة عليه.

وقد نقل لنا المؤرّخون المسلمون أنّ هذا الحكم الإلهي لم يرق لواحد من الصحابة في حياة رسول الله ﷺ، إذ لم تطق نفسه أن يرى الحاجّ متنعماً باللذائذ الجنسية المحلّلة بين إحرامي المتعة وإحرام الحجّ، وأنّه كيف يحرم إلى الحجّ ورأسه يقطر من غسل الجنابة! ولذا نجد الرجل حينما استلم دفعة الأمور وتصدّى للخلافة نهى المسلمين عن ذلك وحرمّ عليهم متعة الحجّ.^(١)

قال القوشجي في أواخر مبحث الإمامة من شرح كتاب التجريد في علم الكلام: إنّ عمر قال وهو على المنبر: أيها الناس! ثلاث كنّ على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنهن وأحرمتهنّ وأعاقب عليهنّ: متعة النساء، ومتعة الحجّ، وحيّ على خير العمل.^(٢)

ومن الواضح أنّ هذا الموقف من الخليفة وهذا الأمر الصادر منه مخالفة صريحة لأمر الله ورسوله ﷺ، يُعدّ بدعة في الدين، لأنّه لا مبرر له ولا سند له إلا الميول والرغبات النفسية والأهواء الشخصية.

ومن حسن الحظ أنّ هذا النهي لم يترك أثره في أوساط المسلمين إلا فترة قصيرة، حيث نجد الآن أنّ قاطبة المسلمين من أهل السنّة يحجّون حجّ التمتع كإخوانهم الشيعة.

٢. شرح التجريد: ٤٨٤، طبع إيران.

١. سنن أبي داود: ١٥٦/٢، رقم الحديث ١٧٨٩.

٢. نقل مالك بن أنس إمام المذهب المالكي في «الموطأ»: أنه بلغه أنَّ المؤذَّن جاء إلى عمر بن الخطاب يؤذنه لصلاة الصبح، فوجده نائماً فقال: الصلاة خير من النوم، فأمره عمر أن يجعلها في نداء الصبح.^(١)

٣. التعصب الممقوت

ومن العوامل التي تؤدِّي إلى نشوء ظاهرة الابتداع في الدين هو عامل التقليد الأعمى للأبَاء والأجداد، والتعصب الممقوت لسننهم وأدابهم التي كانوا عليها، القلبية منها والقومية، وما شاكل ذلك، فإنَّ هذا العنصر يُعدُّ من أعظم السدود والموانع التي تقف في طريق المعرفة وتحول بين الإنسان وبين الوصول إلى الحقِّ. وهذا المانع هو الذي حال بين الأمم - عبر التاريخ - وبين دعوة الأنبياء والرسل ﷺ، بالرغم من متانة البراهين وقوة الأدلة التي جاء بها هؤلاء الرسل ﷺ. وليس التاريخ الإسلامي مستثنى من هذه الظاهرة الخطيرة.

فقد حدَّثنا التاريخ أنه حينما جاء وفد من الطائف إلى الرسول ﷺ ليعلنوا استعدادهم للتشرف بالدين الإسلامي الحنيف والدخول تحت راية الإسلام الحقَّة، جعل الوفد المذكور إسلامهم مشروطاً بثلاثة شروط هي:

١. أن يحلَّ لهم الربا.

٢. أن يحلَّ لهم الزنا.

١. موطأ مالك: ٧٨، رقم ٨.

٣. أن يدع لهم اللات يعبدونها ثلاث سنين.

يقول المؤرخون: اقترح تميم بن جراشة على النبي ﷺ - عندما جاء على رأس وفد من الطائف يخبره بإسلام قومه - أن يكتب لهم كتاباً، بأن يفِي لهم بأمور، يقول: قدمت على النبي ﷺ في وفد ثقيف فأسلمنا وسألناه أن يكتب لنا كتاباً فيه شروطاً، فقال ﷺ: اكتبوا ما بدا لكم ثم أتوني به، فسألناه في كتابه أن يحل لنا الربا والزنا، فأبى علي ﷺ أن يكتب لنا، فسألنا خالد بن سعيد بن العاص، فقال له علي: «تدري ما تكتب؟» قال: اكتب ما قالوا، ورسول الله ﷺ أولى بأمره.

فذهبنا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ، فلما انتهى إلى الربا قال: «ضع يدي عليها في الكتاب» فوضع يده، فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا»^(١) ثم محاها، وألقيت علينا السكينة فما راجعناه، فلما بلغ الزنا وضع يده عليها وقال: «وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً»^(٢) ثم محاها وأمر بكتابتنا أن ينسخ لنا.^(٣)

ورواه ابن هشام بصورة أخرى قال: وقد كان مما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية، وهي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين.^(٤)

وهذه الواقعة تكشف شدة التعصب المقيت الذي كان يهيمن على

١. البقرة: ٢٧٨.

٢. الإبراء: ٣٢.

٣. أسد الغابة: ٢١٦/١، مادة «تميم» و٣/٤٠٦.

٤. السيرة النبوية: ٥٣٧/٢ - ٥٤٣.

وفد الطائف، الأمر الذي جعل الرسول الأكرم ﷺ يندهش عند سماع هذه الشروط ويرفضها جملة وتفصيلاً.

ولو كان أهل الطائف قد أسلموا إسلاماً حقيقياً، لكان ينبغي عليهم ألا يتفوهوا بهذه الشروط التافهة وأن يسلموا لله ورسوله ويدعنوا إلى الحق ويرفضوا جميع أنواع الباطل، لا السعي للحصول على اعتراف من الرسول الأكرم ﷺ بأمر ذميمة تنافي روح الإسلام وجوهره ومبادئه الحقّة، وإذا أردنا أن نحلّل هذا الطلب من قبل وقد ثقيف وندرسه دراسة دقيقة، لوجدنا وبوضوح تام أن عنصر العصبية الممقوت هو العامل الفاعل في الطلب المذكور وإن كانت هناك عوامل أخرى غيره.

إلى هنا تمّ الحديث عن العلل والعوامل المساعدة على نشوء ظاهرة الابتداع في المجتمع، وهناك عناصر وأسباب أخرى لم نذكرها روماً للاختصار.

تحصين الدين من الابتداع

من مهام الفقهاء والمتكلمين الأساسية مهمة تحصين الدين من خطر الابتداع وحماية حدود الشريعة من التلاعب فيها والتجاوز على حريمها من خلال دس الأفكار المسمومة والتي تؤطّر بأطر جميلة، وتغلّف بغلاف براق. فعلى الفقهاء والمتكلمين أن يكونوا حذرين ويقظين أمام هذه المحاولات الخادعة، ويتابعوا كل ما يصدر أو ينشر من كتاب أو رسالة أو مقالة أو خطاب أو ما شاكل ذلك للتصدّي لها، وبيان زيفها ومخالفتها

لمفاهيم وقيم الدين الإسلامي الحنيف. ليصونوا بذلك المجتمع الإسلامي عن الانحراف والانزلاق في مهاوي المبتدعين.

ولا ريب أن مصونية المجتمع الإسلامي عن الانحراف والسقوط في شبك البدعة والمبتدعين مرهونة بأن يأخذ المسلم دينه من العين الصافية والنعيم العذب الذي يتمثل بالكتاب الكريم والعترة الطاهرة، اللذين أوصى الرسول الأكرم ﷺ بالتمسك بهما في حديث الثقلين، فقد تواتر عن الفريقين أن الرسول الأكرم أرجع الأمة إلى هذين المصدرين، وأمرها بالتمسك بهما لصيانة نفسها عن الانحراف والضلال، فقال ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وأهل بيتي؛ وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»^(١).

وفي رواية أخرى: «يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي»^(٢).

وفي الثالثة: «إني تركت ما إن تمسكنم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض. فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(٣).

والحديث الآخر الذي ورد عن الرسول ﷺ والذي يُعدّ هو الآخر صمام الأمان للأمة الإسلامية من الانحراف، حيث بيّن الرسول الأكرم ﷺ

١. مسند أحمد: ١٤٨/٥، وقد نقل الحديث بصورة متواترة.

٢. كنز العمال: ٤٤/١، أخرجه الترمذي والنسائي عن جابر.

٣. كنز العمال: ٤٤/١، أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم.

فيه الملاذ والمرجع الذي ينبغي على الأمة اعتماده والدخول تحت خيمته هو حديث السفينة حيث شبه ﷺ أهل بيته بسفينة نوح ﷺ التي كانت العنصر الوحيد للهداية والسلامة في وقتها فقال ﷺ: «ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من قومه، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق»^(١).

فلو أن الأمة الإسلامية تمسكت في فروعها وأصولها بأذيال هذين المصدرين الأساسيين: القرآن الكريم وأهل بيت الوحي والطهارة مجتمعين، لاهتدت إلى الصراط المستقيم، ولوصلت إلى أرقى درجات الكمال والهداية والرشاد، ولصانت نفسها عن كل فكر غريب وبدعة في الدين.

إلى هنا أتضح لنا معنى «البدعة» و حدودها وشروطها والفرق بينها وبين «السنة» وسيكون هذا الأصل بمنزلة المفتاح الأساسي والرئيسي في حل الكثير من الإشكاليات التي تعترض طريقنا في البحوث القادمة إن شاء الله تعالى.

هل الاحتفال بالمواليد من التقاليد أو من صميم الدين ؟

البحث المهم في المقام هو تعيين حكم هذا المصداق، وأن الاحتفال بميلاد النبي هل هو كالاحتفال بمواليد سائر الأفراد كالأباء والأجداد أو

١. رواه الحاكم في مستدركه بسنده عن أبي ذر: ١٥١/٣.

الأولاد الذي جرى عليه ديدن العقلاء في العالم؟ أو أن الاحتفال به يعدّ من الأمور الدينية؟

لا أظن أن من لمس روح الاحتفالات والمهرجانات التي تقام بين المسلمين يوم الميلاد وغيره أن ينسبها إلى التقاليد والرسوم والآداب القومية، فإن ذلك شيء لا يلائم روح الاحتفالات وأغراض المقيمين لها، فلا شك أنهم يقومون به باسم الدين، ويرجون ثواباً جزيلاً في عقباهم، فالإصرار على أنه من الآداب والرسوم خطأ، لا يتفوّه به من شاهدها وعابنها وعاشر المقيمين لها، فيجب على المسوغ والمانع البحث في أمر آخر، وهو أنه هل لهذا الأمر أصل في الشريعة على الوجه الكلي حتى يكون الاحتفال تجسيداً له في هذه الظروف، أو ليس له أصل في الشريعة حتى يكون بدعة؟ والأسف كله أن المانعين والمسوغين لم يركّزوا على هذا المهم إلا القليل منهم^(١) فعلى من يحاول حسم مادة الخلاف تبين تلك النقطة الحساسة، وترك ما يثار حوله من الجدال والحوار.

فتقول:

إن كون شيء أمراً جائزاً في الدين على قسمين:

تارة يقع النص عليه بشخصه، كالاحتفال في عيدي الفطر والأضحى، أو الاجتماع في عرفة ومنى، فلا شك أن هذا الاجتماع والاحتفال أمر به الشارع بشخصه، فخرج به عن كونه بدعة.

١. ولقد أعطى العلامة الحجة السيد جعفر مرتضى في كتابه القيم «المواسم والمراسم» للتحقيق في هذا المجال حقه. شكر الله مساعيه.

وأخرى يقع النص عليه على الوجه الكلي، ويترك انتخاب أماليه وأشكاله وألوانه إلى الناس حسب الظروف ورعاية المقتضيات، وإليك بعض الأمثلة :

١- ندب الشارع إلى تعليم الأولاد ومكافحة الأمية، ولا شك أن لهذا الأمر الكلي أشكالاً أو ألواناً حسب تبدل الحضارات وتكاملها، فلو كان التعليم والكتابة في الظروف السابقة متحققة بالكتابة بالقصب والحبر، وجلس المتعلم أمام المعلم على الأرض في الكتاتيب، فقد تطورت كيفية التعليم من هذه الحالة البسيطة إلى حالة تستخدم فيها الأجهزة المتطورة، حيث أصبح الناس يتعلمون عن طريق الإذاعة والتلفاز، و (الكمبيوتر)، والأشرطة، إلى غير ذلك من وسائل التعليم وأجهزة الإعلام، سواء أكان ما يذيعه تعليمياً أم تبليغياً، فالشارع أمر بالتعليم والتعلم، وحوّل اتخاذ الأساليب إلى الظروف والمقتضيات، ولو كان مصراً على لون خاص من كيفية التعليم، لفشل في طريق هدفه المقدس، لأن الظروف ربما لا تناسب الأداة الخاصة والكيفية المختصة التي يعينها ويحددها.

٢- ندب الإسلام إلى الإحسان إلى اليتامى، والتحنن عليهم وحفظ أموالهم، وتربيتهم، غير أن هذا الأمر الكلي له ألوان وأساليب مختلفة، تجاري مقتضيات العصر وإمكاناته، فاللازم علينا هو امثال ما ندب إليه الشارع، وأما كيفية الإحسان فقد خولت إلى أولياتهم حسب إمكانيات الظروف ومقتضياتها، فمن أصر على أن الشارع بين خصوصيات الامثال ومشخصات إطاعة ذلك الأمر، فقد جهل الإسلام ولم يعرف أساس كونه

خاتماً، إذ لا يكون خاتماً إلا إذا أخذ باللب (الإحسان إلى الأيتام) وترك القشر واللباس إلى الناس ومقتضيات الظروف .

٣- إن الصحابة - حسب رواية أهل السنة - قاموا بجمع آيات القرآن المتفرقة في مصحف واحد، ولم يصف أحد منهم هذا العمل بدعة، وما هذا إلا لأن عملهم كان تطبيقاً لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١)، فعملهم في الواقع كان تطبيقاً عملياً لنصوص شرعية من الكتاب والسنة، وعلى ذلك جرى المسلمون في مجال الاهتمام بالقرآن من كتابته وتنقيطه، وإعراب كلمه وجمله، وعدّ آياته وتمييزها بالنقاط الحمر، وأخيراً طباعته ونشره، وتقدير حفاظه وتكريمهم والاحتفال بهم، إلى غير ذلك من الأمور التي كلها دعم لحفظ القرآن وتثبيتته وبقائه، وإن لم يفعله رسول الله ولا الصحابة ولا التابعون، إذ يكفي وجود أصل له في الأدلة .

٤- الدفاع عن بيضة الإسلام وحفظ استقلاله وصيانة حدوده من الأعداء أصل ثابت في القرآن الكريم، قال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(٢)، وأما كيفية الدفاع ونوع السلاح ولزوم الخدمة العسكرية فالكل تطبيق لهذا المبدأ وتجسيد لهذا الأصل، فما ربما يرمي التجنيد العمومي إلى أنه بدعة، غفلة عن حقيقة الحال، وإن الإسلام يتبنى الأصل، ويترك الصور والألوان والأشكال إلى مقتضيات الظروف .

هذا هو الأصل الذي به نميز «البدعة» عن «التطبيق»، و«الابتداع» عن

١. الحجج: ٩.

٢. الأنفال: ٦٠.

«الاتباع» واليك بعض الكلمات من المخالفين للذكريات وغيرهم حول ما هو بدعة وما ليس ببدعة، والكل يؤكد ما قلناه:

قال ابن رجب: قوله ﷺ: «وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثنة المبتدعة، وأكد ذلك بقوله: «كل بدعة ضلالة» والمراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما له أصل فليس ببدعة، وإن كان بدعة لغة، وفي صحيح مسلم: «عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة...» وقوله: «كل بدعة ضلالة» من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه. ^(١)

وقال ابن حجر في شرح قوله ﷺ: «إن أحسن الحديث كتاب الله» والمحدثات - بفتح الدال - جمع محدثة، والمراد ما أحدث وليس له أصل في الشرع، ويسمى في عرف الشرع بدعة، وما كان له أصل يدل عليه الشرع، فليس ببدعة، فالبدعة في عرف الشرع مذمومة بخلاف اللغة، فإن كل شيء أحدث على غير مثال يسمى بدعة، سواء أكان محموداً أم مذموماً، وكذا القول في المحدثنة. ^(٢)

١. جوامع العلوم والحكم: ٢٣٣.

٢. فتح الباري: ١٣ / ٢٥٣.

القرآن الكريم وتكريم الأنبياء والأولياء

والآن نذكر بعض الأدلة من القرآن الكريم على جواز تكريم الأنبياء والأولياء فيما يلي:

الآية الأولى:

إن القرآن الكريم يُشيد بجماعةٍ كَرَّمَتِ النَّبِيَّ ﷺ فيقول:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. ^(١)

إن الكلمات التي وردت في هذه الآية هي:

١. «آمَنُوا بِهِ».

٢. «عَزَّرُوهُ».

٣. «نَصَرُوهُ».

٤. «اتَّبَعُوا النُّورَ».

هل يحتمل أحد أن تكون هذه الكلمات والأوصاف خاصة بزمن

النبي ﷺ ١١٩

بالتأكيد: لا.

ومع انتفاء هذا الاحتمال قطعاً، تكون كلمة «عزروه» - التي هي بمعنى التكريم والتعظيم^(١) - عامّة لحياة النبي ﷺ وبعد وفاته، فالله تعالى يريد أن يكون حبيبه المصطفى ﷺ معظماً مكرماً حتى الأبد.

وتساءل: أليست إقامة الاحتفالات في يوم ميلاد النبي ﷺ وبعثته، وإلقاء الخطب والقصائد، مصداقاً واضحاً لقوله تعالى: «عزروه»؟!

يا للعجب!! إن الوهابيين يُعظّمون شخصياتهم وأمراءهم أكبر تعظيم، لكن يعتبرون تكريم وتعظيم النبي ﷺ أو منبره ومحاربه بدعة وشركاً!!

إن الوهابية - بهذه العقائد الجافة - تُشوّه سمعة الإسلام أمام الرأي العام العالمي، وتعرفه ديناً عارياً عن كل عاطفة، وفاقداً للمشاعر الإنسانية، وناقصاً عن كل تكريم واحترام، ورافضاً لتكريم عظمائه وقادته، وبهذا تُنفّر الناس من الإسلام وتركهم في رفضٍ واشمزازٍ منه.

تماماً... بعكس الإسلام الذي جعله الله ديناً سهلاً سمحاً يتجاوب مع الفطرة البشرية ويتماشي مع العاطفة الإنسانية، ويجذب - بجماله وروعته - الشعوب والأمم إلى اعتناقه.

الآية الثانية:

إن الوهابية - التي تُعارض كل نوع من أنواع العزاء والبكاء على الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله - ماذا تقول بشأن ما حصل للنبي يعقوب ﷺ؟

١. راجع كتاب مفردات القرآن: للراغب، مادة: عزز.

إذا كان النبي الكريم (يعقوب) اليوم حياً يعيش بين أهالي «نجد» وأتباع
محمد بن عبد الوهاب، كيف كانوا يحكمون عليه؟

لقد كان يعقوب ﷺ يبكي على فراق ولده يوسف ليلاً ونهاراً،
ويستفسر عنه ويترنم باسمه حتى: «...ابيضت حيناه من الحزن فهو
كظيم» (١).

وبالرغم من كل ما كان يعاني منه يعقوب من ابيضاض العين وحزن
القلب وألم الفراق، فإنه لم ينس ابنه يوسف، بل كان يزداد شوقاً إليه كلما
قرب الوصال واللقاء به، حتى أنه شم ريح يوسف من مسافة بعيدة.
قال تعالى عن لسانه:

﴿إِنِّي لِأَجِدُّ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفَنَّدُونَ﴾ (٢).

فكيف تكون هذه المحبة والموودة والتعبير عن العلاقة الشديدة
بالمحبوب «يوسف» في حياته عملاً صحيحاً ومتفقاً مع توحيد الله تعالى،
ولكنها تنقلب بدعة وحراماً بعد وفاته!!؟

مع العلم أن فراق العزيز وموته يترك في القلب نيران الأسى والحزن
والألم بصورة أكثر من فراقه في حياته.

واليوم... إذا اجتمع المؤمنون - الذين يشبهون يعقوب في حزنه - في
عزاء ولي من أولياء الله - كالأئمة الطاهرين الذين يشبهون يوسف في

١. يوسف: ٨٤.

٢. يوسف: ٩٤.

مصابه، بل مصابهم أشدّ منه كثيراً - وأحيوا ذكر ذلك الوليّ الصالح،
بالكلمات والنُطْب والقصائد، وردّوا سيرته وخلقّه الكريم وخصاله
الحميدة وسلوكه الطيّب، ثمّ ذرفوا دموع العاطفة والحنان عليه... فهل معنى
هذا كلّهم عبدوا ذلك الوليّ؟!

قليلاً من التفكّر والموضوعية!

قليلاً من الفهم والمعرفة!

الآية الثالثة:

قال تعالى:

«... قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...» (١)

مما لا شكّ فيه أنّ مودة ذي القربى هي إحدى الفرائض الدينية التي
نصّ عليها القرآن بكلّ صراحة (٢) فلو أراد شخص أن يؤدّي هذا الواجب
الديني - بعد أربعة عشر قرناً - فماذا يجب أن يفعل والحال هذه؟!

ليس المطلوب أن «يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم»؟!

فلو أقام مراسم خاصة أشاد فيها بشخصية ذلك العظيم وحياته
المتألّفة وفضائله الكريمة وتضحياته السامية، واستعرض جانباً من آلامه
وما جرى عليه من المصاعب والمصائب... فهل ارتكب حراماً بعمله هذا؟

١. الشورى: ٢٣.

٢. لقد وردت عشرات الأحاديث عن النبي ﷺ في أنّ «القربى» في الآية هم أهل البيت عليهم السلام.

أم أنه أءىأ ذكر ذلك العظىم وأذى «الموءة» آءاهه!!؟

ولو أن الإنسان - لمزىء الموءة فى القربى - تفقء من ىتسب إلى ذوى القربى، وقام بزىارة قبور ذى القربى وأقام تلك المجالس عند مراقءهم... ألا ىءكم العقاء وأهل البصىرة والءىن بأنه ىؤذى فرىضة «الموءة فى القربى»!؟

إلا أن ىقول الوءابىون: إن الواءب هو كءمان الموءة فى النفوس وعدم إبرازها بأى وجه مآ هو ثابت البءلان!!

لقد شهد عصر النبى ﷺ وما بعءه من العصور التى عاشت آغىراً فى العقاء وءءولاً فى الأفكار - شهد إقبالاً عظىماً من الشعوب والأمم المءءلفة آءاه الإسلام، آءى قال تعالى:

«...وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِىنِ اللَّهِ أَفْوَاجًا» (١)

وكان الإسلام ىءءضنهم وىءءفى منهم - فى البءاءة - بالشهائءىن، مع مءافءتهم على آءافءهم وأءابهم وءقالىءهم، ولم ىعمل النبى ﷺ ومن آءاء من بعءه، على فرض الرقابة على عاءاء الشعوب وءقالىءها، وصبهرا فى بوءقة واحءة.

إن آءراء كبار الشءصىاء وإقامة مجالس العزاء فى ذكرباء وفاءهم، والآءتماع عند مراقءهم، وإظهار الحبّ والموءة لهم... كل ذلك كان ولا ىزال أمراً مءءاولاً لءى كافة الشعوب فى العالم كله..

وفي عصرنا الحاضر... ترى الشعوب الشرقية الغربية تقف ساعات طويلة في الانتظار لزيارة الأجساد المحنطة لزعمائها وقبور قادتها القدامى، ويذرفون دموع الشوق بجوارها، ويعتبرون ذلك نوعاً من الاحترام والتقدير.

ولم يُعهد من النبي ﷺ أن يجري تحقيقاً عن عقائد الناس وآدابهم المعروفة أولاً ثم يوافق على دخولهم في الإسلام، بل كان يكفي تشهدهم للشهادتين، ولو كانت هذه العادات محرمة وعبادة لتلك الشخصيات لا شرط عليهم البراءة والتخلي من كل ما لديهم من عادات وتقاليد، ثم الدخول في الإسلام، ولم يكن الأمر كذلك.

الآية الرابعة:

إن النبي عيسى عليه السلام سأل ربه أن يُنزل عليه مائدة من السماء، ويعتبر يوم نزولها عيداً له ولأصحابه.

يقول القرآن الكريم - عن لسان عيسى -

﴿...رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا
وَأَيَّةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(١).

فهل - يا ترى - أن شخصية الرسول ﷺ أقل شأنًا من تلك المائدة التي اتخذ المسيح يوم نزولها عيداً؟!!

إذا كان اتخاذ ذلك اليوم عيداً لكون المائدة آية إلهية ومعجزة

سماوية... أليس نبي الإسلام أكبر آية إلهية ومعجزة القرون والمصور؟!

تَبَّأً وَبُعْدًا لِقَوْمِ يَوفِقُونَ عَلَى اتِّخَاذِ يَوْمِ نَزُولِ الْمَائِدَةِ السَّمَاوِيَّةِ - الَّتِي

لَمْ يَكُنْ لَهَا شَأْنٌ سِوَى إِشْبَاعِ الْبَطُونِ الْجَائِعَةِ - عِيدًا، وَلَكِنَّهُمْ يُهْمَلُونَ يَوْمَ

نَزُولِ الْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَوْمِ مَبْعَثِهِ الشَّرِيفِ، بَلْ وَيُعْتَبَرُونَ

الاحتفال به بدعة وحراماً!!

الآية الخامسة:

قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. (١)

إن إقامة المجالس والاحتفالات هي نوع من رفع الذكر، والمسلمون

لا يهدفون من الاحتفال بميلاد النبي ومبعثه وغير ذلك من المناسبات

الدينية سوى رفع ذكره وذكر أهل بيت الأطهار ﷺ .

فلماذا لا نقتدي بالقرآن؟!

أليس القرآن قدوة وأسوة لنا؟!

هذا... وليس لأحد أن يقول: «إن رفع ذكره ﷺ خاص بالله سبحانه

ولا يشمل غيره» لأن ذلك يشبه أن يقول: إن نصر النبي خاص بالله سبحانه

ولا يجوز لأحد من المسلمين أن ينصره وقد قال تعالى:

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾. (٢)

ولعل الهدف من هذه الآيات هو دعوة المسلمين إلى نصر النبي ﷺ وتخليد ذكره واحياء اسمه ورسمه.

القرآن الكريم وتكريم النبي الأكرم ﷺ

من راجع القرآن والسنة يقف على أصل رصين في الإسلام في حق النبي الأكرم ﷺ، وهو لزوم تكريم النبي ﷺ وتعظيمه حياً وميتاً، وهو أصل لا يمكن لمسلم إنكاره، وإذا ثبت ذلك الأصل يقع الكلام في أن هذه الاحتفالات هل هي تجسيد لهذا الأصل أو لا؟ فيلزم البحث في موردين:

الأول: لزوم تكريم النبي ﷺ حياً وميتاً

من أمعن في القرآن الكريم يقف على أنه يحث المسلمين على تكريم النبي وتعظيمه، وأنه لا يصح للمسلمين أن يعاملوه معاملة الإنسان الاعتيادي، واليك ما يمكن استنباط هذا الأصل منه .

١- قال سبحانه: «الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(١) .

إن الكلمات الواردة في هذه الآية هي: ١- «آمنوا به» ٢- «عزروه» ٣- «نصروه» ٤- «اتبعوا النور الذي أنزل معه» .

فبالآية تدعو إلى الإيمان بالنبي وتعزيره ونصرته واتباع النور الذي أنزل معه، والمراد من التعزير، ليس مطلق النصره، لأنه ذكره

بقوله «نصروه» ولا حاجة لتكراره؛ ولا مطلق منع الأعداء عنه، بل المراد هو توقيره وتعظيمه^(١)، أو نصرته مع التعظيم^(٢).

وعلى كل تقدير فالمفهوم من الآية هو تعزير النبي واحترامه، ومن المعلوم أن احترامه ليس إلا لأجل كونه سراجاً منيراً للأمة وهادياً إلى الشريعة ودينه سبحانه.

٢- أشار سبحانه إلى مكانته المرموقة ولزوم توقيره وتكريمه بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ»^(٣)، فجعل رفع الصوت فوق صوته والجهر له كجهر بعضهم بعضاً، سبباً لحبط الأعمال فما أعظم شأنه وأجل قدره.

٣- وقال سبحانه: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً»^(٤).

٤- وأشار إلى حرمة التسرع في إبداء الرأي بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»^(٥).

٥- إنه سبحانه قرن طاعة النبي بطاعته وقال: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ»^(٦)، وجعل طاعته طاعة نفسه وقال: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ

١. تفسير الجلالين: ٢٢٥؛ مجمع البيان: ٤٨٨/٢.

٢. الميزان: ٢٩٦/٨، مجمع البحرين مادة «عزرو».

٣. الحجرات: ٢. ٤. النور: ٦٣.

٥. الحجرات: ١. ٦. النساء: ٥٩.

اللَّهُ»^(١)، وجعل اتباع الرسول آية لحب الله سبحانه، وقال: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ»^(٢)، وندد بمن قدم حب الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن على حب الرسول، وقال: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ»^(٣).

وروى أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»، وروى أن رسول الله قال: «ثلاث من كن فيهن وجد بهن الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...»^(٤).

٦- إنه سبحانه أمر بالصلاة والتسليم على النبي وقال: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»^(٥).

١. النساء: ٨٠.

٢. آل عمران: ٣١.

٣. التوبة: ٢٤.

٤. مسند أحمد، مما أسند أنس بن مالك: ١٠٣/٣ و ١٧٤ و ٢٣٠. انظر صحيح البخاري: ٨/١ و باب

حب الرسول من الإيمان، والروايات حول حب النبي وعترته كثيرة، لاحظ جامع الأصول، وكنز العمال.

٥. الأحزاب: ٥٦.

وروي أنه ﷺ قال: «البخيل من ذُكرتُ عنده فلم يصل عليّ» وقال: «من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه بها عشراً»^(١).
والصلاة عليه ﷺ أحد أركان الصلاة، من تركها عامداً بطلت صلاته، والدعاء له بالوسيلة والفضيلة والمقام المحمود عقيب الأذان أمر محمود، وفيه فضل كبير.

٧- أشار إلى كيفية معايشة المؤمنين معه ومع أزواجه بعد وفاته، فقال:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاطِرِينَ إِنَاءً وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا وَلَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدَانًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا»^(٢).

ومن وقف على خصائص النبي ﷺ التي ذكرها الفقهاء في الكتب الفقهية، يقف على مكانته عند الله، وعظمته عند المسلمين، ولزوم توقيره وتكبيره وتعظيمه.

هذه الآيات والأحاديث تفيد بأنه سبحانه فرض محبة النبي ومودته

١. مسند أحمد، مما أسند إلى علي بن الحسين: ٢٠١/١؛ والدر المنثور: ٢١٧/٥ في تفسير قوله: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ» ورواه الترمذي في ج ٥، في كتاب الدعوات.

على المؤمنين، وأن المؤمن لا يتم له إيمان حتى يكون ﷺ أحب إليه من نفسه وماله وأهله، ومن شك في ذلك فهو شاك في البديهيّات الدينية.

وهنا يقع الكلام في المقام الثاني، وهو ما يتحقق به التكريم، وما يمكن الاستقلال به على أنه صادق في حبّ النبي ﷺ، وإليك البحث فيه.

الثاني: الاحتفال تجسيد لتكريم النبي ﷺ

إذا دلّت الآيات والأحاديث على لزوم تكريم النبي ﷺ وتعظيمه أولاً، وحبّه ومودّته ثانياً، فعندئذٍ يقع الكلام: فيما يتحقّق به ذلك الأصل، وتتجسّم به هذه الفريضة .

لا شك أنّ لتكريم الإنسان وتعظيمه طرقاً مختلفة مألوفة للناس، ولكن صاحب الشخصية العالمية إذا أراد الشعب المسلم تكريمه وتعظيمه، فالاحتفال بولادته وإقامة العزاء يوم رحلته، تكريم وتعظيم له، وتجسيد لذلك الأصل الذي نطق به الكتاب والسنة، وليس ذلك أمراً خفياً على الناس فإنّ العقلاء بفطرتهم يحتفلون بذكرى شخصياتهم ولادة ووفاء، تكريماً واحتراماً لهم، والفرق بين تكريم النبي وتكريم تلك الشخصيات أنّ تكريمهم من قبيل التقاليد والأداب الشعبية، فلو لم يرد حظر منه كفى في جواز ذلك عدم الحظر .

وأما تكريم النبي الأكرم ﷺ فله أصل في الشريعة الغراء، وله تجليات في الظروف المختلفة، فلو احتفل المؤمنون في كل دورة وكورة

بميلاد النبي ﷺ من دون اقرار المعاصي والمنكرات، وأقاموا احتفالاً حاشداً يبهر العيون ويحير العقول، فقام الخطباء فيه بإلقاء الكلم حول فضائله ومناقبه، وما نزل في حقه من الآيات والآثار، وما ضحى بنفسه ونفيسه في طريق هداية أمته، وقام الشعراء بإنشاء القصائد التي تُستلهم من الكتاب والسنة خالية عن الغلو والإفراط، ثم قاموا بإطعام الإخوان والمحبين لرسول الله من مال الله الذي جعل الناس فيه مستخلفين... فلا شك أنهم جسّدوا ذلك الأصل الرصين (تكريم النبي ﷺ وتعظيمه) بعملهم المشرق، كما أظهروا بذلك محبتهم وولاءهم لصاحب الرسالة.

وعند ذلك كيف يمكن أن توصف تلكم الاحتفالات الباهرة بالبدعة؟ أليست البدعة هي إدخال ما ليس من الدين في الدين؟ وهل المسلمون أدخلوا في الدين ما ليس منه؟ أليس تكريمه وتوقيره هو الأصل الرصين؟ أليس الإحتفال الباهر تحقيقاً عملياً لذلك المبدأ عند جميع العقلاء، فأين البدعة ياترى؟ أليس القرآن والسنة ندبا المسلمين إلى حب النبي ﷺ، وهل الحب يجب أن يبقى كامناً في مكان النفس، ولو تظاهر به الإنسان كان عاصياً، أو أن المحبة والمودة لها مظاهر ومجال، وإظهار الفرح يوم ولادته والحزن يوم رحلته دليل على الحب الأصيل والمودة المكنونة في القلب.

ولسنا ننكر أن لإظهار المودة وتوقيره طرقاً أخرى، منها التمسك بسنته قولاً وعملاً وتعلماً وتعليماً وإيثاراً، أو التأسي بأخلاقه وآدابه، ونشر سنته وأحاديثه، إلى غير ذلك مما يمكن أن يكون مظاهر للحب، - ولكن

أيها الأخ العزيز - لا ينحصر إظهار الحب والتكريم في هذه الأمور، فإنها من الوظائف الدينية التي يجب على المسلم القيام بها في كل يوم وليلة، وهي في الوقت نفسه مظاهر لتوقير النبي ﷺ وتكريمه وإظهار المودة والحب له، ولكن الاحتفال بمولده وإقامة العزاء في يوم رحلته أيضاً مظهر آخر للتوقير والتكريم وإظهار المودة، فلماذا نؤمن ببعض ونكفر ببعض؟

فكيف تقام الاحتفالات في نفس المملكة السعودية لأبناء عائلتها وتغفل عن النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته؟، وإن كنت في شك من ذلك فانظر إلى العدد (١٠٢) من مجلة «الفصل» التي تصدر في طباعة أنيقة جداً في السعودية، فهو يحتوي على تقرير مبسوط عن الاحتفال الكبير الذي أقامته السلطات السعودية بمناسبة عودة «الأمير سلطان» من الرحلة الفضائية في مركبة «ديسكفري»، ويحتوي هذا العدد على صور كثيرة تحكي عن حجم المبالغ الطائلة التي صرفت في ذلك الاحتفال، وقد نشرت الكلمات والقصائد التي أقيمت فيه، وقرئ فيها المدح المفرط والثناء المسرف على آل سعود عامة والأمير العائد من الرحلة الفضائية خاصة...

ألا يستحق رسول الإسلام أن تخلد ذكرى مولده الشريف، وتنشر مناقبه وفضائله وإنجازاته العظيمة، وعطاؤه الزاخر، وخدماته الجليلة، وجهاده وجهوده وغير ذلك، حتى يعرف الصديق والعدو ما أسداه هذا النبي العظيم من خدمة، وما قدمه من عطاء، وما تحمّل من عناء وعذاب في سبيل هداية البشر، وهل التكريم إلا الاحتفال به، ونشر قيمه الفاضلة، والحث على الاقتداء به والأخذ بهديه، والمحافظة على آثاره؟ ما هذا

التناقض بين القول والعمل؟ تقيمون الاحتفال لأمير البلد، وتحرمون الاحتفال للنبي الأكرم؟!^(١)

فلو أقيم احتفال في أي بلد من بلاد الله تبارك وتعالى، سواء أكان في ميلاد النبي أم غيره، وقرأ المقرئ الآيات النازلة في حقّه، أو تليت قصيدة حسان بن ثابت الذي قال رسول الله ﷺ بأن لسانه على المشركين أشد وقعاً من السيوف على رقابهم، كقوله في قصيدة رثى بها النبي ﷺ بعد رحلته، يقول فيها:

بسطية رسم للرسول ومعهده منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
يدل على الرّحمن من يقتدي به وينقذ من هول الخزايا ويرشد
إمام لهم يهديهم الحق جاهداً معلّم صدق إن يطيعوه يسعدوا^(١)

أو ألقى فيها شعر كعب بن زهير الذي يمدح به النبي ويقول:

بانّت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إنرّها لم يُفد مكبول
نُبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة ال قرآن فيها مواعيط و تفصيل
إن الرسول لنورٍ يستضاء به مهتدٌ من سيوف الله مسلول^(٢)

أو ما أنشأه عبدالله بن رواحه ويقول فيه:

١. السيرة النبوية لابن هشام: ٦٦٦/٢.

٢. السيرة النبوية لابن هشام: ٥١٣/٢.

خَلُّوا بني الكَفَّار عن سبيله خَلُّوا فكل الخير في رسوله
 يارب إنسي مؤمن بقبيله أعرف حق الله في قبوله^(١)
 أو قرأ فيها قصيدة البوصيري التي أنشأها عن إيمان وإخلاص
 بالرسول لغاية التكريم والاحترام مستهلها:

أَمْسِنُ تَسْذُكُرُ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ
 مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مَقْلَةٍ بَدَمٍ
 أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
 وأومض البرق في الظلماء من أضم^(٢)

فهل يتصور أن يعد ذلك أمراً محرماً وبدعة؟ وكأن الرسول يجب أن يكون خامل الذكر. ولو هتف به هاتف بالتكريم يكون أثماً، يجب أن يجلد أو يقتل لأجل البدعة أو الشرك: سبحانه يا رب ما أعظم جرأتهم على الحط من كرامة الرسول وعظمته!!

نرى أنه سبحانه خَلَّدَ ذكره ورفع مقامه بمنجيه النبوة وقال: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ»^(٣)، فلنفترض أن الآية: «رفعنا لك ذكرك» تشير إلى منح منصب النبوة، ومقام الرسالة له، ولكن يستفاد من الآية أن رفع ذكر النبي أمر مطلوب لله سبحانه، وأن تنويجه بالنبوة سبب لذلك الرفع المحمود،

١. السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٣٧١.

٢. جواهر الأدب، أحمد الهاشمي: ٤٦٧ والقصيدة لشرف الدين محمد بن سعيد البوصيري صاحب «البردة» و«الهمزية» ولهذه القصيدة شروح.

٣. الانشراح: ٤.

فالاحتفال بمولده ليس إلا تجسيداً لذلك الرفع المطلوب، وليس لقائل أن يقول: إنَّ المطلوب هو رفعه بمنح النبوة له فقط، فلا يسوغ ترفيعه وتخليد ذكره في المجتمع عن طريق آخر، فإنَّ ذلك يباه الذوق السليم .

هذا هو معنى البدعة، وهذا تحديدها، فاتخذة مقياساً تميز به المبتدع عن المتشرع، والبدعة عن السنة، وبذلك تقف على أن أكثر ما يصفونه بالبدعة له أصل في القرآن والسنة، ولأجل أن يكون البحث مترامي الأطراف نردفه بالبحث عن التبرك، حتى يكون الوقوف على حقيقته معيناً على حل عقدهم ومشاكلهم، وسيوافيك البحث مستقلاً عن الاحتفال بالمواليد .

الفصل الرابع

التبرك بأثار النبي الأكرم ﷺ والصالحين

من مراتب التوحيد، التوحيد في الخالقية، بمعنى أنه لا يوجد للعالم إلا خالق واحد، وأن العالم بكل تجلياته المختلفة مخلوق له سبحانه، وأن جميع الظواهر المادية وغير المادية فاقدة ذاتاً لكل أنواع الكمال، وإذا ما تحلّت ظاهراً بالكمال فما ذلك إلا في ظل المشيئة والإرادة الإلهية.

وهذا الأصل من الأصول المتسالم عليها بين الموحّدين والمشرّكين، وهذا ما أشارت إليه آيات الذكر الحكيم التي جاءت على نحو السؤال والجواب أو على نحو القضية الشرطية، ومنها قوله تعالى:

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١)

نعم، إن الاختلاف بين الموحّدين وبين مشرّكي عصر الرسالة كان في «المديريّة» حيث كان يرى الموحّدون أنّ «المديريّة» أيضاً تنحصر في الله سبحانه فهو الخالق وهو المدبّر في آن واحد، وأمّا المشركون فقد كانوا

يرون أن لألهتهم المزيّفة نصيباً في تدبير العالم وإدارة شؤونه.

وهنا مسألة جدية بالاهتمام ينبغي الالتفات إليها وهي أن حصر الخالقية والمدبرية في الله سبحانه لا يعني بحال من الأحوال نفي تأثير الظواهر المادية وغير المادية بعضها ببعض الآخر، وذلك لأنه قد أثبتت آيات الذكر الحكيم وكذلك الأدلة العلمية والفلسفية أن عالم الخلق قائم على سلسلة من العلل والمعاليل، وبعبارة أخرى: الأسباب والمسببات، وأن الظاهرة المتقدمة تؤثر - وتحت شرائط خاصة - في الظاهرة اللاحقة. ولكن جميع تلك التجليات «المؤثر» و«المؤثريّة» و«الأثر» كلّها تخضع لمشيئته وإرادته سبحانه، فشعاع الشمس، وتلألؤ القمر، والإحراق للسنار، ونمو النباتات بواسطة الماء، وغير ذلك من الظواهر، كلّها إنما تعمل عملها وتؤثر أثرها في ظل إرادته سبحانه، وإذا ما انقطعت الإرادة الإلهية ولو لحظة واحدة لم يبق من عالم الخلق شيء يذكر أبداً.

ولمزيد التوضيح نقول: إن في عالم الوجود يوجد سبب واحد يتّصف بالأصالة والواقعية وهو الله سبحانه، ولكن وفي نفس الوقت يوجد في قلب عالم الوجود سلسلة من الأسباب والعلل الفرعية والتبعية التي تعمل في إطار إرادته ومشيئته سبحانه وتعالى، فعلى سبيل المثال نمو الأشجار وحياة الإنسان يخضعان لسلسلة من العلل والأسباب الطبيعية بحيث لو انتفت لانتفى وجود النبات والإنسان قطعاً. وهذه الأسباب تتمثل في الماء والهواء والنور و...، ومن هنا يمكن اعتبار تلك الأسباب والعلل من جنود الله سبحانه التي تخضع لأوامره وتمثل مقرراته سبحانه.

ولقد صرحت الآية ٢٢ من سورة البقرة بهذا المؤثر التبعية، أو ما يصطلح عليه الفلاسفة بـ «المؤثر الظلي» حيث جاء فيها:

«الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ»^(١).

فإن الحرف «ب» في قوله «به» يعطي معنى السببية، وهذا تصريح بمؤثرية الماء في نمو الثمار.

ومن الأصول المسلّمة لدى علماء الطبيعة عامّة والأحياء خاصة هو البحث عن العلاقات بين الظواهر المتنوعة لغرض معرفة الأسباب والعلل الطبيعية والمادية، لكي يتسنى لهم من خلال تلك المعرفة الاستفادة من المنافع الناجمة عنها، واجتناب الأضرار التي قد تواجههم في ذلك.

إن نقطة الخلل في التفكير المادي تكمن في أنهم نظروا إلى عالم المادة نظرة أحادية الجانب بحيث اعتبروا تلك العلل والأسباب التبعية والظلية أسباباً وعللاً مستقلة غافلين عمّا وراء المادة من عالم غيبي هو الفاعل والسبب الحقيقي والواقعي وهو المدبّر للعالم والمانع للأسباب والعلل المادية قدرة الفاعلية وإمكانية التأثير، وهو الذي رسم للعالم المادي وغير المادي مساره ونهجه الذي ينبغي السير عليه.

الله واهب السببية وسالبيها

ومن هنا يظهر أن الله سبحانه وتعالى في الوقت الذي يهب السببية والفاعلية للأشياء، فيمنح الشمس القدرة على الإشعاع، والقمر القدرة على الإضاءة، والماء القدرة على الإنبات، و... هو نفسه سبحانه وتعالى قادر أيضاً على سلب ذلك كله من العلل والأسباب الطبيعية، فالنار التي تمتلك القدرة على إحراق الأخضر واليابس تتحول وفي طرفة عين إلى برد وسلام على إبراهيم عليه السلام ومشيئته سبحانه: «قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ»^(١).

وهو سبحانه الذي يسلب البحر الكثير من خصائصه ويحوّله من حالة إلى حالة أخرى تختلف اختلافاً جوهرياً مع طبيعة الماء في الحالات الاعتيادية، وهذا ما نشاهده في قصة نبي الله موسى عليه السلام حيث قال تعالى:

«فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُوكَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ»^(٢).

ومن هنا ندرك بما لا مزيد عليه أن الله تعالى هو واهب الأسباب فاعليتها، وهو نفسه قادر على سلب ذلك كله منها.

١. الأنبياء: ٦٨ - ٦٩.

٢. الشعراء: ٦١ - ٦٣.

تجليات أخرى لمنح السببية والفاعلية

لقد تعلقت الإرادة الإلهية بأن تصدر الظواهر من عللها وأسبابها الطبيعية، ولكن قد يحدث - و لمصالح ما تقتضي ذلك - أن تصدر الظاهرة من غير مجراها الطبيعي، وذلك فيما إذا أراد الأنبياء ﷺ إثبات أو تأكيد ارتباطهم بالسماء. فحينئذ تقع على أيديهم ما يصطلح عليه عنوان «المعجزة».

ولا ريب أن معاجز الأنبياء - وبلا استثناء - تسير من خلال هذا الطريق، فمن المسلم أن تحوّل العصا إلى ثعبان مبین، وانفلاق البحر بضربه بالعصا، أو إعادة البصر إلى الأكمه وشفاء الأمراض المستعصية و... كل ذلك في الواقع وليد عوامل وأسباب غير طبيعية، ولنا هنا في صدد بيان ماهيتها.

يتضح من خلال هذا البيان أن الفيض الإلهي يصب على الإنسان في الأعم الأغلب من خلال الأسباب والعلل الطبيعية، ولكن قد يصب ذلك الفيض في بعض الأحيان من غير مجراه الطبيعي، وهذا ما يطلق عليه عنوان «المعجزة»، وهذا فيما إذا كان الفاعل بصدد إثبات صدقه في ادعاء النبوة وارتباطه بالسماء وعالم الغيب، أما إذا لم يكن الفعل مقترناً بدعوى النبوة فحينئذ يكون من قبيل «الكرامة».

كرامتان لمريم ﷺ

لقد ذكر القرآن كرامتين كبيرتين للسيدة مريم ﷺ .

١. أنها ﷺ كانت تجد رزقها في محراب عبادتها، وهذا ما أشارت إليه

الآية التالية:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١)

٢. حينما جاءها المخاض إلى جذع النخلة تلقت النداء الإلهي

﴿وَهَؤُورِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾^(٢)

والملاحظ من الآيتين أن السيدة مريم ﷺ كانت تتلقى رزقها والرطب

الجنبي من غير المجاري الطبيعية، وما ذلك إلا لمقامها ومنزلتها الرفيعة عند

الله سبحانه والروح الزكية والنفس الطاهرة التي كانت تتحلّى بها، وهذه

كرامة عظيمة لمريم ﷺ ، ومن المعلوم أن مريم ما كانت تدعي مقاماً ما .

إلى هنا تعرفنا على ما يتعلق بمصطلحي: «المعجزة»، و«الكرامة»،

ومن الحريّ بنا أن نتعرف على مصطلح ومفهوم آخر وهو «التبرك».

١. آل عمران: ٣٧.

٢. مريم: ٢٥.

ما هو التبرك؟

التبرك لغة مشتق من «البركة» بمعنى الزيادة في النعمة.

وأما اصطلاحاً فهو: طلب الموحدين إفاضة النعم عليهم وزيادة البركة من خلال التبرك بالذوات الصالحة للنبي الأكرم والصالحين من عباده، أو التبرك بآثارهم الباقية.

وهذا لا يعني أن المتبرك يسد في وجهه الطرق والأسباب الطبيعية لتحقيق مراده والأمور التي يتوخاها، بل في الوقت الذي يعتمد فيه الأسباب والعلل الطبيعية، يبقى أمامه باب التبرك مفتوحاً ليتسنى له من خلاله نيل الفيض الإلهي النازل من خلال هذا الطريق بالإضافة إلى الفيوضات النازلة من خلال الطرق والأسباب الطبيعية.

ومن المسلم به أنه لا توجد علاقة مادية بين آثار الأنبياء عليهم السلام والصالحين، وبين الخيرات التي يجنيها الإنسان من خلال هذا الطريق، ولكن - كما قلنا سابقاً - إن الفيوضات الإلهية تارة تفاض على العباد من غير مجاريها الطبيعية حيث تتعلق الإرادة الإلهية بأن تلبى حاجات الإنسان المؤمن عن طريق التبرك بشخص النبي أو الآثار المتبقية منه، وهذه الحقيقة قد أكدتها آيات الذكر الحكيم والروايات المتواترة، أضف إلى ذلك أنه لا يوجد مانع عقلي يمنع عن فاعلية آثار النبي والصالحين في تلبية حاجات الإنسان وإنجاح طلبته.

وهانحن نستعرض بعض الآيات الواردة في هذا الصدد:

١. التبرك بمقام إبراهيم ﷺ

لقد اعتبر الله سبحانه وتعالى بعض الأراضي التي لامست بدن دعاء التوحيد، محلاً للعبادة. فعلى سبيل المثال جعل من مقام إبراهيم ﷺ مصلى، حيث قال سبحانه:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَكَاةً لِلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(١)

ولا ريب أن الصلاة نفسها لا تختلف من الناحية الجوهرية، سواء أقيمت في هذا المقام أو سائر نقاط المسجد، وهذا يكشف عن أن المقام المذكور قد اكتسب بسبب وجود النبي إبراهيم ﷺ ميزة أخرى، فأصبح مكاناً مباركاً، لذلك تجد المصلي يأتي بصلاته هناك لأجل التبرك بذلك المكان الطاهر.

وفي موضع آخر من القرآن نجد الله سبحانه وتعالى يعتبر «المسعى» - وهو المسافة الواقعة بين الصفا والمروة - محلاً للعبادة، وما ذلك إلا لأن السيدة الطاهرة والموحدة «هاجر» قد لامست بقدميها المباركتين هذه الأرض سبعة أشواط بحثاً عن الماء، وليس لذلك الأمر علة إلا التبرك بهذه البقعة المقدسة التي لامست جزءاً من بدن أم إسماعيل عليه وعليها السلام.

٢. قميص يوسف ﷺ وعودة البصر إلى يعقوب

لقد عانى يعقوب ﷺ ألم فراق ولده العزيز يوسف ﷺ ردحاً طويلاً من الزمن، ولقد بكاه طوال تلك المدة حتى فقد بصره إلى الدرجة التي وصفه فيها الذكر الحكيم بقوله: «وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ»^(١).

فشاءت الإرادة الإلهية أن يعود إلى يعقوب بصره عن طريق قميص ولده يوسف ﷺ حيث قال تعالى على لسان يوسف ﷺ: «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوَّةُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا»^(٢).

ولا ريب أن قميص يوسف ﷺ لا يختلف من الناحية المادية أو من ناحية الشكل عن غيره، ولكن تعلقت الإرادة الإلهية بأن يصدر الفيض الإلهي إلى عبده يعقوب من خلال هذا الطريق، وقد صرح القرآن الكريم بهذه الحقيقة حيث قال سبحانه:

«فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا»^(٣).

٣. تابوت بني إسرائيل والسكينة

لقد وضع موسى ﷺ وفي الأيام الأخيرة من عمره الشريف، الألواح المقدسة التي تحتوي على شريعته ﷺ، ودرعه وسلاحه وأثاره الأخرى في

٢. يوسف: ٩٣.

١. يوسف: ٨٤.

٣. يوسف: ٩٦.

صندوق، وجعل الصندوق عند وصيّه «يوشع بن نون»، ومن هنا اكتسب هذا الصندوق أهمية كبرى لدى بني إسرائيل، فكانوا يحملونه معهم أثناء الحروب التي تقع بينهم وبين خصومهم متبركين به، ومستنزلين النصر من الله عن طريقه، وكانوا يعيشون حياة عزيزة مادام ذلك الصندوق المبارك بين ظهرانيهم، ولكن لما دبّ فيهم الضعف الديني، وقَلَّ تأثير الوازع الأخلاقي في أوساطهم، تمكّن خصومهم من هزيمتهم والتغلب عليهم، وتمكّنوا كذلك من نهب ذلك الصندوق المبارك.

ولما اختار الله سبحانه - بعد فترة من الزمن - طالوت ملكاً وقائداً لبني إسرائيل، قال لهم نبيهم: **إِنَّ آيَةَ صَدَقِهِ وَكَوْنِهِ قَائِداً مَنْصِباً مِنْ قِبَلِهِ سَبْحَانَهُ هُوَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ ذَلِكَ الصَّنَدُوقُ، وَلَقَدْ أَشَارَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ سَبْحَانَهُ:**

«وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ» (١)

والإمعان في الآية المباركة يكشف أن القرآن الكريم ينقل لنا على لسان نبيه، تبرك بني إسرائيل بذلك الصندوق ويؤكد كذلك مدى قيمته وشرفه بحيث تحمله الملائكة، وحيث نتساءل لو كان هذا العمل مخالفاً لأصول التوحيد ومتعارضاً معها، فكيف ياترى جاز لذلك النبي أن يلقي إليهم الخبر على نحو البشري !!؟

٤. التبرك بمقام أصحاب الكهف

حين اكتشف المؤمنون والموحدون المكان الذي اختفى فيه الغتية «أصحاب الكهف» فأخذوا يتداولون الأمر بينهم ماذا نعمل؟ فكان إطباق الجميع واتفاقهم على أن يبنوا على قبورهم مسجداً ليكون محلاً للعبادة وللتبرك بالعبادة إلى جنب تلك الأجساد الطاهرة، ولقد نقل لنا القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله سبحانه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ هَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾^(١)

قال المفسرون: إن الهدف من بناء المسجد هو إقامة الصلاة والتبرك بأجسادهم الطاهرة.

إلى هنا نكتفي بهذه الآيات الأربع، والتي يكشف الإمعان فيها عن حقيقة واضحة وترشدنا إلى أصل علمي وقرآني جلبي، وهو أن المشيئة الإلهية قد تعلقت بأن تفاض نعمه ومواهبه المادية والمعنوية على البشر من خلال الأسباب الطبيعية، بلا فرق بين الأمور المادية والمعنوية، فعلى سبيل المثال شاءت الإرادة الإلهية أن تفاض هدايته على البشر عن طريق الأسباب الطبيعية فأرسل لهم الأنبياء مبشرين ومنذرين.

ولكن في الوقت نفسه قد تعلق الإرادة الإلهية بأن يجري فيضه عن

طريق الأسباب والطرق والمجاري غير الطبيعية، وما التبرّك إلا واحداً من تلك المجاري التي يتمسك بها الإنسان لاستنزال الفيض الإلهي والنعم الربانية عليه.

الغرض من التبرّك

إن الغرض من التبرّك يكمن في أمرين:

١. طلب الفيض المعنوي والنعم الإلهية التي قد ترد أحياناً من غير المجري الطبيعي على الإنسان والتي أشرنا إلى نماذج منها في الصفحات السابقة.

٢. لا ريب أن مودة النبي الأكرم ومحبة أهل بيته الطاهرين وأصحابه الميامين من الدساتير الإلهية التي نطق بها القرآن الكريم ونزلت بها الآيات الشريفة، ولا ريب - أيضاً - أن هذه المودة وهذا الحب لا بد أن يتجلّى بمظاهر معينة، ففي حياتهم ﷺ يتجلّى بما يقوم به التابعون المخلصون لهم، وأما بعد مماتهم فيتجلّى بصور أخرى متنوعة، أبرزها وأهمها إظهار الفرح والسرور في أيام مواليدهم، والحزن والأسى بمناسبة شهادتهم ورحيلهم من الدنيا، وتقيل المشاهد التي يرقدون فيها، والأبواب والجدران التي شيدت على قبورهم الطاهرة، ونحن إذا حللنا عمل المسلمين وقرأنا ما يكمن في تصرفهم هذا نجد أنهم لا يقبلون الأبواب والجدران هيأماً منهم بها وشوقاً إليها، بل أرواحهم ولهى وقلوبهم هائمة برسول الله ﷺ وأهل بيته

والصالحين من أنصاره وأتباعه ولكن بما أن أيديهم لا تصل إلى تلك الذوات الطاهرة التي هاموا بها لذلك يقبلون آثارهم وما يمت إليهم، ولسان حالهم كلسان حال مجنون ليلى حيث يقول:

أمرَ على الديار ديار ليلى أقبَلْ ذا الجدار وذا الجدارا
وما حبّ الديار شغفن قلبي ولكن حبّ من سكن الديارا

صحيح أن أماكن الزيارة تتألف ظاهراً من الأحجار والأخشاب والحديد و...، ولكن إظهار المحبة الباطنية لها والتعلق بها، يعكس الحب العميق والمودة الكبيرة التي تصل إلى حد الهيام والوله بالنبي الأكرم ﷺ والأئمة الطاهرين عليهم السلام، وإن تلك الأحجار والأخشاب ما اكتسبت قداستها إلا من إضافتها إليهم عليهم السلام، فمن أحب شخصاً أحب كل ما يمت إليه بصلة وكأنه حينما يرى تلك الآثار يرى محبوبه حقيقة.

ومن هنا انطلق المسلمون في التعامل مع آثار النبي الأكرم ﷺ وكل ما يمت إليه بصلة، فإن حبهم الشديد للرسول ﷺ جعلهم يبحثون عن كل أثر من آثاره عليه السلام من موضع قدم، أو لباس، أو قبر أو ساحة حرب، أو ... فيسارعون إلى تلك الأماكن يحدوهم الشوق لرؤية تلك الآثار.

ولقد كانت سيرة المسلمين بحد من الانتشار والسعة بحيث لا يمكن نقل جميع تلك الصور في هذا الفصل، ولذلك سنكتفي بنقل نماذج من ذلك.

١. التبرك بتحنيك الأطفال

كانت السنّة الرائجة في أوساط المسلمين في عصر الرسالة حينما يرزق أحدهم بمولود يأتي به إلى الرسول الأكرم ﷺ، فكان ﷺ يحنكه بشيء من التمر ثم يدعوه له، يقول ابن حجر في هذا الصدد: في من ذكر في الصحابة من الأطفال الذين ولدوا في عهد النبي ﷺ لبعض الصحابة من النساء والرجال ممن مات ﷺ وهو في دون سن التمييز، ... لغلبة الظن على أنه ﷺ رآهم لتوفر دواعي أصحابه على إحضارهم أولادهم عنده حين ولادتهم ليحنكهم ويسمّيهم ويتبرك عليهم، والأخبار بذلك كثيرة شهيرة، ففي «صحيح مسلم»^(١) عن عائشة أن النبي ﷺ كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم؛ وأخرجه الحاكم في كتاب الفتن في «المستدرک» عن عبد الرحمن بن عوف قال: ما كان يولد لأحد مولود إلا أتى به النبي ﷺ فدعا له - الحديث.^(٢)

ولما ولد عبد الله بن عباس وكان الرسول الأكرم ﷺ وبنو هاشم في شعب أبي طالب، حنكه رسول الله ﷺ بريقه.

٢. التبرك بالمسح واللمس

لم تنحصر مسألة التبرك والتحنيك بأطفال المسلمين فقط، بل كان الكبار منهم يصبرون على التبرك بالنبي الأكرم ﷺ، حيث كانوا يطلبون

١. صحيح مسلم: ١٧٦/٦، باب استحباب تحنيك المولود.

٢. الإصابة: ٧/٦١-٧٠؛ الاستيعاب (في حاشية الإصابة): ٣/٦٣١. ولاحظ المستدرک: ٤/٤٧٩.

منه ﷺ أن يمسح على رؤوسهم ويبارك لهم.

فعن ابن جحيفة: خرج رسول الله بالهاجرة إلى البطحاء فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين - إلى أن قال: - وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بهما وجوههم، قال: فأخذت بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك. (١)

ومن هؤلاء زياد بن عبد الله بن مالك الهلالي، قال ابن حجر: فدخل زياد منزل ميمونة أم المؤمنين وكانت خالته ... فقالت يا رسول الله ﷺ: إنه ابن أختي، فدعاه فوضع يده على رأسه ثم حذرهما على طرف أنفه، فكان بنو هلال يقولون: ما زلنا نعرف البركة في وجه زياد.

ثم قال ابن حجر: وذكر ابن سعد القصة مطولة عن هشام بن الكلبي... وقال الشاعر لعلي بن زياد المذكور:

يا ابن الذي مسح الرسول برأسه ودعا له بالخير عند المسجد
مزال ذلك النور في عرينه حتى تبوأ بيته في ملحد (٢)

٣. التبرك بماء وضوء النبي ﷺ

من الظواهر البارزة والأعمال الرائجة في حياة الرسول الأكرم ﷺ تبرك الصحابة بماء وضوئه وغسله، بحيث كانوا لا يدعون قطرة منه تسقط

١. صحيح البخاري: ٤ / ١٦٥، باب صفة النبي ﷺ.

٢. الإصابة: ١ / ٥٣٩ - ٥٤٠، رقم الترجمة ٢٨٥٦.

على الأرض، وإذا كان ذلك الماء كثيراً يشربونه للبركة.

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي حنيفة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ بالهاجرة فأتي بوضوء فتوضأ فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسحون به... (١).

وقد نقل عروة بن مسعود، موفد قريش إلى الرسول ﷺ في صلح الحديبية، الصورة التالية:

يا معشر قريش إنني قد وفدت على الملوك، على قيصر في ملكه بالشام، وعلى النجاشي بأرض الحبشة، وعلى كسرى بالعراق، وأني والله ما رأيت ملكاً هو أعظم ممن هو بين ظهريه من محمد في أصحابه، والله ما يشدون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يتوضأ بوضوء إلا ازدحموا عليه، أيهم يظفر منه بشيء... (٢)

٤. التبرك بقبر النبي ﷺ

الف: روى الحاكم في «المستدرک» عن داود بن صالح، قال: «أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر، فأخذ برقبته، ثم قال: هل تدري ما تصنع؟

فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب الأنصاري، فقال: نعم، إنني لم آت

١. صحيح البخاري: ٥٥/١، كتاب الوضوء.

٢. كنز العمال: ٤٩٣/١٠؛ سيرة زيني دحلان: ٢٤٦/٢، صحيح مسلم: ٣/١٩٤٣ (فضائل ابن موسى).

الحجر، إنما جئت رسول الله ولم آت الحجر، سمعت رسول الله يقول: «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذا وليه غير أهله»^(١).

إن هذه الظاهرة التي نقلها الحاكم في «المستدرک» تحكي أن سيرة صحابة النبي الأكرم ﷺ كانت قائمة على التبرك بقبره الشريف بوضع الخد عليه، كما تحكي في الوقت نفسه عداء مروان وغيره من رجال البيت الأموي وخصومتهم للرسول الأكرم ﷺ حتى بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى.

ب: أقام الصحابي الكبير ومؤذن الرسول الأكرم ﷺ بلال الحبشي في الشام في عهد عمر بن الخطاب، فرأى في منامه النبي ﷺ وهو يقول له:

«ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما أن لك أن تزورني يا بلال؟»

فانتبه حزيناً وجلاً خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين ﷺ، فجعل يضمهما ويقبلهما...»^(٢).

ج: إن فاطمة الزهراء ﷺ سيدة نساء العالمين بنت رسول الله، حضرت عند قبر أبيها ﷺ وأخذت قبضة من تراب القبر تشمه وتبكي، وهي تقول:

١. مستدرک الحاكم: ٤ / ٥٦٠، رقم الحديث ٨٥٧١

٢. أسد الغابة: ١ / ٢٨.

ماذا على من شمّ تربة أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليها
صَبَّتْ عليّ مصائب لو أنّها صَبَّتْ على الأيام صِرْنَ ليالياً^(١)

ومن الواضح إنّ هذا التصرف من السيدة الزهراء عليها السلام يدلّ على جواز التبرّك بقبر رسول الله وتربته الطاهرة.

وقد عقد البخاري في صحيحه باباً سمّاه: «باب ما ذكر من درع النبي صلى الله عليه وآله وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك ممّا لم يذكر قسمته ومن شعره ونعله وأنيته ممّا تبرك أصحابه وغيرهم بعد وفاته». ^(٢)

نكتفي هنا بذكر هذه المجموعة القليلة جداً من بين الكثير من الوقائع التي تحكي عن اتفاق الصحابة على التبرّك بأثار النبي صلى الله عليه وآله، ومن تتبّع كتب السير والحديث و التاريخ والصحاح والمسانيد يرى أنّ مسألة التبرّك بالنبي والصالحين قد بلغت حدّ التواتر بحيث يستحيل عند العقل أن تكون موضوعة ومجعولة.

١. وفاء الوفا: ٤/ ١٤٠٥؛ المواهب اللدنية: ٤/ ٥٦٣.

٢. صحيح البخاري: ٤/ ٤٦، دار الفكر - ١٤٠١ هـ.

نتيجة البحث

إن دراسة التاريخ الإسلامي وسيرة المسلمين في صدر الإسلام تكشف وبوضوح أن التبرك بأثار النبي ﷺ وبكل ما يرتبط به ﷺ كقبره، وتربته، وعصاه، وملابسه، والصلاة في الأماكن التي صلى فيها ﷺ، أو مشى فيها، وكل ذلك كان يمثل في الواقع ثقافة إسلامية رائجة في ذلك الوقت، وكانوا يرومون من ورائه أحد أمرين:

١. التبرك بالآثار تيمناً بها لغاية استنزال الفيض الإلهي من خلال ذلك الطريق، كما حدث ليعقوب رضي الله عنه عن طريق قميص ولده يوسف رضي الله عنه.
٢. الدافع والباعث لهم هو حبهم ومودتهم للرسول الأكرم ﷺ، إذ يحثانهم لتكريم كل ما ينتسب إليه ﷺ من درع، أو سيف، أو ملابس، أو قدح قد شرب بها، أو بئر، أو عصاً كان قد استعملها، أو خاتم، أو...، فكل تلك الآثار كانت مورد اهتمام أصحابه وأنصاره رضي الله عنهم، بل كان الخلفاء يتوارثون ختمه وخاتمه رضي الله عنهم.

وفي الختام نرى من اللازم التذكير بمسألتين مهمتين، هما:

المسألة الأولى: كانت للإمام أحمد بن حنبل - إمام الحنابلة والذي له منزلة وقداسة خاصة في أوساط أهل السنة - رؤية ثاقبة في مسألة التبرك، وهذا ما أكدته كلماته التي نقلت عنه وكذلك سيرته، فمن ذلك:

قال العز بن جماعة الحموي الشافعي (المتوفى ١١٩هـ) في كتاب

«العلل والسؤالات» قال عبد الله: سألت أبي عن الرجل يمَسُّ منبر رسول الله ﷺ ويتبرك بمسِّه ويقبله، ويفعل بالتبر مثل ذلك رجاء ثواب الله تعالى: قال: لا بأس به. (١)

وقال العلامة أحمد بن محمد المقرئ المالكي (المتوفى ١٠٤١هـ) في «فتح المتعال» نقلاً عن ولي الدين العراقي قال: أخبر الحافظ أبو سعيد بن العلا، قال: رأيت في كلام أحمد بن حنبل في جزء قديم عليه خط ابن ناصر (٢) وغيره من الحفاظ: ان الإمام أحمد سئل عن تقبيل قبر النبي ﷺ وتقبيل منبره؟ فقال: لا بأس بذلك.

قال: فأريناه التقي ابن تيمية فصار يتعجب من ذلك، ويقول: عجبت من أحمد عندي جليل، هذا كلامه أو معنى كلامه.

وقال: وأي عجب في ذلك وقد روينا عن الإمام أحمد أنه غسل قميصاً للشافعي وشرب الماء الذي غسله به. (٣)

وإذا كان هذا تعظيمه لأهل العلم، فما بالك بمقادير الصحابة وكيف بأثار الأنبياء ﷺ؟ (٤)

المسألة الثانية: لقد بحث الكثير من العلماء في مسألة التبرك، إلا أنه قد صنف مؤخراً كتابان قيّمان في هذا المجال قد بذل مؤلفاهما غاية الجهد،

١. العلل لأحمد بن حنبل: ٢/٤٩٢؛ وفاه الوفا: ٢/٤٤٣.

٢. هو الحافظ محمد بن ناصر أبو الفضل البغدادي توفي سنة ٥٥٠هـ قال ابن الجوزي في المنتظم: ١٠/١٦٣؛ وكان حافظاً متقناً ثقة لا مغمز فيه.

٣. ذكره ابن الجوزي في مناقب أحمد: ٤٥٥، وابن كثير في تاريخه: ١٠/٣٣١.

٤. انظر الغدير: ٥/١٥٠ - ١٥١.

ودرسا المسألة من جميع أبعادها، وسلّطا الضوء على كافة الخفايا التي تكمن في البحث وأوضحا بما لا مزيد عليه تلك القضية البالغة الأهمية. والكتاب الأول لأحد أعلام أهل السنّة، والثاني لعالم شيعي، والكتابان هما:

١. «تبرّك الصحابة بآثار النبي والصالحين» للعلامة المحقّق والمؤرّخ

الخبير محمد طاهر بن عبد القادر بن محمود المكي، طبع الكتاب في القاهرة، مطبعة المدني، عام ١٣٨٥هـ ق.

٢. «التبرّك» بقلم المحقّق الخبير آية الله علي الأحمدي الميانجي

(١٣٤٤ - ١٤٢١هـ)، فقد تتبّع ﷺ في كتابه هذا وينحو يثير الإعجاب حقاً -

المسألة من جميع أبعادها التاريخية والحديثية و...، وأثبت بما لا مزيد عليه وينحو لا يدع للترديد أو الشك مجالاً في أن سيرة المسلمين عامّة والصحابة والتابعين خاصة كانت قائمة على التبرّك بآثار النبي والصالحين.

وفي الختام: إن ما نشاهده اليوم عند قبر خاتم المرسلين ﷺ، وما

يقوم به من يطلق عليهم لجان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المنع

عن تقبيل ضريح الرسول ﷺ وما يمت إليه بصلة تحت غطاء الاتهام

بالشرك والابتداع و...، ففي الحقيقة أن ما تقوم به هذه اللجان ذنب لا يغفر،

وانحراف فكري نابع عن عدم إدراك المفاهيم الإسلامية، ولو أن مشايخ هذه

الطائفة سمحت بانعقاد مؤتمر إسلامي يجتمع فيه علماء الفرق الإسلامية

لدراسة المسألة من جذورها، لرفع الكثير من الإبهام، وأزيل الكثير من

اللبس، ولانكشفت القضية بأجلى صورها، ولحلّ بدل التكفير والتفسيق

الود والإلفة الإسلامية، ولحلّ الوثام بدل العداوة والخصام.

الفصل الخامس

عقائد ابن تيمية

عقائده و آراؤه

إنّ الآراء والمعتقدات، مقياس شخصية الإنسان، ومستوى عقليته وثقافته، كما أنّ ما يمت منها إلى الإسلام بصلة، مقياس عرفانه بالكتاب والسنة، وسلامة ذوقه وصفاء ذهنه، وقد حان تقييم شخصية ابن تيمية عن طريق عرض آرائه على المصادر الإسلامية، ليعلم مدى صحتها وانطباقها على المصدرين وحدّ سلامة ذوقه وصفاء ذهنه في مقام الاستضاءة بهما،
واليك البيان :

(١)

ابن تيمية ورأيه في الصفات الخبرية^(١)

إن المحنة الأولى لابن تيمية بدأت مما نشره باسم «العقيدة الحموية» حيث أجاب فيها عن سؤال أهل «حماه» في آيات الصفات، مثل قوله: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» وقوله: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ»، وأحاديث الصفات، كقوله ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ»، وقوله: «يُضَعُ الْجِبَارُ قَدَمَهُ فِي النَّارِ بِمَا هَذَا نَصَهُ:

«فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وعلى كل شيء، وأنه فوق السماء، مثل قوله: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»، «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ»، «أَمِثُّم مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ...»، «أَمِثُّم مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ

١. الصفات الخبرية، هي الصفات التي أخبر عنها القرآن والسنة، مقابل ما يدل عليه العقل كالعالم

حَاصِباً...»، «بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ...»، «إِلَيْهِ تَعْرُجُ... وَالرُّوحُ...»، «يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوِّهِمْ...»، «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» (في ستة مواضع). «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»، «يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرَحاً لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ الْأَسْبَابِ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِباً...»، «تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»، «مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ» إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلا بكلفة.

وفي الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى، مثل قصة معراج الرسول ﷺ إلى ربه، ونزول الملائكة من عند الله وصعودهم إليه، وقوله في الملائكة: «الذين يتعاقبون بالليل والنهار، فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم، فيسألهم وهو أعلم بهم»، وفي الصحيح في حديث الخوارج: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خير السماء صباحاً ومساءً» وفي حديث الرقية الذي رواه أبو داود وغيره: «ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك. أمرك في السماء كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض. اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت ربّ الطيبين»، وقال ﷺ: «إذا اشتكى أحد منكم أو اشتكى أخ من إخوانه فليقل: «ربنا الله الذي في السماء ذكره»، وقوله في حديث الأعمال: «والعرش فوق ذلك، والله فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه» وقوله في حديث قبض الروح: «حتى يعرج به إلى السماء التي فيها الله».

وقول عبدالله بن رواحة الذي أنشده للنبي وأقره عليه:

شهدت بأن وعد الله حقاً وأن النار مشوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طافٍ وفوق العرش رب العالمينا

وقول أمية بن أبي الصلت الذي أنشده للنبي، فاستحسنه، وقال: آمن
شعره وكفر قلبه .

مَجَدُّوا اللَّهَ فَهُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلٌ رَبَّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرًا
بِالْبِنَاءِ الْأَعْلَى الَّذِي سَبَقَ النَّاسَ سَ وَسَوَى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرًا
شَرَجَعًا^(١) مَا يَنَالُهُ بَصَرُ الْإِنْسَانِ عَيْنٌ تَرَى دُونَهُ الْمَلَائِكَةَ صُورًا^(٢)

إلى أمثال ذلك مما لا يحصيه إلا الله، مما هو من أبلغ التواترات
اللفظية والمعنوية التي تورث علماً يقينياً من أبلغ العلوم الضرورية، إن
الرسول المبلغ عن الله ألقى إلى أمته المدعوين: أن الله سبحانه على العرش
استوى وأنه فوق السماء، كما فطر الله على ذلك جميع الأمم عربهم
وعجمهم في الجاهلية والإسلام، إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته .

ثم عن السلف في ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مئين أو ألوفاً، ثم
ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله، ولا عن أحد من سلف الأمة ولا
من الصحابة والتابعين، ولا عن الأئمة الذين أدرکوا زمن الأهواء
والاختلاف، حرف واحد يخالف ذلك لا نصاً ولا ظاهراً، ولم يقل أحد
منهم قط إن الله ليس في السماء ولا أنه ليس على العرش، ولا أنه ليس في
كل مكان، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ولا أنه لا داخل العالم ولا
خارجه، ولا متصل ولا منفصل، ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه

١. الشرجع: الطويل .

٢. الصور، جمع أصور: المائل العنق.

بالأصابع ونحوها، بل قد ثبت في الصحيح عن جابر أن النبي لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات، في أعظم مجمع حضره رسول الله، جعل يقول: ألا هل بلغت؟ فيقولون: نعم، فيرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إليهم فيقول: اللهم اشهد، غير مرة، وأمثال ذلك كثيرة.^(١)

وقد كرر ابن تيمية ما اختاره في باب الصفات الخيرية في غير واحد من آثاره، فقال في العقيدة الواسطية: «وما وصف الرسول به ربه من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها، كذلك مثل قوله: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة، حين يبقئ ثلث الليل الآخر فيقول: «من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفربي فأغفر له» .

وقوله ﷺ: «يضحك الله إلى رجلين أحدهما يقتل الآخر، كلاهما يدخل الجنة» .

وقوله: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه» .

وقوله ﷺ في رقية المريض: «ربنا الله الذي في السماء - تقدر اسمك - أمرك في السماء والأرض...» .

وقوله: «والعرش فوق ذلك، والله فوق ذلك، والله فوق عرشه، وهو

١. العقيدة الحموية الكبرى - الرسالة الحادية عشرة - من مجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية: ٤٢٩ -

يعلم ما أنتم عليه» وقوله ﷺ للجارية: «أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: أعتقها فإنها مؤمنة». وقوله: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبَّل وجهه، فلا يبصق قبل وجهه ولا عن يمينه، ولكن عن يساره أو تحت قدمه». وقوله: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته».

وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله، الإيمان بما أخبر الله به في كتابه، وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه، عليّ على خلقه، وهو معهم سبحانه أينما كانوا^(١).

وقال: «وقد سألوه ﷺ: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فأجابهم: نعم، وسأله أبو رزين: أيضحك ربنا؟ فقال ﷺ: نعم، فقال: لن نعدم من رب يضحك خيراً. ثم إنهم لما سألوه عن الرؤية، قال: إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر، فشبّه الرؤية بالرؤية^(٢)».

وقال ردّاً على نفاة الصفات^(٣): «إما أن يكون الله يحب منا أن نعتقد قول النفاة، أو نعتقد قول أهل الإثبات، أو نعتقد واحداً منهما؛ فإن كان مطلوبه منا اعتقاد قول النفاة، وهو أنه لا داخل العالم ولا خارجه، وأنه ليس فوق السماوات ربٌّ ولا على العرش إله، وأن محمداً لم يعرج به إلى الله، وإنما عرج به إلى السماوات فقط، لا إلى الله، فإن الملائكة لا تعرج إلى الله

١. العقيدة الواسطية، الرسالة التاسعة، من مجموع الرسائل الكبرى: ٣٩٨ - ٤٠٠ بتلخيص.

٢. مجموعة الرسائل والمسائل: ٢٠٣/١، طبع لجنة التراث العربي.

٣. المراد: الصفات الخيرية كاليد والوجه.

بل إلى ملكوته، وإنَّ الله لا ينزل منه شيء ولا يصعد إليه شيء، وأمثال ذلك. وإن كانوا يعبرون عن ذلك بعبارات مبتدعة فيها إجمال وإبهام وإيهام، كقولهم: ليس بمتحيز، ولا جسم، ولا جوهر، ولا هو في جهة، ولا مكان، وأمثال هذه العبارات التي تفهم منها العامة تنزيه الرب تعالى عن النقائص، ومقصدهم أنه ليس فوق السماوات رب ولا على العرش إله يعبد، ولا عُرج بالرسول إلى الله، ولو كان هذا هو المطلوب كان من المعلوم أنه لا بد أن يبينه الرسول، وقد علم بالاضطرار أن الرسول وأصحابه لم يتكلموا بمذهب النفاة.^(١)

وقال: «إنَّ المالكية وغير المالكية نقلوا عن مالك أنه قال: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، ولأنَّ علماءهم حكموا إجماع السنة والجماعة على أنَّ الله بذاته فوق عرشه».^(٢)

وقال - نقلًا عن ابن أبي حنيفة - «أنه سئل عنَّ يقول: لا أعرف ربِّي في السماء أو في الأرض؟ قال: كفر، لأنَّ الله يقول: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» وعرشه فوق سبع سماواته، فقال السائل: إنَّه يقول على العرش، ولكن لا أدري العرش في السماء أو في الأرض؟ فقال: إنَّه إذا أنكر أنه في السماء كفر، لأنَّه تعالى في أعلى عليين، وإنَّه ليدعى من أعلى لا من أسفل».^(٣)

١. مجموعة الرسائل والمسائل: ١ / ٢٠٣.

٢. مجموعة الرسائل والمسائل: ١ / ٢٠٣.

٣. مجموعة الرسائل والمسائل: ١ / ٢٠٧.

ونقل عن عبدالله بن المبارك أنه سئل: بماذا تعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق سماواته على عرشه، بائن عن خلقه قلت بحد لا يعلمه غيره. ثم نقل عن كثير من أئمة الحديث كالثوري، ومالك، وابن عيينة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وابن المبارك، وفضيل بن عياض، وأحمد، وإسحاق، عن كون الله سبحانه فوق العرش بذاته، وأن علمه بكل مكان.^(١)

إلى غير ذلك مما نقله وأرسله على نسق واحد، والكل يهدف إلى أن الصفات الخبرية يجب أن تجري على الله سبحانه بحرفيتها وظهورها التصوري، من دون تفصيل وتأويل، بإرجاعها إلى المعاني المجازية أو الكنائية.

الآراء المتضاربة حول الصفات الخبرية

إن للمتكلمين وأهل الحديث في تفسير الصفات الخبرية مذاهب نشير إليها:

١- جريها على الله سبحانه كجريها على المخلوقين، وهذا ما يعبر عنه بالتكييف، وعليه المجسمة وأصحاب الجهة والتشبيه - خذلهم الله سبحانه وتعالى - وهو يستلزم أن يكون سبحانه جسماً، أو جسمانياً جالساً على كرسي جسماني، ناظراً من عرشه إلى تحته كمنظر الملك الجبار إلى عبيده وغلمايه .

٢- جريها على الله سبحانه بنفس المفاهيم اللغوية والمعاني الابتدائية، والمدلولات التصورية، بلا تصرف وتعليل وتدخّل فيها، والله سبحانه يتّصف بها لكن بلا تكييف، والفرق بين هذا القول والقول الأول هو أن القول الأول يثبت المعاني مع الكيفية، وهذا القول يثبتها بنفس المعاني لكن بلا تكييف، وهذا هو الذي اختاره ابن تيمية، ويذكر ذلك في رسائله ويقول: «والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط من أن الله مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله ويختص به، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ولا يجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرتهم، فكذلك هو سبحانه فوق العرش، ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق، ولوازمها»^(١).

ويقول أيضاً: «ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، فيعطّلون أسماء الحسنى يحزّفون الكلم عن مواضعه. أمّا المعطلون، فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللاتق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل، مثلوا أولاً وعطلوا آخراً، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل

لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة باللَّه سبحانه»^(١).

٣- جريها على الله سبحانه بمفاهيمها التصديقية، بعد الإمعان في القرائن الموجودة في نفس الآيات والروايات الصحيحة وأما غيرهما، فأكثر ما ورد في ذلك من وضع الأحناف والرهبان الذين دسوا هذه الأحاديث بين المسلمين بخداع خاص .

وعلى ضوء ذلك فالكل قائلون باستوائه على العرش، لكن الطائفة الأولى يفسرونه بالجلوس والاستقرار على العرش كاستقرار الإنسان على عرشه، الذي له قوائم أربع.

والطائفة الثانية يفسرونه بنفس هذه المفاهيم، ولكن يقولون: استقراراً وجلوساً لائقاً بحاله سبحانه، وعرشاً لائقاً بساحته، فهو مستقر وجالس لا كجلوس الإنسان وله عرش لا كعروشه، بل الكل ما يليق بساحته، من غير تكيف ولا تمثيل.

والطائفة الثالثة يفسرونه بالاستيلاء، أخذاً بالقرائن الموجودة في نفس الآيات، وما ورد في كلمات البلغاء والفصحاء في استعمال نظيره في كلماتهم ومحاوراتهم.

٤- وهناك طائفة رابعة يقولون بالتفويض، وأنه ليس لنا تفسير الآية، بل نفوض معانيها إليه سبحانه .

قال الشهرستاني: «اعلم إن جماعة كثيرة من السلف، كانوا يثبتون لله

صفات خبرية مثل اليدين والوجه، ولا يؤوّلون ذلك، إلا أنهم يقولون: إننا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه، مثل قوله: «الرَّحْمَنُ هَلَى العَرْشِ اسْتَوَى» ولسنا مكلفين بمعرفة هذه الصفات»^(١).

وقال الرازي: «إن هذه المتشابهات يجب القطع بأن مراد الله منها شيء غير ظواهرها، كما يجب تفويض معناها إلى الله تعالى، ولا يجوز الخوض في تفسيرها»^(٢).

إلى غير ذلك من الكلمات التي نقلناها في هذه الموسوعة^(٣).

ثم إن أصحاب التنازع بالألقاب وصفوا الطائفة الثالثة بالمعطلة تارة، والمؤولة أخرى، ولكنهم غير معطلة أبداً، لأنهم لم يعطلوا في مقام توصيفه سبحانه شيئاً مما ورد في الكتاب، غير أنهم قاموا بتعيين المراد من هذه الصفات فأجروها عليه، وأما المؤولة، فإنما يصحّ توصيفهم بهذا الوصف إذا أريد منها المعاني التصويرية الابتدائية، وأما المعاني التصديقية التي تدل عليها القرائن، فلا يؤوّلون شيئاً منها، والملاك في صدق التأويل هو المعاني التصديقية، لا التصويرية.

هذه هي الأقوال المعروفة في باب الصفات على وجه الإجمال، هلمّ معي ندرس نظرية ابن تيمية فيها، حتّى يتجلّى الحقّ بأجلى مظهره.

١. الملل والنحل: ١/ ٩٣ بتلخيص.

٢. أساس التفديس: ٢٢٣.

٣. راجع الجزأين الثاني والثالث.

نظرية ابن تيمية تلازم الجهة والتجسيم

لا يشك من نظر إلى ما نقلناه عن ابن تيمية في مواضع متعددة من رسائله وكتبه في أنه صريح في التجسيم والتشبيه، خصوصاً أنه يصرح بأنه تصح الإشارة الحسية بالأصابع إليه، ولا هدف له من جمع كل ما ورد في ذلك المجال من غث وسمين وصحيح وزائف. إلا إثبات أن هذه الصفات تجري عليه سبحانه بمعانيها اللغوية، غير أن تذرعه بلفظ «بلا كيف» أو «بلا تمثيل» أو ما يقاربهما ربما يوجب عدم عدّه من المجسّم والمشبّه، لأنه يقول بأن له سبحانه هذه الصفات لا كصفات المخلوقين، ولكن هذا التذرع واجهة يريد به تبرير توصيفه سبحانه بها بمعانيها اللغوية، وعدم اتهامه بالقول بالتجسيم والتشبيه، ولكنها لا تفيد شيئاً وذلك:

إن هذه الصفات كاليد والرجل والنزول والجلوس موضوعة لغة على معانيها المتكيفة بكيفيات جسمانية، فاليد هي الجارحة المعروفة من الإنسان والحيوان، وهكذا الرجل والقدم، ومثلها النزول، فإنها موضوعة للحركة من العالي إلى السافل، والحركة من صفات الجسم، فالكيفية مقومة لمعاني هذه الألفاظ والصفات، فاليد والرجل بلا كيفية ليستا يداً ورجلاً بالمعنى اللغوي المتبادر عرفاً، وعلى ضوء ذلك فليس هنا إلا سلوك أحد طريقين:

١- جريها بنفس معانيها اللغوية التي تتبادر منها المفاهيم المتكيفة،

فهو نفس القول بالتجسيم .

٢- جريها بمفاهيمها المجازية، ككون اليد كناية عن القدرة، كما في قوله سبحانه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(١)، فهذا هو قول المؤولة، أو المعطلة باصطلاح ابن تيمية، وليس ههنا معنى ثالث ينطبق على ما يتبناه ابن تيمية، وهو إجراؤها على الله بنفس مفاهيمها، لكن من غير تكييف، وذلك لما عرفت أن مفاهيمها متقومة بالتكييف والتمثيل، فلو حذفنا الهيئة والكيفية من اليد، فلا يبقى منها شيء، كما أننا لو حذفنا الحركة الحسية من النزول لا يبقى منه شيء، إلا إذا حملا على الكناية والتأويل، وهو ما لا يقبله ابن تيمية وأتباعه.

ولو صحَّ حمل هذه المفاهيم عليه سبحانه بالتدريج بـ «بلا كيف» و «لا تمثيل» لصحَّ توصيفه سبحانه بكل شيء فيه أدنى كمال، ونقول: إنه جسم لا كالأجسام، وله قلب لا كهذه القلوب، وله لسان ناطق لا كهذه الألسنة.

وخلاصة القول: إن ابن تيمية يرى نفسه بين أمرين:

أحدهما: القرآن بظواهره الحرفية حجة لا يصح لأحد تأويلها أو حملها على الكناية والمجاز.

ثانيهما: إن القرآن صريح في أنه ليس كمثل شيء، وأن المشركين ما قدروا الله حق قدره، إلى كثير من آيات التنزيه.

فعند ذلك يريد أن يجمع بين الأمرين باللجوء إلى أن المقصود ما يناسب ساحته، زاعماً بأنه ينجيه عن القول بالجهة والتجسيم، مع أنه ليس

لنا إلا اختيار أحد الأمرين: الأخذ بالمفاهيم اللغوية بلا تأويل ومرجعه إلى التجسيم، أو الإمعان في الآيات والآثار الصحيحة وتفسيرها حسب الدلالة التصديقية، بالمعاني الكنائية أو المجازية أو غير ذلك .

وأما ما ادّعاه من أن ما ذكره نفس معتقد السلف فقد أجاب عنه العلامة الشيخ سلامة القضاعي العزامي الشافعي (المتوفى ١٣٧٩ هـ) قال: «إذا سمعت في بعض عبارات بعض السلف: إنما نؤمن بأن له وجهاً لا كالوجوه، وبدلاً لا كالأيدي، فلا تظن أنهم أرادوا أن ذاته العلية منقسمة إلى أجزاء وأبعاض، فجزء منها يد وجزء منه وجه، غير أنه لا يشابه الأيدي والوجوه التي للخلق .

حاشاهم من ذلك، وما هذا إلا التشبيه بعينه، وإنما أرادوا بذلك أن لفظ الوجه واليد قد استعمل في معنى من المعاني وصفة من الصفات التي تليق بالذات العلية، كالعظمة والقدرة، غير أنهم يتورعون عن تعيين تلك الصفة تهيئاً من التهجم على ذلك المقام الأقدس، وانتهاز المجسمة والمشبهة مثل هذه العبارة فغرروا بها العوام، وخدعوا بها الأغمار من الناس، وحملوها على الأجزاء فوقعوا في حقيقة التجسيم والتشبيه، وتبرأوا من اسمه، وليس يخفى نقدهم المزيف على صيارفة العلماء وجهابذة الحكماء»^(١).

وقد صرح بما ذكرنا - الأخذ بالمفاهيم اللغوية يلزم الجهة والتجسيم - ناصر ابن تيمية في جميع المواقف (إلا في موقف أو موقفين) الشيخ

محمد أبو زهرة حيث لم يستطع أن يستر الحقيقة، فقال: «ولا تسع عقولنا لإدراك الجمع بين الإشارة الحسية بالأصابع والإقرار بأنه في السماء، وأنه يستوي على العرش، وبين تنزيهه المطلق عن الجسمية والمشابهة للحوادث. وإنَّ التأويل (حملها على المجاز و الكناية) بلا شك في هذا يقرب العقيدة إلى المدارك البشرية، ولا يصح أن يكلف الناس ما لا يطيقون، وإذا كان ابن تيمية قد أتسع عقله للجمع بين الإشارة الحسية وعدم الحلول في مكان والتنزيه المطلق، فعقول الناس لا تصل إلى سعة أفقه إن كان كلامه مستقيماً»^(١).

ويقول أيضاً: «ومهما حاولوا نفي التشبيه فإنه لاصق بهم، فإذا جاء ابن تيمية من بعدهم بأكثر من قرن فقال: «إنه اشترك في الاسم لا في الحقيقة» فإن فسروا الاستواء بظاهر اللفظ فإنه الإقعاد والجلوس، والجسمية لازمة لا محالة، وإن فسروه بغير المحسوس فهو تأويل، وقد وقعوا فيما نهوا عنه، وفي الحالين قد خالفوا التوقف الذي سلكه السلف»^(٢).

أقول: ليس ابن تيمية فريداً في هذا الباب، بل المذهب الذي أرسى قواعده شيخه ابن حنبل من التعمد بالظواهر بحرفيتها ومعانيها التصورية لا ينفك عن التجسيم والتشبيه، ومهما حاولوا الفرار عنه وقعوا فيه من حيث لا يشعرون. نعم حاول ابن الجوزي أن يدافع عن أستاذ مذهبه فوجه اللوم إلى تلاميذه، فقال: «رأيت من أصحابنا من تكلم في الأصول بما لا يصلح،

١. ابن تيمية، حياته وعصره: ٢٧٠.

٢. ابن تيمية حياته وعصره: ٢٧٢ - ٢٧٣.

وانتدب للتصنيف ثلاثة: أبو عبدالله بن حامد^(١) وصاحبه القاضي (أبو يعلى)^(٢) وابن الزاغواني^(٣)، فصنّفوا كتباً شانوا بها المذهب، ورأيهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات على مقتضى الحسن؛ فسمعوا أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ﷺ على صورته، فأنبتوا له صورة ووجهاً زائداً على الذات، وعينين وفماً ولهوات وأضراساً وأضواءً لوجهه، ويدين وأصابع وكفاً وخنصرأ وإبهاماً وصدراً وفخذاً وساقين ورجلين، وقالوا ما سمعنا بذكر الرأس .

وقد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات، فسمّوها بالصفات تسمية مبتدعة، ولا دليل لهم في ذلك من النقل ولا من العقل، ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعاني الواجبة لله تعالى، ولا إلى إلغاء ما توجه الظواهر من سمات الحدث، ولم يقنعوا أن يقولوا صفة فعل حتى قالوا: صفة ذات، ثم لما أثبتوا أنها صفات، قالوا: «لا نحملها على توجيه اللغة، مثل يد على نعمة وقدرة، ولا مجيء وإتيان على معنى بر ولطف، ولا ساق على شدة، بل قالوا: نحملها على ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو

١ . شيخ الحنابلة في عصره . البغدادي، الوراق (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) له كتاب في أصول الاعتقاد سماه «شرح أصول الدين» وفيه أقوال تدل على التشبيه والتجسيم.

٢ . القاضي أبو يعلى محمد الحسين بن خلف بن الفراء الحنبلي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) وقد تكلم في أصول الاعتقاد كلاماً تبع أستاذه ابن حامد وأكثر من التشبيه والتمثيل حتى قال فيه بعض العلماء: «لقد شان أبو يعلى الحنابلة شيئاً لا يفسله ماء البحار» .

٣ . هو أبو الحسن علي بن عبيدالله بن نصر الزاغواني الحنبلي (المتوفى سنة ٥٢٧ هـ) وله كتاب في أصول الاعتقاد اسمه «الإيضاح» قال فيه بعض العلماء: «إن فيه من غرائب التشبيه ما يحار فيه النبيه» .

المعهود من نعوت الأدميين»، والشيء إنما يحمل على حقيقته إذا أمكن، فإن صرفه صارف حمل على المجاز.

ثم يتحرّجون من التشبيه ويأنفون من إضافته إليهم، ويقولون نحن أهل السنة، وكلامهم صريح في التشبيه، ولقد تبعهم خلق من العوام، وقد نصحت التابع والمتبوع وقلت لهم: يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل وأتباع، وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل رحمته الله يقول وهو تحت السياط: «كيف أقول ما لم يقل به» فإياكم أن تبدعوا في مذهبه ما ليس منه .

ثم قلت في أن الأحاديث تحمل على ظاهرها، فظاهر القدم: الجارحة، ومن قال استوى بذاته المقدسة فقد أجراه سبحانه مجرى الحسيات، وينبغي أن لا يحمل ما لا يثبت الأصل وهو العقل، فإننا به عرفنا الله وحكمنا له بالقدم، فلو أنكم قلتم نقرأ الأحاديث ونسكت، لما أنكر عليكم، وإنما حملكم إياه على الظاهر قبيح، فلا تدخلوا في مذهب هذا الرجل الصالح السلفي ما ليس فيه.^(١)

أقول: عزب عن ابن الجوزي الحنبلي أن إمامه هو الذي دعم هذه الفكرة في كتبه، وأنه هو الذي حشا كتبه بأحاديث التجسيم والتشبيه، ومن أراد الوقوف عليها، فليرجع إلى كتاب السنة الذي رواه عنه ابنه عبدالله، وقد رويها قسماً وافرأ من رواياته في الجزء الأول.^(٢)

١. ابن تيمية، حياته وعصره: ٢٧٣ - ٢٧٤، نقلاً عن دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي. ونقله ملخصاً

الشيخ سلامة في فرقان القرآن: ٨٢.

٢. بحوث في الملل والنحل: ١/ ١٣٠ - ١٤٣.

نعم، قسّم عز بن عبدالسلام الحشوية وقال بأنهم على ضربين:
أحدهما «يتحاشى عن الحشو والتشبيه والتجسيم، والأخر تستر
بمذهب السلف، ومذهب السلف إنّما هو التوحيد والتنزيه دون التشبيه
والتجسيم»^(١).

والحق أنّ الحشوية بأجمعهم مجسّمة، والتمسك بمذهب السلف
واجهته ستروا بها قبح عقيدتهم، ولو رفع الستر لبان أنّهم مجسّمة ومشبهة،
وفي هذا الصدد يقول الزمخشري:

ولو حنبلياً قلت قالوا بأنني ثقيل حلولي بغيبض مجسم

ويقول أبو بكر ابن العربي في حقهم:

قالوا الظواهر أصل لا يجوز لنا

عنها العدول إلى رأي ونظر

بينوا عن الخلق لستم منهم أبداً

ما للأتام ومعلوف من البقر^(٢)

نعم، الظواهر هي الأصل ولا يجوز لأحد العدول عنه: ولكن الظواهر
منها ظاهر حرفي، ابتدائي، تصوّري، فهو ليس بحجّة أبداً؛ «وانمنا ظاهراً
جملي تصديقي استمرارى، وهو الحجة قطعاً، فإذا قلت: رأيت أسداً في
الحمام، فالظهور الابتدائي التصوري الحرفي للفظ الأسد هو الحيوان

١. نقض المنطق: ١١٩، كما في كتاب «ابن تيمية» لمحمد أبي زهرة.

٢. فرقان القرآن: ٩٨.

المفترس، ويقابله الظهور التصديقي الجملي الاستمراري وهو الرجل الشجاع، وهؤلاء الذين يضلون العوام يفترون بالقسم الأول من الظاهر، دون الثاني. وإذا قال المحققون: ظواهر الكتاب والسنة حجة لا يصح العدول عنها ولا يجوز لأحد تأويلها، يريدون الظهورات التصديقية التي تنعقد للكلام بعد الإمعان في القرائن المتصلة أو المنفصلة، ولكن من يتبع الظواهر الحرفية فقد ضل، وغفل عن أن كلام العرب والبلغاء والفصحاء مليء بالمجازات والكنيات.

وحصيلة البحث: أن الجمود على الظواهر عبارة عن الجمود على ظواهرها الحرفية، ولا شك أنه يجر إلى الكفر أحياناً، فمن جمد على ظاهر قوله سبحانه: «ليس كمثله شيء» يجب عليه أن يقول: إن لله مثلاً وليس كهذا المثل شيء، كما أن التأويل ضلال، والمراد منه هو العدول عن الظواهر التصديقية التي تتبادر إلى أذهان أهل اللغة بعد الإمعان في سياق الكلام، والتأمل في نظائره في كلمات العرب. فلو استقرّ ظهور جملة في شيء بهذا الشرط، فالعدول عنه يوجب مسخ كلام الله ومحو الشريعة.

فعلى العالم الباحث أن يسمعن النظر في الصفات الخبرية التي جاءت في الكتاب والسنة، ويتلقاها آيات متشابهة، ويمعن في الآيات المحكمة حتى يزيل عنها التشابه. «ومن تتبع براهين القرآن واستقرأ آياته العظام وجد كثيراً مما تشابه فيه، ورأى كثيراً منه محكماً، وهو ما كان من المجاز البين الشائع في لغة العرب، وعلى قدر الرسوخ في العلم يكون زوال التشابه أو أكثره عن الكثير من المتشابه، ولما كان الراسخون في

العلم متفاوتين لا جرم تفاوتت أنصباؤهم في زوال التشابه عنهم...»^(١).

وفي الختام نذكر أموراً:

الأول: إن ابن تيمية وإن تشرّ بقوله (بما يناسب ساحته) ونظيره، ولكنه أظهر عقيدته الواقعية في مجالات خاصة، وهذا ابن بطوطة ينقل في رحلته: «وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية كبير الشام يتكلم في الفنون، إلا أنه كان في عقله شيء، وكان أهل دمشق يعظمونه أشدّ التعظيم، ويعظمهم على المنبر، وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء.. ورفعه إلى الملك الناصر فأمر بإشخاصه إلى القاهرة، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر، وتكلم شرف الدين الزوادي المالكي وقال: إن هذا الرجل قال كذا وكذا، وعدّد ما أنكر على ابن تيمية، وأحضر الشهود بذلك ووضعها بين يدي قاضي القضاة.

قال قاضي القضاة لابن تيمية: ما تقول؟ قال: لا إله إلا الله، فأعاد عليه فأجاب عليه بمثل قوله، فأمر الملك الناصر بسجنه، فسجن أعواماً، وصنّف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سمّاه بالبحر المحيط .

ثم إن أمته تعرضت للملك الناصر، وشكت إليه فأمر بإطلاقه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية، وكنت إذ ذاك بدمشق. فحضرته يوم الجمعة، وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم، فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه

١. كلام الإمام ابن دقيق العيد، كما في فرقان القرآن: ٩٧.

فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء، وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه، وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كبيراً.^(١)



الثاني: إن ابن تيمية ومن لف لفه يستدلون على مقاتلهم بالقياس، ويقولون: إن الوجه، والعين، واليد، والقدمين والساق صفات مثل سائر الصفات، كالحياة والعلم والإرادة، فكما أن له سبحانه حياة لا كحياة الإنسان، فهكذا صفاته الخبرية، فله وجه لا كالوجه، ويد لا كالأيدي، ورجل لا كالأرجل.

يلاحظ عليه: أن الاستدلال بالقياس في مجال العقائد أشد خطأ من الاستدلال به في المسائل الفقهية، وعلى فرض الصحة فالقياس مع الفارق، وذلك أن كلاً من العلم والقدرة موضوع لمعنى غير متقيد بالجسم والمادة، فالعلم من ينكشف لديه المعلوم، والقادر من يستطيع على الفعل عن اختيار، فلأجل ذلك لكل واحد منهما مراتب ودرجات، فمنه حصولي ومنه حضوري، فمنه زائد على الذات، ومنه عين الذات، وأما الصفات الخبرية كالوجه فإنها موضوعة على الموجود المادي الذي له شكل خاص، ولو كانت له مصاديق متفاوتة كوجه الإنسان والفرس والأسد فإنما هي في إطار الجسم المادي، فالوجه بأي نحو أطلق يجب أن يكون موجوداً مادياً متهيئاً بهيئة خاصة، فالوجه الفاقد للمادة والهيئة، ليس وجهاً لغة، ومثله الرجل

١. ابن بطوطة: الرحلة: ٩٥-٩٦، طبع دار صادر (١٣٨٤ هـ).

واليد، فالقول بأن له سبحانه يداً لا كالأيدي، إن أريد منه التأويل، أي تأويله بالقدرة، فهذا هو الذي ذهب إليه أهل التنزيه، وإن أريد به المعنى اللغوي بلا تدخل ولا تصرف، ومع ذلك فهو يفقد المادة والهيئة والشكل فهذا أشبه بالتناقض.



الثالث: إن ابن تيمية ينسب إلى السلف بأنهم لا يؤولون ظواهر الكتاب في مجال الصفات الخبرية، ثم يستتج منه أنهم يحملونها على ظواهرها اللغوية، ويقولون: إن لله وجهاً ويداً ورجلاً، ونزولاً ونقله بنفس معانيها اللغوية، غاية الأمر أن كيف مجهول .

يلاحظ عليه: أن ما نسب إلى السلف إذا كان صحيحاً يهدف إلى توقفهم في تعيين المراد وتفويض الأمر إلى الله، إذ في الأخذ بالظاهر اليدوي مغبة الجهة والتجسيم، وفي تعيين المراد مظنة التفسير بالرأي، فكانوا لا يخوضون في هذه الأبحاث الخطرة، وأما أنهم يحملونها على ظواهرها ويفسرونها بنفس معانيها الابتدائية التصورية، كما زعمه ابن تيمية، فهو افتراء على المثبتين منهم .

نعم، كان أهل التحقيق يخوضون في هذه المباحث ويعينون المعنى المراد، وهذا ما يطلق عليه التأويل، ولكن التأويل صحيح على وجه، وباطل على وجه آخر، فإن كان هناك شاهد عليه في نفس الآية والحديث، أو كان التأويل من قسم المجاز البيّن الشائع، فالحق سلوكه من غير توقف، وإن لم

يكن في النصوص عليه شاهد، أو كان من المجاز البعيد، فهذا هو التأويل الباطل، وهو يلزم الخروج عن الملة والدخول في الكفر والإلحاد.

كما أن التأويل بلا قيد و شرط كفر وضلال، كما عليه الباطنية، فهكذا التعمد بالظواهر الابتدائية والمعاني التصورية، وعدم الاعتناء بالقرائن المتصلة أو المنفصلة أيضاً كفر وضلال وتعمد بالتجسيم والتشبيه.

إن المتحزبي للحقيقة يتبع الحق ولا يخاف من الإرهاب والإرهاب، ولا من التنازع بالألقاب، فلا يهوله ما يسمع من ابن تيمية وابن عبد الوهاب من تسمية المنزهين للحق عن الجهة والمكان، معطلة وجهية، وتلقيب القائلين ببدع اليهود والنصارى بالموحددين والمثبتين، فلا يصرفنك النيز بالألقاب إلى الانحراف عن الحق الصراح، الذي أرشدك إليه كتاب الله وسنة رسوله القويمية، والعقل الذي به عرفت الله سبحانه، وبه عرفت رسله ومعاجزه وآياته .

ومما يدل على أن السلف لا يحملون الصفات الخبرية على ظواهرها، بل لا يتكلمون ويفوضون الأمر إلى الله، هو ما نقل عن عالم المدينة مالك بن أنس عندما سئل عن قوله سبحانه: «ثم استوى على العرش» أنه كيف استوى؟ قال: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول.^(١) نعم إن ابن تيمية وأبناء الوهابية يحكون عنه أنه قال: «الكيف مجهول»، والفرق بين العبارتين واضح، فالأول يهدف إلى التنزيه، والثاني يناسب التجسيم، إذ

١. نقله الذهبي في كتابه «العلو» عن مالك وشيخه ربيعة، كما نقله أيضاً بالسند عن أبي عبد الله الحاكم وابن زرة، لاحظ فرقان القرآن ص ١٤ - ١٥ ونقله عن الإلكاني في شرح السنة.

معناه أن لاستوائه على العرش كيفية من الكيفيات ولكنها مجهولة لنا. ويدل على أن الوارد هو «غير معقول» ما جاء في ذيل الرواية أن مالك بعدما سمع السؤال وأجاب بما ذكرناه، علته الرخصاء، أي العرق الكثير وقال: «ما أظنك إلا صاحب بدعة»، وما ظنّه كذلك إلا لأن سؤاله كان عن الكيفية، فأحس أن السائل يريد إثبات الكيفية لاستوائه سبحانه، فأخذته الرخصاء من سؤاله واعتقاده.



الرابع: إن ابن تيمية يكرر كثيراً استواءه سبحانه على العرش، ويعتمد على ظاهره، ويتخيل أن الاستواء بمعنى الاستقرار أو الجلوس، ولكنه تستراً لمذهبه، يضيف إليه «بلا تكييف» ولأجل رفع الستر عن معنى الآية نأتي بكلام شيخ السلف من المفسرين أبي جعفر الطبري، ولا يشك أحد في أنه سلفي، فهو يقول:

الاستواء في كلام العرب منصرف على وجوه:

١- انتهاء شباب الرجل وقوته، ويقال: إذا صار كذلك قد استوى الرجل.

٢- استقامة ما كان فيه أود من الأمور والأسباب. يقال: استوى لفلان أمره إذا استقام له بعد أود، ومنه قول الطرماح:

طال على رسم محدد أبده وعفا واستوى به بلده

يعني استقام به.

٣- الإقبال على الشيء بالفعل، كما يقال: استوى فلان على فلان، بما يكرهه ويسوءه بعد الإحسان إليه .

٤- الاختيار والاستيلاء، كقولهم: استوى فلان على المملكة، أي احتوى عليها وحازها.

٥- العلو والارتفاع، كقول القائل: استوى فلان على سريره، يعني به علوه عليه .

ثم قال: وأولى المعاني بقول الله جل ثناؤه: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ»: علا عليهن وارتفع، قد برهن بقدرته وخلقهن سبع سماوات.^(١)

وهذا الشيخ السلفي لا يفسر الاستواء على العرش، بالجلوس ولا بالاستقرار، بل بعلو الملك والسلطان، كما هو المراد من قوله سبحانه: «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ»^(٢)، والعرب الذين نزل القرآن بلغتهم لا يفهمون من الاستواء إذا وقع وصفاً لموصوف بالقدرة والعظمة، سوى العلو، قال الشاعر:

قد استوى بِشَرِّ عَلَى الْعِرَاقِ من غير سيف ودم مهراق

وقال الآخر:

ولما علونا واستوتنا عليهم تركناهم مرعى لنسر وكاسر

والأسف أن ابن تيمية وأتباعه إذ فسروا الاستواء بالعلو، يفسرونه بالعلو بالمكان، ولا يدرون أن الفضيلة والكرامة في العلو المعنوي لا العلو

١. تفسير الطبري: ١ / ١٥٠، سورة البقرة الآية ٢٩، ط دار المعرفة .

٢. البقرة: ٢٥٥ .

المكاني، فما قيمة العلو في المكان إذا لم يكن هناك علو معنوي، وهذا هو القرآن يركّز على العلو المعنوي، ويقول: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَهْلُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»^(١)، وقال سبحانه: «أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَ أَتُونِي مُسْلِمِينَ»^(٢)، وقال سبحانه: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا»^(٣)، وقال تعالى: «وَ أَنْ لَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ اللَّهُ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ»^(٤)، وقال: «لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى»^(٥).

هذا كله حول الاستواء، وأما العرش فهو سرير الملك الذي يجلس عليه للحكم، وهذا هو أصل الوضع، ثم يكتنى به عن السلطة والسيطرة، حتى صار يستعمل في هذا المعنى ولا ينصرف إلى المعنى اللغوي، فإذا كان الملك آخذاً بزمام الأمور ومسيطرأ على البلد وأهله يقال: استوى على العرش، أو هو مستو عليه، وإذا كان ضعيفاً في الإدارة غير نافذ أمره في البلد وأهله، وكان هناك انتفاضة بعد انتفاضة، يقال: إنه غير مستو على عرشه .

ومن تتبّع القرآن الكريم وأمعن النظر في الموارد التي ورد فيها استواؤه سبحانه على العرش في موارد متعددة يجد أنه ذكر مقروناً بفعل من أفعاله، دال على غناه المطلق، مثل رفع السماوات بغير عمد، قال سبحانه: «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَاهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ

١. آل عمران: ١٣٩.

٢. النمل: ٣١.

٣. القصص: ٤.

٤. الدخان: ١٩.

٥. طه: ٦٨.

السَّمْسِ وَالْقَمَرِ»^(١)، أو «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ».

واليك الآيات التي جاء فيها هذا الأمر، قال سبحانه: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ»^(٢)، وقال سبحانه: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ»^(٣)، وقال سبحانه: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسئَلُ بِهِ خَبِيرًا»^(٤)، وقال سبحانه: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ»^(٥)، وقال سبحانه: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجَأُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا»^(٦).

والناظر في هذه الآيات يرى أنه سبحانه عندما يذكر استواءه على العرش يذكر آثار قدرته وعظمته من خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وتدبيره الأمر «يدبّر الأمر»، وأنه لا مؤثر ولا موجد إلا بإذنه «ما من شافع إلا من بعد إذنه»، ومن علمه الواسع بما يلجأ في الأرض وما يخرج منها، وما

٢. الأعراف: ٥٤.

١. الرعد: ٢.

٤. الفرقان: ٥٩.

٣. يونس: ٣.

٦. الحديد: ٤.

٥. السجدة: ٤.

ينزل من السماء وما يعرج فيها. كل ذلك يعرب عن أن الآية في جميع الموارد تهدف إلى علوه سبحانه على عالم الوجود الإمكانية، وأنه بجملته في سلطانه وقدرته، ولا يخرج شيء من حيطه قدرته، وأين هذا من تفسيره بالجلوس على العرش فوق السماوات ناظراً إلى ما دونه. «تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا».

ولو تتبع المعاصرون المتمون إلى السلف يجدون خير السلف كالطبري^(١) يفسر «الواسع» في قوله: «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»^(٢)، ويقول: واللّه واسع الفضل، جواد بعطاياه، فزوّجوا إمامكم فإنّ اللّه واسع يوسع عليهم من فضله إن كانوا فقراء.

كما أن الشيخ البخاري يفسر الوجه في قوله: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» بالملك.^(٣)



الخامس: إنّ الفرقة المشبهة ليست وليدة عصرنا هذا، بل لها عرق ممتد إلى زمن التابعين، الذي كثرت فيه مسلمة اليهود والنصارى، فأدخلوا في الأحاديث ما يروقههم من العقائد، فتأثر بهم السذج من المسلمين والمحدثين، فأولئك هم المعروفون بالحشوية نسبة إلى الحشو (بسكون الشين) وهو اللغو الذي لا اعتبار له، فضلاً عن أن يكون منسوباً إلى اللّه

١. تفسير الطبري: ٩٨ / ١٨.

٢. النور: ٣٢.

٣. صحيح البخاري: ١١٢ / ٦، تفسير سورة القصص، الآية ٨٨.

ورسوله، أو مذهباً يبدان الله به، وما زال أهل الحق لهم بالمرصاد.

وقد كان القول بالتجسيم والتشبيه ردّ فعل لما كان عليه عليّ عليه السلام وأولاده من الدعوة إلى التنزيه، والاجتناب عن التشبيه، في مجال الحق وذاته وصفاته، نعم حكى عن الإمام أبي حنيفة أنه قال: «أتانا من المشرق رأيان خبيثان، جهم معطل ومقاتل مشبه، فأفرط جهم في النفي (نفي الصفات الجسمانية) حتى قال: «وإن الله ليس بشيء» وأفرط مقاتل في الإثبات، حتى جعل الله تعالى مثل خلقه»^(١).

ولكن الإمام أبا حنيفة تسامح في نسبة التجسيم إلى مقاتل، بل لها جذور في الأحاديث المروية في الصحاح والمسانيد التي دسها مسلمة اليهود والنصارى في الأحاديث، وكثير من المحدثين راقتهم تلك الأحاديث، وبما أن علياً وأبناء بيته الطاهر كانوا على التنزيه، وهذه خطبة الرفيعة الرائعة في تنزيه الحق، حاولت السلطة الأموية أن تُرَوِّج كل حديث يتضمّن ضدّ ما كان عليه عليّ، ويُحترم كل محدث يجنح إلى بثّ هذه الخرافات.

السادس: إن أتباع ابن تيمية ومن كان على ذلك الخطّ قبله من الحشوية، يفرّون من الاستدلال والبرهنة وعلم الكلام والمناظرة، ويحرّمون الاستماع إلى البراهين العقلية والمجادلة بالتّي هي أحسن، ولكنّه من تمويهاتهم التي يريدون بها دعم مبادئهم وصيانتها عن النقد والإشكال، وكأثم لم يسمعوا قول الله سبحانه:

«...قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^(١).

أو قوله سبحانه:

«الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...»^(٢).

أو قوله سبحانه: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»^(٣).

والكل يهدف إلى أن المسلم الواعي إنما يتبع البرهان ولا يعرض عنه، ولا يعطل عقله حتى يميز الأحسن عن غيره، ويجادل المخالف بالبرهان والدليل. نعم لو أريد من علم الكلام، المرء والجدال وكسب العظمة والمقام، فلا شك أنه مرغوب عنه.

نعم، ليس لهم هدف من تحريم البحث والنظر إلا الستر لعوار بدعهم، وعقائدهم الباطلة، ولا يجحد النظر في العقائد إلا أحد رجلين: رجل غيبي يشق عليه سلوك أهل التحصيل والناس أعداء ما جهلوا، ورجل يعتقد بمذاهب فاسدة يخاف من ظهور عوار مذهبه وفضائح عقيدته.

هذا قليل مما ذكره ابن تيمية وأتباعه في الصفات الخيرية، ولو أردنا أن نستقصي كلمات الرجل في المقام لطال بنا الكلام، ولنكتف بهذا المقدار، وقد عرفت الحق، والحق أحق أن يتبع.

١. البقرة: ١١١.

٢. الزمر: ١٨.

٣. النحل: ١٢٥.

(٢)

ابن تيمية وشدة الرحال إلى زيارة النبي ﷺ

ذهب ابن تيمية إلى أن شد الرحال إلى زيارة قبر رجل صالح حرام، وقال: ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا» ثم قال: ولو نذر السفر إلى قبر الخليل عليه السلام أو قبر النبي لم يجب الوفاء بهذا النذر باتفاق الأئمة الأربعة، فإن السفر إلى هذه المواضع منهي عنه لنهي النبي ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد...» فإذا كانت المساجد التي هي من بيوت الله، التي أمر فيها بالصلوات الخمس، قد نهى عن السفر إليها، فإذا كان مثل هذا ينهى عن السفر إليه، فما ظنك بغيرها؟ فقد رخص بعض المتأخرين في السفر إلى المشاهد ولم ينقلوا ذلك عن أحد من الأئمة، ولا احتجوا بحجة شرعية - إلى أن قال -: وكل حديث يروى في زيارة قبر النبي فإنه ضعيف، بل موضوع، ولم يرو أهل الصحاح والسنن والمسانيد، كمسند أحمد وغيره من ذلك شيئاً، ولكن الذي في السنن ما رواه أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجل يسلم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحه حتى أرد عليه السلام، فهو

يرد السلام على من سلم عليه عند قبره ويبلغ [إليه] سلام من سلم عليه من البعيد، كما في النسائي عنه أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ وَكُلَّ بِقَبْرِي مَلَائِكَةٌ يَبْلُغُونَ لِأُمَّتِي السَّلَامَ» وفي السنن عنه أنه قال: «أَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَإِنْ صَلَاتِكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»^(١).

أقول: إن هنا مسألتين:

الأولى: شد الرحال إلى زيارة الأنبياء والصالحين .

الثانية: حكم زيارة قبر الصالحاء والأنبياء والنبي الأعظم، وإن لم يكن هناك شد للرحال، ونحن ندرس كلتا المسألتين في ضوء الكتاب والسنة، فنقول:

أفتى ابن تيمية بتحريم شد الرحال إلى زيارة الصالحاء والأنبياء والأئمة مستدلاً بما ورد من النهي من شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، والاستدلال بهذا يتوقف على الإمعان في سند الحديث ودلالته، فنقول: روي الحديث بصور ثلاث، والذي يصح الاستدلال به إنما هو الصورة الأولى والثانية لا الثالثة، وإليك البيان:

١- لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى.

٢- إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة، ومسجدي، ومسجد

إلياء.

١. مجموعة الرسائل الكبرى: ٥٧/٢ - ٦٥ الرسالة الثالثة في زيارة بيت المقدس .

٣- تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد. (١)

فلو قلنا بأن لفظة «إنما» تفيد الحصر، تكون الصورة الثانية مثل الصورة الأولى في إفادة الحصر، وألا فينحصر الاستدلال بالصورة الأولى، فلنفترض أن الحديث ورد على نمط الصورتين الأوليين، فنقول: إن الاستثناء لا يستغني عن وجود المستثنى منه، وحيث لم يذكر في كلامه، فيلزم تقديره وهو أحد الأمرين:

أ- لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد إلا إلى ثلاثة .

ب- لا تشد الرحال إلى مكان من الأماكن إلا إلى ثلاثة مساجد .

أما الأول فيجب علينا ملاحظة الأمور التالية:

الأول: إن الحديث لو دلّ على شيء فإنما يدلّ على النهي عن شدّ الرحال إلى مسجد سوى المساجد الثلاثة، وأما شدّ الرحال إلى الأماكن الأخرى فالحديث ساكت عنه، غير متعرض لشيء من أحكامه، بل النفي والإثبات يتوجهان إلى المسجد، فالمساجد ينهى عن شدّ الرحال إليها غير المساجد الثلاثة، والاستدلال به على حكم شدّ الرحال إلى المستزهات والمراكز العلمية أو الصناعية أو مقابر الأولياء والشهداء أو الصديقين والصلحاء فهو ساكت عنه، ومن العجيب أن نستدل به على تحريم شدّ الرحال إليها .

١. أورد مسلم هذه الأحاديث في صحيحه: ٤ / ١٢٦، كتاب الحج باب (لا تشد الرحال) وذكره أبو داود في سننه ج ١ ص ٤٦٩ كتاب الحج، وكذلك النسائي في سننه المطبوع مع شرح السيوطي ج ٣ ص ٣٧ و ٣٨ وقد ذكر السبكي صوراً أخرى للحديث هي أضعف دلالة على مقصود المستدل، لاحظ شفاء السقام ص ٩٨.

الثاني: إنَّ النهي عن شد الرحال إلى غير هذه المساجد لا يعني تحريمه بل يعني نفي الفضيلة فيه، وذلك لأنَّ المساجد سوى الثلاثة، لما كانت متساوية في الفضيلة والثواب فلا ملزم لتحمل العبء بشد الرحال إليها، فالمساجد الجامعة متساوية في الفضيلة في عامة البلاد، فلا وجه لشد الرحال إلى مسجد لإقامة الصلاة فيه، ولكنه إذا شدَّ الرحال بقصد الصلاة فيه والعبادة لربه، لا يعد عمله محرماً، بل غاية الأمر لا يترتب عليه ثواب خاص.

وبذلك يتبين بطلان ما ذكره ابن تيمية من الاستدلال بالأولوية بأنه إذا حرم شد الرحال إلى غير هذه الثلاثة مع أنه من بيوت الله التي أمر فيها بالصلوات الخمس يكون شد الرحال إلى زيارة القبور حراماً بطريق أولى، إذ ليست ساحة القبور مراكز للعبادة، فهي أقل درجة من سائر المساجد.

وجه الضعف أن الاستدلال مبني على أن التحريم تحريم مولوي تعبدية، وأما على ما استظهرناه من أن النهي إرشادي إلى أنه لا وجه لتحمل العبء في هذا الطريق، لتساوي المساجد في الفضيلة والكرامة، فلا وجه للاستدلال، لترتب الثواب على زيارة القبور.

الثالث: إنَّ الحديث نص أو ظاهر في الحصر، مع أنه ورد في الصحيح أن النبي كان يأتي مسجد قباراكباً وماشياً يصلِّي فيه. ^(١) فكيف يجتمع هذا العمل مع هذا الحصر، ولسان الحديث لسان الإباء عن التخصيص؟ فلا

١. صحيح مسلم: ٤/١٢٧؛ صحيح البخاري: ٢/١٧٦؛ السنن للنسائي، المطبوع مع شرح السيوطي:

يصح لنا أن نقول إن النهي خصص بعمل النبي، وهذا ربما يكشف عن كون الحديث غير صحيح من رأس، أو أنه نقل محرّفاً، خصوصاً أنه نقل عن طريق أبي هريرة، والاستدلال بمتفرّداته أمر مشكل، وقد تنبّه ابن تيمية لهذا الإشكال فحاول أن يرفع التناقض بين الحصر، فقال: «إنه يستحب لمن كان بالمدينة أن يذهب إلى مسجد قبا، ولكنّه لا يرفع الإشكال، فإنّ الكلام في تخصيص النص الدال على الحصر، وأنّه لا يشد إلى غيره أبداً، سواء المقيم والمسافر.

هذا كلّه على فرض كون المستثنى منه هو المسجد، وقد عرفت كونه أجنبياً عن السفر إلى غير المساجد، وبما أنّ المستثنى منه هو المسجد فالمناسب هو كون المستثنى من هذا القبيل .

وأما على التقدير الثاني وهو تقدير الأماكن وما يقاربه ويعادله، فلازم ذلك أن تكون كافة الأسفار محرّمة غير السفر إلى المساجد الثلاثة، وهل يلتزم بذلك مسلم، وهل يفتي به أحد؟ كيف ولو كان الحديث بصدد منع كافة الأسفار المعنوية، فكيف كان النبي والمسلمون يشدّون الرحال في موسم الحج إلى عرفات والمشعر ومنى، وهذا دليل على أنّ المستثنى منه هو المساجد لا الأماكن .

أضف إلى ذلك أنّ الذكر الحكيم والأحاديث الصحيحة حتّى على السفر إلى طلب العلم، والجهاد في سبيل الله، وصلة الرحم، وزيارة الوالدين، قال سبحانه: «فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي

الَّذِينَ وَلِيْتَدِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»^(١).

مضافاً إلى ما ورد في السفر لطلب الرزق، فلو كان الحكم عاماً، فما معنى هذه التخصيصات الكثيرة الوافرة التي تنافي البلاغة، والتي تنزل الحصر، وهناك كلمة قيّمة للغزالي في كتابه «إحياء العلوم» يقول:

«القسم الثاني هو أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد.. ويدخل في جملة زيارة قبور الأنبياء ﷺ وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته، يتبرك بزيارته بعد وفاته، ويجوز شد الرحال لهذا الغرض، ولا يمنع من هذا قوله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى» لأن ذلك في المساجد، فإنها متماثلة (في الفضيلة) بعد هذه المساجد، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله.^(٢)

تحليل آخر للنهي عن السفر

ولنفترض أن المستثنى منه هو الأمكنة، ولكن المتبادر من الحديث أن يكون الدافع إلى السفر هو تعظيم ذلك المكان، فيختص النهي بما إذا أُريد من شد الرحال إلى مكان، تعظيمه ولو بإيقاع العبادة فيه، وعندئذ

١. التوبة: ١٢٢.

٢. إحياء علوم الدين: ٢/٢٤٧، كتاب آداب السفر، طبعة دار المعرفة، بيروت.

يخرج السفر إلى زيارة النبي عن منطوق الحديث، لأنه لا يسافر لتعظيم بقعته، وإنما يسافر لزيارة من فيها مثل ما لو كان حياً. ويؤيد ذلك أمران:

١- روي عن بعض التابعين أنه سأل ابن عمر أنه يريد أن يأتي الطور، فأجابه: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد... ودع الطور فلا تأته. ^(١)

٢- أفتى الجمهور بأنه لو نذر أن يأتي مسجداً من المساجد سوى الثلاثة فلا ينعقد النذر، فإنه ليس في قصد مسجد بعينه غير الثلاثة قرابة مقصودة، وما لا يكون قرابة ولا عبادة فهو غير ملزم بالنذر.

كل ذلك يحدد مصب الحديث وهدفه، وأن المقصود هو المنع عن تعظيم مكان تشد الرحال إليه، وأما إذا كانت الغاية تعظيم من عظمه الله سبحانه وأكرمه ورزقه فضلاً كبيراً - كما قال - : «وَوَ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا» ^(٢)، فهو خارج عن مورد الحديث.

ومع ذلك فإن النهي عن شد الرحال إلى مكان خاص ليس لغاية تحريمه، وإنما هو إرشاد إلى نفي الفضيلة. قال ابن قدامة الحنبلي: «إن سافر لزيارة القبور والمشاهد فقال ابن عقيل لا يباح له الترخّص، لأنه منهي عن السفر إليها، قال النبي ﷺ: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، والصحيح إباحته وجواز القصر فيه، لأن النبي كان يأتي قبا ماشياً وراكباً، وكان يزور القبور، وقال: زوروا تذكركم الآخرة، وأما قوله ﷺ: لا تشد الرحال إلا إلى

١. الفتاوى الكبرى: ٢/٢٤.

٢. النساء: ١١٣.

ثلاثة مساجد، فيحمل على نفي الفضيلة، لا على التحريم، فليست الفضيلة شرطاً في إباحة القصر ولا يضر انتهاؤها.^(١)

هذا كله حول الحديث وتحديد مضمونه، وقد عرفت أن شد الرحال إلى زيارة النبي خارج عن موضوع الحديث على كلا التقديرين، فلا استدلال به على التحريم باطل جداً.

الدليل على جواز السفر إلى زيارة القبور

ثم إن هنا سؤالاً يثار في المقام، وهو أن الحديث وإن كان قاصراً عن إثبات التحريم، ولكن ما هو الدليل على جواز السفر لزيارة قبر النبي أو سائر القبور، خصوصاً إذا كان السفر دينياً ومنسوباً إلى الشرع، فإن الإفتاء بجوازه بما أنه عمل يؤتى به لأجل كونه أمراً دينياً يحتاج إلى الدليل، وإلى الجواب: يدل على جواز السفر لقيف من الدلائل، واليك بيانها:

الأول: ما ورد من الحديث على زيارة النبي ﷺ وستوافيك نصوصها فإنها بين صريح في جواز السفر أو مطلق يعم المقيم والمسافر، فقول النبي وفعله حجتان، أما قوله:

فقد روي عن عبدالله بن عمر أنه قال: قال النبي ﷺ: «من جاءني زائراً لا تعمله (تحمله) إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً يوم القيامة».

١. المغني: ٢/٢١٧-٢١٨، وذكر في ج ٣/٤٩٨ استحباب الزيارة، وكيفية زيارة النبي فلاحظ، وما نقله عن ابن عقيل غير ثابت، لأن السبكي نقل عنه خلافه. لاحظ شفاء السقام: ١١٣.

وروي أيضاً عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «من حج فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي» .

والثاني صريح في جواز السفر، والأول مطلق يعمّ المسافرين والمقيم في المدينة، وستوافيك هذه النصوص عن أعلام المحدثين .

وأما فعله، فقد روي عن طلحة بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله يريد قبور الشهداء - إلى أن قال -: فلما جئنا قبور الشهداء، قال: هذه قبور إخواننا.^(١)

الثاني: الإجماع، لإطباق السلف والخلف، لأنّ الناس لم يزالوا في كل عام إذا قضوا الحج يتوجهون إلى زيارته ﷺ، وإن منهم من يفعل ذلك قبل الحج. قال السبكي: هكذا شاهدناه، وشاهده من قبلنا وحكاها العلماء عن الأعصار القديمة، وكلهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه وإن لم يكن طريقهم، ويقطعون فيه مسافة بعيدة، وينفقون فيه الأموال، ويبذلون فيه المهج، معتقدين أنّ ذلك قرينة وطاعة، وإطباق هذا الجمع العظيم من مشارق الأرض ومغاربها على مرّ السنين وفيهم العلماء والصلحاء وغيرهم، يستحيل أن يكون خطأ، وكلهم يفعلون ذلك على وجه التقرب به إلى الله عزّ وجلّ، ومن تأخّر فإنّما يتأخّر بعجز أو تعويق المقادير مع تأسّفه عليه، ووذّ لو تيسّر له، ومن ادّعى أنّ هذا الجمع العظيم مجمع على خطأ فهو المخطئ .

١. أخرجه أبو داود في سننه: ٣١١/١، والبيهقي في السنن الكبرى: ٢٤٩/٥. والمراد من الشهداء شهداء أحد، كما هو مررد الحديث .

وما ربّما يقال من أنّ سفرهم إلى المدينة لأجل قصد عبادة أخرى وهي الصلاة في المسجد، باطل جداً. فإنّ المنازعة فيما يقصده الناس مكابرة في أمر البديهة، فمن عرف الناس أنهم يقصدون بسفرهم الزيارة من حين يعرجون إلى طريق المدينة، ولا يخطر غير الزيارة من القربات إلاّ ببال قليل منهم، ولهذا قلّ القاصدون إلى بيت المقدس مع تيسر إتيانه، وإن كان في الصلاة فيه من الفضل ما قد عرفت، فالمقصود الأعظم في المدينة، كما أنّ المقصود الأعظم في مكة، الحج أو العمرة، وصاحب هذا السؤال إن شك في نفسه فليسأل كلّ من توجّه إلى المدينة ما قصد بذلك.^(١)

الثالث: إنّه إذا كانت الزيارة قربة وأمرأ مستحباً على الوجه العام والخاص، فالسفر وسيلة القربة، والوسائل معتبرة بالمقاصد، فيجوز قطعاً.

الرابع: ما نقله المؤرّخون عن بعض الصحابة والتابعين .

١- قال ابن عساكر في ترجمة بلال: إنّ بلالاً رأى في منامه رسول الله وهو يقول له: ما هذه الجفوة يا بلال، أما أن لك أن تزورني يا بلال؟ فانتبه حزيناً، وجلاً، خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين - رضي الله عنهما - فجعل يضمّهما ويقبلهما، فقالا له: نشتهي نسمع أذنانك الذي كنت تؤذن به لرسول الله ﷺ ففعل، فعلا سطح المسجد، فوقف موقفه الذي كان يقف فيه، فلمّا أن قال: «اللّه أكبر، اللّه أكبر» ارتجت المدينة، فلمّا أن قال:

١. شفاه السقام، في زيارة خير الأنام: ٨٥-٨٦ ط بولاق مصر .

«أشهد أن لا إله إلا الله»، ازدادت رجتها فلما أن قال: «أشهد أن محمداً رسول الله» خرجت العواتق من خدورهن، فقالوا: أبعث رسول الله؟ فما رئي يوماً أكبر باكياً بالمدينة بعد رسول الله من ذلك اليوم.^(١)

٢- إن عمر بن عبد العزيز كان يبعث بالرسول قاصداً من الشام إلى المدينة ليقري النبي السلام، ثم يرجع، قال السبكي: إن سفر بلال في زمن صدر الصحابة، ورسول عمر بن عبدالعزيز في زمن صدر التابعين من الشام إلى المدينة لم يكن إلا للزيارة والسلام على النبي، ولم يكن الباعث على السفر غير ذلك من أمر الدنيا، ولا من أمر الدين، ولا من قصد المسجد، ولا غيره.

٣- إن عمر لما صالح أهل بيت المقدس، وقدم عليه كعب الأحرار وأسلم، وفرح عمر بإسلامه، قال عمر له: هل لك أن تسير معي إلى المدينة وتزور قبر النبي وتتمتع بزيارته؟ فقال لعمر: أنا أفعل ذلك، ولما قدم عمر المدينة أول ما بدأ بالمسجد، سلم على رسول الله.^(٢)

٤- ذكر ابن عساكر في تاريخه وابن الجوزي في «مثير الغرام الساكن» بأسانيدهما إلى محمد بن حرب الهلالي قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبي ﷺ وزرته وسلمت بحذائه، فجاءه أعرابي فزاره، ثم قال: يا خير الرسل، إن الله أنزل إليك كتاباً صادقاً قال فيه: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ

١. شفاء السقام: ٤٤ - ٤٧ وقد نقله من مصادر كثيرة، قال: وذكره الحافظ أبو محمد عبدالغني

المقدسي في «الكمال في ترجمة بلال».

٢. المصدر نفسه.

جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا
وَأَنِّي جئتُكَ مُسْتَغْفِرًا رُبَّكَ مِنْ ذُنُوبِي، مُسْتَشْفِعًا فِيهَا بِكَ إِلَى رَبِّي، ثُمَّ بَكَى
وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبن القاع والأكم
نفسى الفسداء لقبير ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم
وقد ذيله أبو الطيب أحمد بن عبدالعزيز بأبيات وقال:

وفيه شمس التقى والدين قد غربت
من بعد ما أشرقت من نورها الظلم

حاشا لوجهك أن يسبلى وقد هديت
في الشرق والغرب من أنواره الأمم^(١)

وبذلك تعرف قيمة ما ذكره ابن تيمية حول السفر إلى المشاهد وقال:
وقد رخص بعض المتأخرين في السفر إلى المشاهد، ولم ينقلوا ذلك عن
أحد من الأئمة، ولا احتجوا بحجة شرعية.^(٢)

وبما أنك تعرفت على الحجج الشرعية على الجواز، هلمّ معي ندرس
نصوص الأعلام من علماء الإسلام لنعرف موقف ابن تيمية في التثبّت
والأمانة، وإليك نصوصهم حول السفر للزيارة نقتطف موضع الحاجة من
كلماتهم:

١. شفاء السقام: ٥٢.

٢. نفس المصدر.

نصوص الأعلام على جواز السفر لزيارة النبي ﷺ

لعل القارئ يتصوّر أنّ لما ذكره ابن تيمية من عدم الإفتاء بجواز السفر، مسحة من الحق والصدق، ولكنّه إذا أمعن النظر فيما وصل إلينا من فتاواهم، يقف على أنّ الحق على ضد ما نسب إليهم، وإليك البيان:

١- قال أبو الحسن أحمد بن محمد المحاملي الشافعي (المتوفى سنة ٤٢٥ هـ) في «التجريد»: ويستحب للحاج إذا فرغ من مكة أن يزور قبر النبي .

٢- وقال أبو الحسن الماوردي (المتوفى سنة ٤٥٠ هـ)، في الأحكام السلطانية، ص ١٠٥: «فإذا عاد (ولي الحاج) سار بهم على طريق المدينة لزيارة قبر رسول الله، ليجمع لهم بين حج بيت الله عزوجل وزيارة قبر رسول الله ﷺ، رعاية لحرمة، وقياماً بحقوق طاعته.^(١)

٣- وقال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الفقيه البغدادي الحنبلي (المتوفى سنة ٥١٠ هـ) في كتاب الهداية: «فإذا فرغ من الحج استحب له زيارة قبر النبي وقبر صاحبيه».

٤- قال القاضي عياض المالكي، (المتوفى سنة ٥٤٤ هـ) في «الشفاء»، نقلاً عن إسحاق بن إبراهيم الفقيه: «مما لم يزل من شأن من حج، المزور^(٢) بالمدينة والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله، والتبرك برؤية روضته ومنبره وقبره ومجلسه، وملامس يديه، ومواطن قدميه، والعمود الذي استند

٢. مصدر ميمي بمعنى الزيارة .

١. مجموعة الرسائل الكبرى ج ٢ ص ٦٠ .

إليه، ومنزل جبرئيل بالوحي فيه عليه، ومن عمره وقصده من الصحابة وأئمة المسلمين .

٥- قال أبو محمد عبدالكريم بن عطاء الله المالكي (المتوفى سنة ٦١٢ هـ) في مناسكه: فصل: إذا كمل لك حجك وعمرتك على الوجه المشروع، لم يبق بعد ذلك إلا إتيان مسجد رسول الله للسلام على النبي والدعاء عنده، والسلام على صاحبيه، والوصول إلى البقيع وزيارة ما فيه من قبور الصحابة والتابعين .

٦- وقال نجم الدين بن حمدان الحنبلي (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ) في الرعاية الكبرى في الفنون الحنبلية: «ويسن لمن فرغ من نسكه، زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبيه، وله بعد فراغ حجه، وإن شاء قبل فراغه» .

٧- قال القاضي الحسين: «إذا فرغ من الحج... ثم يأتي المدينة ويزور قبر النبي» .

٨- قال الإمام ابن الحاج محمد بن محمد العبدري القيرواني المالكي، (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ) في (المدخل) في فصل زيارة القبور (١): (٢٥٧): وأما عظيم جناب الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فيأتي إليهم الزائر، ويتعین عليه قصدهم من الأماكن البعيدة.

٩- قال الشيخ تقي الدين السبكي الشافعي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ) في «شفاء السقام في زيارة خير الأنام»: «ومن روي عنه السفر إلى زيارة النبي، بلال بن أبي رباح» ثم ذكر قصته. لاحظ الباب الثالث من كتاب شفاء السقام فقد عقده في ما ورد في السفر إلى زيارته .

١٠- ذكر شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا الأنصاري الشافعي (المتوفى سنة ٩٢٥ هـ) في «أسنى المطالب» (٥٠١/١) «فيما يستحب لمن حج: ثم يزور قبر النبي ويسلم عليه وعلى صاحبيه بالمدينة المشرفة..»

١١- أفتى الشيخ محمد بن الخطيب الشربيني (المتوفى سنة ٩٧٧ هـ) في معنى المحتاج (٣٥٧/١) باستحباب زيارة النبي مطلقاً، وأن تخصيص بعض باستحبابه بعد الفراغ عن الحج لأجل التأكيد، وأنه يتأكد للحاج أكثر من غيره .

١٢- وقال الشيخ زين الدين عبد الرؤوف المناوي (المتوفى سنة ١٠٣١ هـ) في شرح الجامع الصغير (ج ٦ ص ١٤٠): «زيارة القبر الشريف من كمالات الحج .»

١٣- عقد الشيخ حسن بن عمار الشرنبلالي في «مراقي الفلاح بإمداد الفتاح» فصلاً في زيارة النبي ﷺ وقال: «زيارة النبي من أفضل القربات فإنه ﷺ حرض عليها وبالغ في الندب إليها فقال: من وجد سعة فلم يزرنى فقد جفاني .»

١٤- وقال القاضي شهاب الدين الخفاجي الحنفي المصري (المتوفى سنة ١٠٦٢ هـ) في شرح الشفاء (٥٦٦/٣): «واعلم أن هذا الحديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد...» هو الذي دعا ابن تيمية ومن معه كابن القيم إلى مقالته الشنيعة التي كفره بها، وصنّف فيها السبكي مصنفاً مستقلاً وهي منعه من زيارة قبر النبي وشد الرحال إليه، وهو كما قيل:

لمهبط الوحي حقاً ترحل النجب وعند ذلك المرجى يستهي الطلب

فتوهم أنه حمى جانب التوحيد بخرافات لا ينبغي ذكرها.

١٥- قال الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده (المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ) في مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (١/١٥٧): «من أحسن المندوبات، بل يقرب من درجة الواجبات زيارة قبر نبينا وسيدنا محمد، وقد حرص عليه على زيارته وبالغ في الندب إليها، ثم قال: فإن كان الحج فرضاً فالأحسن أن يبدأ به إذا لم يقع في طريق الحاج المدينة المنورة، ثم يثني بالزيارة.

١٦- قال أبو الحسن السندي محمد بن عبدالهادي الحنفي (المتوفى سنة ١١٣٨ هـ) في شرح سنن ابن ماجه (ج ٢ ص ٢٦٨) قال الدميري: فائدة: زيارة النبي من أفضل الطاعات وأعظم القربات، لقوله: «من جاءني زائراً لا تحمله حاجة إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً يوم القيامة».

١٧- قال الشيخ إبراهيم الباجوري الشافعي (المتوفى سنة ١٢٧٧ هـ) في حاشيته على شرح ابن الغزي على متن الشيخ أبي شجاع في الفقه الشافعي، (١/٣٤٧): ويسن زيارة قبره ولو لغير حاج ومعتمر كالذي قبله، ويسن لمن قصد المدينة الشريفة لزيارته أن يكثّر من الصلاة والسلام عليه في طريقه .

١٨- قال الشيخ عبدالمعطي السقاء في الإرشادات السنية (ص ٢٦٠): زيارة النبي إذا أراد الحاج أو المعتمر الانصراف من مكة - أدام الله تشریفها وتعظيمها - طلب منه أن يتوجه إلى المدينة المنورة للفقوز بزيارته عليه الصلاة والسلام .

١٩- وقال الشيخ محمد زاهد الكوثري في تكملة السيف الصقيل

(ص ١٥٦) : ولم يخف ابن تيمية من الله في رواية عدّ السفر لزيارة النبي ﷺ سفر معصية لا تقصر فيه الصلاة عن الإمام ابن الوفاء ابن عقيل الحنبلي - وحاشاه عن ذلك - راجع كتاب التذكرة له تجد فيه مبلغ عنايته بزيارة المصطفى والتوسّل به، كما هو مذهب الحنابلة، ثم ذكر كلامه وفيه القول باستحباب قدوم المدينة وزيارة النبي ﷺ وكيفية زيارته. (١)

وهذه النصوص تدلّ على أنّ شد الرحال إلى زيارة النبي الأكرم كان أمراً متسالماً عليه، وقد شدّ من حرّمه وسمى في منع الناس من زيارته .

٢٠- ثم إنّ تقي الدين السبكي ذكر فروعاً فقهية عن أئمة المذاهب، تدل على محبوبية شد الرحال إليها من أرجاء الدنيا، فمن أراد فليرجع إليه (٢).

وفيما ذكرنا من النصوص غنى، كما أنّ فيما ذكرنا من الحجج كفاية لمن أراد الحق وتجنب عن العصية، فحان حين البحث حول نظريته في نفس الزيارة، وما أثار حولها من شبهات .



﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٣)

١. قد أخذنا هذه النصوص برمتها من كتاب القدير للمحقق الأمين: ١٠٩/٥ - ١٢٥. وقد نقل أربعين كلمة عن أعلام المذاهب الأربعة حول زيارة النبي الأقدس، ونحن اقتطفنا منه ذلك، ويدل على استحباب السفر فقط، وأما استحباب زيارته فسبوافيك في فصل آخر .

(٣)

ابن تيمية ورأيه في زيارة النبي ﷺ

المعروف من ابن تيمية وأبناء الوهابية هو جواز زيارة النبي ﷺ وتحريم السفر إليها، لكن ما نقلناه في البحث الثاني ينافي ذلك، فإن الظاهر أنه يحرم أصل الزيارة وقد عرفت أنه قال: كل حديث يروى في زيارة قبر النبي فإنه ضعيف، بل موضوع، ولم يرو أهل الصحاح والسنن والمسائيد كمسند أحمد وغيره من ذلك شيئاً^(١).

وقال السبكي: قد يتوهم أن نزاع ابن تيمية قاصر على السفر للزيارة دون أصل الزيارة، وليس كذلك، بل نزاعه في الزيارة أيضاً كما ستذكره من الشبهتين وهما:

١- كون الزيارة على هذا الوجه المخصوص بدعة .

٢- كون الزيارة من تعظيم غير الله المفضي إلى الشرك .

وما كان كذلك، كان ممنوعاً، وعلى هاتين الشبهتين بنى كلامه، وقد

١. مجموعة الرسائل الكبرى: ٢٠ / ٦٥، الرسالة الثالثة .

نقل السبكي فتياً بخط ابن تيمية ولكن كلامه فيها مضطرب، ففي صدرها ما يشعر بمنع الزيارة مطلقاً، وفي ذيلها ما يقتضي أنه إذا كانت الزيارة بمعنى السلام عليه والدعاء له، جازت، ويطابق ذلك ما نقلناه عن الرسالة الثالثة.

والحاصل: أنه يقسم الزيارة إلى الزيارة البدعية والزيارة الشرعية، فيجوز الثانية ويقصرها في السلام على الميت والدعاء له إن كان مؤمناً، يقول: فالزيارة لقبر المؤمن، نبياً كان أو غير نبي من جنس الصلاة على جنازته، يدعى له كما يدعى إذا صلى على جنازته.^(١)

فاللازم البحث عن زيارة القبور أولاً، وزيارة قبر النبي الأعظم بشخصه ثانياً.



زيارة القبور

حينما يطل الإنسان على وادي الصمت المتمثل في أكبر مقبرة في العالم، وهي مقبرة النجف الأشرف على مشرفها آلاف التحية والسلام، ويرى عن كثب ذلك الوادي المرعب ويشاهد فيه الملايين من البشر الصغير والكبير، والشباب والكهل، والمرأة والرجل، والغني والفقير، والضعيف والقوي، والمعدم وأصحاب الجاه والسلطان و...، ويراهم كيف يغطون في سبات عميق وصمت مخيف في تلك الديار الموحشة والأرض

القفرة، والقبور التي اندرس أكثرها فتحوّلت إلى بيوت للحشرات ومأوى للديدان، ولا يقف الأمر عند مقبرة النجف الأشرف، بل تجد الأمر يتكرر في كل مدينة أو قرية، حينئذٍ تتابه الدهشة والذهول، ويدعن من حيث يشعر أو لا يشعر أن مصير الجميع إلى الفناء، ويعترف بعجز الإنسان الذاتي أمام التصدي إلى هذا المصير المحتوم الذي يبئد الجميع ويفني الكلّ ويزيل الملك ويسلب السلطان والسطوة. حينئذٍ يأخذ الإنسان في التفكير بمصيره وبما يؤول إليه، وأنه لا بدّ أن يعدّ العُدّة لمستقبله ويفكر في عاقبة أمره أمام هذا المصير المجهول، ويُعدّ الزاد لهذا السفر الطويل والبلاء العظيم، ويفكر في إعمار آخرته أكثر ممّا يفكر في إعمار دنياه الفانية، وحينها يعود إلى التفكير في ذاته وأصل وجوده والهدف من خلقه الكون والعالم، وبالنتيجة يعود إلى رشده ويرعوي عن غيّه ويفكّر في الحياة الخالدة التي تنتظره .

انطلاقاً من هذا الدرس التربوي لزيارة القبور نجد الرسول الأكرم ﷺ وضع إصبعه على هذا الأمر الحساس، وحثّ على زيارة القبور لما فيها من العبرة والاتعاظ، فقال ﷺ:

«زوروا القبور فإنها تُذكركم الآخرة»^(١).

وفي حديث آخر له ﷺ قال:

«زوروا القبور فإنّ لكم فيها عبرة»^(٢).

وقد صب الشاعر المرفه المعاصر المرحوم السيد صادق سرمد هذا

١. سنن ابن ماجه: ٥٠٠/١، ح ١٥٦٩.

٢. كنز العمال: ١٥ / ٦٤٧، ح ٤٢٥٥٨.

المعنى في قصيدة عصماء باللغة الفارسية حينما زار مصر وشاهد آثار
الفراعنة وقبورهم، وكيف لعبت بها يد الدهر، وكيف تحوّلت إلى عبرة
وموعظة للآخرين.^(١)

وكان لأهل بيت العصمة والطهارة قصب السبق في الاستفادة من
التذكير بالقبور وما يؤول إليه أصحابها في الوعظ و التريبة حتى مع أعتى
الطواغيت وفي أشدّ اللحظات.

فقد روى المسعودي في «مروج الذهب» أنّ جماعة من حاشية
المتوكل سعوا بأبي الحسن علي بن محمد ﷺ إلى المتوكل... فأخذوه - أي
الإمام - إلى المتوكل فمثل بين يديه، والمتوكل على مائدة الخمر وفي يده
كأس...، فناوله المتوكل الكأس الذي في يده، فقال الإمام ﷺ: «والله ما خامر
لحمي ولا دمي، فأعفني منه»، فعفاه، ثمّ قال له: أنشدني شعراً أستحسنه.
فاعتذر الإمام ﷺ وقال: «إني لقليل الرواية للشعر». فألح عليه ولم يقبل عذراً،
فأنشده:

باتوا على قَلَلِ الأَجْبالِ تحرسهم

غلب الرجال فما أغتتهم القلل

واستنزلوا بعد عزّ من معاقلهم

فأودعوا حفراً يابئس ما نزلوا

ناداهم صارخ من بعد ما قبروا

أيمن الأسرة والتيجان والمحلل

أين الوجوه التي كانت مُنعمَة
 من دونها تُضرب الأستار والكلل
 فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم
 تلك الوجوه عليها الدود يقتل
 أضحت منازلهم قفراً مُعطلة
 وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا^(١)
 وهكذا تجد كيف يستفيد الإمام من الصورة المرعبة والموحشة للقبر
 في ردع الطاغية عن غيّه، وهو في أشدّ حالات زهوه وبطره وتماديه.

الوقوف على قبور الأحيّة

لا ريب أنّ الذين يفقدون عزيزاً من أعزّتهم تبقى آثاره - رغم فقدّه -
 تلاعب مخيلتهم وذكره في قلوبهم، فلا ينسوه بحكم العلاقة العاطفية
 والأصرة الروحية التي تشدّهم إليه، ولذلك تجدهم دائماً يذكرونه
 ويجدّدون ذكراه، وبما أنّ الموت يفصل بينهم وبينه جسدياً إلا أنّهم
 يعوضون ذلك باللقاء الروحي والمعنوي، سواء كان ذلك بصورة فردية أو
 جماعية فيجتمعون على قبره ويطعمون المراسم ويهدون لروحه ثواب
 الفاتحة، وغيرها من الأعمال التي يهدون ثوابها إليه.

إذاً الحزن على فقدّ العزيز وإقامة مراسم العزاء أو التأيين لفقدّه أمرٌ

رائج بين عامة الناس، وفي جميع أرجاء المعمورة، ومن هنا يمكن القول إن القضية لها جذور في فطرة الإنسان، وبمعنى آخر: أن نفس القوّة التي تدفع الإنسان وتجذبه نحو الميل إلى الأهل والأحبة في حال حياتهم هي نفسها تدفعه وترغبه للحضور على قبورهم والالتقاء بهم لقاءً روحياً ومعنوياً، وتتضح تلك الظاهرة بصورة أجلى إذا انطلقنا من الرؤية الإسلامية التي تقطع بأنّ الروح لا تغنى بفناء الجسد ولا تنعدم بانعدامه، من هنا يتضح أمامنا أفق جديد يحدونا إلى زيارة قبور الأحبة وتلاوة القرآن الكريم وإهداء الثواب إلى أرواحهم.

لهذا ليس من اللائق نهي الناس وردعهم عن هذا الأمر الفطري وحثهم على التمرد عليه، بل الجدير بنا حثهم ودفعهم إلى السعي لإقامة هذه المراسم وإظهار الودّ والمحبة لفقيدهم. نعم لا بدّ أن نكون حذرين أن لا ينجر الأمر إلى أن تختلط تلك الأعمال والمراسم بنوع من الأفعال غير المحمودة والقيحة والمذمومة شرعاً.

زيارة قبور العلماء

كان الكلام في النقطة السابقة حول زيارة قبور الأحبة الذين تربطهم بالإنسان أصرة الدم والقربة، وتشدّهم إليه عاطفة روحية خاصة، فيتحرك من هذا المنطلق لزيارة قبورهم وقراءة القرآن وإهداء ثواب بعض الأعمال الصالحة إلى أرواحهم والسعي إلى عدم اندراس قبورهم ونسيان ذكرهم.

وهناك طائفة أخرى من الناس تربطهم بالإنسان رابطة روحية ومعنوية لا تقل فاعلية عن الرابطة الأسرية إن لم تزد عليها، وهؤلاء هم العلماء والمفكرّون الذين أحرقوا كيانهم وأذابوا وجودهم لينيروا للإنسان ظلمات الطريق الحالكة، فهم كالشمعة التي تذوب ليستنير طريق الآخرين، نعم لقد ضحّى العلماء والمفكرّون بكلّ حياتهم - رغم العسر والحاجة وقلة ذات اليد - لتركوا للأجيال المعاصرة لهم والآية فيما بعد الكم الهائل والمخزون الكبير من المعارف والعلوم التي تأخذ بيد الإنسان للرفي الروحي والمعنوي والتطوّر المادي والاجتماعي و...، وعلى رأس هؤلاء العلماء والمفكرّون الإسلاميون الذين ينتهجون منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة.

من هنا يُعدّ الحضور إلى جنب قبور هؤلاء العلماء وإقامة مراسم التكريم وإهداء الثواب إلى أرواحهم الطاهرة، نوع تكريم، وردّاً للجميل، ووفاءً لحقّهم الكبير على الأمة، كما يعتبر في نفس الوقت ترويجاً للعلم والمعرفة وتشجيعاً للآخرين لمواصلة طريق كسب العلم والمعرفة.

ولا ريب أنّ الأمة التي تبجل علماءها وتحترم شخصياتها العلمية والفكرية وتكّن لهم وافر الاحترام أحياءً وأمواتاً، أمة حيّة تجري في عروقها دماء الحياة النابضة، ولا يمكن لمثل هكذا أمة أن تصاب بالفقر العلمي والجذب المعرفي أبداً.

زيارة مرقد الشهداء وقبورهم

إنّ هنا طائفة أخرى من الناس لهم منزلتهم الخاصة في المجتمع، وذلك من خلال الدور الفاعل الذي قاموا فيه في إحياء الأمة وإعادة كرامتها المهدورة، وهي طبقة الثائرين والمجاهدين الذين ضاقوا ذرعاً بما يعيشه المجتمع من الظلم وهضم الحقوق وسحق الكرامة.

والتمييز العنصري والقومي، فثاروا أمام الظلم والطغيان، وطالبوا بإعادة الحقوق المهدورة، والكرامة المسحوقة إلى الأمة، وبذلوا في هذا الطريق أئمن ما يملكون، وجادوا بأعلى شيء لديهم، ألا وهو نفوسهم الكريمة، ودمائهم الطاهرة.

نعم إنّ لهذه الطبقة من أفراد المجتمع منزلة خاصة ومكانة متميّزة، تقتضي أن يؤدّي إليها الجمهور حقّها - على أقلّ تقدير بعد رحيلها من هذه الدنيا - وذلك من خلال الوقوف على تربتهم الزكية وإحياء ذكراهم، أضف إلى ما في ذلك العمل من المردودات التربوية والروحية السامية. فإنّ الزائر حينما يقف على قبور هؤلاء الأبطال يجدّد بهذا الوقوف العهد معهم للمضي على نهجهم والسير على طريقهم، والوفاء للمبادئ التي ضحّى من أجلها الشهداء، والحفاظ على الراية التي رفعوها خفاقة في ربوع المجتمع، إذ لا ريب أن كلّ ثورة أو تغيير اجتماعي لا يقدر له النجاح، إلّا بدفع الثمن الباهض، وإنّ ثمن الثورة ضد الظالمين وتفويض أركان حكمهم هو دماء

الشهداء الزاكية ونفوس الأحرار الأبيّة، ولا شك أنّ هذا الطريق يحتاج إلى ديمومة واستمرار، وأنّ من الطرق المهمّة لهذه الديمومة والاستمرار وقوف الشباب على قبور هؤلاء الأبطال والتزوّد من معنوياتهم، والاستلهام من بطولاتهم وأفعالهم الخالدة.

وبعبارة أخرى: أنّ زيارة مرآة هذه الشخصيات هي نوع من الشكر والتقدير لتضحياتهم، وإعلام للجيل الحاضر بأنّ هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحق والهدى والفضيلة والدفاع عن المبدأ والعقيدة.

ولنتطرق هنا إلى ذكر مثال حي يعيше المسلمون، وهو:

إنّ زائري بيت الله الحرام يقبلون الحجر الأسود ويمسحون أكفهم به قبل الطواف، وهذا في حقيقته تجديد للبيعة مع إبراهيم ﷺ في الثبات على القيم والأهداف السامية التي وقف إبراهيم ﷺ مدافعاً عنها، وعلى رأس تلك الأهداف «كلمة التوحيد» فيبايع الحاج إبراهيم ﷺ بأن يبقى وفيّاً لهذا المبدأ، مدافعاً عنه ساعياً إلى نشره في بقاع المعمورة. وبما أنّ الحاج لا تصل يده إلى يد إبراهيم ﷺ ليباعه، يجعل من الأثر الذي تركه إبراهيم ﷺ وهو الحجر الأسود رمزاً لهذه البيعة والعهد على السير على نفس النهج واعتماد نفس الطريق.

ولقد أشارت الأحاديث الإسلامية إلى هذا المفهوم العظيم والمعنى السامي حيث ورد أنّ الحاج حينما يستلم الحجر الأسود يردّد تلك الكلمات التي يفوح منها شذى الوفاء والاستقامة على طريق الحق فيقول:

«أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته، لتشهد لي بالموافاة»^(١).

والنموذج الحي الآخر زيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام وقبور الشهداء الأوفياء الذين سقوا بدمانهم الزاكية شجرة الإسلام التي أراد أعداء الدين عامة وبنو أمية خاصة اجتثاثها من الأرض والقضاء عليها. من هنا يقف الزائر أمام تلك القبور الزاكية مجدداً العهد مع أصحابها بأن يبقى وفيّاً للمبادئ، محافظاً على الأمانة، حارساً لحدود الدين والشريعة، رافعاً لنفس الراية محافظاً عليها من السقوط.

من هنا تكتسب الزيارة أهميتها الاجتماعية والتربوية والسياسية في حركة الفرد والمجتمع، فإن الأمة التي تحافظ على مبادئها وتبقى وفيه لرجالها وعظماؤها وراعية للمسيرة التي ساروا عليها، أمة حية لا يمكن أن تفتنى على مر القرون والأيام.

زيارة القبور في القرآن الكريم

لقد ذكرنا في البحوث السابقة أن زيارة الإنسان لقبر أحبته وأهله ومن تربطه به صلة رحم أو قرابة يُعدّ سجية إنسانية وطبيعة فطرية تدعو إليها جميع النفوس السليمة في كافة بقاع المعمورة، وأنها من الأمور التي أطبق الجميع على العمل بها، أو على أقلّ تقدير عدم رفضها والوقوف في وجهها، ويمكن استنتاج ذلك من الآية المباركة التالية:

١. وسائل الشيعة: ١٠/٤٠٠، الباب ١٢ من أبواب الطواف، الحديث ١.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(١).

إن الآية المباركة تنطوي على أمرين موجّهين للنبي الأكرم ﷺ هما:

١. «لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا».

٢. «وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ».

ولابدّ من تركيز البحث على النهي الثاني الوارد في الآية لنرى ماذا

يراد من قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ وما هو معناه؟

فهل معناه أنها تنهى النبي ﷺ عن الوقوف على قبره حال الدفن فقط، فلا يجوز ذلك في حق المنافق ويستحب في حق المؤمن؟ أو معناها أعمّ من وقت الدفن وغيره؟

إن بعض المفسرين خصّوا القيام نفيًا وإثباتًا بوقت الدفن فقط، ولكن البعض الآخر من المفسرين من ذهب إلى إطلاق الآية وفسّر النهي في كلا المجالين الأعم من حال الدفن وغيره، وما نحن ننقل بعضاً من كلماتهم في هذا المجال:

فممن ذهب إلى الإطلاق البيضاوي في تفسيره حيث قال: ولا تقف على قبره للدفن أو الزيارة.^(٢)

١. التوبة: ٨٤.

٢. تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل): ٤١٦/١.

وقد تبنى هذه النظرية جلال الدين السيوطي في «تفسير الجلالين» حيث قال: ولا تقم على قبره للدفن أو زيارة.^(١)

وكذلك الشيخ إسماعيل حقي البروسوي فقد جاء في تفسيره: «ولا تقم على قبره»: أي لا تقف عند قبره للدفن أو للزيارة.^(٢)

والحق مع من أخذ بإطلاق الآية المباركة، ومن هنا يتضح أن الله سبحانه قد نهى نبيه الأكرم ﷺ عن كل أنواع الوقوف على قبر المنافق، سواء كان ذلك حال الدفن، أو بعد ذلك. وهذا يحكي أن للرسول الأكرم ﷺ أن يقف على قبور المؤمنين والصالحين وأن يدعو لهم في حال دفنهم، أو بعد ذلك، وألا لكان النهي الموجه إلى النبي عن الوقوف على قبور المنافقين لغواً لا طائل فيه.

وعلى هذا الأساس ندرك أن الآية المباركة أرادت أن تهدم شخصية المنافق، وأن تحرمه من الفيض الإلهي الوارد عن طريق دعاء النبي ﷺ واستغفاره، وأن يختص هذا اللطف وتلك الرحمة بالمؤمنين الصالحين، فللرسول أن يقف على قبورهم في حال دفنهم أو بعد ذلك، وأن يطلب من ربه أن ينزل فيض رحمته وغفرانه على تلك الأرواح المؤمنة.

١. تفسير الجلالين: سورة التوبة، تفسير الآية.

٢. روح البيان: ٣ / ٣٧٨.

زيارة القبور في السنة

لا شك أنَّ زيارة القبور تنطوي على آثار أخلاقية وتربوية هامة، لأن مشاهدة هذا الوادي الهادي - الذي يضم في أعماقه مجموعة كبيرة من الذين عاشوا في هذا الحياة الدنيا ثم انتقلوا إلى الآخرة - تخفف روح الطمع والحرص على الدنيا، ولربما يغيّر الإنسان سلوكه في هذه الحياة، فيترك الجرائم والمنكرات، ويتوجّه إلى الله والآخرة.

ولذا يقول الرسول الأعظم:

١- «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»^(١).

ودلّ بعض الأحاديث على أنَّ النبي ﷺ نهى عن زيارة القبور في أول الأمر، ولعل النهي كان لأجل أنَّ الأموات يوم ذاك كانوا مشركين وعبدة للأصنام، فنهى النبي ﷺ عن زيارة الأموات، ولمّا كثّر الشهداء بين المسلمين وماتت مجموعة كبيرة من المسلمين في المدينة وأطرافها، رخص النبي ﷺ بإذن من الله سبحانه وقال:

٢- روى ابن ماجه في سننه عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة»^(٢).

١. سنن ابن ماجه: ١١٣/١.

٢. السنن لابن ماجه: ٥٠١/١ برقم ١٥٧١، باب ماجاء في زيارة القبور. وروي مضمون الحديث في صحيح مسلم: ٨٢/٦، دار الفكر؛ صحيح الترمذي: ٢٧٤/٣، أبواب الجنائز؛ مسند أحمد: ١/١٤٥١ وج ٢٣٧/٣ و ٢٥٠.

٣- وروى مسلم في صحيحه: «زار النبي قبر أمه فبكى وأبكى من حوله... وقال: استأذنت ربي أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت»^(١).

٤- وقالت عائشة: «إن رسول الله ﷺ رخص في زيارة القبور»^(٢).

٥- وقالت: إن النبي قال: أمرني ربي أن آتي البقيع فأستغفر لهم. قلت: كيف أقول يا رسول الله؟ قال: قل: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وأنا إن شاء الله بكم لاحقون.^(٣)

وجاء في أحاديث أخرى نص الكلمات التي كان رسول الله ﷺ يقولها عند زيارة القبور، وهي:

٦- «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأنا وإياكم متواعدون غدا ومواكلون، وأنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الفرقد»^(٤).

وجاء في حديث آخر نص الكلمات بما يلي:

٧- «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وأنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع، أسأل الله العافية لنا ولكم»^(٥).

١. صحيح مسلم: ٦٥/٣، باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه.

٢. سنن ابن ماجه: ١١٤/١.

٣. صحيح مسلم: ٦٤/٣، باب ما يقال عند دخول القبور؛ السنن للنسائي: ٧٦/٣.

٤. السنن للنسائي: ٧٦/٤-٧٧.

٥. السنن للنسائي: ٥٦/٤-٧٧.

وفي حديث ثالث:

٨- «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأنا إن شاء الله بكم لاحقون»^(١).

ويستفاد من حديث عائشة أن النبي ﷺ كان يخرج إلى البقيع في آخر الليل من كل ليلة، ويقول:

٩- «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون وأنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»^(٢).

ويستفاد من حديث آخر أن النبي ﷺ كان يزور المقابر مع جماعة من أصحابه، ويعلمهم كيفية الزيارة:

١٠- «كان رسول الله يعلمهم - إذا خرجوا إلى المقابر - فكان قائلهم يقول: السلام على أهل الديار - أو - السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وأنا إن شاء الله لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»^(٣).

١. السنن لأبي داود: ١٩٦/٢.

٢. صحيح مسلم: ٦٣/٣، باب ما يقال عند القبور.

٣. صحيح مسلم: ١١/٣، باب ما يقال عند دخول القبر.

زيارة النساء للقبور

في الشريعة الإسلامية

لقد أسعفني الحظ هذا العام (١٤٢١ هـ) بزيارة بيت الله الحرام لأداء العمرة المفردة، والتشرف بزيارة النبي ﷺ وأئمة البقيع رضي الله عنهم وبقية المشاهد المباركة، وقد استرعى انتباهي عند زيارتي البقيع منع النساء من دخولها من قبل السلطات السعودية، وذلك بفتوى بعض فقهاء الحنابلة مع أن الأدلة الشرعية على خلافها، وهي تدل على كون الرجال والنساء في ذلك سواسية، ومن حسن الحظ فقد التقيت بأحد الأمرين بالمعروف في البقيع ودار حوار بيني وبينه حول زيارة النساء للقبور، وقد تبادلنا فيه بعض الرسائل، ولذلك عزمت على كتابة رسالة مفصلة في هذا الموضوع استعرض فيها أدلة الموافق والمخالف على وجه لا يبقى لمشكك شك، ولا لمرتاب ريب.

هذه هي الرسالة التي أقدمها لطلاب الفقه في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عسى أن تنال رضاهم.

زيارة النساء للقبور في الشريعة الإسلامية

اتفق المسلمون على استحباب زيارة القبور تأسياً بالنبي الأكرم ﷺ في قوله وفعله.

«قال النووي تبعاً للعبدري والحازمي وغيرهما: اتفقوا على أن زيارة القبور للرجال جائزة.

نعم حكى عن ابن أبي شيبة وابن سيرين وإبراهيم النخعي والشعبي، الكراهة، حتى قال الشعبي: لولا نهى النبي ﷺ لزرت قبر ابنتي... وكان هؤلاء لم يبلغهم الناسخ»^(١).

وسيوافيك تضافر الأدلة على استحبابها لما فيها من الأمر والبعث والأثر البناء، أعني تذكر الآخرة، والزهد في الدنيا. وما أبعد هذا القول عما حكى عن ابن حزم أن زيارة القبور واجبة ولو مرة واحدة، لورود الأمر بها، وبما أن استحبابها للرجال أمر متفق عليه إلا من شذ من الذين لم يبلغهم قول النبي ﷺ وفعله، فلا نطيل الكلام فيها.

إنما الكلام في استحبابها أو جوازها للنساء، فأكثر أهل السنة على الاستحباب.

قال ابن حجر: واختلف في النساء، فقليل دُخلن في عموم الإذن، وهو قول الأكثر، وقليل الإذن خاص بالرجال، ولا يجوز للنساء زيارة القبور، وبه قال الشيخ أبو إسحاق في المهذب.^(١)

وقال السندي في شرحه على سنن النسائي عند شرح قوله ﷺ: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها». فيه جمع بين الناسخ والمنسوخ، والإذن بقوله «فزوروها»، قيل: يعم الرجال والنساء، وقيل: مخصوص بالرجال، كما هو ظاهر الخطاب، لكن عموم علة التذكير الواردة في الأحاديث قد يؤيد عموم الحكم، إلا أن يمنع شمول قوله: «وتذكر الآخرة» للنساء لكثرة غفلتهن.^(٢)

ونقل النووي في شرحه على «صحيح مسلم» أقوالاً ثلاثة:

أ. الحرمة، ب. الكراهة، ج. الجواز.^(٣)

هذه الكلمات تعرب عن اختلاف الآراء وإن كان الأكثر على الجواز، وهو الحق المتعين للأدلة التالية:

١. حديث عائشة

أخرج النسائي في سننه عن عائشة، أنها قالت: ألا أحدثكم عني وعن النبي ﷺ؟ قلنا: بلى، قالت: لما كانت ليلتي التي هو عندي - تعني

١. فتح الباري: ١٤٨/٣.

٢. سنن النسائي، بشرح السيوطي والسندي: ٨٩/٤.

٣. شرح صحيح مسلم: ٤٩/٧.

النبي ﷺ - انقلب فوضع نعليه عند رجله، وبسط طرف إزاره على فراشه، فلم يلبث إلا ريشما ظن قد رقدت، ثم انتعل رويداً، وأخذ رداءه رويداً، ثم فتح الباب رويداً، وخرج رويداً، وجعلت درعي في رأسي واختمرت وتقنعت إزاري، وانطلقت في أثره، حتى جاء البقيع، فرفع يديه ثلاث مرات فأطال، ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهورول فهورولت، فأحضر فأحضرت، وسبقته فدخلت فليس إلا أن اضطجعت، فدخل فقال: ما لك يا عائشة حشياً رابية؟

قالت: لا، قال: لِيُخْبِرُنِي أَوْ لِيُخْبِرُنِي اللطيف الخبير، قلت يا رسول الله: بأبي أنت وأمي فأخبرته الخبر، قال: فَأَنْتِ السواد الذي رأيت إمامي، قالت: نعم. فلهزني في صدري لهزة أوجعتني، ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله، قلت: مهما يكتم الناس فقد علمه الله.

قال: فإن جبرئيل أتاني حين رأيت ولم يدخل علي، وقد وضعت ثيابك فناداني فأخفى منك، فأجبت فأخفته منك، فظننت ان قد رقدت وكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي، فأمرني أن آتي البقيع فأستغفر لهم، قلت: كيف أقول يا رسول الله؟

قال: قولني: السّلام على أهل الدّيار من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.^(١)

١. سنن النسائي: ٤ / ٩١، الأمر بالاستغفار للمؤمنين؛ صحيح مسلم: ٣ / ٦٤، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها. واللفظ في المتن للنسائي، وبين التقليل اختلاف طريف. قوله «حشياً»: مرتفعة النفس.

وجه الدلالة: أن تعليم الزيارة آية جواز العمل بها.

مضافاً إلى أن قوله: «وكرهت أن أوقفك» مشيراً إلى أنه ﷺ كره إيقاظها لتشاركه في زيارة البقيع.

نعم ليس في الرواية ما يدل على دخولها البقيع، وإنما خرجت من بيتها للاطلاع على حال الرسول، وأنه إلى أين ذهب، لكن الاستدلال ليس منصباً على دخولها البقيع وزيارتها مع النبي، بل هو منصب على أنه ﷺ علمها الزيارة، وعندئذ لا يخلو الحال من صورتين:

الصورة الأولى: علمها وكانت الزيارة للنساء مستحبة أو جائزة.

الصورة الثانية: علمها وكانت الزيارة لهن محرمة.

فعلى الأولى يثبت المطلوب، وعلى الثانية يلزم اللغوية كما هو واضح، لأنه ﷺ كيف يعلمها الزيارة المحرمة، وهذا أشبه بتعليم الحرام؟ وربما يتصور: أنما تعلمت لتزور البقيع من بعيد، ولكن هذا التصور من السخافة بمكان، لأن الزيارة عبارة عن حضور الزائر لدى المزور، فما معنى الزيارة من بعيد بدون مانع؟ ولو كانت الغاية من التعليم هو ذلك النوع من الزيارة كان عليه ﷺ أن ينبهها ويأمرها بذلك.

على أن معنى قولها: «كيف أقول؟» أي: كيف أقول عند زيارتي البقيع كزيارتك إياه؟ فعلمها الرسول نفس ما كان يقوله عند زيارته.

٢. حديث بريدة

أخرج مسلم في صحيحه، عن بريدة، قال: قال رسول الله ﷺ: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها.^(١)

وأخرجه النسائي في سننه عنه مثل ذلك، وزاد: فمن أراد فليزر ولا تقولوا هجراً.^(٢)

٣. حديث أبي هريرة

وأخرج ابن ماجة في سننه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة».

وفي نقل آخر: فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت.^(٣)

٤. حديث ابن مسعود

أخرج ابن ماجة في سننه، عن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تُزهد في الدنيا وتذكر الآخرة».^(٤)

١. صحيح مسلم: ٦٥/٣، باب استئذان النبي ربه في زيارة قبر أمه.

٢. سنن النسائي: ٨٩/٤، باب زيارة القبور.

٣. سنن ابن ماجة: ٥٠١/١، حديث ١٥٧٢.

٤. سنن ابن ماجة: ٥٠١/١، حديث ١٥٧١.

قال ابن حجر: وقد أخرج مسلم حديث بريدة، وفيه نسخ النهي عن ذلك، ولفظة: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» وزاد أبو داود والنسائي في حديث أنس: «فإنها تذكر الآخرة»، وللحاكم من حديث فيه: «وترقُّ القلب وتدمع العين، فلا تقولوا هجرأ» أي كلاماً فاحشاً.

وله من حديث ابن مسعود: «فإنها تزهد في الدنيا»، ولمسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «زوروا القبور فإنها تذكر الموت»^(١).

وجه الاستدلال هو عموم الخطاب للرجال والنساء ولا يضرّ تذكير الضمير، لما ثبت في محله من أن خطابات القرآن والسنة تعمّ الصنفين إلا ما خرج بالدليل، وقوله سبحانه: «وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزُّكَاةَ»^(٢)؛ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ»^(٣)؛ «أَنْ لَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً»^(٤) إلى عشرات الأمثال، يعم الصنفين بلا ريب ومنه هذا الحديث.

أضف إلى ذلك أن التعليل في الحديث آية الشمول، لأن قوله: «فإنها تذكركم الآخرة» لا يقبل التخصيص، وقد قرر في علم الأصول أن العلة تعمم وتخصّص، وهل يصحّ في منطق العقل الصريح، اختصاص ما يذكر الآخرة بالرجال وحرمان النساء منه؟

١. فتح الباري: ١٤٨/٣.

٢. البقرة: ١١٠.

٣. الممتحنة: ١.

٤. الأنعام: ١٥١.

٥. حديث أنس بن مالك

أخرج البخاري في صحيحه، عن أنس بن مالك، قال: أمر النبي بامرأة تبكي عند قبر، فقال: اتقي الله واصبري، قالت: إليك عني فأنتك لم تُصب بمصيبي ولم تعرفه.

فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأنت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى.^(١)

قال ابن حجر في تفسيره: قوله: الصدمة الأولى: «وفي رواية الأحكام عند أول صدمة» ونحوه لمسلم، والمعنى إذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع، فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر، وأصل الصدم ضرب الشيء الصلب بمثله، فاستعير للمصيبة الواردة على القلب.^(٢)

وجه الدلالة: أن النبي ﷺ أوصاها بالتقوى والصبر، وكأنها قالت في كلامها شيئاً يخالف التقوى.

قال القرطبي: الظاهر أنه كان في بكائها قدر زائد من نوح أو غيره، ولهذا أمرها بالتقوى.

قال ابن حجر: ويؤيده أن في مرسل يحيى بن كثير: «سمع منها ما

١. صحيح البخاري: ٧٩/٢، باب زيارة القبور.

٢. فتح الباري: ١٤٩/٣، باب زيارة القبور.

يكرهه فوقف عليها» فلو كان وقوفها على القبر وزيارتها له أمراً محرماً كان عليه أن يردعها عنه، مع أنه ﷺ أمرها في كلا اللقائين بالصبر.

٦. زيارة عائشة قبر أخيها

أخرج الترمذي في سننه، عن عبد الله بن أبي مليكة، قال: توفي عبد الرحمن بن أبي بكر بلحيشي، قال: فحمل إلى مكة فدفن فيها، فلما قدمت عائشة، أتت قبر عبدالرحمن بن أبي بكر، فقالت:

وكنا كندمانى جزيمة حِجْبَةً من الدهر حتى قيل: لن يتصدعا
فلما تفرقنا كباني ومالكا ل طول اجتماع لم نَبِتْ ليلة معا

ثم قالت: والله لو حضرتك ما دفنت إلا حيث مت، ولو شهدتك ما زرتك.^(١)

والمتبادر من العبارة أنها لما قدمت مكة ذهبت إلى زيارة قبر أخيها لا أنها مرّت عليه عفواً في طريقها إلى مكة.

وأما قولها: «ولو شهدتك لما زرتك» فهو بمعنى أنني بما ان لم أؤدّي حقك في حال حياتك، فلذلك أزورك بعد مماتك ولو كنت مؤدبة لحقك لما تحملت عبء زيارتك.

١. سنن الترمذي: ٣/ ٣٧١، باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، حديث ١٠٥٥.

٧. زيارة السيدة فاطمة عليها السلام قبر حمزة

أخرج الحاكم في مستدركه، عن علي بن الحسين، عن أبيه: أن فاطمة عليها السلام بنت النبي ﷺ كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة وتبكي عنده.

قال الحاكم بعد نقل هذا الحديث: «رواته عن آخرهم ثقات»^(١).

هذه الروايات العديدة الصحيحة تدل بوضوح على جواز الزيارة للنساء، ومن أمعن النظر فيها يقف على أن المسألة من الوضوح بمكان غير أنه إكمالاً للبحث نذكر دليل المخالف، وهي ليست إلا شياً طارئة.

دليل من لم يجوز زيارة القبور للنساء

احتج المخالف بوجوه:

الأول: بما أخرجه الترمذي، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ لعن زورات القبور.^(٢)

وأخرجه ابن ماجه عن حسان بن ثابت، وعن ابن عباس واللفظ في الجميع واحد.

١. الحاكم: المستدرک: ١ / ٣٧٧، كتاب الجنائز.

٢. سنن الترمذي: ٣ / ٣٧١، باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء من كتاب الجنائز، حديث

قال الترمذي صاحب السنن: وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي في زيارة القبور، فلما رخص دخل في رخصته الرجال والنساء.

وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن وكثرة جزعهن^(١).

وقال القرطبي: لم يلعن النبي كل امرأة تزور القبور بل لعن المرأة التي تزور القبور دوماً، والدليل على ذلك قوله ﷺ: زوارات القبور، وكلمة «زوار» هي صيغة المبالغة وتدل على الكثرة والتكرار.

أقول: إن أمر هذا الحديث دائرين كونه منسوخاً أو مخصصاً، فلو ورد قبل الترخيص كان عموم الترخيص «فزوروا» ناسخاً والحديث منسوخاً وإن ورد بعد الترخيص يكون مخصصاً، فإذا دار أمره بين كونه متروكاً أو معمولاً به فلا يحتج به.

الثاني: ما أخرجه ابن ماجه عن ابن الحنفية عن علي، قال: خرج رسول الله ﷺ فإذا نسوة جلوس، فقال: ما يجلسكن؟ قلن: نتظر الجنابة.

قال: هل تغسلن؟ قلن: لا، قال: هل تحملن؟ قلن: لا.

قال: هل تدلين فيمن يدلي؟ قلن: لا.

قال: فأرجعن أزورات غير مأجورات.^(٢)

١. المصدر نفسه.

٢. سنن ابن ماجه: ٥٠٢/١، باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز، الحديث ١٥٧٨.

أن الحديث قاصر سنداً ودلالة.

أما السند ففيه دينار بن عمر (أبو عمر).

قال أبو حاتم في حقه: إنه ليس بالمشهور، وقال الأزدي: متروك، وقال الخليل في الإرشاد: كذاب، وقال ابن حبان: يخطئ.

فهل يمكن أن يستدل بحديث كهذا.

وأما الدلالة ففيها أولاً: أن النبي ﷺ يذم النسوة اللواتي لم يكن لهنّ أية مسؤولية في تجهيز الميت، وإنما جلسن للنظر والمشاهدة، وإلا فلو كان لهنّ مهمة معينة فتنعكس القضية، ويكنّ مأجورات لا مأزورات، ولذلك سألهن النبي ﷺ عن وجه جلوسهن فلما علم حالهنّ ندد بهنّ.

وثانياً: أن غاية ما يمكن حمل الرواية عليها هو النهي عن اتباع النساء الجنائز، وقد نقله الترمذي أيضاً تحت هذا العنوان وهو أمر مكروه بالاتفاق، ويدلّ عليه حديث أم عطية حيث قالت: «نهينا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا»^(١).

قوله: «ولم يعزم علينا» أي ولم يوجب علينا، والمراد أنه لم يقطع علينا بالنهي ليكون حراماً فهو مكروه تنزيهاً.^(٢)

وأين هذا مما نحن فيه من زيارة القبور للنساء حيناً بعد حين؟

وختاماً نلفت نظر القارئ إلى نكتة، وهي: أن الإسلام دين الفطرة، والشريعة السهلة السمحة.

١. سنن ابن ماجه: ٥٠٢/١، باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز، الحديث ١٥٧٨.

٢. سنن ابن ماجه: ٥٠٢/١، باب ما جاء في اتباع النساء الجنائز، الحديث ١٥٧٨.

قال عليه السلام: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ لَمَتِّينٌ فَأَوْغَلُوا فِيهِ بَرْفِقًا».

فمنع المرأة المؤمنة الصالحة التي دفنت فلذة كبدها تحت ركام من التراب عن زيارة قبر ولدها على طرف النقيض من الشريعة السهلة السمحة، التي لا تجبر أحداً على كبت أحاسيسه وعواطفه في قلبه دون إظهارها.

الآن حصحص الحقّ وبان بأجلى مظاهره وتبين أنّ القول بالجواز هو القول الحقّ المتعين.

أرجو من الله سبحانه أن يحقّ الحقّ ويبطل الباطل ويجمع شمل المسلمين، ويرزقهم توحيد الكلمة كما رزقهم كلمة التوحيد، والمسلمون - مع تفرّقتهم في الفروع والأحكام - تجمعهم مشتركات عديدة. ولنعم ما قال شاعر الأهرام:

إنّا لتجمعنا العقيدة أمة ويضمّنا دين الهدى اتباعا
ويؤلف الإسلام بين قلوبنا مهما ذهبنا في الهوى أشياعا

وفي الختام نعكس رأي الإمامية في مسألة زيارة القبور للنساء ونكتفي بكلمة العلامة الحلي في كتاب «متهى المطلب» الذي ألفه في الفقه المقارن، قال:

الرابع: يجوز للنساء زيارة القبور، وعن أحمد روايتان: إحداهما: الكراهة.

لنا: ما رواه الجمهور عن النبي ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزورها» وهو بعمومه يتناول النساء.

وعن ابن أبي مليكة أنه قال لعائشة: يا أمّ المؤمنين من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن، فقلت لها: قد نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، قد نهى ثم أمر بزيارتها.^(١)

ومن طريق الخاصة: ما رواه الشيخ عن يونس، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إن فاطمة ؑ كانت تأتي قبور الشهداء في كل غداة سبت، فتأتي قبر حمزة و ترحم عليه وتستغفر له^(٢) (٣).

زيارة الرسول الأكرم ﷺ

إن الوقوف على قبر رسول الله ﷺ أو الأئمة الطاهرين ؑ - بالإضافة إلى الشكر والثناء والامتنان للجهود الكبيرة والدور العظيم الذي لعبه ﷺ هو وأهل بيته في هداية الأمة، وإنقاذها من الضلال والانحراف، والأخذ بيدها إلى شاطئ الأمان في بحر الظلمات المتلاطم - بيعة وعهد معهم للسير على نفس النهج والثبات على المبادئ والقيم التي جاءوا بها.

يقول الإمام الرضا ؑ في معرض حديثه عن زيارة مرآة

المعصومين ؑ:

١. المستدرک: للحاكم؛ ٣٧٦/١؛ سنن البيهقي: ٤/٧٨.

٢. مژ مصدر الرواية ولاحظ التهذيب للشيخ الطوسي: ١/٤٦٥ برقم ١٥٢٣.

٣. منتهى المطلب: ٧/٤٣٠.

«إِنَّ لِكُلِّ إِمَامٍ عَهْدًا فِي عِنَقِ أَوْلِيَائِهِ وَشِيعَتِهِ، وَإِنْ مِنْ تَمَامِ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ زِيَارَةُ قُبُورِهِمْ»^(١).

إذا الزيارة تمثل في الحقيقة ميثاقاً وتعهداً يبرمه الزائر مع النبي الأكرم والأئمة الطاهرين عليهم السلام، بأن يبقى على العهد ويسير على النهج ويحفظ بالمبادئ ويراعي القيم التي جاء بها هؤلاء العظام.

وكان الزائر يردّد في زيارته للرسول الأكرم عليه السلام الكلمات التالية: يا رسول الله يا نبي الإنسانية ويا أعظم إنسان وطأت قدماه هذا الكوكب، إن كان المهاجرون والأنصار قد بايعوك في الحديبية ووضعوا أكفهم في كَفِّكَ المبارك^(٢)، وإذا كانت النسوة المؤمنات قد بايعنك في مكة المكرمة على أن لا يشركن ولا يزيّنن^(٣)، وإذا كان المؤمنون - الذين قد زلت بهم قدمهم واقترفوا بعض الذنوب وارتكبوا بعض المعاصي - قد جاءوك طالبين منك الاستغفار لهم وخطّ ذنوبهم «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا»^(٤)، فما أنا أقف بين يديك وإلى جوار قبرك الطاهر مجدداً البيعة التي بايعوك عليها، ومعهداً لك على أن أبقى وفيّاً للمبادئ، ومحامياً عن حريم القيم التي جنت بها، متجنباً السيئات والمعاصي طالباً منك أن تدعو الله لي بالتوفيق والسداد، وأن يأخذ

١. وسائل الشيعة: ١٠ / ٣٤٦، الباب ٤٤ من أبواب المزار، الحديث ٢.

٢. إشارة إلى قوله تعالى: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» (الفتح: ١٨).

٣. إشارة إلى قوله تعالى: «وَإِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ» (المتحن: ١٢).

٤. النساء: ٦٤.

الله بيدي لما فيه الخير والصلاح، وأن يتجاوز عما بدر مني من الذنوب والمعاصي.

نعم هذا هو لسان حال الزائر، وهذه هي المفاهيم التي تنطوي عليها الزيارة.

وهناك نكتة جديرة بالاهتمام، وهي أننا لا بد أن نفرّق تفريقاً جوهرياً بين زيارة المسلم المؤمن لتلك المراقد الطاهرة وما يقوم به بعض السوّاح (Tourism) من الأقطار الأخرى، أو بعض المسلمين الذين لا يدركون معنى الزيارة، فإنّ هدف هؤلاء السوّاح هو الاطلاع على المعالم والتعرّف على الآثار التاريخية والتّجاجات الهندسية والمعمارية، وما تنطوي عليه تلك الأماكن من لذات وفوائد مادية. ولا ريب أنّ هذه الأمور إذا تجرّدت عن المحرمات الثانوية كاللعب واللّهو وما شابه ذلك، تعدّ في حدّ ذاتها أموراً مباحة، بل قد تُعدّ أموراً ممدوحة، فممّا لا ريب فيه أنّ الإسلام قد حتّ على العلم والمعرفة، وهذه السياحة والتعرّف على تلك الشخصيات العظيمة ومعرفة آثارهم ممّا له دوره في زيادة معارف الإنسان، بل قد يكون ذلك سبباً لهداية الإنسان، ولكن يبقى الفرق بينها وبين زيارة المؤمنين جوهرياً. فهؤلاء يتحرّكون في تلبية واشباع الحاجات والفرائز المادية، وأنّ حركتهم وتعاملهم المادّي مع البناء والآثار فحسب، وأمّا المؤمن فهده أكبر وغايته أسمى، لأنهم إنّما يشدّون الرحال للقاء الأرواح الزكية، والنفوس الطاهرة، والمبادئ العالية، والقيم السامية، وتجديد البيعة للسير على ذلك الطريق المهيج والمنهج القويم. إنّ الزائر المؤمن يبحث عن معشوقه في

تلك الديار والآثار فلا يهّمه إلا اللقاء بها، ولا يروى غليله إلا وصال الحبيب
ولسان حاله يرّد:

أمرّ على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا^(١)

ولقد نقل لنا المؤرّخون قصص الزيارة والزيّارين بعد رحيل الرسول
الأكرم ﷺ، فقد روى سفيان بن عنبّر عن العتبي - وكلاهما من مشايخ
الشافعي - أنه قال: كنت جالساً عند قبر رسول الله ﷺ فجاء أعرابي - من
خارج المدينة ووقف على قبره الشريف ﷺ - فقال: السلام عليك
يا رسول الله، سمعت الله يقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ
جَاءُواكَ فَاسْتَفْعَرُوا اللَّهَ وَاسْتَفْعَرُوا لَهُمُ الرَّسُولَ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً
رَحِيماً»^(٢) وقد جئتك مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك إلى ربّي. ثم بكى
وأنشأ يقول:

يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم
ثم استغفر وانصرف.^(٣)

إنّ هذا الأعرابي قد أدرك بذهنه الوقاد، وسريرته الصافية، وفطرته

١. شعر عربي مشهور منسوب إلى مجنون ليلى.

٢. النساء: ٦٤.

٣. وفاء الوفا: ٤ / ١٣٦١؛ الدرر السنية: ٧٥.

السليمة ما تنطوي عليه زيارة النبي الأكرم من فوائد جمّة، فجاءه زائراً لقبره الشريف.

نعم إنّ الزيارة لقبور ذوي الرحم والصالحين والشهداء والعلماء، وزيارة المراقد الطاهرة لأعظم خلق الله الرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته الطاهرين ﷺ، تنطوي على فوائد جمّة، ومنافع وافرة: اجتماعية وتربوية وأخلاقية و...، ومن هنا لا بدّ من تسليط الضوء على موضوع زيارة مرقد النبي الأكرم ﷺ في الكتاب والسنة.

زيارة الرسول الأكرم ﷺ في القرآن الكريم

أمر القرآن الكريم المسلمين بالحضور عند رسول الله ﷺ ليستغفروا الله ويطلبوا من الرسول ﷺ أن يستغفر لهم، لأنّ دعاءه مستجاب فيهم، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(١).

وفي آية أخرى نجد القرآن الكريم يذمّ المنافقين، لأنهم طلب منهم أن يحضروا عند الرسول ﷺ ليستغفر لهم لكنهم تمردوا على هذا الطلب واستكبروا ولم يعيروا له آية أهمية. قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾. (١)

وقد بسط المحقق تقي الدين السبكي - أحد كبار محققي أهل السنة - الكلام في هذه الآية وذهب إلى أن حكمها يشمل المسلمين في الوقت الحاضر أيضاً، ولا تختص الآية بعصر الرسول ﷺ فقط، إذ بإمكان المسلمين أن يأتوا إليه الرسول ﷺ ويطلبوا منه أن يستغفر الله لهم. ومن كلامه في هذا المجال قوله: «دلَّت الآية على الحث على المجيء إلى الرسول ﷺ والاستغفار عنده واستغفاره لهم، وذلك وإن كان ورد في حال الحياة، فهي رتبة له ولا تنقطع بموته تعظيماً له». (٢)

قد يقال: صحيح أن الآية المذكورة والآيات الأخرى نازلة في حق الرسول ﷺ لبيان عظمته ومنزلته السامية، ولكن من الناحية الواقعية والعملية أن الإتيان إلى الرسول ﷺ والاستغفار عنده وطلب الاستغفار منه ممكن في حال حياته، وأما بعد رحيله إلى الرفيق الأعلى أصبح هذا الأمر من الأمور المتعدرة التي لا يمكن القيام بها حتى إذا أراد الإنسان ذلك.

والجواب: أن الإشكال غير وارد وإن الحق مع العلامة السبكي، وذلك لأن الدليل على شمولية الآية لحياته ومماته ﷺ لا ينحصر في هذه الآية فقط، بل هناك أدلة كثيرة تدل على أن حياته ومماته ﷺ على السواء، ومن هذه الأدلة:

١. المنافقون: ٥.

٢. شفاء السقام: ٨١.

الأول: إن القرآن الكريم يصرِّح بأن الموت ليس نهاية الحياة وانعدام الإنسان، بل هو في الواقع نافذة تطل على حياة أخرى أوسع وأشمل وأفضل من هذه الحياة الدنيا، وأن الإنسان في ذلك العالم حيّ يسمع ويرى، وخاصة الشهداء الذين ما تسقط منهم قطرة من دمائهم حتى تتلقاهم الملائكة بالبشرى والنعيم الدائم واللذات الروحية التي لا يحصيها إلا واهبها، وقد ورد في هذا المجال العديد من آيات الذكر الحكيم^(١). وهذا ما نبهته تحت عنوان «الحياة البرزخية» إن شاء الله تعالى.

الثاني: إن الأحاديث الشريفة تصرِّح بأن الملائكة تبلغ خاتم الأنبياء ﷺ سلام من يسلم عليه، فقد جاء في الصحاح: «ما من أحد يسلم علي إلا ردَّ الله عليّ روحه حتى أردَّ ﷺ»^(٢).

وفي رواية أخرى: «صلّوا عليّ فإنّ صلاتكم تبلغني حيثما كنت»^(٣).

الثالث: لقد أطبق المسلمون - وعلى مرّ العصور - على السلام على النبي ﷺ في صلاتهم بقولهم: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» وليس هذا السلام في واقعه أمراً تشريفاً اعتبارياً، بل هو حقيقة واقعية من الحيّ إلى الحيّ الذي يسمع ويحيب.

إن هذه الأدلة التي ذكرناها تحكي بما لا ريب فيه أن الرسول الأكرم ﷺ حي يرزق، ويعيش الآن حياة برزخية، ولم تنقطع صلته بهذا

١. انظر آل عمران: ١٦٩، البقرة: ١٥٤، يس: ٢٦-٢٧، وغير ذلك.

٢. سنن أبي داود: ١ / ٤٧٠ - ٤٧١، كتاب الحجّ، باب زيارة القبور.

٣. التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ: ١٨٩ / ٢.

العالم، وهو على ارتباط به يسمع كلامنا ويلبّي طلبتنا مع توفّر بعض الشروط الخاصة.

من هنا يمكن القول: إنّ الآيتين المذكورتين تدلّان على مفهوم أوسع، ومعنى أشمل، حيث تطلب تلك الآيات من المؤمنين فعلاً الحضور عند رسول الله، وتأمّره بالاستغفار في حرمة الشريف، وأن يطلبوا منه ﷺ أن يستغفر الله لهم. ولذلك ورد في زيارة النبي ﷺ - و التي يقرأها الجميع في حرمة الطاهر ﷺ - الالتفات إلى هذه الآية المباركة، حيث نجد الزائرين يتوجّهون إليه ﷺ، ويطلبون منه الاستغفار لهم ونزول الرحمة عليهم، والتجاوز عمّا صدر عنهم.

وفي الواقع ليست الزيارة إلا الحضور عند المزور، وإهداء التحية والسلام إليه، وطلب الدعاء منه لا أكثر.

من هنا يمكن أن يستدلّ بالآيتين الشريفتين على استحباب زيارة مرقد النبي الأكرم ﷺ.

والشاهد على ذلك ما رواه المحدثون من أنّه وبعد رحيل الرسول ﷺ جاء أعرابي من خارج المدينة، وبعد أن قرأ الآية المباركة^(١)، خاطب رسول الله بقوله: «وقد جئتك مستغفراً من ذنبي، مستشفعاً بك إلى ربّي»^(٢).

١. النساء: ٦٤.

٢. وفاء الوفا: ٤ / ١٣٦١؛ الدرر السنية: ٢٦.

ولقد أشار السبكي في كلامه السابق إلى نكتة مهمة، وهي: أن دعوة المسلمين وحثهم على الحضور عند رسول الله وطلب الاستغفار منه، يُعدّ تعظيماً وتكريماً وتبجيلاً له ﷺ، ولا ريب أن هذا التكريم والتعظيم والتبجيل من قبل المسلمين لا يختص بحياة الرسول الأكرم ﷺ الدنيوية فقط، بل أن ذلك يجري مطلقاً في حياته وبعد رحيله ﷺ.

ومن هذا المنطلق نجد المفسرين يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن احترام الرسول ﷺ لا يختص بزمن حياته ﷺ فقط، بل لا بد أن يحفظ ذلك حتى بعد وفاته ورحيله ﷺ.

بل نجد أن الآية التي تنهى المسلمين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ باقية على حيويتها واستمراريتها وقوتها، حيث يقول سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾. (١)

لذلك نجد المسلمين ملتزمين بهذا الأمر الإلهي، فلا يرفعون صوتهم حينما يتشرفون بالدخول إلى حضرته المباركة. والملاحظ أن هذه الآية المباركة كتبت - و بحق - فوق ضريحه المبارك أمام أعين الزائرين جميعاً، وهذا العمل له دلالة الواضحة بأن هذه الآية باقية على حيويتها وفعاليتها ولم يؤثر على إطلاقها رحيل الرسول ﷺ، لأنه حي يرزق، ولا بد أن يحترم حياً أو ميتاً.

زيارة النبي الأكرم ﷺ في السنة النبوية

إذا وقفت على الآثار البناءة لزيارة مطلق القبور، وزيارة قبور الأولياء والصالحين، وتعرفت على مجموعة من الروايات الحائثة على زيارة قبور دار المؤمنين، فلنذكر خصوص ما ورد من الروايات التي فيها الحث على زيارة قبر النبي الأعظم ﷺ.

قد نقل قاضي القضاة تقي الدين أبو الحسن عبدالكافي السبكي ١٥ حديثاً في ذلك المجال وتكلم في أسنادها و صحح كثيراً منها.^(١)

كما قام العلامة السمهودي المتوفى سنة (٩١١ هـ) في كتابه القيم (وفاء الوفا بأحوال دار المصطفى) بنقل روايات كثيرة في ذلك المجال.^(٢)

كما أن فقهاء المذاهب الأربعة في مصر العزيزة في العصر الحاضر أفتوا بأن زيارة قبر النبي أفضل المندوبات. ورد فيها أحاديث. وقد اعتمدوا على رواية عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من زار قبري وجبت له شفاعتي».^(٣)

وبما أن العلامة الأميني قد تحمّل جهوداً جبارة في جمع الأحاديث الواردة حول زيارة النبي الأكرم ﷺ، والفحص عن مظانها ومصادرها من

١. شفاء السقام في زيارة خير الأنام: ٣- ٣٤، الباب الأول: في الأحاديث الواردة في الزيارة .

٢. وفاء الوفا: ٤/ ١٣٣٦.

٣. الفقه على المذاهب الأربعة: ١/ ٥٠٥.

أقدم العصور إلى عصرنا هذا، فنحن - تقديراً لجهوده الجبارة ومثابرتة الجلييلة في هذا الطريق - ننقل عن تلك الموسوعة نفس الروايات ومصادرها. قال ﷺ:

(١)

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من زار قبري وجبت له شفاعتي».

أخرجته أمة من الحفاظ وأئمة الحديث، منهم:

١- عبيد بن محمد أبو محمد الوراق النيسابوري (المتوفى سنة

٢٥٥هـ).

٢- ابن أبي الدنيا أبو بكر عبدالله بن محمد القرشي (المتوفى سنة

٢٨١هـ).

٣- الدولابي أبو بشر محمد الرازي (المتوفى سنة ٣١٠هـ) في الكنى

والأسماء (ج ٢ ص ٦٤).

٤- محمد بن إسحاق أبو بكر النيسابوري (المتوفى سنة ٣١١هـ)

الشهير بابن خزيمة، أخرجه في صحيحه .

٥- الحافظ محمد بن عمرو أبو جعفر العقيلي (المتوفى سنة ٣٢٢هـ)

في كتابه .

٦- القاضي المحاملي أبو عبدالله الحسين البغدادي (المتوفى سنة

٣٣٠هـ).

٧- الحافظ أبو أحمد بن عدي (المتوفى سنة ٣٦٥ هـ) في الكامل.

٨- الحافظ أبو الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد الأنصاري (المتوفى سنة ٣٦٩ هـ).

٩- الحافظ أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ) في سننه.

١٠- ألقى القضاة أبو الحسن الماوردي (المتوفى سنة ٤٥٠ هـ) في «الأحكام السلطانية» ص ١٠٥.

١١- الحافظ أبو بكر البيهقي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) في «السنن» وغيره.

١٢- القاضي أبو الحسن علي بن الحسن الخلعي الشافعي (المتوفى سنة ٤٩٢ هـ) في فوائده.

١٣- الحافظ إسماعيل بن محمد بن الفضل القرشي الإصبهاني (المتوفى سنة ٥٣٥ هـ).

١٤- القاضي عياض المالكي (المتوفى سنة ٥٤٤ هـ) في «الشفاء».

١٥- الحافظ أبو القاسم علي بن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١ هـ)، في تاريخه في باب (من زار قبره ﷺ) وهذا الباب أسقطه المهدب من الكتاب في طبعه، والله يعلم سر تحريفه هذا وما أضمرته سريرته.

١٦- الحافظ أبو طاهر أحمد بن السلفي (المتوفى سنة ٥٧٦ هـ).

١٧- أبو محمد عبدالحق بن عبدالرحمن الأندلسي (المتوفى سنة ٥٨١ هـ) الأحكام الوسطى والصغرى.^(١)

١٨- الحافظ ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) في «مثير الغرام الساكن» .

١٩- الحافظ علي بن مفضل المقدسي الإسكندراني المالكي (المتوفى سنة ٦١١ هـ) .

٢٠- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقي (المتوفى سنة ٦٤٨ هـ) .

٢١- الحافظ أبو محمد عبدالعظيم المنذري (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ) .

٢٢- الحافظ أبو الحسين يحيى بن علي القرشي الأموي المالكي (المتوفى سنة ٦٦٢ هـ) . في كتابه «الدلائل المبينة في فضائل المدينة» .

٢٣- الحافظ أبو محمد عبدالمؤمن الدمياطي (المتوفى سنة ٧٠٥ هـ) .

٢٤- الحافظ أبو الحسين هبة الله بن الحسن .

٢٥- أبو الحسن يحيى بن الحسن الحسيني في كتاب «أخبار المدينة» .

٢٦- أبو عبدالله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير

١. قال في خطبة الأحكام الصغرى: إنه تخيرها صحيحة الأسناد معروفة عند النقاد، قد نقلها الإنيات وتداولها الثقات، وقال في خطبة الوسطى: إن سكوته عن الحديث دليل على صحته... الخ راجع (شفاء السقام): ٩ .

بابن الحاج (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ)، في «المدخل» ج ١ ص ٢٦١ .

٢٧- تقي الدين علي بن عبدالكافي السبكي الشافعي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ)، بسط القول في ذكر طرقه في شفاء السقام، ص ٣-١٢ وقال في ص ٨ والرواة جميعهم إلى موسى بن هلال ثقات لا ريبه فيهم، وموسى بن هلال، قال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، هو من مشايخ أحمد، وأحمد لم يكن يروي إلا عن ثقة، وقد صرح الخصم بذلك في الرد على البكري .

ثم ذكر شواهد لقوة سنده فقال: وبذلك تبين أن أقل درجات هذا الحديث أن يكون حسناً إن نوزع في دعوى صحته، إلى أن قال: وبهذا بل بأقل منه يتبين افتراء من ادعى أن جميع الأحاديث الواردة في الزيارة موضوعة، فسبحان الله! أما استحي من الله ومن رسوله في هذه المقالة التي لم يسبقه إليها عالم ولا جاهل، لا من أهل الحديث ولا من غيرهم؟ ولا ذكر أحد موسى بن هلال ولا غيره من رواة حديثه هذا بالوضع، ولا اتهمه به فيما علمنا، فكيف يستجيز مسلم أن يطلق على كل الأحاديث التي هو واحد منها موضوعة، ولم ينقل إليه ذلك عن عالم قبله، ولا ظهر على هذا الحديث شيء من الأسباب المقتضية للمحدثين للحكم بالوضع، ولا حكم منته بما يخالف الشريعة، فمن أي وجه يحكم بالوضع عليه لو كان ضعيفاً؟ فكيف وهو حسن وصحيح؟!

٢٨- الشيخ شعيب عبدالله بن سعد المصري، ثم المكي الشهير

بالحريفيش (المتوفى سنة ٨٠١ هـ) في «الروض الفائق» ج ٢ ص ١٣٧ .

- ٢٩- السيد نور الدين علي بن عبد الله الشافعي القاهري السمهودي^(١) (المتوفى سنة ٩١١ هـ) في «وفاء الوفا» ج ٢ ص ٣٩٤ .
- ٣٠- الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) في «الجامع الكبير» كما في ترتيبه: ج ٨ ص ٩٩ .
- ٣١- الحافظ أبو العباس شهاب الدين القسطلاني^(٢) (المتوفى سنة ٩٢٣ هـ)، في «المواهب اللدنية» من طريق الدارقطني، وقال: رواه عبد الحق في أحكامه الوسطى والصغرى وسكت عنه، وسكوته عن الحديث فيه دليل على صحته .
- ٣٢- الحافظ ابن الديبع أبو محمد الشيباني (المتوفى سنة ٩٤٤ هـ)، في «تمييز الطيب من الخبيث» ص ١٦٢ .
- ٣٣- الشيخ شمس الدين محمد الخطيب الشربيني (المتوفى سنة ٩٧٧ هـ)، في «المغني» ج ١ ص ٤٩٤ عن صحيح ابن خزيمة .
- ٣٤- زين الدين عبد الرؤوف المناوي (المتوفى سنة ١٠٣١ هـ)، في «كنوز الحقائق» ص ١٤١، وشرح الجامع الصغير للسيوطي ج ٦ ص ١٤٠ .
- ٣٥- الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده (المتوفى سنة ١٠٧٨ هـ)، في «مجمع الأنهر» ج ١ ص ١٥٧ .
- ٣٦- أبو عبدالله محمد بن عبدالباقي الزرقاني المصري المالكي

١. السمهود قرية كبيرة غربي نيل مصر .

٢. نسبة إلى قسطلنة بلدة بالأندلس .

(المتوفى سنة ١١٢٢ هـ) في «شرح المواهب» ج ٨ ص ٢٩٨ نقلاً عن أبي الشيخ وابن أبي الدنيا .

٣٧- الشيخ إسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني (المتوفى سنة ١١٦٢ هـ)، في «كشف الخفاء» ج ٢ ص ٢٥٠ نقلاً عن أبي الشيخ، وابن أبي الدنيا، وابن خزيمة.

٣٨- الشيخ محمد بن علي الشوكاني (المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ)، في «نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٥ نقلاً عن غير واحد من أئمة الحديث .

٣٩- الشيخ محمد بن السيد درويش الحوت البيروني (المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ) في «حسن الأثر» ص ٢٤٦ .

٤٠- السيد محمد بن عبد الله الدمياطي الشافعي (المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ)، في «مصباح الظلام» ج ٢ ص ١٤٤ .

٤١- عدة من فقهاء المذاهب الأربعة في مصر اليوم في «الفقهاء على المذاهب الأربعة» ج ١ ص ٥٩٠ .

(٢)

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من جاءني زائراً لا تعمله إلا زيارتي، كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً يوم القيامة. وفي لفظ: لا تحمله إلا زيارتي. وفي آخر: لم تنزعه حاجة إلا زيارتي. وفي رابع: لا ينزعه إلا زيارتي كان حقاً على الله عز وجل. وفي خامس للغزالي: لا يهيمه إلا زيارتي. أخرجه جمع من الحفاظ لا يستهان بهم وبعدهم، منهم:

١- الحافظ أبو علي سعيد بن عثمان بن السكن البغدادي المتوفى بمصر سنة (٣٥٣ هـ) في كتابه «السنن الصحاح» جعل في آخر كتاب الحج (باب ثواب من زار قبر النبي) ولم يذكر في الباب غير هذا الحديث. قال السبكي في «شفاء السقام» ص ١٦: وذلك منه حكم بأنه مجمع على صحته بمقتضى الشرط الذي شرطه في الخطبة، وابن السكن هذا إمام حافظ ثقة كثير الحديث واسع الرحلة... الخ .

قال في خطبة كتابه: أما بعد: فإنك سألتني أن أجمع لك ما صحّ عندي من السنن المأثورة التي نقلها الأئمة من أهل البلدان، الذين لا يطعن عليهم طاعن فيما نقلوه، فتدبرت ما سألتني عنه فوجدت جماعة من الأئمة قد تكلفوا ما سألتني من ذلك، وقد وعيت جمع ما ذكروه، وحفظت عنهم أكثر ما نقلوه، واقتديت بهم، وأجبتك إلى ما سألتني من ذلك، وجعلته أبواباً في

جميع ما يحتاج إليه من أحكام المسلمين، فأول من نصب نفسه لطلب صحيح الآثار: البخاري وتابعه مسلم، وأبو داود، والنسائي وقد تصفحت ما ذكره وتدبرت ما نقلوه فوجدتهم مجتهدين فيما طلبوه، فما ذكرته في كتابي هذا مجملًا فهو مما أجمعوا على صحته، وما ذكرته بعد ذلك مما يختاره أحد من الأئمة الذين سميتهم، فقد بينت حجته في قبول ما ذكره، ونسبته إلى اختياره دون غيره، وما ذكرته مما يتفرد به أحد من أهل النقل للحديث فقد بينت علته، ودلت على انفراده دون غيره، وبالله التوفيق .

٢- الحافظ أبو القاسم الطبراني (المتوفى سنة ٣٦٠ هـ)، أخرجه في معجمه الكبير .

٣- الحافظ أبو بكر محمد بن إبراهيم المقرئ الإصبهاني (المتوفى سنة ٣٨١ هـ)، في معجمه .

٤- الحافظ أبو الحسن الدارقطني (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ)، أخرجه في أماليه .

٥- الحافظ أبو نعيم الإصبهاني (المتوفى سنة ٤٠٢ هـ).

٦- القاضي أبو الحسن علي بن الحسن الخليلي الشافعي (المتوفى سنة ٤٩٢ هـ) صاحب «الفوائد» .

٧- حجة الإسلام أبو حامد الغزالي الشافعي (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ)، في «إحياء العلوم» ج ١ ص ٢٤٦ .

٨- الحافظ ابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١ هـ)، صاحب «تاريخ

الشام» .

٩- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقي (المتوفى سنة ٦٤٨ هـ).

١٠- الحافظ يحيى بن علي القرشي الأموي المالكي (المتوفى سنة ٦٢٢ هـ).

١١- الحافظ أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد في كتابه .

١٢- تقي الدين السبكي الشافعي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ) فصل القول في طرق هذا الحديث، وأخرجه من طرق شتى وصحّحه في «شفاء السقام» ص ١٣-١٦ .

١٣- السيد نور الدين علي بن عبدالله الشافعي القاهري السهمودي (المتوفى سنة ٩١١ هـ)، في «وفاء الوفا» ج ٢ ص ٣٩٦، ذكره من طرق شتى، منها طريق الحافظ ابن السكن فقال: ومقتضى ما شرطه في خطبته أن يكون هذا الحديث ممّا أجمع على صحّته ثم قال: قلت: ولهذا نقل عنه جماعة منهم الحافظ زين الدين العراقي أنه صحّحه... الخ .

١٤- أبو العباس شهاب الدين القسطلاني (المتوفى سنة ٩٢٤ هـ)، في «المواهب اللدنية» وقال: صحّحه ابن السكن .

١٥- الشيخ محمد الخطيب الشربيني (المتوفى سنة ٩٧٧ هـ)، في «مغني المحتاج» شرح المنهاج ج ١ ص ٤٩٤ وقال: رواه ابن السكن في سننه الصحاح المأثورة .

١٦- الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده (المتوفى سنة ١٠٧٨ هـ)، في «مجمع الأنهر» ج ١ ص ١٥٧ .

(٣)

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من حج فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي» وفي غير واحد من طرقه زيادة: وصحبني. أخرجه جمع من الحفاظ منهم:

- ١- الحافظ عبد الرزاق أبو بكر الصنعاني (المتوفى سنة ٢١١ هـ).
- ٢- الحافظ أبو العباس الحسن بن سفيان الشيباني (المتوفى سنة ٣٠٣ هـ).
- ٣- الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي الموصلي (المتوفى سنة ٣٠٧ هـ) في مسنده.
- ٤- الحافظ أبو القاسم عبدالله بن محمد البغوي (المتوفى سنة ٣١٧ هـ).
- ٥- الحافظ أبو القاسم الطبراني (المتوفى سنة ٣٦٠ هـ).
- ٦- الحافظ أبو أحمد بن عدي (المتوفى سنة ٣٦٥ هـ) في «الكامل».
- ٧- الحافظ أبو بكر محمد بن إبراهيم المقرئ (المتوفى سنة ٣٨١ هـ).
- ٨- الحافظ أبو الحسن الدارقطني (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ)، في سننه وغيرها.

٩- الحافظ أبو بكر البيهقي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) في سننه ج ٥ ص ٢٤٦.

١٠- الحافظ ابن عساكر الدمشقي (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) في تاريخه .

١١- الحافظ ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) في «مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن» .

١٢- الحافظ أبو عبدالله بن النجار البغدادي (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ)، في كتابه «الدرة الثمينة في أخبار المدينة» .

١٣- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقي (المتوفى سنة ٦٤٨ هـ) .

١٤- الحافظ أبو محمد عبدالمؤمن الدماطي (المتوفى سنة ٧٠٥ هـ).

١٥- أبو الفتح أحمد بن محمد بن أحمد الحداد في كتابه .

١٦- الحافظ أبو الحسين المصري .

١٧- ولي الدين الخطيب التبريزي في «مشكاة المصابيح» (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ)، في باب حرم المدينة في الفصل الثالث .

١٨- تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ)، بسط القول في طريقه في «شفاء السقام» ص ١٦ - ٢١ ورواه عن كثير من هؤلاء الحفاظ المذكورين وغيرهم .

١٩- الشيخ شعيب عبدالله المصري الحريفيش (المتوفى سنة

- ٨٠١هـ)، في «الروض الفائق» ج ٢ ص ١٣٧.
- ٢٠- السيد نور الدين السهودي (المتوفى سنة ٩١١ هـ)، فصل القول في طرقه في «وفاء الوفا» ج ٢ ص ٣٩٧.
- ٢١- الحافظ جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ)، في «الجامع الكبير» كما في ترتيبه ج ٨ ص ٩٩.
- ٢٢- قاضي القضاة شهاب الدين الخفاجي الحنفي (المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ)، في شرح الشفاء للقاضي عياض ج ٣ ص ٥٦٧.
- ٢٣- الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده (المتوفى سنة ١٠٧٨ هـ)، في «مجمع الأنهر» ج ١ ص ١٥٧.
- ٢٤- الشيخ محمد الشوكاني (المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ)، في «نبيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٥.
- ٢٥- السيد محمد بن عبدالله الدمياطي الشافعي (المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ)، في «مصباح الظلام» ج ٢ ص ١٤٤.

(٤)

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني»
أخرجه جمع منهم:

١- الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي (المتوفى سنة ٣٥٤ هـ)، في «الضعفاء» .

٢- الحافظ ابن عدي (المتوفى سنة ٣٦٥ هـ)، في «الكامل» .

٣- الحافظ الدارقطني (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ)، في كتابه أحاديث مالك التي ليست في الموطأ .

٤- تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٦٥ هـ)، من غير طريق في «شفاء السقام» ص ٢٢، وردّ حكم ابن الجوزي على الحديث بالوضع .

٥- السيد نور الدين السهودي (المتوفى سنة ٩٢١ هـ)، في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٣٩٨ .

٦- أبو العباس شهاب الدين القسطلاني (المتوفى سنة ٩٢٢ هـ)، في «المواهب اللدنية» نقلاً عن ابن عدي، وابن حبان، والدارقطني .

٧- الشيخ إسماعيل الجراحي العجلوني (المتوفى سنة ١١٦٢ هـ)، في «كشف الخفاء» ج ٢ ص ٢٧٨ نقلاً عن ابن عدي، وابن حبان، والدارقطني .

٨- الشيخ المرتضى الزبيدي الحنفي (المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ)، في «تاج العروس» ج ١٠ ص ٧٤.

٩- الشيخ محمد الشوكاني (المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ)، في «نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٥.

(٥)

عن عمر مرفوعاً: «من زار قبري (أو من زارني) كنت له شفيحاً (أو شهيداً) ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله عزوجل في الأمنين يوم القيامة» أخرجه:

١- الحافظ أبو داود الطيالسي (المتوفى سنة ٢٠٤ هـ)، في مسنده ج ١ ص ١٢.

٢- الحافظ أبو نعيم الإصبهاني (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ).

٣- الحافظ البيهقي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) في «السنن الكبرى» ج ٥ ص ٢٤٥.

٤- الحافظ ابن عساكر الدمشقي (المتوفى سنة ٥٧١ هـ)، في «تاريخ الشام».

٥- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقي (المتوفى سنة ٦٤٨ هـ).

٦- تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ)، في «شفاء السقام» ص ٢٢.

٧- نور الدين السمهودي (المتوفى سنة ٩١١ هـ)، في «وفاء الوفا» ج ٢ ص ٣٩٩.

٨- أبو العباس القسطلاني (المتوفى سنة ٩٢٣ هـ)، في «المواهب اللدنية».

٩- الحافظ ابن الديبع (المتوفى سنة ٩٤٤ هـ)، في «تمييز الطيب» ص ١٦٢.

١٠- زين الدين عبدالرؤوف المناوي (المتوفى سنة ١٠٣١ هـ)، في «كنوز الحقائق» ص ١٤١.

١١- الشيخ إسماعيل العجلوني (المتوفى سنة ١١٦٢ هـ)، في «كشف الخفاء» ج ٢ ص ٢٧٨.

(٦)

عن حاطب بن أبي بلتعة مرفوعاً: «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة من الأمنين». أخرجه:

١- الحافظ أبو الحسن الدارقطني (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ)، في «السنن».

- ٢- الحافظ أبو بكر البيهقي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ).
- ٣- الحافظ ابن عساكر الدمشقي (المتوفى سنة ٥٧١ هـ).
- ٤- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقي (المتوفى سنة ٦٤٨ هـ).
- ٥- الحافظ أبو عبدالله عبدالمؤمن الدمياطي (المتوفى سنة ٧٠٥ هـ).
- ٦- أبو عبدالله العبدري المالك ابن الحاج (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ)، في «المدخل».
- ٧- تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ)، في «شفاء السقام» ص ٢٥.
- ٨- الشيخ شعيب الحرifiش (المتوفى سنة ٨١٠ هـ)، في «الروض الفائق» ج ٢ ص ١٣٧.
- ٩- نور الدين السمهودي (المتوفى سنة ٩١١ هـ)، في «وفاء الوفا» ج ٢ ص ٣٩٩.
- ١٠- أبو العباس القسطلاني (المتوفى سنة ٩٢٣ هـ) في «المواهب اللدنية» عن البيهقي.
- ١١- الجراحي العجلوني (المتوفى سنة ١١٦٢ هـ)، في «كشف الخفاء» ج ٢ ص ٥٥١ عن ابن عساكر والذهبي، وحكى عن الأخير أنه قال: إن هذا الحديث من أجود أحاديث الباب إسناداً.

١٢- الشيخ محمد الشوكاني (المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ) في «نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٥.

١٣- الشيخ محمد بن درويش الحوت البيروني (المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ)، في «حسن الأثر» ص ٢٤٦.

(٧)

عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: «من حج حجة الإسلام وزار قبري، وغزا غزوة وصلى عليّ في بيت المقدس لم يسأل الله عزوجل فيما افترض عليه».

أخرجه الحافظ محمد بن الحسين بن أحمد أبو الفتح الأزدي (المتوفى سنة ٣٧٤ هـ)، في فوائده، ورواه عنه الحافظ السلفي أبو طاهر الإصبهاني (المتوفى سنة ٥٧٦ هـ) بإسناده، وأخرجه بالطريق المذكور تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ) في «شفاء السقام» ص ٢٥، وذكره السيد السمهودي (المتوفى سنة ٩١١ هـ)، في «وفاء الوفا» ج ٢ ص ٤٠٠ والشيخ محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٠ هـ)، في «نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٦.

(٨)

عن أبي هريرة مرفوعاً: «من زارني بعد موتي فكأنما زارني وأنا حي،
ومن زارني كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة» أخرجه:

١- الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه (المتوفى سنة ٤١٦

هـ).

٢- الحافظ أبو سعد أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن الإصبهاني

(المتوفى سنة ٥٤٠ هـ).

٣- أبو الفتح سعيد بن محمد اليعقوبي في فوائده (المتوفى سنة

٥٥٢ هـ).

٤- الحافظ أبو سعد عبدالكريم السمعاني الشافعي (المتوفى سنة

٥٦٢ هـ).

٥- ابن الأنماطي إسماعيل بن عبدالله الأنصاري المالكي (المتوفى

سنة ٦١٩ هـ).

٦- تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ) في «شفاء السقام» ص

٢٦.

٧- السيد نور الدين السهمودي (المتوفى سنة ٩١١ هـ)، في «وفاء

الوفاء» ج ٢ ص ٤٠٠.

(٩)

عن أنس بن مالك مرفوعاً: «من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً». وفي رواية أخرى عنه أيضاً:

«من مات في أحد الحرمين بعث من الأمنين يوم القيامة، ومن زارني محتسباً إلى المدينة كان في جوارى يوم القيامة».

وفي لفظ ثالث له زيادة: وكنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة. أخرجته أمة من الحفاظ منهم:

١- ابن أبي فديك محمد بن إسماعيل (المتوفى سنة ٢٠٠ هـ).

٢- ابن أبي الدنيا أبو بكر القرشي (المتوفى سنة ٢٨١ هـ).

٣- الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (المتوفى سنة ٤٠٥ هـ).

٤- الحافظ أبو بكر البيهقي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) في «شعب

الإيمان».

٥- القاضي عياض المالكي (المتوفى سنة ٥٤٤ هـ) في «الشفاء».

٦- الحافظ علي بن الحسن الشهير بابن عساكر (المتوفى سنة

٥٧١ هـ).

٧- الحافظ ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) في «مثير الغرام الساكن» .

٨- الحافظ عبد المؤمن الدماطي (المتوفى سنة ٧٠٥ هـ) .

٩- أبو عبدالله العبدري المالكي ابن الحاج (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ) في «المدخل» ج ١ ص ٢٦١ .

١٠- شمس الدين أبو عبدالله دمشقي الحنبلي المعروف بابن القيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١ هـ)، في «زاد المعاد ج ٢ ص ٤٧» .

١١- تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ)، في «شفاء السقام» ص ٢٧ .

١٢- السيد نور الدين السهمودي (المتوفى سنة ٩١١ هـ)، في «وفاء الوفا» ج ٢ ص ٤٠٠ .

١٣- أبو العباس شهاب الدين القسطلاني (المتوفى سنة ٩٢٣ هـ) في «المواهب اللدنية» .

١٤- جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ)، في «الجامع الكبير» كما في ترتيبه ج ٨ ص ٩٩ .

١٥- الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده (المتوفى سنة ١٠٧٨ هـ)، «مجمع الأنهر» ج ١ ص ١٥٧ بلفظ: «من زارني في المدينة متعمداً كان في جواربي إلى يوم القيامة» .

- ١٦- الشيخ محمد الشوكاني (المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ)، في «نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٦.
- ١٧- أبو عبدالله الزرقاني المالكي (المتوفى سنة ١١٢٢ هـ)، في «شرح المواهب» ج ٨ ص ٢٩٩.
- ١٨- الجراحي العجلوني (المتوفى سنة ١١٦٢ هـ)، في كشف «الخفاء» ج ٢ ص ٢٥١.
- ١٩- السيد أحمد الهاشمي في مختار الأحاديث النبوية، ص ١٦٩.
- ٢٠- السيد محمد بن عبدالله الدمياطي الشافعي (المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ)، في «مصباح الظلام» ج ٢ ص ١٤٤.
- ٢١- الشيخ منصور علي ناصف في «التاج» ج ٢ ص ٢١٦.

(١٠)

- عن أنس بن مالك مرفوعاً: «من زارني ميتاً فكأنما زارني حياً، ومن زار قبري وجبت له شفاعتي يوم القيامة، وما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرنني فليس له عذر» أخرجه:
- ١- الحافظ أبو عبدالله محمد بن محمود ابن النجار (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ)، في كتابه «الدرة الثمينة في فضائل المدينة».
- ٢- تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ)، في «شفاء السقام» ص ٢٨.

٣- الحافظ زين الدين العراقي (المتوفى سنة ٨٠٦ هـ)، أشار إليه كما في «المواهب» .

٤- السيد نور الدين السمهودي (المتوفى سنة ٩١١ هـ)، في «وفاء الوفا» ج ٢ ص ٤٠٠ .

٥- أبو العباس شهاب الدين القسطلاني (المتوفى سنة ٩٢٣ هـ) في «المواهب اللدنية» .

٦- العجلوني (المتوفى سنة ١١٦٢ هـ)، في «كشف الخفاء» ص ٢٧٨ .

(١١)

عن ابن عباس مرفوعاً: «من زارني في مماتي كان كمن زارني في حياتي، ومن زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيداً، أو قال: شفيعاً».

أخرجه الحافظ أبو جعفر العقيلي (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ)، في كتاب «الضعفاء» في ترجمة فضالة بن سعيد المازني، والحافظ ابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) كما في «شفاء السقام» ص ٢١، و«وفاء الوفا» ج ٢ ص ٤٠١، و«نيل الأوطار» للشوكاني ج ٤ ص ٣٢٥-٣٢٦ .

(١٢)

عن علي أمير المؤمنين مرفوعاً وغير مرفوع: «من زار قبري بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي، ومن لم يزر قبري فقد جفاني» أخرجه:

١- أبو الحسين يحيى بن الحسن بن جعفر الحسني في كتابه «أخبار المدينة» .

٢- أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابوري الخركوشي (المتوفى سنة ٤٠٦ هـ)، في «شرف المصطفى» .

٣- الحافظ ابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) .

٤- الحافظ أبو عبدالله ابن النجار (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) في كتاب «الدرة الثمينة» .

٥- الحافظ عبد المؤمن الدمياطي (المتوفى سنة ٧٠٥ هـ) .

٦- تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦ هـ)، في «شفاء السقام» ص ٢٩ .

٧- الشيخ شعيب الحريفيش (المتوفى سنة ٨٠١ هـ)، في «الروض الفائق» ج ٢ ص ١٣٧ .

٨- السيد نور الدين السهودي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) في «وفاء الوفاء» ج ٢ ص ٤٠١.

٩- زين الدين عبد الرؤوف المناوي (المتوفى سنة ١٠٣١ هـ) في «كنوز الحقائق» ص ١٤١.

(١٣)

عن بكر بن عبدالله مرفوعاً: «من أتى المدينة زائراً لي وجبت له شفاعتي يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين بعث آمناً».

أخرجه أبو الحسين يحيى بن الحسن الحسني في كتابه «أخبار المدينة» كما في «شفاء السقام» للسبكي ص ٣٠، و«وفاء الوفاء» للسهودي، ج ٢ ص ٤٠٢.

(١٤)

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي» أخرجه:

١- الحافظ سعيد بن منصور النسائي أبو عثمان الخراساني (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ).

٢- الحافظ أبو القاسم الطبراني (المتوفى سنة ٣٦٠ هـ).

- ٣- الحافظ أبو أحمد ابن عدي (المتوفى سنة ٣٦٥ هـ).
- ٤- الحافظ أبو الشيخ الأنصاري (المتوفى سنة ٣٦٩ هـ).
- ٥- الحافظ أبو الحسن الدارقطني (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ).
- ٦- الحافظ أبو بكر البيهقي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ).
- ٧- القاضي عياض المالكي (المتوفى سنة ٥٤٤ هـ).
- ٨- قاضي القضاة الخفاجي الحنفي (المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ)، في شرح الشفاء ج ٣ ص ٥٦٥ نقله عن البيهقي، والدارقطني، والطبراني، وابن منصور.
- ٩- زين الدين عبد الرؤوف المناوي (المتوفى سنة ١٠٣١ هـ)، في «كنوز الحقائق» ص ١٤١ بلفظ: «من زار قبري بعد موتي».
- ١٠- العجلوني (المتوفى سنة ١١٦٢ هـ) في «كشف الخفاء» ج ٢ ص ٢٥١، نقلاً عن أبي الشيخ، والطبراني، وابن عدي، والبيهقي.

(١٥)

- عن ابن عباس مرفوعاً: «من حجَّ إلى مكة ثم قصدني في مسجدي كتبت له حجتان مبرورتان».
- أخرجه الفردوس في مسنده كما في «وفاء الوفا» ج ٢ ص ٤٠١ و«نيل الأوطار» ج ٤ ص ٣٢٦.

(١٦)

عن رجل من آل الخطاب مرفوعاً: «من زارني متعمداً كان في جوارى يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله في الأمنين (من الأمنين)». وزاد الشحامي عقب قوله «يوم القيامة»: «ومن سكن المدينة وصبر على بلائها كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة» روي بأسناده. فيه من الحفاظ :

- ١- الحافظ أبو جعفر العقيلي (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ).
- ٢- الحافظ أبو الحسن الدارقطني (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ).
- ٣- الحافظ أبو عبد الله الحاكم (المتوفى سنة ٤٠٥ هـ).
- ٤- الحافظ أبو بكر البيهقي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ)، في «شعب الإيمان».
- ٥- الحافظ ابن عساكر الدمشقي (المتوفى سنة ٥٧١ هـ).
- ٦- الحافظ أبو محمد عبد المؤمن الدمياطي (المتوفى سنة ٧٠٥ هـ)، وأخرجه من طريق هؤلاء الحفاظ .
- ٧- ولي الدين الخطيب العمري التبريزي (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ) في «مشكاة المصابيح» في باب حرم المدينة في الفصل الثالث .

٨- تقي الدين السبكي (المتوفى سنة ٧٥٦هـ)، في «شفاء السقام» ص ٢٤ وقال: مرسل جيد، ورواه عنه السيد نور الدين السمهودي في «وفاء الوفا» ج ٢ ص ٣٩٩.

(١٧)

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من زارني بالمدينة كنت له شهيداً وشفيعاً»، أخرجه الحافظ الدارقطني بأسناده في «السنن» كما في «وفاء الوفا» ج ٢ ص ٣٩٨.

(١٨)

روي عن رسول الله ﷺ، قال: «من وجد سعة ولم ينفد» ينفد» إلى فقد جفاني».

ذكره ابن فرحون في مناسكه، والغزالي في «الإحياء» ج ١ ص ٢٤٦، والقسطلاني في «المواهب اللدنية»، والعجلوني في «كشف الخفاء» ج ٢ ص ٢٧٨.

(١٩)

قال رسول الله ﷺ: «من زارني بعد وفاتي وسلم عليّ رددت عليه السلام عشرأ، وزاره عشرة من الملائكة، كلهم يسلمون عليه، ومن سلم عليّ في بيته رد الله تعالى عليّ روجي حتى أسلم عليه» .

ذكره الشيخ شعيب الحريفيش (المتوفى سنة ٨٠١ هـ) في «الروض الفائق» ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢٠)

عن أبي عبدالله محمد بن العلاء رحمه الله قال: دخلت المدينة وقد غلب عليّ الجوع، فزرت قبر النبي ﷺ وسلمت عليه وعلى الشيخين رضي الله عنهما وقلت: يا رسول الله جئت وبني من الفاقة والجوع ما لا يعلمه إلا الله عزوجل، وأنا ضيفك في هذه الليلة، ثم غلبني النوم فرأيت النبي ﷺ في المنام فأعطاني رغيفاً فأكلت نصفه ثم انتبهت من المنام وفي يدي نصفه الآخر، فتحقق عندي قول النبي ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بي». ثم نوديت: يا أبا عبدالله: «لا يزور قبري أحد إلا غفر له ونال شفاعتي غداً».

ذكره الشيخ شعيب الحريفيش في «الروض الفائق» ج ٢ ص ١٣٨

فقال في المعنى

من زار قبر محمد	نال الشفاعة في غد
بالله كرر ذكره	وحديثه يا منشي
واجعل صلاتك دائماً	جهرأعليه تهدي
فهو الرسول المصطفى	ذو الجود والكف الندي
وهو المشفع في الوري	من هول يوم الموعد
والحوض مخصوص به	في الحشر عذب المورد
صلى عليه ربنا	ما لاح نجم الفرقد

(٢١)

مرفوعاً عنه عليه السلام: «لا عذر لمن كان له سعة من أمتي ولم يزرني».

رواه الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده في «مجمع الأنهر» في شرح ملتقى الأبحر ص ١٥٧، وَعَدَّةٌ من أدلة الباب من دون غمز فيه.

(٢٢)

عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «من زار قبر رسول الله ﷺ كان في جواره» أخرجه ابن عساكر كما في «نيل الأوطار» للشوكاني ج ٤ ص ٣٢٦.



وبعد هذه النصوص المتضاربة لا حاجة إلى نقل كلمات أعلام المذاهب الإسلامية حول زيارة النبي الأقدس، وهي وافرة، وقد نقلنا شطراً منها عند البحث عن شدّ الرحال إلى زيارته، فمن أراد أن يقف على تلك النصوص فليرجع إلى الأثر القيم «الغدير» للعلامة الأميني^(١).

وأخيراً نذكر كلام محمد بن عبد الوهاب، مجدد مذهب ابن تيمية في المقام قال: «تسن زيارة النبي إلا أن لا تشد الرحال إلا إلى زيارة المسجد والصلاة فيه»^(٢).

انظر كيف يسير إثر أستاذه في المنهج حذو النعل بالنعل.

إلى هنا أتضح الحق بأجلى مظاهره، وبقي هنا أمر وهو دفع ما أثاره ابن تيمية من الشبهة في زيارة النبي الأكرم التي أشرنا إليها في صدر البحث وهي:

١- كون الزيارة على هذا الوجه المخصوص بدعة.

٢- كون الزيارة من تعظيم غير الله المفضي إلى الشرك .

أما الشبهة الأولى فهي باطلة من رأس، وذلك لأن البدعة هي إدخال ما ليس من الدين في الدين، فهل يمكن لأحد بعد هذه النصوص المتضافرة، التقول بأنه لم يرد في الدين شيء حول زيارة النبي ﷺ لم يأمر بها؟ كيف وقد أمر هو بزيارة القبور؟ فهل يتصور أنه لا يعادل زيارته زيارة قبر مسلم؟ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**، وقد أمر النبي بزيارة قبور المؤمنين .

وأما الشبهة الثانية فنقول: كيف تكون زيارة النبي مفضية إلى الشرك مع أن زيارة قبر نبي التوحيد، استشعار لحقيقته، وتقديس لمعناه؟ فإن التقديس الذي يتصل بالرسول إنما هو من فكرتهم وهدايتهم. فالتقديس لمحمد ﷺ تقديس للمعاني التي دعا إليها وحث عليها، فكيف يتصور من مؤمن عرف حقيقة الدعوة المحمدية أن يكون مضمراً لأي معنى من معاني الوثنية، وهو يستعبر ويستبصر ببصيرته عند الحضرة الشريفة والروضة المنيفة؟

فإذا كان خوف ابن تيمية من أن يؤدي ذلك إلى الوثنية بمضي الأعصار والدهور فإنه خوف من غير جهة، لأن الناس كانوا يزورون قبر الرسول إلى أول القرن الثامن، ثم باتوا إلى العصور من بعده إلى يومنا هذا، ومع ذلك لم ينظر أحد إليه نظر عبادة أو وثنية، ولو أفرط بعض العوام فذلك لا يمنع تلك الذكريات العطرة، بل يجب إرشادهم وتفهمهم لا منعهم من الزيارة ولا تكفيرهم .

قال الشيخ محمد زاهد الكوثري :

«إن سعي ابن تيمية في منع الناس من زيارته يدل على ضغينة كامنة فيه نحو الرسول ﷺ وكيف يتصور الإشراك بسبب الزيارة، والتوسل في المسلمين الذين يعتقدون في حقّه أنه عبده ورسوله، وينطقون بذلك في صلاتهم نحو عشرين مرة في كل يوم على أقل تقدير، إدامة لذكرى ذلك، ولم يزل أهل العلم ينهون العوام عن البدع في كل شؤونهم، ويرشدونهم إلى السنّة في الزيارة وغيرها إذا صدرت منهم بدعة في شيء، ولم يعدّوهم في يوم من الأيام مشركين بسبب الزيارة أو التوسل، وأول من رماهم بالإشراك بتلك الوسيلة هو ابن تيمية، وجرى خلقه من أراد استباحة أموال المسلمين ودماءهم لحاجة في النفس»^(١).

ثم إن آخر ما في كنانة ابن تيمية وأتباعه في عدّ الزيارة بدعة وتقسيمها إلى قسمين، ما رواه أحمد في مسنده، وهو أنّ النبي ﷺ قال: اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد.^(٢)

وسيوافيك الكلام في معنى الحديث عند البحث عن الاحتفال بميلاد النبي، ولا صلة لهذا الحديث بالزيارة، والزائر المسلم لا يعبد النبي ولا يعبد قبره، كما هو واضح، بل يعبد الله سبحانه، وإنما يزور قبر نبيه كما يزور قبور آبائه وأجداده من غير فرق، غير أنه يترتب على زيارة قبر نبي التوحيد ما لا يترتب على غيره .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾^(٣).

(٤)

ابن تيمية والبناء على القبور

إن ابن تيمية هو أول من أفتى بحرمة البناء على القبور، سواء أكان صاحب القبر صالحاً أم طالحاً، وإليك نصه:

قال: وقد اتفق أئمة الإسلام على:

١- أنه لا يشرع بناء هذه المشاهد التي على القبور .

٢- ولا يشرع اتخاذها مساجد .

٣- ولا تشرع الصلاة عندها .

٤- ولا يشرع قصدتها لأجل التعبد عندها بصلاة واعتكاف، أو استغانة وابتغال، ونحو ذلك، وكرهوا الصلاة عندها، ثم كثير منهم قال: الصلاة باطلة لأجل النهي عنها... إلى أن قال: وإنما دين الله تعالى تعظيم بيوت الله وحده، وهي المساجد التي تشرع فيها الصلاة جماعة وغير جماعة، والاعتكاف وسائر العبادات البدنية والقلبية من القراءة والذكر والدعاء له.. وذكر بعض الآيات الواردة في تعظيم المساجد، وعدّ منها قوله تعالى:

«فِي بَيْوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَتُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» رِبَّالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَلَبَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ»^(١).

وأما اتخاذ القبور أو ثائناً فهو من دين المشركين^(٢).

يقول تلميذه ابن القيم: يجب هدم المساجد التي بنيت على القبور، ولا يجوز إبقاؤها بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً.^(٣)

وعلى هذا الأصل لما استولى السعوديون على الحرمين الشريفين هدموا المراقد المقدسة في البقيع، وبيوت أهل البيت، بعدما رفعوا سؤالاً إلى علماء المدينة المنورة، وإليك السؤال والجواب:

السؤال: ما قول علماء المدينة المنورة - زادهم الله فهماً وعلماً - في البناء على القبور، واتخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟ وإذا كان غير جائز بل ممنوع منهي عنه نهياً شديداً، فهل يجب هدمها، ومنع الصلاة عندها أم لا؟

وإذا كان البناء في مسبلة كالبقيع، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليه، فهل هو غضب يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا؟

١. النور: ٣٦ - ٣٧. وقد أفتى في كلامه هذا بحرمة أمور أربعة، سنبحث عنها واحداً بعد واحد إلا

مسألة قصد المشاهد، لما استوفينا الكلام فيه عند البحث عن قصد السفر إلى زيارة النبي ﷺ.

٢. مجموعة الرسائل والمسائل: ٥٩ / ١ - ٦٠ طبع مصر، تحت إشراف السيد محمد رشيد رضا.

٣. زاد المعاد في هدى خير العباد، ابن القيم: ٦٦١.

الجواب: أمّا البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً، لصحة الأحاديث الواردة في منعه، ولذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه، مستندين بحديث عليّ (رضي الله عنه) أنه قال لأبي الهياج:

«ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله، أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»^(١).

والإمعان في الاستفتاء يعرب عن أنه لم تكن الغاية منه الوقوف على حكم الله، سواء أكان جائزاً أم حراماً، وإنما كانت الغاية هي أخذ الاعتراف منهم على الحظر، ولأجل ذلك أدرج المستفتي الجواب في السؤال وقال:

«بل هو ممنوع منهبي عنه نهياً شديداً» وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن المستفتي قام على رأس المفتين فأخذ منهم الجواب بالتحذير والتهديد.

ثم إنّ المستفتي أي الشيخ النجدي المعروف بسليمان بن بليهد، يقول في مقال نشرته جريدة «أم القرى» في عددها الصادر في شهر جمادى الآخرة من شهور سنة ١٢٤٥ هجرية:

«إنّ بناء القباب على مراقد العلماء صار متداولاً منذ القرن الخامس الهجري».

وهذا ما يكرره علماء الوهابية في دعاياتهم، ويضيفون إلى حديث

١. جريدة أم القرى، وقد نشرت نص الاستفتاء وجوابه في العدد الصادر بتاريخ ١٧ شوال سنة

«أبي الهياج» حديث «جابر» عن النبي ﷺ الذي سيوافيك بيانه ونقده سنداً وممتناً.

ولأجل إيضاح الحال، نحلل ما جاء في الجواب، من الاستدلال بالإجماع تارة، والحديث ثانياً، فنقول:

هل هناك إجماع على التحريم؟

إن للإجماع الوارد في كلامه احتمالات:

١- الإجماع التقديري، بحجة وجود الحديث الصحيح في الصحاح، بمعنى أنه لو وقف العلماء عليه لأفتوا بمضمونه كما أفتى به المجيب، ولا يخفى أنه غير مفيد، إذ هو فرع كون الحديث صحيحاً سنداً وكاملاً من حيث الدلالة على مقصوده عند غيرهم، وكلا الأمرين غير ثابت، بل ثبت خلافهما كما سيوافيك بيانه .

٢- الإجماع المحقق، وأن العلماء أفتوا في كتبهم بالتحريم حدوداً وبقاءً، وهذا خلاف نصوصهم؛ ونكتفي بالنص الوارد في الفقه على المذاهب الأربعة الذي اتفق عليه علماء أهل السنة في العصر الحاضر، حيث قالوا بكلمة واحدة:

«يكره أن يبني القبر ببيت أو قبة أو مدرسة أو مسجد»^(١) .

وهذا شارح صحيح مسلم يقول في شرح حديث أبي الهياج: أمّا البناء

فإن كان في ملك الباني فمكروه، وإن كان في مقبرة مسبلة فحرام، نص عليه الشافعي والأصحاب^(١).

وتحريم البناء - عندئذٍ - لأجل عنوان عرضي لا ذاتي، وهو المزاحمة لأهداف الواقف وأغراضه.

٣- سيرة المسلمين وعملهم منذ أن ارتحل النبي الأكرم ﷺ إلى يومنا هذا، سوى الوهابيين.

أما سيرة المسلمين فحدث عنها ولا حرج، فقد دفن النبي الأكرم ﷺ في بيته الرفيع، ولم يخطر ببال أحد من الصحابة الحضور أن البناء على القبر حرام، وأنه ﷺ نهى عنه نهياً شديداً، ولما كان البيت متعلقاً بزوجه (عائشة) جعلوا في وسطه ساتراً، ولما توفي الشيخان أوصيا بدفنهما في حجرة النبي ﷺ تبركاً بدياته ومكانه، ولم تسمع من أي ابن أنثى نعيرة أنه حرام ولا مكروه، وعلى ذلك استمرت سيرة المسلمين في حق الصلحاء والأولياء والعلماء، يدفنونهم في البيوت المعدة لذلك، أو يرفعون لمراقدهم قواعد وسقفاً بعد الدفن تكريماً لهم وتقديراً لتضحياتهم، ولم يخطر ببال أحد أنه على خلاف الدين والشرع.

وهذا عمل المسلمين وسيرتهم القطعية في جميع الأقطار والأمصار، ملء المسامع والأبصار على اختلاف نزعاتهم، من بدء الإسلام إلى هذا العصر من الشيعة والسنة، وأي بلاد من بلاد الإسلام من مصر أو العراق أو

١. صحيح مسلم بشرح النووي ج ٧ كتاب الجنائز طبع مصر.

الحجاز أو سوريا، وتونس ومراكش وإيران، وهلمّ جرأً ليس فيها قبور مشيدة، وضرائح منجدة وهؤلاء أئمة المذاهب: الشافعي في مصر، وأبو حنيفة في بغداد، ومالك بالمدينة، وتلك قبورهم من عصرهم إلى اليوم شاهقة القباب، شامخة المباني غير أن الوهابيين لما استولوا على المدينة هدموا قبر مالك. وهذه القبور قد شيدت وبنيت في الأزمنة التي كانت حافلة بالعلماء وأرباب الفتاوى، وزعماء المذهب، فما أنكر منهم ناكراً، وليس هذا رائجاً بين المسلمين فقط، بل جرى على هذا جميع عقلاء العالم، بل يعدّ تعمير قبور الشخصيات من غرائز البشر ومقتضيات الحضارة وشارة الرقي، فكلّ هذا دليل على الجواز لو لم نقل يفوق ذلك، ولو لم تكن تلك السيرة المسلّمة بين المسلمين والعقلاء عامة غير مفيدة في المقام، فلا يصحّ الاستناد إلى أية سيرة قاطعة بين المسلمين أو الناس .

وليس يصحّ في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

النتائج المحموده لحفظ الآثار الإسلامية

إنّ المحافظة على آثار الأنبياء وخاصة آثار النبي الأكرم ﷺ من قبره وقبور زوجاته وأولاده وأصحابه والشهداء الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل دينه، نتائج محموده لا تستغني عنها الأمة الإسلامية في وقت من الزمن، فإنّ الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع، وكتابه خاتم الكتب، ونبيه خاتم الأنبياء، فهي حجّة على الناس إلى قيام الساعة التي لا يحيط بوقتها إلا الله تعالى، قال سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لِوَفِّيَّهَا إِلَّا هُوَ﴾ (١).

فمن الممكن أن تمر على عمر الدنيا، وبالتالي على عمر الشريعة الإسلامية آلاف السنين، فالقضاء على آثار الشريعة ومعالم وجود نبيها يجعلها في معرض التشكيك والتردد، وأنه هل لما يدعيه المسلمون من الرجة الكبرى ببعث النبي ﷺ ومواقفه وقضاياه وتشريعاته مسحة حق؟ بل ربما تحولها بعد مدة إلى أسطورة تاريخية، حيث لا يجد الناس بعد حقب من الدهر آثاراً ملموسة من صاحب الشريعة، وليس هذا شيئاً غريباً، وهذه هي المسيحية قد مضى من عمرها عشرون قرناً، وقد تحول المسيح وأمه العذراء وكتابه الإنجيل وتلاميذه إلى أساطير تاريخية، وصار بعض المستشرقين يشككون مبدئياً في وجود رجل اسمه المسيح واسم أمه مريم وكتابه الإنجيل، وكادوا يعتبرونه أسطورة خيالية تشبه أسطورة (المجنون العامري وليلاه) وما هذا إلا لعدم وجود أثر ملموس منه، ولا من كتابه الواقعي وأصحابه وحوارييه .

وأما المسلمون فهم يواجهون العالم مرفوعي الرؤوس، ويقولون: يا أهل العالم قد بعث نبي في أرض الحجاز قبل ألف وأربعمائة سنة، وقد حقق نجاحاً في مهمته، وهذه آثار وجوده وحياته، فهذه هي الدار التي ولد فيها، وهذا هو غاز حراء، مهبط وحيه في بدء الأمر، وهذا هو البيت الذي دفن فيه، وهذه مدارس أولاده و...

فالإبقاء على الآثار الإسلامية وصيانتها من الزوال، صغيرة أو كبيرة،

دعم لاستمرار رسالة هذا الدين وبقائه على مدى العصور والأزمان، وتدميرها سبب رئيس لتعريفها للشك والإنكار، وإعانة على أهداف المخالفين .

وقد اهتمّ المسلمون اهتماماً كبيراً بشأن آثار النبي وسيرته وسلوكه، حتّى أنّهم سجلوا دقائق أموره وخصائص حياته و مميزات شخصيته إلى درجة أنّهم سجلوا حتّى ما يرتبط بخاتمه وحثائه، وسواكه وسيفه، ودرعه، ورمحه، وجواده وإبله وغلّامه، والآبار التي شرب منها الماء، والأراضي التي وقفها لوجه الله سبحانه، ومشيته، وأكله، وشربه، وما يرتبط بلحيته المقدّسة وخضابه لها وغير ذلك، ولا زالت آثار البعض باقية إلى يومنا هذا .

ولو كان ابن تيمية موجوداً في تلك الأعصار، وكان ينظر إلى الموضوع بالفكرة التي نشأ عليها، لرمى الصحابة الأجلاء والسلف الصالح بالشرك والوثنية، وزعم أنّهم اتخذوا نبهم وثناً يعبد، ولكن من حسن الحظ أنّه لم يكن موجوداً فيها، ولكن كتب السير حافلة بذكرها فليقض عليهم بالحق.

وما أشبه عمل من يدمر الآثار النبوية تحت واجهة قلع الشرك بعمل الصبيان النوكى الذين يتلاعبون بميراث آبائهم بالتمزيق والتدمير، أو البيع بضمن بخس .

ولأجل أن تعرف مدى شيوع هذه السيرة فارجع إلى ما يكتبه أحد الكتاب الوهابيين ويقول:

«وهذا أمر عمّ البلاد، وطبق الأرض شرقاً وغرباً، بحيث لا بلدة من بلاد الإسلام إلا فيها قبور ومشاهد، بل مساجد المسلمين غالباً لا تخلو من قبر ومشهد، ولا يسع عقل عاقل أن هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة ويسكت علماء الإسلام»^(١).

فلو كانت هذه سيرة المسلمين، فما معنى ادّعاء الإجماع على حرمة البناء ووجوب هدمه؟!

فلو كان الهدم واجباً فلماذا لم يأمر الخليفة عمر بهدم قبور الأنبياء عندما فتح المسلمون بيت المقدس؟.

فهل الخليفة تسامح في هذا الأمر الخطير، أم أنه وسائر الصحابة الحضور في الواقعة، وجدوه أمراً مطابقاً للفطرة والشريعة الإسلامية، فلأجل ذلك أبقوها على حالها، وقام المسلمون بصيانتها وحفظها طوال القرون؟

إلى هنا تبين أنه لا إجماع في المسألة، بل لم تكن المسألة خلافية إلى عصر ابن تيمية، وقد خالف هو وحده وتبعه تلميذه ابن القيم، وكانت الفتوى مدفونة في الكتب إلى أن أحيائها تلميذه في المنهج محمد بن عبد الوهاب، فنبش تلك الدفائن واستخرج هاتيك الكوامن والبذور المهلكة، فأثمرت قتل النفوس، وقطع الرؤوس كما سيوافيك تفصيل هذه الكوارث .

١ . تطهير الاعتقاد : ١٧ طبع مصر . ثم إنه حاول أن يجيب عن هذا الأمر بما الإعراض عن ذكره أحسن .

حديث أبي الهياج

وقد استند ابن تيمية وأتباعه في ادعاء الحرمة لحديث أبي الهياج، ونحن نذكر متن الحديث بالسند الذي رواه مسلم في صحيحه.

«حدثنا يحيى بن يحيى، وأبو بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب، قال يحيى: أخبرنا وقال الآخران: حدثنا وكيع عن سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي وائل عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله، أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته.^(١)»

مناقشة الحديث سنداً ودلالة

زعم المستدل أن معناه: ولا قبراً عالياً إلا سويته بالأرض.

والاستدلال به باطل، لأنه ضعيف السند، قاصر الدلالة.

وأما السند فيكفي أن علماء الرجال ضعفوا هؤلاء الأربعة الواقعيين في

السند:

١- وكيع.

٢- سفيان الثوري.

١. صحيح مسلم: ٦١/٣، كتاب الجنائز؛ السنن للترمذي: ٢٥٦/٢، باب ما جاء في تسوية القبور؛

السنن للنسائي: ٤/٨٨، باب تسوية القبر.

٣- حبيب بن أبي ثابت .

٤- أبو وائل الأسدي .

ويكفي في ضعف الحديث أنه رواه أبو الهياج وليس له في الصحاح
والمسانيد حديث غير هذا، فكيف يستدل بسند يشتمل على المدلسين
والمضعفين والذين لا يحتاج بحديثهم، كما ذكره ابن حجر في ترجمة
هؤلاء الأربعة؟

وإليك نقل أقوال العلماء في حقهم:

١- وكيع: هو وكيع بن الجراح بن مليح، الرواسي، الكوفي، روى عن
عدة منهم سفيان الثوري، وروى عنه جماعة منهم يحيى بن يحيى، وهو مع
ما مدحوه نقلوا فيه أيضاً قدحاً كثيراً، قال ابن حجر في تهذيب التهذيب:

قال عبدالله بن أحمد عن أبيه (أحمد بن حنبل) قال: سمعت أبي
يقول: كان وكيع أحفظ من عبدالرحمن بن مهدي كثيراً كثيراً، وقال في
موضع آخر: ابن مهدي أكثر تصحيفاً من وكيع: ووكيع أكثر خطأ منه .

وقال في موضع آخر: أخطأ وكيع في خمسمائة حديث .

وقال ابن عماد: قلت لو كيع: عدوا عليك بالبصرة أربعة أحاديث
غلطت فيها، فقال: حدثتهم بعبادان بنحو من ألف وخمسمائة، وأربعة ليس
بكثير في ألف وخمسمائة.

وقال علي بن المديني: كان وكيع يلحن، ولو حدث بألفاظه لكان
عجباً.

وقال محمد بن نصر المروزي: كان يحدث بآخره من حفظه، فيغير

ألفاظ الحديث كأنه كان يحدث بالمعنى، ولم يكن من أهل اللسان.^(١)

وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» بعدما مدحه:

قال ابن المديني: كان وكيع يلحن، ولو حدث بألفاظه كان عجباً.^(٢)



٢- سفيان الثوري: وهو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أكثروا المدح في حقه، وقال الذهبي: مع أنه كان يدلس عن الضعفاء، ولكن كان له نقد وذوق، ولا عبرة بقول من قال: يدلس ويكتب عن الكذابين.^(٣)
وقال ابن حجر: قال ابن المبارك: حدث سفيان بحديث فجته وهو يدلس، فلما رأني استحيا، وقال: نرويه عنك؟^(٤).

وقال في ترجمة يحيى بن سعيد بن فروخ قال: أبو بكر، وسمعت يحيى يقول: جهد الثوري أن يدلس علي رجلاً ضعيفاً فما أمكنه.^(٥)
والتدليس هو أن يروي عن رجل لم يلقه، وبينه وبينه واسطة فلا يذكر الواسطة.

وقال أيضاً في ترجمة سفيان: قال ابن المديني عن يحيى بن سعيد: لم يلق سفيان أبا بكر بن حفص، ولا حيان بن أياس، ولم يسمع من سعيد

١. تهذيب التهذيب: ١١ / ١٢٣، ١٣٦.

٢. ميزان الاعتدال: ٤ / ٣٣٦.

٣. ميزان الاعتدال: ٢ / ١٦٩ برقم ٣٣٢٢.

٤. تهذيب التهذيب: ٤ / ١١٥ في ترجمة سفيان.

٥. تهذيب التهذيب: ١١ / ٢١٨.

بن أبي بردة، وقال البغوي: لم يسمع من يزيد الرقاشي. وقال أحمد: لم يسمع من سلمة بن كهيل حديث المسائية، يضع ماله حيث يشاء ولم يسمع من خالد بن سلمة بنتاً، ولا من ابن عون إلا حديثاً واحداً.^(١)

وهذا تصريح من ابن حجر بكون الرجل مدلساً، وعندئذ يكون فاقداً لمملكة العدالة، لأنه كان يصور غير الواقع واقعاً.

وقال الإمام الذهبي: قال صاحب الحلية: أخبرنا أبو أحمد الغطريفي، أخبرنا محمد بن أحمد بن مكرم، أخبرنا علي بن عبد الحميد، أخبرنا موسى بن مسعود، أخبرنا سفيان، دخلت على جعفر بن محمد وعليه جبة خز وكساء خز دخاني، فقلت: يا بن رسول الله ﷺ ليس هذا من لباس آبائك قال: كانوا على قدر اقتار الزمان، وهذا زمان قد اسبل عزاليه ثم حسر عن جبة صوف تحته، وقال: لبسنا يا ثوري هذا لله وهذا لكم، فما كان لله أخفيناه وما كان لكم أبديناه.^(٢)

إن هذا الإعراض يدل على عدم فهمه للأمر، وعدم معرفته بها.



٣- حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار: تابعي، وثقه بعض، ولكن قال ابن حبان في «الثقات»: كان مدلساً، وقال العقيلي: غمزه ابن عون، وقال القطان: له غير حديث عن عطاء لا يتابع عليه، وليست محفوظة.

وقال ابن خزيمة في صحيحة: كان مدلساً.

١. تهذيب التهذيب: ٤ / ١١٥. والمسائية: العبد المعتنق.

٢. تذكرة الحفاظ: ١ / ١٦٧.

وقال المعقلي: وله عن عطاء أحاديث لا يتابع.^(١)

وقال ابن حجر أيضاً في «تقريب التهذيب»:

حبيب بن أبي ثابت: قيس، ويقال: هند بن دينار الأسدي، مولا هم أبو يحيى الكوفي، ثقة فقيه جليل، وكان كثير الإرسال والتدليس، من الثالثة، مات سنة تسع عشرة ومائة.^(٢)

ونقل ابن حجر عن كتاب «الموضوعات» لابن الجوزي من نسخة بخط المنذري أنه نقل فيه حديثاً عن أبي كعب في قول جبرئيل: لو جلست معك مثل ما جلس نوح في قومه ما بلغت فضائل عمر، وقال، ولم يعله ابن الجوزي إلا بعبد الله بن عامر الأسلمي شيخ حبيب بن أبي ثابت.^(٣)



٤- أبو وائل الأسدي: وهو شقيق بن سلمة الكوفي، كان منحرفاً عن علي بن أبي طالب، قال ابن حجر: قيل لأبي وائل: أيهما أحب إليك: علي أم عثمان؟ قال: كان علي أحب إلي ثم صار عثمان.^(٤)

ولفظه «أحب» هناك ليست صيغة التفضيل، بل المراد أنه كنت علوياً ثم صرت عثمانياً، وكان الحزبان يومذاك يبغض أحدهما الآخر.

ويشهد لذلك ما ذكره ابن أبي الحديد حيث قال: ومنهم أبو وائل

١. تهذيب التهذيب: ١٧٩/٢.

٢. تقريب التهذيب: ١٤٨/١ تحت رقم ١٠٦.

٣. لسان الميزان: ١٦٨/٢ في ترجمة حبيب بن ثابت.

٤. تهذيب التهذيب: ٣٦٢/٤.

شقيق بن سلمة، كان عثمانياً يقع في عليّ عليه السلام ويقال إنه كان يرى رأي الخوارج، ولم يختلف في أنه خرج معهم، وأنه عاد إلى عليّ عليه السلام منياً مقلعاً. روى خلف بن خليفة، قال: قال أبو وائل: خرجنا أربعة آلاف فخرج إلينا عليّ فما زال يكلمنا حتى رجع منا ألفان.

وروى صاحب كتاب «الغارات» عن عثمان بن أبي شيبة، عن الفضل بن دكين، عن سفیان الثوري قال: سمعت أبا وائل يقول: شهدت صفين وبس الصفوف كانتا.

قال وقد روى أبو بكر بن عاصم بن أبي النجود قال: كان أبو وائل عثمانياً.^(١)

ويكفي أنه كان من ولاية عبيد الله بن زياد لعنه الله .

قال ابن أبي الحديد: وقال أبو وائل: استعملني ابن زياد على بيت المال بالكوفة.^(٢)

هذا كله حول سند الرواية، وقد عرفت أن سندها يشتمل على ضعاف، وعلى فرض ورود المدح في حقهم فو معارض بما عرفت من الجرح، وعند التعارض يقدم الجرح على المادح فيسقط الحديث عن الاعتبار، و يرجع إلى أدلة أخرى، وسيوافيك أن الأصل في المقام الجواز، كما سيأتي ذلك في آخر البحث .

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٩٩ / ٤ .

٢. شرح نهج البلاغة : ٢٢٣ / ١٢ .

الحديث دلالة

وأما ضعفه دلالةً فأليك البيان .

إنَّ تبين ضعف دلالة الحديث يتوقف على توضيح معنى اللفظين
الواردين في الحديث المذكور:

١- «قبراً مشرفاً».

٢- «إلا سؤيته» .

أما الأول فقد قال صاحب القاموس: والشرف محرّكة: العلو. ومن
البعير سنامه، وعلى ذلك فيحتمل أن يراد منه مطلق العلو، أو العلو الخاص
كسنام البعير، ولا يتعيّن ذلك إلا بالقرينة .

أما الثاني، أعني قوله: «سؤيته» فهو يستعمل على وجهين:

أ - يطلق ويراد منه مساواة شيء بشيء، فيتعدى إلى المفعول الثاني
بحرف التعدية كالباء قال سبحانه «إِذْ نَسُوْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ»^(١) .

أي نعدّ الألهة المكذوبة متساوين مع رب العالمين، فنضيف إليكم ما
نضيف إلى رب العالمين.

وقال سبحانه حاكياً عن حال الكافرين يوم القيامة «يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثاً»^(٢) .

أي يودون أن يكونوا تراباً أو ميتاً مدفوناً تحت الأرض .

ب - يطلق ويراد منه ما هو وصف لنفس الشيء، لا بملاحظة شيء آخر، فيكتفي بمفعول واحد، قال سبحانه: «الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى»^(١)، وقال سبحانه: «بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسْوِي بَنَانَهُ»^(٢)، وقال سبحانه: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ»^(٣). في هذه الموارد وقعت التسوية وصفاً لنفس الشيء بلا إضافة إلى غيره. ويراد منه حسب اختلاف الموارد تارة كمال الخلقة واستقامتها في مقابل نقصها واعوجاجها، وهذا هو المقصود في الآيات الكريمة، وأخرى تسطيعه مقابل اعوجاجه، وبسطه مقابل كونه كالسنام .

إذا عرفت ذلك فلنعد إلى الحديث ولنطبق الضابطة عليه، فبما أنه استعمل مع مفعول واحد فلا يراد منه المعنى الأول، أي مساواته بالأرض، وإلا كان عليه أن يقول «سويته بالأرض» بل يراد منه ما هو وصف لنفس القبر والمعنى المناسب هو تسطيع القبر في مقابل تسويمه، وبسطه في مقابل اعوجاجه، وهذا هو الذي فهمه شراح الحديث، وبما أن السنة هي التسطيع، والتسويم بدعة، أمر علي عليه السلام بأن تكافح هذه البدعة، ويسطح كل قبر مسنم . ويؤيد ما ذكرناه أن المحققين من أهل السنة لم يفهموا من الحديث إلا ما ذكرناه، وإليك نقل كلماتهم :

١- قال القرطبي في تفسير الحديث: «قال علماؤنا: ظاهر حديث أبي

الهياج منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون واطئة»^(١).

إن دلالة الحديث على منع تسنيم القبور ظاهرة، وأما دلالتها على عدم ارتفاعها فغير ظاهر، بل مردود باتفاق أئمة الفقه على استحباب رفعها قدر شبر.^(٢)

٢- قال ابن حجر العسقلاني في شرحه على البخاري ما هذا نصه:

مسئماً بضم الميم وتشديد النون المفتوحة أي: مرتفعاً. زاد أبو نعيم في مستخرجه: وقبر أبوبكر وعمر كذلك، واستدل به على أن المستحب تسنيم القبور، وهو قول أبي حنيفة ومالك وأحمد والمزني وكثير من الشافعية .

وقال أكثر الشافعية ونص عليه الشافعي: التسطیح أفضل من التسنيم، لأنه ﷺ سطح قبر إبراهيم، وفعله حجة لا فعل غيره، وقول السفیان التمار «رأى قبر النبي مسئماً في زمان معاوية» لا حجة فيه، كما قال البيهقي، لاحتمال أن قبره ﷺ وقبري صاحبيه لم تكن في الأزمنة الماضية مسئمة - إلى أن قال -: ولا يخالف ذلك قول عليّ ؑ: أمرني رسول الله أن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته، لأنه لم يرد تسويته بالأرض، وإنما أراد تسطيحه جمعاً بين الأخبار، ونقله في المجموع عن الأصحاب.^(٣)

٣- وقال النووي في شرح صحيح مسلم: إن السنة أن القبر لا يرفع

١. تفسير القرطبي: ٢ / ٣٨٠ تفسير سورة الكهف .

٢. الفقه على المذاهب الأربعة: ١ / ٤٢٧ .

٣. إرشاد الساري: ٢ / ٤٦٨ .

عن الأرض رفعاً كثيراً، ولا يستم بل يرفع نحو شبر، وهذا مذهب الشافعي ومن وافقه، ونقل القاضي عياض عن أكثر العلماء أن الأفضل عندهم تسنيهما، وهو مذهب مالك. (١)

ويؤيد ذلك أن صاحب الصحيح (مسلماً) عنون الباب بـ (باب تسوية القبور) ثم روى بسنده إلى تمامه قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضال بن عبيد بقبره فسوي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها، ثم أورد بعده في نفس الباب حديث أبي الهياج المتقدم. (٢)

وفي الختام نذكر أموراً:

١- القول بوجوب مساواة القبر بالأرض مخالف لما اتفقت عليه كلمات فقهاء المذاهب الأربعة، وكلهم متفقون على أنه يندب ارتفاع التراب فوق الأرض بقدر شبر. (٣) ولو أخذنا بالتفسير الذي يرومه الوهابي من حديث أبي الهياج من مساواة القبر بالأرض يجب أن يكون القبر لا طناً مساوياً معه .

٢- لما عجز الوهابيون في مقابل سيرة المسلمين، حيث دفنوا النبي في بيته فصار القبر عليه بناء، عمد بعضهم إلى التفريق بين الأمرين فقال: الحرام هو البناء على القبر لا الدفن تحت البناء، وقد دفنوا النبي تحت البناء

١. صحيح مسلم بشرح النووي: ٣٦/٧ الطبعة الثالثة - دار إحياء التراث العربي .

٢. المصدر السابق .

٣. الفقه على المذاهب الأربعة: ٤٢/١ .

ولم يبنوا على قبره شيئاً^(١) ولكنه تفريق بلا وجه، لأن حديث أبي الهياج مطلق يعم الصورتين .

٣- حديث أبي الهياج - على فرض صحة سنده ودلالته - يهدف إلى تخريب القبر ومساواته بالأرض، لا هدم البناء الواقع عليه، فالاستدلال به على الثاني استدلال عجيب.



ب - حديث جابر وتحليله سنداً ومتناً

إن الوهابيين يستدلون بحديث جابر على حرمة البناء على القبور، وقد ورد بنصوص مختلفة، ونحن نذكر نصاً واحداً منها:

روى مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حفص ابن غياث، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه.^(٢)

والاستدلال بحديث جابر غير صحيح سنداً ومتناً .

أما الأول فلأن جميع أسانيده مشتملة على رجلين هما في غاية

الضعف :

١. رياض الجنة، بقلم مقبل بن الهادي طبع الكويت .

٢. لاحظ للوقوف على متون الحديث المختلفة وأسانيده: صحيح مسلم: ٦٢/٣، كتاب الجنائز؛ والسنن للترمذي: ٢٠٨/٢، طبع المكتبة السلفية، وصحيح ابن ماجه: ٤٧٣/١، كتاب الجنائز؛ وصحيح النسائي: ٨٧/٤-٨٨؛ وسنن أبي داود: ٢١٦/٣، باب البناء على القبر؛ ومسند أحمد: ٣/٢٩٥ و٣٣٢ ورواه أيضاً مراسلاً عن جابر ص ٣٩٩ .

١- ابن جريج: وهو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج .

٢- أبو الزبير. وهو محمد بن مسلم الأسدي .

أما الأول فإليك كلمات أئمة الرجال في حقّه:

سئل يحيى بن سعيد عن حديث ابن جريج قال: فقال: ضعيف، فقيل له إنه يقول: أخبرني قال: لا شيء.. كله ضعيف.

وقال أحمد بن حنبل: إذا قال ابن جريج: قال فلان وقال فلان جاء

بمناكير.

وقال مالك بن أنس: كان ابن جريج حاطب ليل .

وقال الدارقطني: يجنب تدليس ابن جريج فإنه قبيح التدليس، لا

يدلس إلا في ما سمعه من مجروح .

وقال ابن حبان: كان ابن جريج يدلس في الحديث. ^(١)

وأما الثاني: فإليك أقوال علماء الرجال فيه:

فعن إمام الحنابلة عن أيوب إنه كان يعتبر أبا الزبير ضعيف الرواية .

وعن شعبة: لم يكن في الدنيا أحب إليّ من رجل يقدم فأسأله عن أبي

الزبير، فقدمت مكة فسمعت منه فيينا أنا جالس عنده، إذ جاءه رجل فسأله

عن مسألة فردّ عليه، فافتري عليه فقلت: يا أبا الزبير تفتري على رجل

مسلم؟ قال: إنه أغضبني!! قلت: ومن يغضبك تفتري عليه؟! لا رويت عنك

شيئاً.

١ . تهذيب التهذيب: ٦ / ٢ - ٤ و ص ٥ - ٦ طبع دار المعارف العثمانية. ولاحظ ما ذكرناه في الجزء

وعن ورقاء قال: قلت لشعبة: مالك تركت حديث أبي الزبير؟ قال: رأيت يزن ويسترجع في الميزان .

وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن أبي الزبير، فقال: يكتب ولا يحتج به. قال: وسألت أبا زرعة عن أبي الزبير فقال: يروي عنه الناس قلت: يحتج بحديثه؟ قال: إنما يحتج بحديث الثقات. (١)

بالله عليك أيصح الاستدلال بهذا الحديث؟ فهل يصح هدم آثار النبوة والرسالة والصحابة بهذه الرواية؟ .

على أن بعض الأسانيد مشتمل على عبد الرحمن بن أسود المتهم بالكذب والوضع .

هذا كله ما يتعلق بالسند، وأما المتن ففيه ملاحظتان:

الأولى: إن الحديث روي بصورٍ سبع، مع أن النبي نطق بصورة واحدة، ولو رجعت إلى متونه المبعثرة في المصادر التي أوعزنا إليها ترى فيها الاضطراب العجيب، واليك صورها:

١- نهى رسول الله عن تجصيص القبر والاعتماد عليه .

٢- نهى رسول الله ﷺ عن الكتابة على القبر .

٣- نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، والكتابة والبناء عليه،

والمشي عليه .

٤- نهى رسول الله ﷺ عن الجلوس على القبر، وتجصيصه، والبناء

والكتابة عليه .

٥- نهى رسول الله ﷺ عن الجلوس على القبر، وتجسيصه والبناء عليه .

٦- نهى رسول الله ﷺ عن الجلوس على القبر وتجسيصه والبناء عليه، والزيارة عليه، والكتابة عليه.^(١)

مضافاً إلى اختلافات أخرى في أداء مقصود واحد، فيعبر عنه تارة بالاعتماد، وأخرى بالوطء، وثالثة بالقعود.

ومن المعلوم إن الاعتماد غير الوطء، وهما غير القعود، فمع هذا الاضطراب والاختلاف في المضمون لا يمكن لأي فقيه أن يعتمد عليه؟.

الثانية: إن الحديث على فرض صحته لا يثبت سوى ورود النهي من النبي ولكن النهي منه تحريمي ومنه تنزيهي، وبعبارة أخرى: نهى تحريم، ونهى كراهة، وقد استعمل النهي في كلمات الرسول في القسم الثاني كثيراً ولأجل ذلك حمله الفقهاء على الكراهة، فترى الترمذي يذكر هذا الحديث في صحيحه تحت عنوان كراهية تجسيص القبور، والسندي شارح صحيح ابن ماجه ينقل عن الحاكم النيسابوري أنه لم يعمل بهذا النهي (بالمضمون التحريمي) أحد من المسلمين، بدليل أن سيرة المسلمين قائمة على الكتابة على القبور .

وأما الكراهة فربما تكون مرتفعة بالنسبة إلى المصالح العظيمة

١ . لاحظ في الوقوف على المتن المختلف للحديث مضافاً إلى المصادر التي أوعزنا إليها، كتابنا (الوهابية في الميزان) : ٥٩ - ٦٧ .

المرتبة عليه، كما إذا صار البناء على القبر سبباً لحفظ الآثار الإسلامية، وإظهار المودة لصاحب القبر الذي فرض الله مودته على الناس^(١)، أو يكون لاستغلال الزائر وتمكّنه من تلاوة القرآن وإهداء ثوابه إلى صاحب القبر، إلى غير ذلك من الأمور التي يتمكّن الإنسان منها تحت الظل لا تحت الشمس ولا في برد الليل، فالنهي التنزيهي أشبه بالمقتضيات التي ترتفع بأقوى منها.

أحاديث ثلاثة في الميزان

فقد ورد في ذلك المجال أحاديث أخر نذكرها بسندها ومنها:

روى ابن ماجه في صحيحه ما يلي:

١- حدّثنا محمد بن يحيى، حدّثنا محمد بن عبد الله الرقاشي، حدّثنا

وهب، حدّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن القاسم بن مخيمرة، عن أبي سعيد أنّ النبي نهى أن يبني على القبر.^(٢)

ويذكر ابن حنبل حديثاً آخر بسندين هما:

٢- حدّثنا حسن، حدّثنا بريد بن أبي حبيب، عن ناعم مولى أم سلمة

عن أم سلمة قالت: نهى رسول الله ﷺ أن يبني على القبر أو يجصص.

٣- علي بن إسحاق، حدّثنا عبد الله بن لهيعة، حدّثني بريد بن أبي

١. قال سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى: ٢٣).

٢. صحيح ابن ماجه: ١/ ٤٧٤.

حبيب، عن ناعم مولى أم سلمة: أن النبي نهى أن يجصص قبر أو يبني عليه أو يجلس.^(١)

فسند الحديث الأول يشتمل على (وهب) وهو مرّد بين سبعة عشر رجلاً، وفيهم الوضّاعون والكذّابون.^(٢)

والحديث الثاني والثالث لا يحتجّ بهما لاشتغال سندهما على (عبدالله بن لهيعة) الذي يقول فيه ابن معين:

ضعيف لا يحتج به، ونقل الحميدي عن يحيى بن سعيد أنه كان لا يراه شيئاً.^(٣)

هذه حال الأحاديث التي صارت ذريعة بيد الوهابيين لتدمير الآثار الإسلامية منذ أن استولوا على الحرمين الشريفين، حيث لا تمر سنة إلا ويدمر أثر من الآثار الإسلامية بحجة توسيع الحرم الشريف، حتى المكتبات وبيوتات بني هاشم ومدارسهم، وبيت مضيف النبي أبي أيوب الأنصاري، وفي الوقت نفسه يعكفون على حفظ آثار اليهود في خيبر وغيرهم باسم الحفاظ على الآثار التاريخية.

ثم إن القاضي ابن بليهد قد أعوزته الحجّة فتمسك بكون البقيع مسبلة موقوفة، وأن البناء على القبور مانع عن الانتفاع بأرضها. سبحان الله ما أتقنه من برهان؟ من أين علم أن البقيع كانت أرضاً حية وقفها صاحبها على دفن الأموات؟

١. مسند أحمد: ٢٩٩/٦.

٢. ميزان الاعتدال: ٣٥٠-٣٥٥.

٣. ميزان الاعتدال: ٤٧٦/٢، وتهذيب التهذيب: ٤٤٤/١.

ومن أراد أن يقف على حال البقيع، وأنه لم يكن فيها يوم أعدت للتدفين أي أثر من الحياة، فليرجع إلى كتاب (وفاء الوفا).

آخر ما في كنانة المستدل

ذكر البخاري في صحيحه في باب كراهة اتخاذ المساجد على القبور الخبر التالي:

لما مات الحسن بن الحسن بن علي ضربت امرأته القبة على قبره سنة، ثم رفعت، فسمعوا صائحاً يقول:

ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يشسوا فانقلبوا.^(١)

إن هذا الخبر لو صح فهو على نقيض المطلوب أدل، فهو يدل على جواز نصب المظلة على القبر، ولو كان ذلك حراماً لما صدر من امرأة الحسن بن الحسن، لأنه كان بمرأى وسمع من التابعين وفقهاء المدينة، ولعلها نصبت تلك القبة لأجل تلاوة القرآن في جوار زوجها وإهداء ثوابها إلى روحه.

وأما قول الصائغ فهو قول غير صالح، كما أن الجواب أيضاً مثله، لأنه بصدد الشماتة على امرأة افتقدت زوجها وهي مستحقة للتعزية والتسلية لا الشماتة، لأنها ليست من أخلاق المسلمين، ولم تكن المرأة تأمل عودة

١. صحيح البخاري: ١١١/٢، كتاب الجنائز؛ السنن للنسائي: ١٧١/٢، كتاب الجنائز.

زوجها إلى الحياة حتى يقال إنها يست، بل كان نصبها للمظلة للغايات الدينية والأخلاقية .

تري هؤلاء الأغبياء يدمرون آثار الرسالة وهم يتمسكون في ذلك بركام من الأوهام، ويسخرون من الذين أظهروا حباً لأهل بيت رسول الله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وفرض مودتهم وولاءهم وقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١) .



إلى هنا تبين أنه ليس للقوم دليل، بل ولا شبهه على حرمة البناء على القبور، وأنهم لم يدرسوا صحاحهم ومسانيدهم حسبما درس السلف الصالح. والآن هلمّ معي أتلو عليك أدلة القائلين بالجواز، سواء أكان صاحب القبر رجلاً عادياً أم كان عظيماً من عظماء الدين، وإليك بيانها:

عرض المسألة على الأدلة المحكمة

إذا وقفت على ضعف ما استدلل به القوم على تحريم البناء على القبور، وسقوطه عن الاعتبار، فيجب عرض المسألة على الأدلة المحكمة التي لا يصح لأحد النقاش في اعتبارها وحقبتها .

فإذا دلت تلك الأدلة على الجواز، فلا محيص من طرح هذه الأحاديث الضعاف، أو حملها على الكراهة، أو غير ذلك. وإليك بيان تلك الأدلة:

١- الكتاب العزيز والبناء على القبور

يظهر من الكتاب العزيز أن البناء على القبور، بل بناء المسجد عليها كان جائزاً في الشرائع السابقة، وأن الناس عندما وقفوا على قبور أصحاب الكهف، اختلفوا على قولين: فمن قائل: «ابْتَنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا»^(١).

ومن قائل آخر: «لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا»^(٢).

والاستدلال بالآية واضح لمن يرى القرآن قدوة وأسوة.

فإن القرآن ينقل كلا القولين، من دون أن يتقدمهما أو يعترض عليهما ويردع عنهما بل الظاهر أنه ينقلهما بصورة التحسين، وأن أصحاب الكهف بلغ بهم ثباتهم في طريق العقيدة إلى حد لما عثر عليهم الناس اجتمعوا على تكريمهم واحترامهم، بل التبرك بهم، فمن قائل بلزوم البناء عليهم. وآخر باتخاذ مراقدهم مسجداً، وليس القرآن كتاب قصة وأسطورة، وإنما هو كتاب إرشاد وقدوة وإمام. فلو كانوا في عملهم هذا ضالين لعلق على قولهم بشيء أو عابه، كما هو الحال عندما ينقل عن المشركين، والكافرين، عملاً، أو رأياً.

قال سبحانه حاكياً كيفية غرق فرعون: «حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ يَتُوبُ إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(٣).

٢. الكهف: ٢٦.

١. الكهف: ٢٦.

٣. سورة يونس: الآية ٩٠.

ولأجل إيقاف المؤمنين على أن الإيمان في هذا الظرف غير مفيد، عَقِبَ عليه بقوله: «الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ»^(١).

فلأجل ذلك يكون القرآن قدوة في كل ما ينقله من أعمال الماضين، إلا إذا عَقِبَ عليه بالرد، أو دَلَّتْ القرائن على كونه عملاً غير مقبول.

٢- السيرة المستمرة بين المسلمين

لم يزل الإلهيون من أهل الكتاب والمسلمين في قاطبة الأعصار يهتمون بمقابر الأنبياء والأولياء بالبناء والتعمير، ثم التطهير والتنظيف، حتى نرى أن كثيراً من المتمكنين يخصصون أموالهم ويوقفونها في هذا المجال. فهذه القباب الشاهقة، والمنائر الرفيعة، والساحات الوسيعة حول مراقد الأنبياء والأولياء، في مختلف البلاد شرقها وغربها، وهذا دليل قاطع على أن هذه السيرة كانت مرضية عند صاحب الشريعة وخلفائه وأصحابه، ولأن كان عليهم رفضها وردّها بالبنان والبيان، والسلطة والقوة، فالسكوت في بعض الفترات ودعمها في بعض الأحيان أدل دليل على كونها سيرة مرضية.

نعم، إذا كان اتخذ المقابر مساجد على النحو الراجح عند اليهود والنصارى فهو محرّم، وقد نصّ الرسول على تحريمه، كما تأتي الروايات مع توضيحها، وهو مسألة أخرى غير مجرد البناء على القبور الذي هو مسألتنا.

هذا هو السلف الصالح قد وقفوا - بعد ما فتحوا الشام - على قبور الأنبياء ذوات البناء الشامخ... فتركوها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب بأن البناء على القبور أمر محرّم يجب أن تهدم، وهكذا الحال في سائر القبور المشيدة عليها الأبنية في أطراف العالم، وإن كنت في ريب فاقراً تواريخهم، وإليك نص ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية:

إنّ المسلمين عند فتحهم فلسطين وجدوا جماعة من قبيلة «لخم» النصرانية يقومون على حرم إبراهيم بـ «حبرون» ولعلمهم استغلّوا ذلك ففرضوا أتاوة على حجاج هذا الحرم.. وربما يكون توصيف تميم الداري نسبة إلى الدار، أي: الحرم، وربما كان دخول هؤلاء اللخمين للإسلام، لأنّه قد مكّنتهم من القيام على حرم إبراهيم الذي قدّسه المسلمون تقديس اليهود والنصارى من قبلهم.^(١)

وجاء أيضاً في دائرة المعارف الإسلامية في مادة «الخليل»: ويقول المقدسي، وهو أول من أسهب في وصف الخليل: إنّ قبر إبراهيم كانت تعلوه قبة بنيت في العهد الإسلامي، ويقول مجير الدين: إنها شيدت في عهد الأمويين، وكان قبر إسحاق مغطى بعضه، وقبر يعقوب قبالة، وكان المقدسي أول من ذكر تلك الهبات الثمينة التي قدّمها الأمراء الورعون من أقاصي البلاد إلى هذا الضريح، وذلك الاستقبال الكريم الذي يلقاه الحجاج من جانب التميميين^(٢).

١. دائرة المعارف الإسلامية: ٥ / ٤٨٤ مادة تميم الداري .

٢. دائرة المعارف الإسلامية: ٨ / ٤٢٠ مادة خليل .

ولو قام باحث بوصف الأبنية الشاهقة التي كانت مشيدة على قبور الأنبياء والصالحين قبل ظهور الإسلام، وما بناه المسلمون في عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يومنا هذا في مختلف البلدان، لجاء بكتاب فخم ضخم، يعرب عن أُنَّ السَّنَةِ السنية الرائجة في تلك الأعصار قبل الإسلام وبعده، من عصر الرسول والصحابة والتابعين لهم إلى يومنا هذا، هي مشروعية البناء على القبور، والعناية بحفظ آثار رجال الدين، ولم ينس أيُّ ابنٍ أثنى حول ذلك بينت شفة، وما اعترض عليها، بل تلقوها إظهاراً للمحبة والود لأصحاب الرسالات والنبوات وأصحاب العلم والفضل، ومن خالف تلك السنة وعدّها شركاً أو أمراً محرماً فقد أتبع غير سبيل المؤمنين قال سبحانه:

﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

وقد وارى المسلمون جسد النبي الأكرم ﷺ في بيته المسقف، ولم يزل المسلمون مذ أن وري جثمانه، على العناية بحجرته الشريفة بشتى الأساليب، وقد بنى عمر بن الخطاب حول حجرته جداراً، وقد جاء تفصيل كل ذلك مع ذكر وصف الأبنية التي توالى عليها عبر القرون في الكتب المتعلقة بتاريخ المدينة، لا سيما «وفاء الوفا» للعلامة السهمودي (المتوفى عام ٩١١ هـ).^(٢) والبناء الأخير الذي شيّد عام (١٢٧٠ هـ) قائم لم يمسه سوء،

١. النساء: ١١٥.

٢. وفاء الوفا: ٤٥٨/٢، الفصل التاسع.

وسوف يبقى بفضل الله تبارك وتعالى محفوظاً عن الاجترار .

وأما المشاهد والقباب المبنية في المدينة في العصور الأولى فحدث عنها ولا حرج، ولا سيما في بقيع الغرقد، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب التاريخ وأخبار المدينة .

هذا هو المسعودي (المتوفى عام ٣٤٥ هـ) يقول: «وعلى قبورهم في هذا الموضع من البقيع رخامة مكتوب عليها: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله مبيد الأمم ومحبي الرمم، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين بن أبي طالب، ومحمد بن علي و جعفر بن محمد»^(١).

وذكر السبط ابن الجوزي (المتوفى عام ٦٥٤ هـ) في «تذكرة الخواص» (ص ٣١١) نظير ذلك، وهذا هو محمد بن أبي بكر التلمساني يصف المدينة الطيبة وبقيع الغرقد في القرن الرابع بقوله: «وقبر الحسن بن علي عن يمينك إذا خرجت من الدرب ترتفع إليه قليلاً، عليه مكتوب: هذا قبر الحسن بن علي، دفن إلى جنب أمه فاطمة رضي الله عنها وعنه»^(٢).

ويقول الحافظ محمد بن محمود بن النجار (المتوفى عام ٦٤٣ هـ) في «أخبار مدينة الرسول ﷺ»: ... في قبة كبيرة عالية قديمة البناء في أول البقيع، وعليها بابان يفتح أحدهما في كل يوم للزيارة، رضي الله عنهم^(٣).

١. مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٢٨٨ / ٢ .

٢. مجلة العرب رقم ٥ - ٦ المؤرخ ١٣٩٣ .

٣. أخبار مدينة الرسول اهتم بنشره صالح محمد جمال - طبع مكة المكرمة ١٣٦٦ هـ .

يقول ابن جبير ذلك السائح الطائر الصيت (المتوفى عام ٦١٤ هـ) في رحلته في وصف بقية الفرقد: مقابل قبر مالك، قبر السلالة الطاهرة إبراهيم ابن النبي عليه قبة بيضاء وعلى اليمين منها تربة ابن عمر بن الخطاب ... وبإزائه قبر عقيل ابن أبي طالب (رضي الله عنه)، وعبدالله بن جعفر الطيار (رضي الله عنه)، وبإزائهم روضة فيها أزواج النبي ﷺ وبإزائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي ﷺ، ويلها روضة العباس بن عبدالمطلب والحسن بن علي (رضي الله عنه)، وهي قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقية المذكور، وعن يمين الخارج من رأس الحسن إلى رجلي العباس (رضي الله عنهما)، وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع إصاق، مرصعة بصفائح الصفر، ومكوكبة بمسامير على أبدع صفة وأجمل منظر، وعلى هذا الشكل قبة إبراهيم ابن النبي ﷺ، ويولي هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت الرسول ﷺ، ويعرف ببيت الحزن... وفي آخر البقية قبر عثمان الشهيد المظلوم ذي النورين، وعليه قبة صغيرة مختصرة، وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أم علي (رضي الله عنها) وعن بنيتها.^(١)

روى البلاذري أنه لما ماتت زينب بنت جحش سنة عشرين صلى عليها «عمر» وكان دفنها في يوم صائف، ضرب «عمر» على قبرها فسقاطاً^(٢) ولم يكن الهدف من ضربه تسهيل الأمر لمن يتعاطى دفنها، بل

١. رحلة ابن جبير، بيروت دار صادر. وقد زار المدينة المنورة عام ٥٧٨ هـ.

٢. أنساب الأشراف: ٤٣٦/١.

لأجل تسهيله لأهلها حتى يتفياؤا بظله ويقرأوا ما تيسر من القرآن والدعاء، فلاحظ .

حصيلة البحث

إن سيرة المسلمين من عصر الصحابة إلى التابعين إلى تابعي التابعين، إلى عصرنا هذا أقوى حجة على الحكم الشرعي - فإن اتفاق العلماء في عصر و «إجماعهم على حكم» حجة شرعية عليه، فكيف اتفاقهم عليه طيلة قرون، ولا سيما الصحابة العدول .

فالصحابه واروا جسد النبي الأكرم ﷺ في بيته، ولم يخطر ببال أحد أن البناء على القبور محرم، ولا أظن أن جاهلاً متنسكاً يفرق بين البناء المتقدم على الدفن والمتأخر عنه، فضلاً عن عالم، فإن كون قبر الميت تحت بناء تكريم له وتعظيم، والقوم يتلقونه شركاً لأنه تعظيم لغير الله، فلا يفرق بين البناء على القبور أو دفن الميت تحت بناء .

وليس هذا شيء ينكره أحد من المسلمين .

والعجب أن الوهابيين لما واجهوا هذه السيرة المستمرة عمدوا إلى تفسير هذه السيرة بأن النبي إنما دفن في بيته، لأجل حديث رواه أبو بكر، قال ابن كثير: إن أصحاب النبي ﷺ لم يدروا أين يقبرون رسول الله ﷺ حتى قال أبو بكر: سمعت النبي ﷺ يقول: لم يقبر نبي إلا حيث يموت. (١)

ثم أضاف المؤلف: فعلمنا من هذه الأحاديث أن النبي ﷺ دفن في بيته كما أمر بذلك، فعلى هذا فلا حجة فيه للقبوريين في البناء على القبور، إذ لم يبن على قبره، وإنما دفن في بيته.^(١)

ولا يخفى وجود التهافت في عبارته، فصدرها يدل على أن دفن النبي في بيته كان بأمره ﷺ، ولو لم يكن أمره لما دفنوه فيه، لأن الدفن في البناء حرام، وذيل العبارة يدل على التفريق بين الدفن تحت البناء القائم والبناء على القبر.

فلو أراد الوجه الأول كما هو ظاهره حيث استقصى مصادر الحديث المذكور قرابة ست صفحات، فهو مردود بدفن الشيخين في البيت، مع أنه لم يرد في حقهما ما ورد في حق النبي.

ولو أراد الثاني فهو تفريق لا يجنح إليه ذو مسكة، بعد وحدة الملاك والاشترك في المفسدة المزعومة.

وبعد دلالة الذكر الحكيم والسيرة على الجواز، لا مناص عن طرح هذه الروايات أو تأويلها.

٣- البناء تعظيم لشعائر الله

إن تعظيم قبور الأنبياء والأولياء وتنظيفها وحفظها عن تطرق الفساد والانهدام مظهر لتعظيم شعائر الله قال سبحانه:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(١).

والاستدلال بالأية يتوقف على ثبوت صغرى وكبرى:

الصغرى عبارة عن كون الأنبياء وأوصيائهم ومن يرتبط بهم أحياء وأمواتاً من شعائر الله...

والكبرى عبارة عن كون البناء والتنظيف وصيانة المقابر تعظيم لشعائر الله.

ولا أظن أن الكبرى تحتاج إلى مزيد بيان، إنما المهم بيان الصغرى، وأن الأنبياء والأوصياء من شعائر الله، وبيان ذلك يحتاج إلى نقل ما ورد حول شعائر الله من الآيات:

١- ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(٢).

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامِ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أُمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾^(٣).

٣- ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾^(٤).

٤- وفي رواية أخرى جعل مكان شعائر الله حرماً لله وقال:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحْلَتْ لَكُمْ

الأنعامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ...»^(١).

ما هو المقصود من (شعائر الله) ؟

هنا احتمالات:

١- تعظيم آيات وجوده سبحانه .

٢- معالم عبادته وأعلام طاعته .

٣- معالم دينه وشريعته وكل ما يمت إليهما بصلة .

أما الأول فلم يقل به أحد، إذ كل ما في الكون آيات وجوده، ولا يصح تعظيم كل موجود بحجة أنه دليل على الصانع .

وأما الثاني فهو داخل في الآية قطعاً، وقد عدّ الصفا والمروة والبدن من شعائر الله، فهي من معالم عبادته وأعلام طاعته، إنما الكلام في اختصاص الآية بمعالم العبادة وأعلام طاعته، الظاهر المتبادر هو الثالث، أي معالم دينه سبحانه، سواء أكانت أعلاماً لعبادته وطاعته أم لا، فالأنبياء والأوصياء والشهداء والصحف والقرآن الكريم والأحاديث النبوية كلها من شعائر دين الله وأعلام شريعته، فمن عظمها فقد عظم شعائر الدين .

قال القرطبي: فشعائر الله: أعلام دينه، لا سيما ما يتعلق بالمناسك^(٢) ولقد أحسن حيث عمّم أولاً، ثم ذكر مورد الآية ثانياً، ومما يعرب عن ذلك أن إيجاب التعظيم تعلق بـ(حرمات الله) في آية أخرى .

١. الحج: ٣٠.

٢. تفسير القرطبي: ٥٦/١٢.

قال سبحانه: «وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ»،
والحرمات ما لا يحل انتهاكها، فأحكامه سبحانه حرمات الله، إذ لا يحل
انتهاكها، وأعلام طاعته وعبادته وحرمات الله، إذ يحرم هتكها وأنبيأؤه
وأوصيائهم وشهداء دينه وكتبه وصحفه من حرمات الله، يحرم هتكهم،
فلو عظمهم المؤمن أحياء وأمواتاً فقد عمل بالآيتين: «وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ
اللَّهِ» «وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ».

٤- الإذن في ترفيع بيوت خاصة

لقد أذن الله تعالى في ترفيع البيوت التي يذكر فيها اسمه فقال: «فِي
بُيُوتِ أُولَئِكَ لَنْ تُرْفَعُوا وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ *
رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(١)، وقد عرفت أن ابن تيمية
جعل الآية دليلاً على تكريم المساجد، ولكنه غفل عن أن البيوت غير
المساجد، فهناك بيت وهناك مسجد، والبيت هو البناء الذي يتشكّل من
جدران أربعة وعليها سقف قائم، ولأجل ذلك يقال للكعبة بيت الله،
وللساحة المحيطة به (المسجد الحرام) وأيضاً يستحب أن تكون المساجد
غير مسقّفة، وترى المسجد الحرام مكشوفاً تحت السماء من دون سقف
يظله، دون البيت فالسقف من مقوماته .

قال سبحانه: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ
بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ»^(٢) .

فالبيوت غير المساجد، ولو تنزلنا فهي أعمّ منها تشمل المسجد وغيره. هذا كله حول البيوت، وأمّا الرفع الوارد في الآية الكريمة فسواء أفسّر بالرفع الحسي بإرساء القواعد وإقامة الجدران كما في قوله سبحانه: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ»^(١)، أمّ فسّر بالرفع المعنوي كما هو الحال في قوله سبحانه: «وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا»^(٢). أي منحناه مكانة عالية. فلو فسّر بالرفع الحسي يكون دليلاً على جواز تشييد بيوت الأنبياء والأولياء، وتعميرها في حياتهم وبعد وفاتهم حسب إطلاق الآية، وقد كان بيوت كثير من الأئمة الصالحين هي مقابرهم، فتشييد هذه البيوت عمل جائز بنص الآية، وأمّا لو فسّر بالرفع المعنوي، وأنّ من وظائف المسلمين تكريم هذه البيوت كما هو المتبادر، فتعمير بيوتهم من مظاهر ذلك التعظيم المعنوي، كما أنّ تدميرها وجعلها معرضة لما لا يناسب ساحتهم، تجاهل لهذه الآية وتولّ عنها.

ومن لطيف ما روي في المقام ما رواه الحافظ السيوطي عن أنس بن مالك، وبريدة، أنّ رسول الله ﷺ قرأ قوله: «في بيوت أذن الله أن ترفع» فقام إليه رجل وقال: أي بيوت يا رسول الله؟ فقال: «بيوت الأنبياء»، فقام إليه أبو بكر وقال: يا رسول الله وهذا البيت منها؟ - مشيراً إلى بيت علي وفاطمة - فقال النبي ﷺ: «نعم من أفضلها»^(٣).

١. البقرة: ١٢٧.

٢. مريم: ٥٧.

٣. الدر المنثور: ٥٠/٥.

فهذه الآية وحدها كافية في جواز تعظيم بيوت الأنبياء والأوصياء وأهل بيت النبي مطلقاً، ومقابرهم ومراقدهم إذا كانت بيوتهم .

٥- إظهار المودة للنبي والقريبى

إن القرآن الكريم يأمرنا - بكل صراحة - بحب النبي وأقربائه عليهم السلام، ومودتهم ومحبتهم فيقول:

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(١) .

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٢) .

ومن الواضح لدى كل من يخاطبه الله بهذه الآية أن البناء على مراقد النبي وأهل بيته عليهم السلام، وهو نوع من إظهار الحب والمودة لهم، وبذلك يخرج عن كونه بدعة لوجود أصل له في الكتاب والسنة، ولو بصورة كلية .

وهذه العادة متبعة عند كافة الشعوب، والأمم في العالم، فالجميع يعتبرون ذلك نوعاً من المودة لصاحب ذلك القبر، ولذلك تراهم يدفنون كبار الشخصيات السياسية والعلمية في كنائس ومقابر مشهورة، ويزرعون أنواع الأزهار والأشجار حولها .

إلى هنا تمّ الكلام حول جواز البناء على القبور مطلقاً، وقبور الأنبياء

١. المائدة: ٥٦ .

٢. الشورى: ٢٣ .

والأوصياء والصالحين خاصة، على وجه لم يبق لمتدبر فيه شك، ولا لمكابرة إنكار، إلا من أعمى الله بصره وبصيرته .

هذه هي الآيات الواضحة الدلالة على جواز البناء، وهذه هي سيرة المسلمين المشرقة طوال القرون .

فلو فرضنا تعارض الأدلة من الجانبين، فالأصل هو الإباحة كما سيوافيك .

٦- الأصل هو الإباحة

إنَّ القائل بالحرمة يجب أن يستدل عليها، والقائل بالإباحة يكفيه الأصل (عدم الحرمة إلا ما قام الدليل على تحريمه) وقد عرفت أنه ليس هناك شبه دليل على الحرمة، والآيات أدل دليل على أنه سبحانه لا يعذب أمةً إلا بعد إرسال الرسل وبعثهم، وهو كناية عن وصول البيان والتشريع إلى الناس، فلو لم يصل - وإن بلغه الرسول - لا يكون منجزاً في حق العبد. قال سبحانه:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١) .

وظاهر الآيات يعطي أن وظيفة التشريع تبين المحرمات لا المباحات. قال سبحانه:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾^(٢) .

وقال: «قُلْ لَا أُجِدُّ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ..»^(١).

فإذا كان صعيد التشريع فارغاً عما يدل على التحريم فهو حجة على

كون الشيء مباحاً محلاً.

واليك البحث عن بناء المساجد على قبور الصالحين، وهو الموضوع

الخامس فيما طرحه ابن تيمية .

(٥)

ابن تيمية وبناء المساجد على القبور

قال ابن تيمية: «ولا يشرع اتّخاذها - أي القبور - مساجد»^(١).

وقال أيضاً: «لا يجوز بناء المسجد على القبور».

وقد استدّل الوهابيون على ما يتبنّونه بالحديث التالي المروي

بعبارات مختلفة:

١- «قاتل الله اليهود اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

٢- «لعن الله اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

٣- «ألا ومن كان قبلكم كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم وصالحهم

مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك».

٤- «أخرجوا أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا

أن شرار الناس الذين اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

٥- «لعن الله اليهود اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢).

١. مضى مصدرها.

٢. راجع للموقوف على مصادر هذه الأحاديث صحيح البخاري كتاب الجنائز ج ٢ ص ١١١، السنن

إن الوهابيين استغلوا هذا الحديث وخرجوا بهذه النتيجة بأن مفادها:

أ - حرمة بناء المساجد على القبور .

ب - وحرمة قصد الصلاة فيها .

حتى قال ابن تيمية: إن المسجد والقبر لا يجتمعان^(١) .

وهذا هو الكلام الذي يجتره ويكرّره كل من جاء بعده، فنظروا إلى

الروايات بعقيدة مسبقة، وتركوا إجماع الأمة ودلالة الكتاب على الجواز كما

بيّناه، فنقول: إن لهذه الروايات احتمالات:

١- الصلاة على القبور بالسجود عليها تعظيماً .

٢- الصلاة باتجاه القبور واتخاذها قبلة .

٣- بناء المساجد على القبور وقصد الصلاة فيها تبركاً بالمقبور .

٤- إقامة الصلاة عند مراقد الأنبياء ومقابرهم فقط .

فهل للحديث إطلاق يعم هذه الصورة والمحتملات كما ادّعاها

الألباني تبعاً لشيخه ابن تيمية، وزعم أن هذا الحديث من جوامع كلمه عليه السلام .

أو أن الحديث ينصرف - بشهادة القرائن المتصلة والمنفصلة - إلى

بعض الصور مما يلزم كون العمل شركاً، والمصلّي مشركاً وخارجاً عن

^١ للنسائي ج ٢ كتاب الجنائز ص ٨٧١ صحيح مسلم ج ٢ ص ٥٦٨ كتاب المساجد وغيرها. وقد

جمع مصادر الحديث وصوره المختلفة محمد ناصر الدين الألباني في كتابه تحذير الساجد: ١١

- ٢٨، فذكر للحديث ١٤ صورة؛ كما جمعها أبو عبدالرحمن مقل بن هادي الوادعي في كتاب

رياض الجنة: ٢٧٨ - ٢٨١ .

١ . مجموعة الرسائل والمسائل: ٥٩ / ١ - ٦٠؛ زاد المعاد: ٦٦١ .

الحدود التي حددها الكتاب والسنة، كما هو الحق بشهادة القرائن العشر
التالية؟ وإليك البيان:

١- إن الحديث يركّز على عمل اليهود والنصارى، وأنهم اتخذوا قبور

أنبيائهم مساجد، وينهى المسلمين عن متابعتهم في ذلك .

وبما أن أهل الكتاب معروفون بالشرك وعبادة غير الله طيلة الأجيال
والقرون، فالمسيحية تعبد المسيح وأمه، كما أن كثيراً منهم اتخذوا الأجار
والرهبان أرباباً من دون الله، يحرمون ما أحل الله ويحللون ما حرم الله .

اليهود هم الذين طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم إلهاً كما أن لغيرهم
آلهة، وهم الذين عبدوا العجل، بل عبدوا بعد رحلة الكليم أرباباً وآلهة، فهم
كأنهم مفطورون على الوثنية وعبادة البشر. فعند ذلك ينصرف الحديث إلى
عمل يلحق المسلم بهم، ولا يمكن أن يدعى أن الحديث يعم ما إذا كان
عمل اتخاذ القبور مساجد مجرداً عن أيّ شرك، أو إذا كانت إقامة الصلاة
عند قبورهم من باب التبرّك بهم .

٢- نرى أن رسول الله ﷺ يصف هؤلاء الجماعة بكونهم شرار

الناس. فقد روى مسلم في كتاب المساجد أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا
كنيسة رأتها في الجبشة فيها تصاوير، فقال رسول الله ﷺ: إن أولئك إذا
كان فيهم الرجل الصالح فمات بني على قبره مسجد، وصوّر فيه تلك
الصور، أولئك شرار الخلق عند الله. ^(١)

إن توصيفهم بأنهم شرار الخلق عند الله، يميّط الستر عن حقيقة

عملهم، إذ لا يوصف الإنسان بالشر المطلق، إلا إذا كان مشركاً. قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

كل ذلك يكشف عن مرمى الحديث، وأن عملهم لم يكن عملاً مجرداً مثل صرف بناء المسجد على القبر والصلاة فيه، أو إقامة الصلاة عند القبور، بل كان عملاً مقترناً بالشرك بألوانه وصوره المختلفة، كاتخاذ القبر إلهاً ومعبوداً أو قبلة عند الصلاة، أو السجدة عليها بمعنى اتخاذها مسجوداً.

٣- إن الروايات الناهية الواردة في المقام على قسمين:

قسم يشتمل على اللعن، وهذا مختص باتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

وقسم آخر مشتمل على مجرد النهي من دون اقتران باللعن، وقد ورد ذلك في مطلق القبور.

١- عن أبي مرصد الغنوي قال: قال رسول الله: لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها.^(٣)

٢- عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام.^(٤) وغير ذلك.

١. الأنفال: ٢٢.

٢. الأنفال: ٥٥.

٣. صحيح مسلم: ٣٨/٧.

٤. سنن أبي داود: ١٨٤/١.

٣- عن عبد الله بن عمر: نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة في المقبرة. (١)

فعندئذٍ يجب التأمل في هذا التفريق، لماذا اقترن الأول (اتخاذ قبور الأنبياء مساجد) باللعن دون الآخر، وإنما ورد فيه مجرد النهي، (المحمول على الكراهة مطلقاً، أو في ما إذا كان القبر بحيال المصلّي، أو كانت الصلاة بين القبرين) وما هذا إلا لأنّ القسم الأول ناظر إلى عمل اليهود والنصارى في مورد قبور أنبيائهم.

وبما أنّه كان مقترناً بالشرك بالسجود لها تعظيماً لهم، أو باتخاذها قبلة، استحقوا اللعن، وعرفوا بأنهم شرار الناس، ونهى المسلمون عن اتباعهم.

وأما القسم الآخر فلم يكن مقترناً بذلك أبداً، فجاء فيه النهي مجرداً عن اللعن.

وبهذا لا يمكن القول بإطلاق الحديث وعموميته لكل الأحوال.

٤- إنّ السيدة عائشة، قالت: قال رسول الله: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». قالت: فلولا ذلك لأبرز قبره، غير أنّه خشي أن يتخذ مسجداً. (٢)

إنّ المسلمين بعدما دفنوا النبي في بيته سوروه بحائط مستدير، لا مربع، لثلاً يشابه الكعبة.

١. موارد الضمان: ٣٧/٢.

٢. صحيح البخاري: ١٥٩/٣؛ صحيح مسلم: ٧٦/٢.

ومن المعلوم أن التسوير بالجدران وعدم إبراز قبره إنما يمنع عن اتخاذ مسجوداً له أو قبلة، وأما الصلاة في جنبه فلم يكن الجدار مانعاً عن إقامة الصلاة .

ومراد السيدة عائشة: إن عدم إبراز القبر وستره بالحيطان منع المسلمين عن أن يرتكبوا ما كان اليهود والنصارى يرتكبونه .

ومن المعلوم أن الجدران منعت عن الصور الشركية كصورة اتخاذ مسجوداً له أو قبلة، لا إقامة الصلاة المجردة من هذه الضمانم .

وهذا دليل واضح على أن الحديث كان بصدد نهي المسلمين عن اتخاذ القبر مسجوداً له أو قبلة .

والعجب من الشيخ الألباني حيث أراد استغلال الحديث لتأييد مذهبه، وموقفه، وفسر قولها: «فلولا ذاك لأبرز قبره» بأن المقصود هو الدفن خارج بيته، مع أن العبارة لا تتحمل هذا، لأنها تركز على القبر الموجود، فيكون المقصود: ولولا ذاك لكشف قبره ولم يتخذ عليه حائط .

٥- قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: اللهم لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .

إن العلاقة بين الجملتين تكشف عن أن المقصود هو: اتخاذ قبور الأنبياء مساجد على نحو يعود القبر وثناً يعبد، أو يصلى إليه .

وأما الصلاة لله تبارك وتعالى وإلى الكعبة عند القبر تبركاً به فلا تجعل القبر وثناً يعبد، وهذا هو قول الله تعالى وهو يأمر الحجيج باتخاذ مقام

إبراهيم مصلى، ويقول: «وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»^(١)، وليست الصلاة عند القبر إلا كمثل الصلاة عند مقام إبراهيم .

غير أن جسد النبي إبراهيم قد لامس هذا المكان مرة أو مرات عديدة، ولكن مقابر الأنبياء احتضنت أجسادهم التي لا تبلى دائماً.

٦- إن علماء الحديث وجهاذته فهموا من هذه الأحاديث نفس ما قلناه، وإن لم يذكر الألباني وغيره شيئاً من هذه التفاسير .

أ - يقول العسقلاني: إنما صوّروا أوائلهم الصور ليستأنسوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها... إلى أن يقول: قال البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها، واتخذوها أوثاناً، لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك. فأما من اتخذ مسجداً في جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه، لا للتعظيم ولا لتوجه نحوه، فلا يدخل في الوعيد المذكور.^(٢)

ب - ويقول النووي في شرح صحيح مسلم: قال العلماء إنما نهى النبي عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً خوفاً من المبالغة في تعظيمه والإفتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر، كما جرى لكثير من الأمم الخالية. ولما

١. البقرة: ١٢٥.

٢. فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١/ ٥٢٥، وقريب منه ما في إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري: ٢/ ٤٣٧، باب بناء المساجد على القبور.

احتاجت الصحابة والتابعون إلى زيادة في مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون، وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة، مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه، بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد فيصلي إليه العوام ويعود المحذور. ولهذا قالت عائشة في الحديث عنه: ولو لا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً.^(١)

ج - وقال السندي شارح الصحيح للنسائي: اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، أي قبله للصلاة ويصلون إليها، أو بنوا مساجد يصلون فيها، ولعل وجه الكراهة أنه قد يقضي إلى عبادة نفس القبر.

إلى أن يقول: يحذر النبي أمته أن يصنعوا بقبره ما صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم من اتخاذ تلك القبور مساجد، إما بالسجود إليها تعظيماً لها، أو بجعلها قبله يتوجهون في الصلاة إليها.^(٢)

د - وقال شارح آخر: إن حديث عائشة يرتبط بالمسجد النبوي قبل الزيادة فيه... أما بعد الزيادة وإدخال حجرتها فيه فقد بنوا الحجرة بشكل مثلث كي لا يتمكن أحد من الصلاة على القبر، إن اليهود والنصارى كانوا يعبدون أنبياءهم بجوار قبورهم أو يجعلونهم شركاء في العبادة.^(٣)

هـ - قال الشيخ علي القاري: سبب لعنهم إما لأنهم كانوا يسجدون لقبور

١. صحيح مسلم بشرح النووي: ١٣/٥ - ١٤.

٢. السنن للنسائي: ٤١/٢.

٣. شرح صحيح مسلم: ٦٦/٢.

أنبيائهم تعظيماً لهم، وذلك هو الشرك الجلي، وإما لأنهم كانوا يتخذون الصلاة لله تعالى في مدافن الأنبياء، والسجود على مقابرهم، والتوجه إلى قبورهم حال الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله، والمبالغة في تعظيم الأنبياء، وذلك هو الشرك الخفي. فهى النبي أمته عن ذلك إماماً لمشابهة ذلك الفعل سنة اليهود، أو لتضمنه الشرك الخفي. كذا قال بعض الشراح من أئمتنا ويؤيده ما جاء في رواية. يحذر مثل الذي منعوا.^(١)

و- إن المروي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام هو ما فهمه أولئك الشراح .

١- روى الصدوق مرسلًا قال: وقال النبي: «لا تتخذوا قبوري قبلة ولا مسجداً، فإن الله لعن اليهود حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».^(٢) والمراد من قوله «مسجداً» بقرينة «قبلة» هو السجود عليه تعظيماً.

روى الشيخ الطوسي بأسناده عن معمر بن خلاد، عن الرضا عليه السلام قال: «لا بأس بالصلاة بين المقابر ما لم يتخذ القبر قبلة».^(٣)

٣- روى الصدوق في «علل الشرائع» بإسناده إلى زيارة عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام قال: قلت له: الصلاة بين القبور، قال: «بين خللها، ولا تتخذ شيئاً منها قبلة، فإن رسول الله نهى عن ذلك وقال: لا تتخذوا قبوري قبلة ولا مسجداً، فإن الله عز وجل لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».^(٤)

ولو كان المراد هو اتخاذ القبر قبلة حقيقة، بأن يصلى عليه من كل

١. مرقاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح : ٤٥٦/١ .

٢. الوسائل: ج ٢، الباب ٦٥ من أبواب الدفن. الحديث ٢ .

٣. الوسائل: ج ٣، الباب ٢٥ من أبواب مكان المصلي، الحديث ٣؛ والباب ٢٦ الحديث ٣ .

٤. نفس المصدر .

جانب كالكعبة، يكون حراماً لكونه بدعة، ولو كان المراد كون القبر أمامه وحيال وجهه، فيحمل على الكراهة لجريان سيرة المسلمين على الصلاة في الصفة في مسجد النبي، والقبر بحيال المصلي .

٧- روى المفسرون في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ إِلَهُتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يَفُوتَ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا﴾^(١) .

عن ابن عباس: هؤلاء كانوا قومًا صالحين في قومهم، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم .

قال القرطبي: روى الأئمة عن أبي مرصد الغنوي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا إليها (لفظ مسلم) أي لا تتخذوها قبلة، فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى.^(٢)

٨- روى مسلم في صحيحه عن النبي الأكرم أنه قال حينما قالت أم حبيبة وأم سلمة بأنهما رأتا تصاوير في إحدى كنائس الحبشة: إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة.^(٣)

إن الهدف من وضع صور الصالحين بجوار قبورهم إنما لغاية اتخاذها قبلة أو عبادة ذويها، كالصنم المنصوب، ومعه لا يمكن أن يستدل به على تحريم مطلق اتخاذ القبور، مساجد .

٢. تفسير القرطبي: ١٠ / ٣٨٠.

١. نوح: ٢٣.

٣. صحيح مسلم: ٦٦ / ٢. كتاب المساجد .

٩- إن أقصى ما يدلّ عليه الحديث لو قلنا بإطلاقه هو أن يتخذ مدفن الأنبياء مساجد، وأمّا بناء مسجد في جنب مدافنهم بحيث يكون المسجد وراء المدفن كما هو الحال في المشاهد المشرفة لأئمة الشيعة فلا يعمه النهي أبداً .

١٠- وعلى فرض وجود الإطلاق فإذا دار الأمر بين الأخذ بالكتاب^(١) والسنة الرائجة بين المسلمين من عهد التابعين إلى يومنا هذا، حيث يصلون في مسجد النبي وقبره في وسطه، وبين إطلاق هذه الرواية فالأول هو المتعين .

إذا تبين عدم صلاحية الحديث للاستدلال على التحريم، فيجب علينا عرض المسألة على سائر الأدلة، وإليك البيان.

عرض المسألة على القرآن الكريم

كان الواجب على الوهابيين الذين يدمرون الآثار الإسلامية بهذه الأحاديث عرض المسألة على القرآن الكريم الذي هو تبيان لكل شيء .

قال سبحانه:

﴿وَتَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢) .

والقرآن صادق مصدق لا يكذب - يذكر سبحانه - في قصة أصحاب

١ . سيوافيك بيان دلالة الكتاب على الجواز .

٢ . النحل: ٨٩ .

الكهف أن القوم لما عثروا على أجسادهم الطرية في الغار اختلفوا على قولين: تذكرهما الآية التالية :

﴿وَكَذَلِكَ أَحْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَهُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا﴾^(١).

فالأية صريحة في أن القوم بعد ما عثروا عليهم اختلفوا في كيفية تكريمهم وتعظيمهم على قولين:

١- البناء على قبورهم «ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا».

٢- بناء المسجد على قبورهم «لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا».

وكلتا الطائفتين يريدان التعظيم والتكريم على اختلاف منهجهم، والمعروف بين المفسرين أن القائلين بالقول الأول كانوا هم المشركون، وأن القائلين بالقول الثاني هم الموحدون والمسلمون، وسواء أثبت ذلك أم لا فإن العاثرين عليهم اختلفوا في كيفية تكريمهم وتعظيمهم، وعلى كل تقدير فالآية حجة على جواز بناء المسجد على القبور أولاً، وعلى جواز بناء المسلمين عليها ثانياً، وذلك لأن القرآن يذكر القولين من دون رد وطعن، ولو كان كل من القولين - وخصوصاً القول الثاني - على خلاف الهداية وفي جانب الضلالة، لأشار إلى رده وطعنه، وليس القرآن كتاب قصة وإنما هو كتاب هداية، فلو كان يذكر شيئاً من الأمم السالفة، فإنما هو للعبارة والاعتبار،

ولأجل ذلك كثيراً ما يردّ عليهم بعد نقل كلامهم، فسكوت القرآن تجاه هذين القولين ونقلهما عن القوم بصورة كونه عملاً مستحسناً، أقوى دليل على جواز العمل المذكور في الأمة المحمدية .

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾:

«إنّ المبعوث دخل المدينة فجعل يمشي بين سوقها فيسمع أناساً كثيراً يحلفون باسم عيسى بن مريم، فزاده فرقاً، ورأى أنّه حيران، فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدران المدينة ويقول في نفسه: أمّا عشية أمس فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلا قتل، أمّا الغداة فاسمعهم، وكل إنسان يذكر أمر عيسى لا يخاف، ثم قال في نفسه: لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف...»^(١) .

وهذا يعرب عن أنّ الأكترية الساحقة كانت موحدة مؤمنة متديّنة بشريعة المسيح، رغم ما كانوا على ضده قبل ثلاثمائة سنة .

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا﴾ فقال الذين أعتزناهم على أصحاب الكهف: ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم يقول: رب الفتية أعلم بشأنهم وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ يقول جلّ ثناؤه: قال القوم الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف لتتخذنّ عليهم مسجداً .

وقد نقل عن عبدالله بن عبيد بن عمير: فقال المشركون نبيي عليهم

١ . تفسير الطبري: ٢١٩/١٥ طبع مصطفى الحلبي بمصر، سورة الكهف الآية ١٩ .

بنياناً، فإنهم آباؤنا، ونعبد الله فيها. وقال المسلمون: نحن أحق بهم، هم منّا، بنبي عليهم مسجداً ونعبد الله فيه.^(١)

وبذلك يعلم أن ما ذكره الألباني في الرد على الاستدلال بالآية، من أن المراد من الغالبيين هم أهل السلطة ولا دليل على حجية فعلهم، رجم بالغيب، فإن ما ذكره الطبري يدل على أن المراد هو الغلبة في مجال الدين، وتدهور الوثنية وازدهار التوحيد.

وهذا يدل على أن سيرة العقلاء في العالم تكريم موتاهم، وأن سيرة المؤمنين الموحّدين اتّخاذ مقابر الصالحين مساجد ليتبرّكوا بوجودهم وأجسادهم الذين كرسوا حياتهم في إشادة قوائم التوحيد ورفعوا صرحه، وكيف يتصور ممن قام بتكريم إمام الموحّدين وسيدهم، أن ينحرف عن خطه الأصيل (التوحيد) ويعبد غيره سبحانه ويكون مشركاً، إلا إذا كان منحرفاً وأشرب في قلبه العجل، أعادنا الله من وساوسهم.



١. تفسير الطبري: ٢٢٥/ ١٥، ولاحظ تفسير القرطبي والكشاف للزمخشري وغرائب القرآن للنيسابوري في ذيل هذه الآية.

(٦)

ابن تيمية وإقامة الصلاة عند قبور الأنبياء

هذا هو الموضوع السادس الذي قال في حقه ابن تيمية: «ولا تشرع الصلاة عندها، ولا يشرع قصدتها لأجل التعبد عندها بصلاة واعتكاف، أو استغائة وابتهاال ونحو ذلك، وكرهوا الصلاة عندها، ثم كثير منهم قال: الصلاة باطلة لأجل النهي عنها، إلى أن قال: وإنما دين الله تعالى تعظيم بيوت الله وحدها التي تشرع فيها الصلوات جماعة وغير جماعة، والاعتكاف، وسائر العبادات البدنية والقلبية من القراءة والذكر والدعاء له.^(١)

يقول محمد بن عبد الوهاب: لم يذكر أحد من أئمة السلف أن الصلاة عند القبور وفي مشاهدتها مستحبة، ولا أن الصلاة والدعاء هناك أفضل، بل اتفق الكل على أن الصلاة في المساجد والبيوت أفضل منها عند قبور الأولياء والصالحين.^(٢)

وجاء في الجواب المنسوب إلى علماء المدينة: «أما التوجه إلى

١. مجموعة الرسائل والمسائل : ٦٠ / ١ .

٢. زيارة القبور : ١٥٩ - ١٦٠ .

حجرة النبي عند الدعاء فالأولى منعه، كما هو معروف من معتبرات كتب المذهب، لأن أفضل الجهات جهة القبلة.

وقد تجاوزت هذه المسألة على مر الزمان مرحلة المنع إلى مرحلة الشرك، حتى أنهم اليوم يعتبرون ذلك شركاً، وكل من فعل ذلك يكون عندهم مشركاً، وإليك توضيح المسألة:

١- لا شك أن إقامة الصلاة عند القبور لغاية عبادة صاحب القبر أو اتخاذه قبلة شرك، ولكن لا تجد على وجه البسيطة مسلماً يفعل ذلك، بل لا يحوم حوله البعداء من الأوساط الإسلامية، فضلاً عن المتحضرين منهم، المتواجدين في الأوساط الدينية.

٢- إن هدف المسلمين من إقامة الصلاة والدعاء عند قبور الأولياء، هو التبرك بالمكان الذي احتضن جسد حبيب من أحبباء الله، فيتمتع ذلك المكان بمنزلة سامية، فالصلاة والدعاء هناك يعودان بثواب أكثر على فاعلهما.

إن لمشاهد الأولياء ومرآدهم شرفاً وفضيلة خاصة لا توجد في غيرها، ولأجل ذلك أوصى الشيخان بدفنهما في جوار النبي ﷺ، فالمصلي لدى قبورهم لا يقصد سوى ما قصده الشيخان لا غير. فلو كان قصد التبرك بمكان شركاً فلماذا أوصى الشيخان بالدفن بجوار النبي ﷺ؟

٣- إن القرآن الكريم يأمر حجاج بيت الله الحرام بإقامة الصلاة عند مقام إبراهيم، وهو الصخرة التي وقف عليها إبراهيم لبناء الكعبة، فيقول:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾^(١).

إن الصلاة في مقام إبراهيم لأجل التبرك بمقام النبي إبراهيم، فلو كانت عبادة الله تبارك وتعالى مقرونة بالتبرك بمكان المخلوق شركاً، فلماذا أمر به سبحانه، فهل هناك فرق بين مقامهم ومثواهم؟!

٤- سأل المنصور العباسي مالك بن أنس وهما في مسجد رسول الله ﷺ فقال: يا أبا عبد الله، أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله؟ فقال مالك: لِمَ تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله.^(٢)

والعجب أن الكاتب الوهابي (الرفاعي) حاول أن يكذب القصة، قال: «إن أبا جعفر المنصور كان من أعلم علماء عصره، فلا يصح أن يكون جاهلاً فيستفسر».

يا للعجب! من أين علم أنه كان مثل مالك بن أنس إمام المدينة المنورة؟!

وهل له آثار في الفقه والحديث مثل مالك؟!
ماهذه الكلمة القاطعة؟ وأي دليل على أنه لم يكن جاهلاً بهذه المسألة فيستفسر مثله أو من هو أعلم منه؟!

٥- روى السيوطي في أحاديث المعراج أن النبي الأكرم ﷺ نزل في

١. البقرة: ١٢٥.

٢. وفاء الوفا: ٤/ ١٣٧٦.

المدينة وطور سيناء وبيت لحم، وصلى فيها، فقال له جبرائيل: يا رسول الله أتعلم أين صليت؟ إنك صليت في طيبة، وإليها مهاجرتك، وصليت في طور سيناء، حيث كلم الله موسى تكليماً، وصليت في بيت لحم حيث ولد عيسى (١).

ولا أظن أن يتوهم أحد وجود الفرق بين المولد والمرقد بالتجويز في الأول دون الثاني.

٦- إن المسلمين جميعاً يصلون في حجر إسماعيل، مع أن الحجر مدفنه ومدفن أمه هاجر، فأبي فرق بين مرقد النبي ومدفن أبيه إسماعيل؟

٧- ولقد بلغت هاجر أم إسماعيل مرتبة عند الله بسبب صبرها وتحملها المتاعب في سبيل الله سبحانه، فجعل الله موضع أقدامها محلاً للعبادة، وأوجب على حجاج بيته الحرام أن يسعوا فيها كما سعت هاجر بين جبلي الصفا والمروة، فنسأل إذا كان صبرها على المكاره، وتحملها المتاعب في سبيل الله تعالى قد منحا الكرامة لموضع أقدامها، وأوجب الله على المسلمين أن يعبدوه سبحانه في ذلك المكان بالسعي بين الصفا والمروة، فلماذا لا يكون قبر النبي ﷺ مباركاً ومقدساً، في حين أنه تحمل أنواع المصاعب والمصائب والمكاره من أجل إصلاح المجتمع وإرشاده.

قال ابن القيم - تلميذ ابن تيمية -: «إن عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد، آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطن أقدامهما مناسك لعبادة المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى

يوم القيامة، وهذه سته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه»^(١).

٨- إذا كانت الصلاة عند القبر محرمة في الشريعة الإسلامية، فلماذا قضت عائشة عمرها في البيت الذي دفن فيه الرسول؟!

٩- إن السيدة فاطمة الزهراء التي قال في حقها النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى بِرَضَى فَاطِمَةَ وَيَغْضَبُ بِغَضَبِهَا»^(٢) كانت تزور قبر عمها حمزة في كل جمعة أو في كل أسبوع مرتين، وكانت تبكي وتصلّي عند قبره .

يقول البيهقي: كانت فاطمة (رضي الله عنها) تزور قبر عمها حمزة كل جمعة، فتصلّي وتبكي عنده.^(٣)

١٠- إن مراقد الأنبياء ومشاهدهم تعدّ جزءاً من مطلق الأرض التي جعلها الله سبحانه محلاً لعبادته، وقال رسول الله ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»^(٤).

فما الدليل على إخراج مشاهد الأنبياء والأولياء والصالحين عن إطلاق الحديث المتفق عليه، أفيزعم الوهابي أن الصلاة في مشاهد الأنبياء ومراقدهم أقلّ ثواباً من مطلق الأرض؟!

وأخيراً نرى أن المسلمين يقيمون الصلاة طيلة أربعة عشر قرناً عند قبر النبي والخليفتين، من دون أن يختلج ببال أحد من أن إقامة

١. كشف الارتباب: ٣٤٠، نقلاً عن زاد المعاد في هدى خير العباد .

٢. صحيح البخاري: ٢٠/٥، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ؛ مستدرک الحاكم: ١٥٤/٣ .

٣. السنن للبيهقي: ٧٨/٤؛ مستدرک الصحيحين للحاكم: ٣٧٧/١ .

٤. صحيح البخاري ج ١ ص ٩١، مسند أحمد ج ٢ ص ٢٢٢ .

الصلاة عند القبور حرام أو مكروه .

كيف، ولو كان مكروهاً أو حراماً لما أوصى الإمام الحسن بن علي
بدفن جسده المطهر عند قبر جده المصطفى ﷺ حتى حالت بنو أمية دون
إنفاذ وصيته .

هذه الوجوه العشرة كافية لمن أراد اتباع الحق، ولا أظنُّ أنَّ المنصف
المتحرِّي للحقيقة - إذا تجرَّد عن الهوى - ينبذ هذه الأدلَّة وراء ظهره .



وفي الختام نذكر حكم الإضاءة عند القبور، فرمّا يحكم بالحرمة لما
رواه النسائي عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ لعن زائرات القبور
والمتخذين عليها المساجد والسرج. (١)

إنَّ هذا الحديث وأمثاله يهدف إلى ما إذا كانت الإضاءة تبذيراً للمال،
أو تشبهاً ببعض الأمم والشعوب، والآ فالإضاءة إذا كانت لغاية قراءة القرآن
والدعاء لا تكون محرّمة .

بل يقول العلامة السندي في شرحه على الحديث: «والنهى عنه لأنّه
تضييع مال بلا نفع». (٢)

أضف إلى ما في الحديث من لعن زائرات القبور، مع أنَّ عائشة زارت
البقيع مع النبي، وقد علّمتها كيفية الزيارة كما تقدّم حديثه .

١. السنن للنسائي: ٧٧/٣.

٢. السنن للنسائي: ٧٧/٣ طبع مصر وج ٩٥/٤ طبع بيروت؛ شرح الجامع الصغير: ١٩٨/٢.

(٧)

ابن تيمية والتوسل بالأنبياء والصالحين

إن التوسل بالأنبياء والصالحين في حال حياتهم أو بعد التحاقهم بالرفيق الأعلى من الأمور الراجحة بين الموحدين في جميع الأجيال والقرون، وقد أثار فتوى ابن تيمية فيها بالحرمة ضجة كبرى بين المسلمين، فالمسلمون كانوا إلى عصر ابن تيمية على جواز التوسل بشروطه المسوغة، إلى أن جاء ابن تيمية فأفتى بالحرمة، وتبعه الوهابيون، فأقصى ما جاز عندهم من التوسل هو التوسل بدعاء النبي في حال حياته، غير أن الشبه والظنون التي اعتمدوا عليها في منع التوسل كانت تقتضي منع هذا القسم أيضاً، لأنه توسل بالمنخلق لا محالة في مقام العبادة، لكنهم لم يجدوا متدحاً عن القول بجوازه لتصريح القرآن به، حيث حث المسلمين على المجيء إلى النبي وطلب الاستغفار منه، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولٌ

اللَّهِ لَوْوَا رُوؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ^(١)، وقال سبحانه
 ناقلاً عن أبناء يعقوب: «يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ»^(٢).

ولأجل الحط من شأن النبي وكرامته يجعلون النبي مساوياً للمؤمنين
 ويقولون: «إن التوسل الجائز هو التوسل بدعاء المؤمن حال حياته، ولو جاز
 التوسل بدعاء النبي فليس هذا إلا لكونه أحد المؤمنين، ويجوز التوسل
 بدعاء كل أخ مؤمن من غير فرق بين النبي وغيره، وأمّا غير ذلك فكله
 ممنوع».

وستوافقك أقسامه وكلماتهم فيها، وبما أن الوهابيين مازالوا يستدلون
 ضد المتوسلين ببعض الآيات، نقدم البحث عنها ونقول:

آيتان على طائفة التفسير

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ
 وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ
 وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾^(٣).

يقول محمد نسيب الرفاعي مؤسس الدعوة السلفية وخادمها في
 الرياض: إنك ترى أن الله تعالى يلفت أنظار المؤمنين إلى أن عمل
 المشركين بالتزلف إلى الله بأشخاص المخلوقين لا يفيدهم شيئاً، لأنهم لا

٢. يوسف: ٩٧.

١. المنافقون: ٥.

٣. الإسراء: ٥٦ - ٥٧.

يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً، فدعاؤهم بالذوات أو التوسل بهم لا يقدّم ولا يؤخّر، ولا يوصلهم، لأنهم أخطأوا الطريق إلى الله .

إن هاتين الآيتين في سورة الإسراء نزلتا في نفر من العرب كانوا يعبدون نغراً من الجن فأسلم الجنّيون، أمّا الإنس الذين كانوا يعبدونهم فلم يشعروا بإسلامهم، فأخبرهم الله بوحيه المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ: إن هؤلاء الذين يزعم المشركون أنهم يقرّبونهم إلى الله زلفى، يتسابقون ويتنافسون فيما بينهم بالتقرّب إلى الله تعالى، ويرجون رحمته ويخشون عذابه، فكيف أيّها المشركون تدعونهم لكشف الضر عنكم وتوسّطونهم، فما الذي تؤملون منهم وهم على أشد ما يكونون حاجة إلى الله تعالى، فالذي لا يملك شيئاً، لا يعطي شيئاً.^(١)

إن الاستدلال بهاتين الآيتين على رد التوسل الشائع بين المسلمين من عجيب الأمور، فإن التوبيخ فيهما متوجّه إلى المشركين الذين كانوا معتقدين بالوهية معبوداتهم، وأنهم يملكون كشف الضر وتحويل السوء عن الدعاء، والله سبحانه يرد عليهم بأن المدعويين في أشد الحاجة إلى طلب التقرب إلى الله سبحانه، فكيف يمكن لهم كشف الضر عنهم؟ وأيّة صلة بين أولئك المشركين المعتقدين بالوهية المدعويين، والموخّدين الذين يعتقدون بأنه لا يملك كشف الضر إلا الله، ولكنهم يوسّطون بينهم وبين ربهم أحد عباد الله الصالحين، الذي له مكانة عند الله، لعلّه سبحانه يجيب دعوته لأجله وحرمة ومقامه، وليس ذلك ببدعة، فقد أمر بتوسيط دعاء النبي في طلب

المغفرة من الله، وأمر العصاة أن يطلبوا منه ﷺ الاستغفار على ما عرفت .
والقسمان يشتركان في توسيط المخلوق، سواء أكان ذاته القدسية أم
دعاءة المستجاب .

ثم إنه في ذيل كلامه يقول: «إن الذين كان العرب يوسطونهم في
توسلاتهم كانوا يتقربون إلى الله بأعمالهم الصالحة، فما بال المسلمين
المتوسلين لا يقتدون بهم، ولم لا يفعلون ما يفعلون ما داموا بهم
وبصلاحهم واثقين؟» .

وللملاحظة والتدبر في كلامه مجال واسع:

أما أولاً: فمن أين علم أن هؤلاء الذين كان العرب يوسطونهم كانوا
يتقربون إلى الله بأعمالهم الصالحة؟ فليس في الآية شيء يدل على ذلك .
وثانياً: لو صحَّ ذلك فمعنى كلامه أن التوسل منحصر في ذلك، مع أنه
من المجوزين لتوسل المسلم بدعاء النبي في حال حياته، بل بدعاء أخيه
المسلم، فلماذا صار التخلف هاهنا عن هديهم ومذهبهم جائزاً مع أنهم لم
يكونوا متقربين إلا بأعمالهم فقط .

والحق أن الكاتب اتخذ موقفاً مسبقاً في مجال التوسل، وهو إحياء ما
بذره ابن تيمية، فلذلك ترى أنه يقفو في كتابه أثر شيخه، بلا تخلف عنه قيد
شعرة، مع أنه يتظاهر في بدء كتابه بأنه يريد أن يعالج الموضوع علاجاً
محايداً عن كل تحيز. (١)

أقسام التوسل: المشروع والممنوع عند الوهابيين

ثم إن الرفاعي لغاية التظاهر بالحياد في الكتابة عن التوسل، يقسمه إلى مشروع وممنوع ويقول: وينقسم التوسل المشروع إلى ثلاثة أقسام:

١- توسل المؤمن إلى الله تعالى بذاته العلية، وبأسمائه الحسنی، وبصفاته العلی .

٢- توسل المؤمن إلى الله تعالى بأعماله الصالحة .

٣- توسل المؤمن إلى الله تعالى بدعاء أخيه المؤمن له .

ثم إنه يقدم الكتابة في الموضوعات الثلاثة فيما يقرب من مائة وسبعين صفحة، مع أن هذه الموضوعات من المسائل البديهية لدى الأمم جمعاء، فضلاً عن المسلمين، ولكنه جاء يصرف القلم والحبر والورق في هذه الموضوعات لغاية التظاهر بأنه ليس مانعاً من التوسل، لكن التوسل المشروع هو هذا .

ثم إنه خصّ الشطر الآخر من كتابه التوسل الممنوع، وجعله ثلاثة :

١- التوسل إلى الله بذوات النبيين والصالحين، وبالأمكنة الفاضلة كالكعبة والمشعر الحرام، وبالأزمنة المباركة كشهر رمضان وليلة القدر وأشهر الحج والأشهر الحرم .

٢- التوسل إلى الله بجاه فلان أو حرمة أو ما أشبه ذلك .

٣- الإقسام على الله تعالى بالمتوسل به .

ثم إنّه بدأ في البحث عن أحكام هذه التوسلات الثلاثة، وخرج بالمآل بحرمتها إما بالظن في أسناد الأحاديث، أو بنقد مضامينها، مع أنّ المآثورات الواردة في ذلك المقام مستفيضة أو متواترة بالمعنى، فمن العجيب المناقشة في أسناد المستفيض أو المتواتر. نعم إنّ الشيخ الرفاعي تنازل عن توصيف هذه التوسلات بالشرك، وأفتى بحرمتها، مع أنّ المعروف من ابن تيمية وأذنابه هو توصيفها بالشرك، أو كونها ذريعة له .

يقول ابن تيمية في بيان مراتب التوسل :

أحدها: إنّ الدعاء لغير الله سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً، وسواء أكان من الأنبياء عليهم السلام أم غيرهم، فيقال: يا سيدي أغثنى، وأنا مستجير بك وغير ذلك، فهذا هو الشرك بالله .

الثاني: أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء الصالحين: ادع الله وادع لنا ربك ونحو ذلك، فهذا مما لا يستريب عالم في أنّه غير جائز .

الثالث: أن يقول: أسالك بجاه فلان عندك وحرمة ونحو ذلك. ^(١)

ترى أنّه وصف الصورة الأولى بالشرك والثانية والثالثة بعدم الجواز، فقد فرغنا من تبين معيار التوحيد والشرك فلا نعيد، وأنما نتكلم في الجواز وعدمه، ولنبحث عن الصور الثلاث التي جاءت في كلام الرفاعي، وزعم أنّها ممنوعة، فنقول:



اقسام التوسل:

(١)

التوسل بالأنبياء والصالحين أنفسهم

احتج الشيخ السلفي المعاصر على التحريم بوجوه واهية مدحوضة،
وإليك بيانها:

١- لو كان هذا النوع من التوسل مشروعاً حقيقة لذكره الشارع في
زمرة ما ذكره وحث كذلك الناس عليه، وليس معقولاً أن يهمله الله تعالى
ولا يبلغه رسوله .

٢- إن الله عاب في الآية المتقدمة (آية الإسراء) محاولتهم القريبى
والزلفى إليه تعالى بالأشخاص والعباد المخلوقين، فكلا الأمرين في الآية
عيب وذنب .

٣- إن أرادوا بالواسطة في جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون
واسطة في رزق العباد فهو من أعظم الشرك.^(١)

يلاحظ على الوجه الأول: أن القائلين بالتوسل بالأشخاص يدعون أن

١. التوصل إلى حقيقة التوسل: ١٧٧ - ١٨٠ .

النبي ذكره في كلامه، وقد نقل هو في نفس الكتاب ستة وعشرين دليلاً عنهم، وهو بين حديث مروى عن النبي، وأثر منقول عن الصحابة في ذلك المجال، وهو وإن ناقش في أسنادها غالباً، لكنّه غفل - بعد تسليم ما ناقشه - عن أنّ هذا العدد الهائل من الأخبار، أخبار متواترة بالمعنى، ولا وجه للمناقشة في المتواتر، ولو صحَّ النقاش في المتواتر فربما تكون جميع الأسناد زائفة باطلة .

ويلاحظ على الوجه الثاني: أنّ الله تعالى عاب عليهم بعبادتهم الوسائل التي يوسّطونها بينهم وبين الله، لا لتوسلهم بالأشخاص والعباد. قال سبحانه نقلاً عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(١)، فكم فرق بين أن يعيب سبحانه توسيط الصالحين في دعائه سبحانه، وأن يعيب عبادتهم الصالحين ليتوسطوا بينهم وبين الله، والآية تهدف إلى الثاني دون الأوّل، وما هذا الاعوجاج في الفهم لو لم يكن عناداً؟

يلاحظ على الوجه الثالث: أنّه فرية واضحة لا تصدر عن مسلم، بل يريدون منهم الدعاء والطلب من الله مثل حال حياتهم، أو يطلبون من الله سبحانه قضاء حاجتهم، لأجل حرمة الوسائط الذين كرمهم الله في الدنيا والآخرة، فالمدعو الحقيقي هو الله سبحانه، وهو الكعبة المقصودة مآلاً .

إذا وقفت على دلائله الداحضة. هلّم نقرر أدلة القائلين بجواز هذا النوع من التوسل، وهي أدلة مشرقة لا تبقي لأحد شكاً، وإليك البيان:

١- توسل الضرير بالنبي الأكرم ﷺ

عن عثمان بن حنيف أنه قال:

إن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال:

ادع الله أن يعافيني .

فقال ﷺ: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت وهو خير .

قال: فادعها فأمره ﷺ أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويصلي ركعتين.

ويدعو بهذا الدعاء:

«اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إني

أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى، اللهم شفعه في» .

قال ابن حنيف: والله ما تفرقتنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا

كأن لم يكن به ضرر.

كلمات حول سند الحديث

قال ابن تيمية: وقد روى الترمذي حديثاً صحيحاً عن النبي ﷺ أنه

علم رجلاً أن يدعو فيقول:

«اللهم إني أسألك وأتوسل بنبيك...». وروى النسائي نحو هذا

الدعاء^(١).

وقال الترمذي: هذا حديث حق حسن صحيح .

وقال ابن ماجة: هذا حديث صحيح .

وقال الرفاعي: لا شك أن هذا الحديث صحيح ومشهور...^(١) .

نعم حاول محمد رشيد رضا، مؤلف المنار، الذي علق على كتاب «مجموعة الرسائل والمسائل»، تأليف ابن تيمية، أن يضعف الحديث بحجة أنه ورد في سنده أبو جعفر، وأنه غير أبي جعفر الخطمي^(٢) .

ولكن المحاولة فاشلة، فإن إمام مذهبه أحمد في مسنده وصفه بالخطمي، ونقل الرفاعي عن نفس ابن تيمية أنه جزم بأنه هو أبو جعفر الخطمي، وهو ثقة.^(٣) ووصفه الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني في معجمه بـ (الخطمي المدني) .

ولأجل أن يقف القارئ على مظان الحديث في الصحاح نذكر

مصادره:

١- سنن ابن ماجة، الجزء الأول، ص ٤٤١ رقم الحديث ١٣٨٥، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار إحياء الكتاب العربي، وقد عرفت تنصيبه بأنه حديث صحيح .

٢- مسند أحمد، ج ٤ ص ١٣٨ عن مسند عثمان بن حنيف، طبع

١. التوصل إلى حقيقة التوسل: ١٥٨ .

٢. مجموعة الرسائل والمسائل: ١٣ قسم التعليقة .

٣. التوصل إلى حقيقة التوسل: ٢٢٨ .

المكتب الإسلامي مؤسسة دار صادر، وقد روي هذا الحديث عن ثلاثة طرق .

٣- صحيح الترمذي ج ٥، كتاب الدعوات، الباب ١١٩، الحديث برقم ٣٥٧٨، وقد عرفت كلمته في حق الحديث .

٤- مستدرک الصحيحین للحاکم النیسابوری، الجزء الأول ص ٣١٣ طبع حيدر آباد الهند .

قال بعد ذكر الحديث: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه .

٥- المعجم الكبير للطبراني: الجزء التاسع باب (ما أسند إلى عثمان بن حنيف) ص ١٧ برقم ٨٣١١، قال المعلق في ذيل الصفحة: ورواه في الصغير ١٨٣/١ - ١٨٤ وقال: لم يروه عن روح بن أبي القاسم إلا شبيب بن سعيد المكي، وهو ثقة، وهو الذي يحدث عنه أحمد بن شبيب عن أبيه عن يونس بن يزيد الأيلي، وقد روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر الخطمي - واسمه عمير بن يزيد - وهو ثقة، تفرد به عثمان بن عمر بن فارس بن شعبة، والحديث صحيح .

وبعد هذا كله لا مجال للمناقشة في سند الحديث أو الطعن فيه، كيف والخصم الذي يحاول أن يضعف كل صحيح، فشلت محاولته في حقه، فسلم سنده، ولكن مضى يناقش في دلالاته، وسيوافيك أنها أيضاً محاولة فاشلة .

دلالة الحديث

إن الحديث يدلُّ بوضوح على أنَّ الأعمى توسل بذات النبي بتعليم منه ﷺ فهو وإن طلب الدعاء من النبي الأكرم في بدء الأمر، ولكنَّ النبي علّمه دعاء تضمّن التوسل بذات النبي، وهذا هو المهم في تبيين معنى الحديث .

وبعبارة ثانية: الذي لا ينكر عند الإمعان في الحديث أمران:

الأول: إنَّ الراوي طلب من النبي الدعاء، ولم يظهر منه توسل بذات النبي .

الثاني: إنَّ الدعاء الذي علّمه النبي تضمّن التوسل بذات النبي بالصراحة التامة، فيكون دليلاً على جواز التوسل بالذات، وإليك الجمل التي هي صريحة في المقصود:

١- اللهمَّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك .

إنَّ كلمة «بنبيك» متعلقة بفاعلين: «أسألك» و «أتوجه إليك» والمراد من النبي نفسه المقدسة وشخصه الكريم، لا دعاؤه .

إنَّ من يقدر كلمة «دعاء» قبل لفظ «بنبيك» ويصوّر أنَّ المراد: أسألك بدعاء نبيك، أو أتوجه إليك بدعاء نبيك، فهو يتحكم بلا دليل، ويؤوّل بلا جهة، ولو أنَّ محدثاً ارتكب مثله في غير هذا الحديث لرموه بالجهمية والقدرية .

٢- «محمد نبي الرحمة» .

لكن يتضح أن المقصود هو السؤال من الله بواسطة النبي ﷺ وشخصيته جاءت بعد كلمة (نبيك) جملة «محمد نبي الرحمة» لكن يتضح الهدف بأكثر ما يمكن .

٣- إن جملة «يا محمد إني أتوجه إلى ربي» تدل على أن الرجل - حسب تعليم الرسول - اتخذ النبي نفسه وسيلة لدعائه، أي أنه توسل بذات النبي لا بدعائه .

٤- إن قوله: «وشفعه في»: معناه يا رب اجعل النبي شفيعي وتقبل شفاعته في حقي، وليس معناه تقبل دعاءه في حقي .

٥- فإنه لم يرد في الحديث أن النبي دعا بنفسه حتى يكون معناه: استجب دعاءه في حقي، ولو كان هناك دعاء من النبي لذكره الراوي، إذ ليس دعاؤه ﷺ من الأمور غير المهمة حتى يتسامح الراوي في حقه .

نعم، إن الراوي طلب الدعاء من النبي، والنبي وعده بالدعاء حيث قال: إن شئت دعوت، ولكن النبي لما علمه دعاء مؤثراً في قضاء حاجته، وسكت عن دعاء نفسه، صار هذا قرينة على أن وعده بالدعاء، كان أعم من الدعاء المباشر أو التسبيبي. فالدعاء الذي وعده به النبي هو نفس الدعاء الذي علمه الضير، فكان دعاء له ﷺ بالتسبيب كما كان دعاء للضير بالمباشرة .

فالنقطة المركزية في هذا التوسل هي شخص رسول الله وشخصيته

الكريمة، لا دعاؤه، وإن كان دعاؤه - في سائر المواضع - أيضاً مؤثراً مثل التوسل بشخصيته، ومن تأمل في ما ذكرنا من القرائن يجزم بأن المتوسل به بعد تعليم النبي، هو نفس الرسول و شخصيته .

٦- ولنفترض أن معنى قوله: «وشفّعه في»: استجب دعاءه في حقي، ونفترض أنه ﷺ - مضافاً إلى ما علمه من الدعاء - قام بنفسه أيضاً بالدعاء، ودعا الباري سبحانه أن يرد إليه بصره، ولكن آية منافاة بين الدعاءين حتى يكون أحدهما قرينة على التصرف في الآخر .

فهناك كان دعاء من النبي ولم يذكر لفظه، ودعاء آخر علمه الرسول للضرير وقد تضمّن هذا الدعاء التوسل بذات النبي وشخصه، وليس بين الدعاءين أي تزاحم وتعارض حتى نجعل أحدهما قرينة على الآخر .

تشكيك الرفاعي في دلالة الحديث

إن النخعي قد عجز عن الدفاع عن مذهبه وهو يواجه هذه الرواية، فبأنها بصراحته تقاومه وتكافحه، فعاد يكرر ما ذكره شيخه في رسائله، غير أن شيخه: نقله بصورة الاحتمال، ولكن الرفاعي ذكره بحماس .

قال ابن تيمية: «ومن الناس من يقول: هذا يقتضي جواز التوسل بذاته مطلقاً، حياً وميتاً، ومنهم من يقول: هذه قضية عين وليس فيها إلا التوسل بدعائه وشفاعته، لا التوسل بذاته»^(١) .

ترى أن شيخ الرفاعي ينسبه إلى الغير عن تردد وشك، ولكن الرفاعي عاد يكرر هذا المطلب بثوب جديد، ويدّعي أن السائل لم يقصد التوسل بذات الرسول بل بدعائه المستجاب، ويستدل على ذلك بالعبارات التالية:

١- قول الأعمى لرسول الله: ادع الله أن يعافيني.

٢- جواب الرسول له: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت .

٣- إصرار الأعمى على طلب الدعاء منه بقوله: فادعه .

٤- قول الأعمى في آخر دعائه الذي علمه إياه رسول الله: اللهم شفّعه في. فاستنتج من ذلك كله أن المتوسل به هو دعاؤه .

ولقد عزب عن المسكين أن الوجوه الثلاثة الأولى لا تمت إلى مقصوده بصلة، لما عرفت من أن الأعمى في محاورته مع الرسول لم يكن يخطر بباله إلا طلب الدعاء، ولأجل ذلك طلب منه الدعاء، وأن الرسول لما خيره بين الدعاء والصبر على الأذى، اختار الدعاء ورفض الصبر، غير أن النقطة المركزية للاستدلال ليست هذه المحاوره، وإنما هو الدعاء الذي علمه رسول الله الضرير، فإنه ﷺ علمه دعاء يتضمن التوسل بذات النبي: وبعبارة ثانية: كانت هناك حالتان:

الأولى: المحاوره الابتدائية التي وقعت بين النبي والضرير، فكان الموضوع هناك دعاء الرسول بلا شك .

الثاني: الدعاء الذي علمه الرسول، فإنه تضمن التوسل بذات النبي،

فالتصرف في هذا النص بحجة أن الموضوع في المحاوراة الأولى هو الدعاء، تصرف عجيب، فإن الأعمى وإن لم يتردد في خلده سوى دعاء الرسول المستجاب، ولكن الرسول علمه دعاء جاء فيه التوسل بذاته. ونحن نفترض أنه كان من الرسول، دعاء غير ما علمه للضمير، ولكن أية ضرورة تقضي بأن نؤول ما ورد في العبارة التي علمها للسائل؟

فما هذه الشبه والظنون التي يتمسك بها الرفاعي في سبيل دعم مذهبه؟

بالله عليك أيها الكاتب الوهابي الذي يعيش عيشاً رغداً في الرياض في ظل الثروة الطائلة للسلطة، لولا أنك من القائلين بمنع التوسل بذات النبي، هل كان يخلد ببالك أن المراد من الدعاء الذي علمه للضمير، هو التوسل بدعاء النبي لا ذاته؟ ولولا أنك قد أخذت موقفاً مسبقاً في الموضوع، هل كان يتردد في ذهنك تأويل ذلك النص؟ وأنت وأشياخك ونظراؤك تصبّون القارعات على الذين يؤولون الصفات الخبرية كاليد والاستواء والوجه، وتصفونهم بالجهمية والمؤولة وغير ذلك من الألفاظ الركيكة، فكيف تسوّغون تأويل هذا النص الذي لا يرتاب فيه إلا من اتخذ رأياً مسبقاً؟

وأما قوله: «وشفعه في» فقد قلنا إن المراد: اجعله شافعاً لي، وليس معناه استجب دعاءه في حقي، وإلا لما عدل عن اللفظ الصريح إلى هذا اللفظ الذي ليس بواضح في ما يريدون.

والعجب أن الرفاعي يتمسك بالطحلب ويقول:

«لو كان قصده التوسل بشخص الرسول أو بحقه أو بجاهه لكان يكفيه أن يبقى في بيته، ويدعو الله قائلاً مثلاً: اللهم رد بصري بجاه نبيك، دون أن يحضر ويتجشم عناء المشي...»

ولكن ليس هذا بعجيب ممن اتخذ رأياً مسبقاً في الموضوع، وذلك لأن الضرير لم يكن متذكراً هذا النوع من التوسل حتى يجلس في بيته ويتوسل به ﷺ وإنما علمه النبي الأكرم، وما معنى هذا الترقب من الرجل؟ ثم إن الكاتب يدعي أن لفظ الحديث ومفاهيم اللغة العربية وقواعدها كلها تشهد بأن معناه هو التوسل بدعاء النبي، ماذا يريد من لفظ الحديث؟ هل يريد المحاورة الأولى التي لا تمت إلى مركز الاستدلال وموضعه بصلة، أو يريد الدعاء الذي علمه الرسول؟ فهو يشهد بخلافه؟

وماذا يريد من مفاهيم اللغة العربية وقواعدها، وأية قاعدة عربية تمنع الأخذ بظاهر الدعاء؟

(ما هكذا تورد يا سعد الإبل!)

إنك إذا قرأت ما جاء به الكاتب من صخب وهياج في ذيل كلامه، لتعجبت من عباراته الفارغة وكلماته الجوفاء، التي هي بالخطابة أشبه منها بالبرهان.

٢- التوسل بالنبي بتعليم من الصحابي الجليل

روى الطبراني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف: أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: انت الميضأة، فتوضأ، ثم اتت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنينا محمد ﷺ نبي الرحمة يا محمدا إني أتوجه بك إلى ربي فتقضي لي حاجتي، فتذكر حاجتك، ورح حتى أروح معك. فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: حاجتك؟ فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة؟ وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي، ولا يلتفت إلي حتى كلمته في، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته، ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه ضريبر فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي ﷺ: فتصبرا فقال يا رسول الله. ليس لي قائد فقد شق علي. فقال النبي ﷺ: انت الميضأة فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات...

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط.^(١)

ورواه في المعجم الصغير فقال: لم يروه عن روح بن القاسم إلا شبيب بن سعيد، أبو سعيد المكي، وهو ثقة، وهو الذي يحدث عنه أحمد (ابن أحمد) ابن شبيب عن أبيه عن يونس بن يزيد الأيلي، وقد روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر الخطمي واسمه عمير بن يزيد، وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر بن فارس عن شعبة، والحديث صحيح، وروى هذا الحديث عون بن عمارة عن روح بن القاسم، عن محمد بن المنكدر، عن جابر (رضي الله عنه) وهو فيه عون بن عمار، والصواب شبيب بن سعيد.^(٢)

إن دلالة الحديث على جواز التوسل بالنبي أظهر من الشمس وأبين من الأمس، ولكن الكاتب الوهابي أخذ يناقش في الحديث من جوانب أخرى. فقال: «إن هذا الحديث تتجلى فيه آثار الصنع، وبدل عليه أمور:

١- إن ما ذكره لا يوافق سيرة عثمان بن عفان لما اشتهر عنه من الرقة واللين.

٢- إن معنى التوسل عند الصحابة هو دعاء الشخص المتوسل به إلى الله تعالى بقضاء حاجة المتوسل، لا كما يعرفه القوم في زماننا هذا من التوسل بذات المتوسل به.

١. المعجم الكبير، للمحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠هـ: ١٦/٩ - ١٧، باب ما أسند إلى عثمان بن حنيف برقم ٨٣١٠.

٢. المعجم الصغير للطبراني: ١/١٨٣ - ١٨٤، طبع دار الفكر.

٣- لو كان دعاء الأعمى الذي علمه رسول الله دعاء ينفع لكل زمان ومكان، لما رأينا أي أعمى على وجه البسيطة.

يلاحظ عليه: أن كل واحد من هذه الوجوه ساقط جداً لا يمكن أن يستدل به على جعل [وضع] الحديث.

أما الأول: فلأن المعروف من الخليفة هو تكريم الأقربين والإحسان إليهم، خصوصاً بني أبيه، لا تعميمه إلى الجميع. هذا هو التاريخ ضبط عطاءه لمروان بن الحكم خمس غنائم إفريقية، والحارث بن الحكم ثلاثمائة ألف درهم، وقضى ما استقرضه الوليد بن عقبة من عبد الله بن مسعود الذي كان أمين بيت المال في عصر ولاية الوليد على الكوفة، إلى غير ذلك من عطاياه إلى بني أبيه وأقربائه.^(١) وفي الوقت نفسه كان أبو ذر يعيش في الريذة ويعاني من جوع أليم، ويليهِ في الفقر وبساطة الحياة عبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، فلا يمكن أن يقال إن الخليفة كان ينظر إلى الجميع بعين واحدة، وقد كان عمله هذا هو الذي أجهز عليه وانتكث عليه قتله. هذا هو الإمام علي عليه السلام يصف ذلك العصر بقوله:

«إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حِصْنَيْهِ بَيْنَ نَيْبَيْهِ وَمُعْتَلْفِيهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضُمُونَ مَالَ اللَّهِ خِضْمَةَ الْإِبِلِ تَبْتَةَ الرَّبِيعِ».^(٢)

وفي رسالته إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة يقول:

١. لاحظ في ذلك تاريخ أبي الفداء: ١/١٦٨؛ والمعارف لابن قتيبة: ٨٤؛ والأنساب للبلاذري: ١٥/٥٢. ولاحظ الغدير: ٢٨٦/٨، تجد فيه قائمة من عطايا الخليفة الهائلة لبني أبيه.

٢. نهج البلاغة الخطبة ٣.

أَوْ أُبَيَّتْ مَيْطَانًا وَحَوْلِي بَطُونٌ غَرْنِي وَأَكْبَادٌ حَرَى، أَوْ أَكُونُ كَمَا قَالَ
الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ ذَاءٌ أَنْ تَبَيْتَ بَيْطَنَةً وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَجْنُ إِلَى الْقَيْدِ^(١)

وهو يشير بذلك إلى الأوضاع السائدة في عصره وعصر من تقدمه .
وأما الثاني: فهو من: غرائب الكلام، فقد جعل مذهبه دليلاً على
ضعف الرواية، وهو أن معنى التوسل عند الصحابة - هو التوسل بدعاء
الشخص لا بذاته - فمن أين يدعي أن هذا مذهب الصحابة، وما هو المصدر
لذلك الحصر؟ مع أن الحديثين المرويين من طريق ذلك الصحابي الجليل،
يدلان على خلافه .

وأما الثالث: فهو إطاحة بالوحي وازدراء به، ولو صحَّ فلقاتل أن يقول:
لو صحَّ قوله سبحانه: «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»^(٢) يجب أن لا
يبقى على وجه البسيطة ذو حاجة .

ولو صحَّ قوله: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوء...»^(٣)
يجب أن لا يبقى على وجه البسيطة مضطراً أو فقير، مع أن البسيطة مليئة
بالمضطر والمحتاج .

نعم، إن الدعاء سبب لنزول الرحمة ودفع الكربة، ولكن ليس تمام
السبب لإنجاح المقصود، بل له شروط ومعدات، وله موانع وعوائق، ولأجل

١. نهج البلاغة قسم الكتب رقم ٤٥ .

٢. النمل: ٦٢ .

٣. غافر: ٦٠ .

ذلك نرى أن كثيراً من الأدعية لا تستجاب مع أنه سبحانه يحث عباده على الدعاء، وأنه يستجيب إذا دعاه ويقول: «وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ».

هذا كله حول مناقشاته في متن الرواية ومضمونه.. هلمّ معي نستمع مناقشته في السند:

يقول: إن في سند هذا الحديث رجلاً اسمه (روح بن صلاح) وقد ضعّفه الجمهور، وابن عدي، وقال ابن يونس: يروي أحاديث منكراً.

يلاحظ عليه: أن الطبراني نقل الرواية بهذا السند:

«حدثنا طاهر بن عيسى بن قريش المصري المقرئ، ثنا أصبغ بن الفرخ، ثنا ابن وهب عن أبي سعيد المكي، عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر الخطمي المدني، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن عمّه عثمان بن حنيف»^(١).

كما نقله بهذا السند في المعجم باختلاف يسير لا يضرّ بوحدة السند.

ورواه البيهقي بالسند التالي:

«أخبرنا أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الزاهد - رحمه الله - أنبأنا الإمام أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي القفال، قال: أنبأنا أبو عروبة، حدثنا العباس بن الفرخ، حدثنا إسماعيل بن شبيب، حدثنا أبي عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر المدني... (إلى آخر السند).»^(٢)

١. المعجم الكبير للطبراني: ١٧/٩. وفي المعجم الصغير أصبغ بن الفرخ مكان (الفرخ).

٢. دلائل النبوة: ١٦٨/٦.

وأنت ترى أنه ليس في طريق الرواية «روح بن صلاح» بل الموجود هو روح بن القاسم، والكاتب صرح بأن الرواية رواها الطبراني والبيهقي، وهذا يعرب عن أن الكاتب لم يرجع إلى المصادر وإنما اعتمد على تقوّل الآخرين .

نحن نفترض أنه ورد في سند الرواية روح بن صلاح، ولكن ما ذكره من أن الجمهور ضعفوه أمر لا تصدقه المعاجم الموجودة فيما بأيدينا، وإنما ضعفه ابن عدي، وفي الوقت نفسه وثقه ابن حبان والحاكم. وسيوافيك الكلام في حقه في حديث فاطمة بنت أسد، فانتظر. أهكذا أدب نقد الرواية يا شيخ؟ هداك الله إلى النهج القويم .

وفي الختام نقول: إن السبكي نقل الرواية عن المعجم الكبير للطبراني بنفس السند الذي نقلناه، وهذا يكشف عن صحة المطبوع^(١) .



٣- توسل الخليفة بعمر النبي

قبل أن نذكر نص توسل الخليفة عمر بعمر النبي: ننبه على أمر وهو: إن سيرة المسلمين في حياة النبي وبعد وفاته تعرب عن أنهم كانوا يتوسلون بأولياء الله، من دون أن يتردد في خلد واحد منهم بأنه أمر حرام أو شرك أبو بدعة، بل كانوا يرون التوسل بدعاء النبي والصالحين رمزاً إلى

١. لاحظ: شفاء السقام: ١٣٩ - ١٤٠ .

التوسل بالنبي ومنزلته وشخصيته، فإنه لو كان لدعائه أثر، فإنما هو لأجل قداسة نفسه وطهارة ذاته، ولولاها لما استجيبت دعوته، فما معنى الفرق بين التوسل بدعاء النبي والتوسل بشخصه وذاته؟ حتى يكون الأول نفس التوحيد، والآخر عين الشرك أو ذريعة إليه؟

لم يكن التوسل بالصالحين والطيبين والمعصومين والمخلصين من عباد الله أمراً جديداً بين الصحابة، بل كان ذلك امتداداً للسيرة الموجودة قبل الإسلام، فقد تضافرت الروايات التاريخية على ذلك، وإليك البيان:

استسقاء عبدالمطلب بالنبي وهو رضيع

إن عبد المطلب استسقى بالنبي الأكرم وهو طفل صغير، حتى قال ابن حجر: إن أبا طالب يشير بقوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

إلى ما وقع في زمن عبدالمطلب حيث استسقى لقريش والنبي معه غلام^(١).

استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام

أخرج ابن عساكر عن أبي عرفة، قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق،

فخرج أبو طالب ومعه غلام - يعني: النبي ﷺ - كأنه شمس دجى تجلت عن سحابة قتما، وحوله أغيلمة، فأخذ النبي أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ إلى الغلام وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وها هنا وأغدق وأغدوق، وانفجر له الوادي، وأخصب النادي، والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(١)

وقد كان استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام، بل استسقاء عبدالمطلب به وهو صبي أمراً معروفاً بين العرب، وكان شعر أبي طالب في هذه الواقعة مما يحفظه أكثر الناس .

ويظهر من الروايات أن استسقاء أبي طالب بالنبي ﷺ كان موضع رضا منه ﷺ فإنه بعد ما بعث للرسالة استسقى للناس فجاء المطر وأخصب الوادي فقال النبي: لو كان أبو طالب حياً لقرت عيناه، ومن ينشدنا قوله؟ فقام عليٌّ وقال: يا رسول الله ﷺ كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(٢)

إن التوسل بالأطفال في الاستسقاء أمر ندب إليه الشارع؛ هذا هو الإمام الشافعي يقول في آداب صلاة الاستسقاء: «وأحب أن يخرج الصبيان، ويتنظفوا للاستسقاء، وكبار النساء، ومن لا هيبة منهن؛ ولا أحب خروج ذات الهيبة، ولا أمر بإخراج البهائم»^(٣) ما هو الهدف من إخراج الصبيان

١. فتح الباري: ٢ / ٤٩٤؛ السيرة الحلبية: ١ / ١١٦.

٢. إرشاد الساري: ٢ / ٣٣٨. ٣. الأم: ١ / ٣٣٠.

والنساء الطاعنات في السن، إلا استنزال الرحمة بهم ويقداستهم وطهارتهم؟ كل ذلك يعرب عن أن التوسل بالأبرياء والصلحاء والمعصومين مفتاح استنزال الرحمة وكأن المتوسل يقول: ربي وسيدي، الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن في السن أسيرك في أرضك، وكلتا الطائفتين أحق بالرحمة والمرحمة. فلاجلهم أنزل رحمتك علينا، حتى تعمنا في ظلهم.

إن الساقى ربما يسقى مساحة كبيرة لأجل شجرة واحدة، وفي ظلها تسقى الأعشاب وسائر الخضراوات غير المفيدة.

وعلى ضوء ذلك تقدر على تفسير توسل الخليفة بعم الرسول: العباس بن عبدالمطلب، الذي ستلوه عليك، وأنه كان توسلاً بشخصه وقداسته وصلته بالرسول، وأنه كان امتداداً للسيرة المستمرة قبل هذا، ولا يمت إلى التوسل بدعاء العباس بصلته، وإنما هو شيء اخترعه الوهابيون لحفظ موقفهم المسبق في هذه المباحث.

التوسل بعم النبي ﷺ

ما تعرفت عليه سابقاً كان مقدمة لدراسة هذا الحديث الذي يرويه البخاري في صحيحه ويقول: «كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب (رضي الله عنه) وقال: أَللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بَعَمِ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا. قَالَ: فَيَسْقُونَ»^(١).

١. صحيح البخاري: ٣٢/٢، باب صلاة الإِسْتِسْقَاءِ.

هذا نص البخاري، وهو يدل على أن عمر بن الخطاب عند دعائه واستسقائه توسل بعم النبي وشخصه وشخصيته، وقد استه وقرابته من النبي، لا بدعائه، ويدل على ذلك أمور:

١- قول الخليفة عند الدعاء.. قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بَعَم نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا». وهذا ظاهر في أن الخليفة قام بالدعاء في مقام الاستسقاء، وتوسل بعم الرسول في دعائه، ولو كان المقصود هو التوسل بدعائه، كان عليه أن يقول: يا عم رسول الله كُنَّا نَطْلُبُ الدَّعَاءَ مِنَ الرَّسُولِ فَيَسْقِينَا اللَّهُ، وَالآنَ نَطْلُبُ مِنْكَ الدَّعَاءَ فَادْعَ لَنَا.

٢- روى ابن الأثير كيفية الاستسقاء فقال: استسقى عمر بن الخطاب بالعباس عام الرمادة لما اشتدَّ القحط، فسقاهم الله تعالى به، وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه. وقال حسان:

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا	فسقى الغمام بغرة العباس
عم النبي وصنو والده الذي	ورث النبي بذاك دون الناس
أحيا الإله به البلاد فأصبحت	مخضرة الأجانب بعد الياس

ولما سقى الناس طففوا يتمسحون بالعباس ويقولون: هنيئاً لك ساقى الحرميين.^(١)

أمعن النظر في قول الخليفة: هذا والله الوسيلة .

٣- ويظهر من شعر حسان أن المستسقي كان هو نفس الخليفة وهو

الداعي حيث قال: «سأل الإمام...» وكان العباس وسيلته لاستجابة الدعاء .
وأظنُّ أن هذه الروايات الصحيحة لا تبقى شكاً ولا ريباً في خلد أحد
في جواز التوسل بالصالحين .

تشكيك الرفاعي في دلالة الحديث

يقول الرفاعي: «لا ريب في أن هذا الحديث صحيح، وما ظنك
بحديث يرويه الإمام البخاري» ولكنه بصلافة خاصة به يدعي أنه من قبيل
توسل المؤمن بدعاء أخيه المؤمن، ويقول: إن الحديث يخبرنا أن
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كلف العباس أن يستسقي للمسلمين ويدعو
الله تعالى أن يستسقيهم الغيث؛ ويبيِّن الأسباب الموجبة لتكليف العباس،
فقال: اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بَعَم نَبِيِّنَا
فَاسْقِنَا.^(١)

ثم أضاف: أنه لو كان قصده ذات العباس لكانت ذات النبي ﷺ
أفضل وأعظم وأقرب إلى الله من ذات العباس بلا شك ولا ريب، فثبت أن
القصود كان الدعاء ولم تكن ذات الرسول مقصودة عندما كان حياً.^(٢)

لا أظن أن أحداً يحمل شيئاً من الإنصاف تجاه الحقيقة يسوغ لنفسه

١. التوصل إلى حقيقة التوسل: ٢٥٣.

٢. التوصل إلى حقيقة التوسل: ٢٥٣ و ٢٥٦. وقد أخذه من ابن تيمية حيث قال: «وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره فيتوسلوا به، ويقولوا في دعائهم في الصحراء: نسألك ونقسم عليك بأبيانك أو نبيك أو بجاههم. مجموعة الرسائل والمسائل: ١٢/١».

أن يفسر الحديث بما ذكره، فمن أين يقول: إنَّ عمر بن الخطاب كلَّف العباس أن يستسقي للمسلمين، بل الخليفة قام بنفسه بالاستسقاء متوسلاً بعم النبي العباس حيث قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَتَوَسَّلُ...» فَإِنَّ الاستسقاء وظيفة الإمام، وكان الإمام هو الخليفة نفسه لا العباس وقد عقد البخاري باباً وقال: (باب إذا استشفعوا إلى الإمام يستسقي لهم لم يردهم)^(١).

ويؤيد أن المستسقي هو الإمام ومن كان معه في المصلى، ما رواه المؤرخ الكبير ابن الأثير فقال: استسقى عمر بن الخطاب بالعباس، عام الرمادة، لما اشتد القحط، فسقاهم الله تعالى به وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه. وقال حسان:

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا	فسقى الغمام بغرة العباس
عم النبي وصنو والده الذي	ورث النبي بذاك دون الناس
أحيا الإله به البلاد فأصبحت	مخضرة الأجناب بعد الياس

ولما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون: هنيئاً لك ساقى الحرمين.^(٢)

يقول القسطلاني: إنَّ عمر لما استسقى بالعباس قال: أيها الناس إنَّ رسول الله يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا به في عمه، واتخذوه وسيلة إلى الله تعالى .

ثم إنَّ الاستسقاء وإن كان يتم بصرف الدعاء، ولكن أفضله هو

٢. أسد الغابة في معرفة الصحابة ١١١/٣ طبع مصر.

١. صحيح البخاري: ٢٠/٢.

الاستسقاء بركعتين من الصلاة. وروى البخاري أن النبي استسقى فصلي ركعتين، وقلب رداءه .

وروى أيضاً أن النبي خرج إلى المصلّى يصلي، وأنه لما دعا أو أراد أن يدعو استقبال القبلة وحول رداءه.^(١)

ولو كان الاستسقاء بإقامة الصلاة، فكانت الإمامة للخليفة، والإستمام للباقيين .

ولو تحقق بصورة الدعاء، فكان الدعاء من الخليفة، والمرافقة بالتأمين من غيره. ولا ينافي ذلك أن يكون لكل من المأمومين دعاء على حدة، وراء الدعاء الذي يدعو به الإمام، وقد ضبط متن الدعاء الذي دعا به العباس، وقد نقلوا أنه كان من دعائه :

اللَّهُمَّ لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث.^(٢)

ولقد ورد في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت استحباب إخراج الصغار الرضع، والكبار الركع إلى المصلّى، ليكون الحال أنسب لنزول الرحمة الإلهية، فإن الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن في السن أسير الله في أرضه، وكلتا الطائفتين، أحق بالرحمة والمرحمة، فببركتهم تنزل الرحمة وتعم غيرهم، وبذلك يظهر الجواب عما ذكره الرفاعي من أنه لو كان قصد الخليفة ذات العباس لكان النبي أولى وأقرب إلى الله من ذات

العباس - لما عرفت - من أن الهدف من إخراج عم النبي إلى المصلى وضمه إلى الناس، هو استنزال الرحمة، قائلين بأننا لو لم نكن مستحقين لنزول الرحمة لكن عمّ النبي لها، فأنزل رحمتك إليه لتريحه من أزمة القحط والغلاء وبالتالي تعم غيره؛ ومن المعلوم أن هذا لا يتحقق إلا بالتوسل بإنسان حي يكون شريكاً مع الجماعة في المصير، وفي عناء العيش ورغده، لا مثل النبي الراحل الخارج عن الدنيا و النازل دار الآخرة، ولو توسل به أيضاً، فإنما هو بملاك آخر، ولم يكن مطروحاً في المقام .



٤- توسل الأعرابي بالنبي نفسه

روى جمع من المحدثين أن أعرابياً دخل على رسول الله ﷺ وقال:
 لقد أتيناك وما لنا بغير ينط، ولا صبي يفظ، ثم أنشأ يقول:
 أتيناك والعدراء تدمى لبانها
 وقد شغلت أم الصبي عن الطفل
 ولا شيء مما يأكل الناس عندنا
 سوى الحنظل العامي والعلهز الفسل
 وليس لنا إلا اليك فرارنا
 وأين فرار الناس إلا إلى الرسل؟
 فقام رسول الله ﷺ يجر رداءه حتى صعد المنبر، فرفع يديه وقال:

اللَّهُمَّ اسقنا غيثاً مغيثاً... فما رد النبي يديه حتى ألقت السماء... ثم قال: لله
در أبي طالب، لو كان حياً لقرت عيناه. من ينشدنا قوله؟

فقام علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: كأنك تريد يا رسول الله قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يطوف به الهلاك من آل هاشم

فهم عنده في نعمة وفواضل

فقال النبي عليه السلام: أجل .

فأنشد علي عليه السلام أبياتاً من القصيدة، والرسول يستغفر لأبي طالب علي

المنبر، ثم قام رجل من كنانة وأنشد يقول:

لك الحمد والحمد ممن شكر سقينا بوجه النبي المطر^(١)

دلالة الحديث

إن الإمعان في مجموع الرواية يعرب عن أن الأعرابي توسل بشخص

النبي وطلب منه قضاء حاجته، والدليل على ذلك الأمور التالية:

أ - أتيناك وما لنا بغير يسط .

ب - أتيناك والعذراء تدمي لبانها .

١. السيرة الحلبية : ١ / ١١٦ . لاحظ فتح الباري : ٢ / ٤٩٤ والقصيدة المذكورة في السيرة النبوية لابن

ج - وليس لنا إلا إليك فرارنا .

د - وأين فرار الناس إلا إلى الرسل؟

هـ - إن شاء علي بن أبي طالب شعر والده، وهو يتضمن قوله: «وأبيض يستسقى الغمام بوجهه» .

روى ابن عساكر عن أبي عرفة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب! ألقط الوادي وأجدب، فهلم واستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجى، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأصبغه الغلام وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هيهنا وهيهنا وأغدق واغدوق، انفجر له الوادي، وأخصب البادي والنادي، وإلى تلك الحادثة يشير أبو طالب في شعره:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(١)

فممثلة الحادثتين تحكم بأن التوسل كان بذات النبي، كما كان توسل أبي طالب بنفس النبي.

و - قول رجل من كنانة في شعره، «سقيننا بوجه النبي المطر» .

كل ذلك يعرب عن أن التوسل كان من الأعرابي وغيره بنفس النبي .

نعم إن النبي الأكرم قام بالدعاء، فلا يكون دعاء النبي قرينة على أن الأعرابي توسل بدعائه، إذ لا منافاة بين أن يكون توسله بشخص النبي

وكرامته وفضيلته، وبين أن يقوم النبي بقضاء حاجته (استئزال المطر) بطلبه من الله سبحانه .

فمن يريد أن يؤزل هذه النصوص ويجعلها من قبيل التوسل بالدعاء، فهو إنما يحاول دعم رأيه المسبق .

نقد ما ذكره الرفاعي

إن الشيخ الرفاعي لكونه قد اتخذ موقفاً مسبقاً خاصاً في التوسل بالأنبياء والصالحين، تجشّم عناء تأويل نصوص الأحاديث بما يتبناه، ولما كان الحديث صريحاً في التوسل بنفس النبي صار يعترض على هذه الدلالة قائلاً بأن الأعرابي جاء إلى النبي ليدعو الله لهم بأن يستقيهم الغيث، والآ لبقي الأعرابي في منزله، واكتفى أن يقول وهو في بيته: اللهم اسقنا الغيث بجاه نبيك، أو بذات نبيك، ولما تجشّم المجيء من أهله وبيته إلى النبي في المدينة.^(١)

يلاحظ عليه: أنه لا منافاة بين الأمرين حتى يكون أحدهما قرينة على الأخرى، حتى يتصرف في النصوص بتفسيرها الخاص بالتوسل إلى الدعاء، فالأعرابي توسل بذات النبي، ولا يهّمه سوى قضاء حاجته من أي طريق كان، سواء أتحقق بدعاء النبي أم بإعجازه وكرامته، وأما أنه لماذا تجشّم عناء المجيء من أهله وبيته إلى النبي ولم يكتف بالتوسل نفسه، فلاّته كان

١. التوصل إلى حقيقة التوسل : ٢٩١ وقد أخذه من شيخه ابن تيمية. لاحظ مجموعة الرسائل

يرى للمثول أمامه فضيلة وكرامة، أو أن توسله بشخصه إذا انضم إليه دعاء النبي يوجب قضاء حاجته ولا يتحقق إلا بالحضور لديه، فلأجل ذلك جاء إلى النبي وتوسل بشخصه وشخصيته، فصار ذلك سبباً لقيام النبي، ولا يعني هذا أنه توسل بدعائه ﷺ، إذ لا منافاة بين أن يتوسل الأعرابي بشخصه، وبين أن يكون هذا داعياً للنبي أن يقوم بالدعاء، فلا يكون دعاؤه قرينة على كيفية التوسل.

وأخيراً يؤخذ الرفاعي بأنه ذكر متن الحديث بصورة مختصرة، فترك ما ذكرناه من القرائن، ولم يشر إلى المصادر الكثيرة التي نقلت هذا الحديث.

المناقشة في سند الحديث

جاء الرفاعي يناقش في سند هذا الحديث بأن في سنده (مسلم الملائي)، ونقل عن علماء الرجال أنه متروك، وقال أحمد: لا يكتب حديثه. وقال يحيى: ليس بثقة، وقال البخاري: يتكلمون فيه، وقال يحيى أيضاً: زعموا أنه اختلط، وقال النسائي وغيره: متروك، وقال الذهبي: إنه روى حديث الطير الذي أهدته أم أيمن لرسول الله، وحديث الطائر موضوع عند أهل الحديث.

أقول: إن ذيل العبارة يكشف عن الدافع الذي دفع هؤلاء إلى تضييف الرجل، وهو ليس إلا كونه ناقلاً لفضيلة ساطعة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

روى أحمد بن حنبل بسنده عن سفينة مولى رسول الله قال: أهدت امرأة من الأنصار إلى رسول الله طيرين بين رغيفين، فقدمت إليه الطيرين، فقال رسول الله ﷺ: أَللَّهُمَّ ائْتِنِي بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إِلَيْكَ وَالِي رَسُولِكَ، فَجَاءَ عَلِيٌّ فَرَفَعَ صَوْتَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ: عَلِيٌّ، قَالَ: فَافْتَحْ لَهُ، فَفَتَحْتُ لَهُ فَأَكَلَ مِنَ الطَّيْرِ مَعَ النَّبِيِّ حَتَّى فَنِيَا. ^(١)

وعلى ضوء هذا لا تقام لهذا التضعيف قيمة.

٥- توسل المنصور بالنبي بتعليم مالك

إن المنصور الدوانيقي سأل مالك بن أنس، إمام المالكية، عن كيفية زيارة رسول الله ﷺ والتوسل به، فقال لمالك:

يا أبا عبد الله، أستقبل القبلة وأدعو. أم أستقبل رسول الله؟

فقال مالك في جوابه:

لم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ ^(٢).

وقد نقل ابن حجر الهيثمي عن الإمام الشافعي هذين البيتين:

١. فضائل الصحابة: ٢ / ٥٦٠. ورواه غيره لاحظ العمدة لابن البطريق: ٢٤٢ - ٢٥٣.

٢. وفاء الوفا: ٢ / ٢٥٣. والآية من سورة النساء: ٦٤.

آل النبي ذريعتي وهم إليهم وسيلتي
أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمين صحيفتي^(١)

هذه النقول والنصوص من أئمة الأمة ومشاهيرها تكشف عن أمرين:

١- إن التوسل بالصالحين - وفي الطليعة الأنبياء العظام - كان أمراً رائجاً بين المسلمين، ولم يخطر ببال أحد أنه شرك، كما لم يخطر ببالهم التفريق بين التوسل بأشخاصهم وذواتهم، ولم يصنع هذا التفريق سوى الوهابيين الذين يسعون في الحط من منزلة الصالحين ومكانتهم، ويجعلون التوسل بدعائهم كالتوسل بدعاء الأخ المؤمن، وأنه لا فرق بين هذا وذاك، وهم وإن كانوا لا يصرحون بهذه التسوية، لكنهم يكونون ذلك ويضمرونه .

٢- إن هذه النصوص تفسر لنا قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»^(٢).

فإن الوسيلة سواء أفسرت بمعنى القرابة والمنزلة والدرجة، كما عليه أكثر المفسرين مأخوذاً من قولهم توسلت إليه، أي تقربت .

قال عترة بن شداد:

إن الرجال لهم إليك وسيلة أن يأخذوك تلجلجي وتحصني

ويقال: وسل إليه، أي: تقرب. قال لييد:

بلى كل ذي رأي إلى الله واسل.

وعليه فمعنى الوسيلة:الوصلة والقربة .

أم فسرت بما يتقرب به إلى الغير ويجمع على الوسائل والوسل، كما عليه أهل اللغة، قال الجوهري في صحاحه: الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسل والوسائل، وتوسل إليه بوسيلة أي: تقرب إليه بعمل .

وفي القاموس: الوسيلة والواسطة: المنزلة عند الملك والدرجة والقربة.

وفي المصباح: وسلت إلى الله بالعمل: رغبت وتقربت، ومنه اشتقاق الوسيلة، وهي ما يتقرب به إلى الله، والجمع الوسائل، وعلى أي تقدير:

فالتوسل بالصالحين بما لهم من مكانة ومنزلة عند الله، إما أنه بذاته تقرب إلى الله تعالى لأن إظهار المودة لمن يحبه الله محبوب وعمل صالح، أو وسيلة يتقرب به الإنسان إلى الله سبحانه، فهذه النقول تعرب عن مصداق للوسيلة في عرض سائر المصايدق من الأعمال الصالحة والعبادات، خصوصاً الجهاد ضد العدو الداخلي والخارجي الذي جاء في ذيل الآية، فتخصيص الوسيلة بالعبادات والاستغفار تخصيص بلا جهة.

إلى هنا تم الكلام حول التوسل بالصالحين أنفسهم وذواتهم، وبقي الكلام في التوسل بمنزلتهم وكرامتهم وحقهم، وإليك البيان:

﴿وَرَبِّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾^(١) .

أقسام التوسل:

(٢)

التوسل إلى الله بحق النبي وحرمة ومنزلته

إن من التوسلات الرانجة بين المسلمين منذ وقعوا في إطار التعليم الإسلامي، التوسل بمنازل الصالحين وحقوقهم على الله.

وليس معنى ذلك أن للعباد أو لبعضهم على الله سبحانه حقاً ذاتياً يلزم عليه سبحانه [عدم] الخروج عنه، بل لله سبحانه الحق كله، فله على الناس حقّ العبادة والطاعة إلى غير ذلك، بل المراد المقام والمنزلة التي منحها سبحانه عباده تكريماً لهم، وليس لأحد على الله حقّ إلا ما جعله الله سبحانه حقاً على ذمته لهم تفضلاً وتكريماً، قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وسيوافيك تفصيل ذلك عند البحث عن أحلاف الله سبحانه بحق المخلوق، فانتظر.

إن هذا النوع من التوسل لا يفترق عن التوسل بذات النبي وشخصه، فإنَّ المنزلة والمقام مرآة لشخصه وذاته، فإنَّ حرمة الشخص وكرامته ومنزله نابعة من كرامة ذاته وفضيلتها، فلو صحَّ التوسل بالأول كما تعرفت عليه من الأحاديث، يصحَّ الثاني من دون إشكال أو إبهام .
ويدلُّ عليه من الأحاديث ما نذكره:

أ - التوسل بحق السائلين

روى عطية بن العوفي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أَخْرَجْ أَشْرَأَ وَلَا بَطْرَأَ وَلَا رِبَاءَ وَلَا سَمْعَةَ، خَرَجْتَ أَتَقَاءَ سَخَطِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، أَنْ تَعِزَّنِي مِنَ النَّارِ وَأَنْ تَغْفِرَ ذُنُوبِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ»^(١).

فالحديث واضح مضموناً، ويدل على أنَّ للإنسان أن يتوسل إلى الله بحرمة أوليائه الصالحين ومنزلتهم وجاههم، فيجعلها وسيلة لقضاء حاجته .
إنَّ الكاتب الوهابي الرفاعي، حيث لم يجد ضعفاً في الدلالة، أخذ يضعف سند الحديث، قائلاً بأنَّ «في سنده عطية العوفي وهو ضعيف»^(٢).

١. سنن ابن ماجة: ٢٥٦/١، الحديث برقم ٧٧٨؛ مسند أحمد: ٣/٢١.

٢. التوصل إلى حقيقة التوسل: ٢١٢.

أقول: إن الدافع الوحيد لتضعيف عطية، ذلك التابعي الشهير، كما وصفه به الذهبي في «ميزان الاعتدال» هو تشييعه وولائه لعلي وآله عليهم السلام، ولأجل ذلك نرى أن الذهبي ينقل عن سالم المرادي: «كان عطية يتشييع»، وإن التشييع أحد وجوه التضعيف لدى القوم، ومع ذلك قال أبو حاتم: يكتب حديثه، ضعيف، وقال ابن معين: صالح.

وقال ابن حجر في «تقريب التهذيب»: «عطية بن سعد بن جناده العوفي الجدلي الكوفي أبو الحسن صدوق يخطئ كثيراً، كان شيعياً مدلساً»^(١).

وقال في «تهذيب التهذيب»: قال ابن عدي: قد روى عن جماعة من الثقات، ولعطية عن أبي سعيد أحاديث عدة، وعن غير أبي سعيد، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، وكان يعدّ من شيعة أهل الكوفة. قال الحضرمي: توفي سنة إحدى عشرة ومائة.

وقال ابن سعد: خرج عطية مع ابن الأشعث فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم أن يعرض عليه سب عليّ - إلى أن قال: - وكان ثقة إن شاء الله، وله أحاديث صالحة. كان أبو بكر البزار يعدّه في التشيع، روى عن جلّة الناس. وقال الساجي: ليس بحجة، وكان يقدّم عليّاً على الكل.^(٢)

وهذه النصوص تعرب عن تضارب الأقوال في حقه، كما تكشف عن

١. تقريب التهذيب: ٢ / ٢٤، برقم ٢١٦.

٢. تهذيب التهذيب: ٧ / ٢٢٧، برقم ٤١٣.

أَنْ الدافع المهم لتضعيفه، تشيِّعه وحبِّه وولاؤه وتقديمه علياً، وهل هذا ذنب؟

إنَّ لوضع الحديث دوافع خاصة يوجد أكثرها في أبواب المناقب والمثالب وخصائص البلدان والقبائل، أو فيما يرجع إلى مجال العقائد، كالبدع الموروثة من اليهود والنصارى في أبواب التجسيم والجهة والجنة والنار، وأما مثل هذا الحديث الذي يعرب بوضوح عن أنه كلام إنسان خائف من الله سبحانه، ترتعد فرائضه من سماع عذابه، فبعيد عن الوضع والجعل .

ب - توسل النبي بحقه وحق من سبقه من الأنبياء

روى الطبراني بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه لما ماتت فاطمة بنت أسد أم علي - رضي الله عنهما - دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها، فقال: رحمك الله يا أمي. كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعينني، وتعرين وتكسينني، وتمنعين نفساً طيباً وتطمعيني، تريدن بذلك وجه الله والدار الآخرة، ثم أمر أن تغسل ثلاثاً ثلاثاً، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور، سكب رسول الله بيده، ثم خلع رسول الله قميصه فألبسها إياه، وكفنها ببرد فوقها، ثم دعا رسول الله أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري، وعمر بن الخطاب وغلماً أسود يحفرون، فحفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد، حفره رسول الله بيده، وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه وقال: «اللَّهُ الَّذِي يَحْيِي وَيَمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ،

اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسّع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين»، وكبّر عليها أربعاً، وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر.

رواه المحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ - ٣٦٠ هـ).

والاستدلال به مبني على تمامية الرواية سنداً و مضموناً، واليك البحث فيهما معاً:

١- رواه الطبراني في المعجم الأوسط، ص ٣٥٦ - ٣٥٧، وقال: لم يروه عن عاصم إلا سفيان الثوري، تفرد به «روح بن صلاح».

٢- ورواه أبو نعيم من طريق الطبراني في حلية الأولياء: ١٢١/٣.

٣- رواه الحاكم في مستدركه، ج ٣، ص ١٠٨، وهو لا يروي في هذا الكتاب إلا الصحيح على شرط الشيخين (البخاري و مسلم).

٤- رواه ابن عبد البر في الإستيعاب. لاحظ هامش الإصابة، ج ٤، ص

٣٨٢.

٥- نقله الذهبي في سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١١٨ - برقم ١٧.

٦- ورواه المحافظ نور الدين الهيثمي المتوفى سنة ٧٠٨ هـ في مجمع

الزوائد ومنبع الفوائد، ج ٩ ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

وقد جمع فيه زوائد مسند الإمام أحمد، وأبي يعلى الموصلي أبي بكر

البيزاس، ومعجم الطبراني الثلاثة، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط،

وفيه روح بن صلاح وثقة ابن حبان والحاكم، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح .

٧- رواه المتقي الهندي في كنز العمال، ج ١٣، ص ٦٣٦، برقم

٣٧٦٠٨ .

هؤلاء الحفاظ نقلوا الحديث في جوامعهم، وصرحوا بأن رجال السند رجال الصحيح، وأنه لو كان هناك ففي روح بن صلاح، وقد وثقه العلمان: ابن حبان والحاكم .

وقال الذهبي: روح بن صلاح المصري، يقال له ابن سيابة، ضعفه ابن عدي، يكتنأ أبا الحارث، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الحاكم: ثقة مأمون.^(١)

ولكن الكاتب الوهابي المعاصر يقول في سند الحديث: إن هذا الحديث غير صحيح، لأن في سنده رجلاً هو روح بن صلاح وقد ضعفه الجمهور، وقد روى أحاديث منكراً، كما صرح بذلك ابن يونس وابن عدي.^(٢)

وأنت خبير بأنه إنما ضعفه (ابن عدي) وأين هذا من قوله: وقد ضعفه الجمهور، أليس ابن حبان من أعلام الحديث ورجاله؟ أليس الحاكم هو الحافظ الكبير الذي استدرك على صحيحي الشيخين بما تركاه؟

إن الإنسان إذا اتخذ موقفاً مسبقاً في الموضوع، يحاول أن يضعف

الصحيح والقوي، ويقوي ويصحح الضعيف، وعلى كل تقدير فليس لنا ترك هذا الحديث وعدم العمل به بمجرد تضعيف ابن عدي لتوثيق غيره .

وأظن - وظن الأعمى صواب - أن الدافع إلى تضعيف نظراء روح بن صلاح هو ولاؤه ومودته لأهل بيت النبوة، حيث نقل هذه الدررة الباهرة في حق أم سيد الأوصياء.

هذا كله حول السند، وأما الدلالة فلا أظن أن من يملك شيئاً من الإنصاف يشك في دلالة الحديث على توسل النبي ﷺ بحقه وحق أنبيائه.

ج - توسل آدم بحق النبي

روى البيهقي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: لَمَّا اقترف آدم الخطيئة قال: ربي أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله عزوجل: يا آدم. كيف عرفت محمدأ ولم أخلقه؟ قال: لأنك يا رب لَمَّا خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله - عزوجل - : صدقت يا آدم. إنه لأحب الخلق إليّ وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك. ولو لا محمد ما خلقتك.

قال البيهقي: تفرد به عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، من هذا الوجه عنه، وهو ضعيف (والله أعلم).^(١)

١ . دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٣٨٤ - م ٤٥٨ هـ) طبع دار الكتب العلمية - بيروت: ٤٨٩ / ٥ .

إنَّ الشيخ الرفاعي لما رأى صراحة الحديث في التوسل بحق النبي أخذ يناقش في الحديث من جهات أخرى، وإليك بيانه:

١- إنَّ الحديث تضمَّن الإقسام على الله بمخلوقاته، وهو أمر خطير يقرب من الشرك، إن لم يكن هو ذاته، فالإقسام على الله بمحمد وهو مخلوق بل وأشرف المخلوقين لا يجوز، لأنَّ الحلف بمخلوق على مخلوق حرام، وإنه شرك لأنَّه حلف بغير الله، فالحلف على الله بمخلوقاته من باب أولى .

يلاحظ عليه: أنه سيوافيك جواز الحلف بالمخلوق، سواء حلف بمخلوق على مخلوق أو بمخلوق على الله، وأن القرآن مليء بالإقسام بالمخلوقات، فلو كان أمراً حراماً أو ذريعة إلى الشرك أو الشرك نفسه لما حلف سبحانه بمخلوقاته، وسيوافيك توضيحه، ولا يلازم الحلف بالمخلوق جعله في مرتبة الخالق، بحجة «إنا نحلف بالله فلو حلفنا بمخلوقه يلزم من ذلك جعله في مرتبة الخالق»، كيف ونحن نطيع الله سبحانه ونطيع رسوله، أفهل يتصور من ذلك أننا جعلنا الرسول في مرتبة الخالق؟ قال سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^(٢)، أفيلزم من ذلك أن يكون الوالدان في رتبة الخالق لأنَّه سبحانه أمر بشكر نفسه وشكر الوالدين .

١. النساء: ٥٩ .

٢. لقمان: ١٤ .

إن الحلف لا يستلزم أزيد من كون المحلوف به أمراً عظيماً عزيزاً لانقاً بالحلف به، وأما كونه في درجة الخالق فزعم عجيب واستدلال غريب. وأما كونه شركاً فقد عرفت أن المقصود هو الشرك في العبادة، والعنصر المقوم لتحقيقها هو الاعتقاد بكونها إلهاً أو رباً أو مفوضاً إليه فعله سبحانه، والمفروض عدمه .

تري أن الكاتب يجعل معتقده دليلاً على بطلان الحديث وضعفه،
أهكذا أدب النقد؟!

٢- إن الحوار الوارد في الحديث كان بعد اقتراب الخطيئة، ولكنه قبل أن يخطئ، علمه الله الأسماء كلها، ومن جملة الأسماء كلها اسم محمد ﷺ وعلم أنه نبي ورسول، وأنه خير الخلق أجمعين، فكان أخرى أن يقول آدم: ربي إنك أعلمتني به أنه كذلك، لما علمتني الأسماء كلها .
يلاحظ عليه: أن المسكين زعم أن المراد من الأسماء أسماء الموجودات، وغفل عن أن المراد هو العلم بحقائق الكون وقوانينه وسننه ورموزه بقريئة قوله سبحانه: «ثم عرضهم على الملائكة» فلو كان المراد الأسماء لكان الأنسب أن يقول: ثم عرضها، على أنه لا فضيلة رابية في تعلم أسماء الموجودات وألفاظها .

سلمنا أن المراد ما ذكره، لكن الظاهر من الحديث أنه وقف على ذلك بعد الخلقة ونفخ الروح فيه، قبل أن يحظى بتعلم الأسماء كلها، حيث قال: لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحي، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش...

والمبتادر من العبارة أن هذا العلم كان علماً خاصاً جزئياً وقف عليه بعد فتح عينيه على الحياة في الجنة، قبل تعلمه جميع الأسماء، وأما هو فقد كان مرحلة أخرى أوسع من هذا العلم، بل لا يقاس عليه .

وبالجملة: إن الحديث لا غبار عليه من حيث الدلالة. نعم يقع الكلام في السند. فقد ورد فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد ضعفه الذهبي اعتماداً على تضعيف أحمد وغيره.^(١)

ولكن الحاكم النيسابوري أورده في مستدركه، قائلاً بصحته^(٢) .

وعلى ذلك فليس الخبر على حد يحكم عليه بالوضع والجعل، كما يصر عليه الرفاعي بل هو كسائر الأحاديث التي اختلف العلماء في تصحيحها، فلو لم يكن دليلاً على المدعى يكون مؤيداً له، كيف وقد رواه جلال الدين السيوطي في تفسيره.^(٣)

وهناك نكتتان ننبه عليهما:

الأولى: إن أحاديث التوسل وإن كانت تتراوح بين الصحيح والحسن والضعيف، لكن المجموع يعرب عن تضافر المضمون وتواتره، فعند ذلك تسقط المناقشة في أسنادها بعد ملاحظة ورود كمية كبيرة من الأحاديث في هذا المجال، وأنت إذا لاحظت ما مضى من الروايات، وما يوافيك، تدعن بتضافر المضمون أو تواتره .

١. ميزان الاعتدال: ٥٦٤/٢ . ٢. المستدرک علی الصحیحین: ٦١٥/٢ .

٣. الدر المنثور: ٥٩/١، ونقله كثير من المفسرين عند تفسير الآية .

الثانية: نحن نفترض أنّ الحديث الراهن مجعول موضوع، ولكنه يعرب عن أنّ التوسل بالمخلوق والإقسام على الله بمخلوقاته ليس شركاً ولا ذريعة إليه، بل ولا حراماً.

وذلك لأنه لو كان شركاً وذريعة إليه أو حراماً، لما رواه الرواة الثقات واحداً عن واحد، وهم أعرف بموازن الشرك ومعاييره، ولما أورده الأكابر من العلماء في المعاجم الحديثية، كالبيهقي في دلائل النبوة، والحاكم في مستدركه، والسيوطي في تفسيره، والطبراني في المعجم الصغير، وأكابر المفسرين في القرون الغابرة، لأنّ الشرك أمر بين الغي، فلا معنى ولا مسوغ لنقله بحجة أنه رواية.

فكل ذلك يعرب عن الفكرة الخاطئة في توصيف الحلف على الله بمخلوقاته شركاً.^(١)

﴿قَبَائِي حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

١. قد تركنا البحث عن التوسل بجاه النبي الوارد في كلام الرفاعي، لأنه ليس قسماً ثالثاً، بل داخلاً في القسم الثاني، أي التوسل بحقه.

٢. المرسلات: ٥٠.

أقسام التوسل:

(٣)

التوسل بدعاء النبي ﷺ

قد تعرفت في صدر البحث على أن ابن تيمية وأتباعه يجوزون التوسل بدعاء النبي ﷺ في حال حياته، ويجعلونه من التوسلات الجائزة الداخلة في إطار «التوسل بدعاء الأخ المؤمن» ولكنهم يخصصونه بحال حياته، ويحرّمونه بعد رحلته، قال ابن تيمية:

أجمع أهل العلم على أن الصحابة كانوا يستشفعون به حال حياته ويتوسلون بحضرته، وأما في مغيبه أو بعد موته فلم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين، بل عمر بن الخطاب ومعاوية ومن كان يحضرهما من الصحابة والتابعين لما أجدبوا استسقوا بمن كان حياً كالعباس ويزيد بن الأسود، ولم ينقل عنهم أنهم في هذه الحالة استشفعوا بالنبي عند قبره ولا غيره، بل عدلوا إلى خيارهم... ثم إن المسلمين بعد موته إنما توسلوا بغيره من الأحياء بدلاً عنه، فلو كان التوسل به - حياً وميتاً - مشروعاً لم يميلوا عنه وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه، إلى غيره ممن ليس مثله. فعدولهم عن

هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون، وهم أعلم منا برسوله وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وما ينفع، وما لا يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره، وهم في وقت ضرورة ومخمصة يطلبون تفريج الكربات، وتيسير العسير، وإنزال الغيث بكل طريق، دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه، ولهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه، وذلك أن التوسل به حياً هو الطلب لدعائه وشفاعته، وهو من جنس مسألته أن يدعو، فما زال المسلمون يسألونه ليدعوا لهم في حياته، وأما بعد موته فلم يسأل الصحابة منه ذلك، لا عند قبره ولا عند غيره كما يفعله كثير من الناس عند قبور الصالحين.^(١)

وقد علق السيد محمد رشيد رضا مؤلف المنار على هذا الموضوع بقوله:

يزعم بعض الناس في زماننا أنه لا فرق في طلب الدعاء والشفاعة منه بين هذه الحياة والممات، لأنه حي في قبره وكأنهم يدعون أنهم أعلم من الصحابة وسائر أئمة السلف بذلك، فالصحابه - رضي الله عنهم - فرقوا بين الحالين، وإن شئت قلت بين الحياتين، والأمور التعبدية لا تشرع بالعقل ولا بالقياس.^(٢)

يلاحظ عليه: أن المعروف أن السنة عبارة عن قول المعصوم وفعله وتقريره، فالحجة عبارة عن أحد هذه الأمور، ونحن نفترض أن الصحابة

١. مجموعة الرسائل والمسائل: ١٤/١.

٢. المصدر نفسه.

بأجمعهم من المعصومين. فَإِنَّ أَقْصَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْتَجَّ بِهِ هُوَ أَنْ فَعَلَ
الصَّحَابَةُ دَلِيلَ عَلَى جَوَازِ الْفِعْلِ، وَأَمَّا أَنْ تَرْكَهُمْ دَلِيلَ عَلَى حَرَمَتِهِ، وَعَدَمِ
جَوَازِهِ، فَمِنْ عَجَائِبِ الْأُمُورِ وَغَرَائِبِهَا، وَلَمْ يَعْبُدْ هَذَا الْاِسْتِدْلَالَ مِنْ أَهْلِ
الْفَتْوَى وَالِدَلِيلِ.

وَأَمَّا عَدُولُ الصَّحَابَةِ عَنِ التَّوَسُّلِ بِدَعَاءِ النَّبِيِّ فِي حَالِ مَمَاتِهِ،
إِلَى التَّوَسُّلِ بِبَعْضِ أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَدْ ذَكَرْنَا وَجْهَهُ، وَهُوَ: أَنَّ التَّوَسُّلَ بِالْإِنْسَانِ
الصَّالِحِ الْحَيِّ لِأَجْلِ إِظْهَارِ أَنَّ ذَلِكَ الْفَرْدَ يَتَّحِدُ مَعَ الْمُتَوَسِّلِينَ فِي الْمَصِيرِ،
وَأَنَّهُ لَوْلَا نَزُولُ الرَّحْمَةِ لَعُمَّةُ الْهَلَاكِ وَالْدَّمَارِ مِثْلَهُمْ، وَيَمَا أَنَّهُ صَالِحٌ لِنَزُولِ
الرَّحْمَةِ عَلَيْهِ، فَلْتَنْزِلْ رَحْمَتَكَ عَلَيْهِ يَا رَبِّ فَإِنَّهُ أَهْلٌ لَذَلِكَ، وَإِنْ كُنَّا غَيْرِ
مُسْتَحْقِقِينَ لَهَا.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ تَرْسِيمَ هَذَا، الَّذِي هُوَ أَحَدُ الْأَسْبَابِ لِاسْتِنزَالِ
الرَّحْمَةِ، إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ بِالصَّالِحِ الْحَيِّ دُونَ غَيْرِهِ، لِأَنَّ غَيْرَ الْحَيِّ لَيْسَ مُتَّحِدًا فِي
الْمَصِيرِ مَعَ الْأَحْيَاءِ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ نَرَى الصَّحَابَةَ يَتَوَسَّلُونَ بِالْحَيِّ دُونَ غَيْرِهِ،
وَمَا هَذَا إِلَّا لِأَجْلِ ذَلِكَ. وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ «السَّبْكِيُّ» وَقَالَ: لَيْسَ فِي تَوْسَلِهِ
بِالْعَبَّاسِ إِنْكَارٌ لِلتَّوَسُّلِ بِالنَّبِيِّ أَوْ بِالْقَبْرِ، وَلَعَلَّ تَوْسَلَ عَمْرٍو بِالْعَبَّاسِ لِأَمْرَيْنِ:
أَحَدُهُمَا: لِيَدْعُو كَمَا حَكَيْتْنَا مِنْ دَعَائِهِ .

الثَّانِي: أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ يَسْتَسْقِي وَيَتَتَّقَى بِالسَّقِيَا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ،
بِخِلَافِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ فَإِنَّهُ مُسْتَغْنٍ عَنْهَا، فَاجْتَمَعَ فِي الْعَبَّاسِ
الْحَاجَةُ وَقُرْبُهُ مِنَ النَّبِيِّ وَشِبْهِهِ، وَاللَّهُ يَسْتَحْيِي مِنْ ذِي الشَّبِيهِ الْمُسْلِمِ، فَكَيْفَ

من عم نبيه، ويجيب دعاء المضطر فلذلك استسقى عمر بشيئته.^(١)

هذا ويصرح الذكر الحكيم بأنه ما نفع إيمان قوم بعد إشراف العذاب عليهم، إلا قوم يونس، قال سبحانه:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٢).

ذكر المفسرون: إن قوم يونس لما عاينوا العذاب، أشار إليهم العالم الموجود فيهم بقوله: افزعوا إلى الله فلعله يرحمكم ويرد العذاب عنكم، فاخرجوا إلى المفازة وفرقوا بين النساء والأولاد وبين سائر الحيوان وأولادها، ثم ابكوا وادعوا. ففعلوا فصرف عنهم العذاب^(٣).

ولم يكن هذا العمل إلا لأجل استنزال الرحمة على النحو الذي عرفت.

نعم، ما ذكره في آخر كلامه من أنه أمر عبادي يحتاج إلى الدليل فهو كلام متقن، ولكنه ليس معناه أن يكون الدليل المطلوب دليلاً بالخصوص، بل لو كان هناك عام أو إطلاق حول التوسل بدعاء النبي فيؤخذ بإطلاقه، سواء أكان النبي ﷺ في دار التكليف أم في البرزخ، واليك البيان:

وهو يتوقف على بيان أمور:

١. شفاء السقام: ١٤٣ - ١٤٤.

٢. يونس: ٩٨.

٣. مجمع البيان: ١٣٥/٣.

١- بقاء الروح بعد الموت

دلّت الآيات القرآنية على بقاء الروح بعد الموت، وأن الموت ليس بمعنى فناء الإنسان، بل هو عبارة عن انخلاع الروح عن البدن، وبقائه مستقلاً عنه، من غير فرق بين المسلم وغيره، والمقتول في سبيل الله وغيره، والآيات في ذلك متضافرة .

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَمْواتٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١)، وهناك آيات نشير إلى مواردنا، ومن أراد التوسع في الموضوع: فليرجع إليها.^(٢)

٢- الحقيقة الإنسانية هي الروح

إن الإنسان وإن كان بحسب التحليل الظاهري يتركب من شيئين: المادة والمعنى، والجسم والروح، ولكن الحقيقة الإنسانية عبارة عن نفس الإنسان وروحه، ولأجل ذلك يرّد الوحي الإلهي على من زعم أن البدن الإنساني يضل في العالم بعد الموت، حيث حكى عنهم قولهم: ﴿وَقَالُوا أَتِئدًا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَتِنَّا لِنبي خَلَقِ جَدِيدًا﴾ فردّ عليهم بقوله:

١. البقرة: ١٥٤.

٢. لاحظ: آل عمران: ١٦٩ - ١٧١، يس: ٢٥ - ٢٦، غافر: ٤٦.

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ﴾^(١).

ومعنى التوفي في الآية هو الأخذ، ومعنى الآية أن تنائر أجزاء البدن في أجواء العالم وثناياه، لا يضر بالمعاد، فإن الحقيقة الإنسانية وواقعيتها محفوظة عند الله، وأن ملك الموت يأخذكم، وليس المأخوذ إلا الروح .

٣- إمكان الاتصال بالأرواح

إن الذكر الحكيم يصدق صحة اتصال الإنسان العائش في الدنيا بالأرواح المتواجدة في عالم البرزخ، ويصرّح بأن بعض الأنبياء كصالح وشعيب كلّموا أرواح أممهم الهالكة، ويظهر ذلك بالإمعان في الآيات التالية: يقول في حق أمة شعيب:

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا
شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى
عَنَّهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ
عَلَىٰ قَوْمِ كَافِرِينَ﴾^(٢).

ترى أن قوله: «فتولى عنهم» جاء بعد الإخبار بدمارهم وهلاكهم كما

١. السجدة: ١٠- ١١.

٢. الأعراف: ٩١- ٩٣.

هو صريح سياق الآيات، وعندئذ خاطب الهالكين بقوله: «يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي...» .

ويقول في حق أمة صالح:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾^(١) .

وكيفية الاستدلال واضحة بعد التدبر في ما ذكرناه، فإن المخاطبة والمحاورة وقعت بعد هلاكهم، فلا يمكن لنا رفض سياق الآية والقول بأنه كلمهم في حال حياتهم.

إن الذكر الحكيم يأمر النبي بسؤال المرسلين ويقول: «وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَنْ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ»^(٢) .

وتأويل الآية بإرجاعها إلى سؤال علماء أهل الكتاب تأويل بلا دليل، ولا منافاة بينهما حتى يرجع أحدهما إلى الآخر .

إن المسلمين جميعاً يخاطبون النبي بالسلام في حال التشهد، ويقولون: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» وقد اتفق الفقهاء على كونه جزءاً من التشهد.^(٣)

٢. الزخرف: ٤٥ .

١. الأعراف: ٧٧-٧٩ .

٣. الخلاف، للشيخ الطوسي: ٤٧/١، وقد نقل صوراً مختلفة للتشهد عن أئمة المذاهب والكل يشتمل على خطاب النبي بالسلام .

وفي ضوء هذه الأمور الثلاثة تثبت إمكانية التوسل بالأرواح المقدسة، فالأولياء والأنبياء من جانب أحياء يرزقون، من جانب آخر، إن حقيقة الإنسان هي النفس الباقية بعد الموت أيضاً، ومن جانب ثالث، إن الأنبياء كلّموا أرواح أممهم الماضية. كل ذلك يدل على إمكانية الاتصال بهم ووقوعه، وأنهم يسمعون كلامنا وسلامنا ومحاورتنا.

بقي الكلام في جواز التوسل شرعاً، حتّى يكون تعبداً مع الدليل .

إنّ الذكر الحكيم بحث المذنبين على المعجىء إلى النبي وطلب الاستغفار منه يقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً»^(١)، والمتبادر إلى أذهاننا في هذا الزمان اختصاص الآية بحال حياة النبي، ولكن الصحابة فهموا منه الأعم من حال الحياة والارتحال إلى الرفيق الأعلى، ويدل على ذلك ما نذكر:

١- روى البيهقي عن مالك قال: أصاب الناس قحط في زمان عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله في المنام وقال: انت عمر فاقترنه السلام وأخبره أنهم مسقون.^(٢)

فالحديث يعرب عن أنّ التوسل بدعاء النبي بعد رحلته كان رائجاً، ولو كان عملاً محرماً أو بدعة فلماذا توسل هذا الرجل بدعائه؟ ولماذا بكى

١. النساء: ٦٤.

٢. دلائل النبوة: ٤٧/٧، باب ما جاء في رؤية النبي في المنام.

الخليفة بعد سماع كلامه، كما هو في ذيل الحديث ؟

يقول السهودي بعد نقل الحديث: ومحل الاستشهاد طلب الاستسقاء منه ﷺ وهو في البرزخ، ودعاؤه لربه في هذه الحالة غير ممتنع، وعلمه بسؤال من يسأله قد ورد، فلا مانع من سؤال الاستسقاء وغيره منه كما كان في الدنيا.^(١)

٢- روى ابن عساكر في تاريخه، وابن الجوزي في «مثير الغرام الساكن» وغيرهما بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي قال: دخلت المدينة فأتيت قبر النبي ﷺ فزرتة وجلست بحذائه، وجاء أعرابي فزاره ثم قال: يا خير الرسل! إن الله أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم - إلى قوله: رحيماً» وإني جئتك مستغفراً ربك من ذنوبي متشفعاً بك، وفي رواية: «وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي» ثم بكى وأنشأ يقول:

ياخير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم
ثم استغفر وانصرف.

٣- وقال السهودي: قال الحافظ أبو عبدالله محمد بن موسى بن النعمان في كتابه «مصباح الظلام»: إن الحافظ أبا سعيد السمعاني ذكر فيما روينا عنه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قدم علينا أعرابي بعد ما دفننا

رسول الله بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر النبي وحثا من تراه على رأسه وقال: يا رسول الله. قلت فسمعنا قولك، ووعيت من الله سبحانه ما وعينا عنك، وكان فيما أنزل عليك: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله...﴾ وقد ظلمت وجنتك تستغفر لي.^(١)

شبهات للكاتب الوهابي

إن للكاتب الوهابي، الرفاعي صخباً وهياجاً حول الحديث، فقد أشكل عليه بوجوه ستة لا يهمنها ذكرها والإجابة عن جميعها، لأنه غفل عن كيفية الاستدلال بهذه النقول، وسنشير إليها. نعم، يهمننا أن نذكر بعض اعتراضاته:

١- يقول: إن التوسل بدعاء النبي بعد موته رهن أن يسمع الرسول أو يتكلم، أو يصدر عنه أي عمل بعد موته، مع أنه قد انقطع عمله نهائياً كما قال هو عليه السلام: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له» ولا شك أن رسول الله يشمل هذا الحديث.

عزب عن المسكين مفاد الحديث، فإنه بصدد بيان انقطاع ابن آدم عن العمل الذي يترتب عليه الثواب، بقريئة استثناء الأمور الثلاثة، وقال أمير المؤمنين في هذا المجال: «وإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل»^(٢).

١. وفاء الوفا: ١٣٦١/٤.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٤٢.

وقال أيضاً: «ألا وإن اليوم المضمار، وغداً السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار، أفلا تائب عن خطيئته قبل منيته، ألا عامل لنفسه قبل يوم يؤسه؟»^(١).

فكيف يمكن القول بانقطاع عمل الميت نهائياً مع أن الشهداء في سبيل الله يقومون بأعمال ينوّه بها الذكر الحكيم ويقول: «فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَقَضَلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ»^(٢).

أو ليس الفرح بما أتوا من فضله سبحانه، والاستبشار بالذين لم يلحقوا بهم، والاستشعار بعدم الخوف والحزن، والاستبشار بنعم الله سبحانه، أفعالاً للراجلين إلى دار الآخرة؟ مضافاً إلى ما ورد من أنهم يرزقون عند ربهم^(٣).

٢- يقول: إن الحياة البرزخية حياة لا يعلمها إلا الله، فهي حياة مستقلة تؤمن بها ولا نعلم ماهيتها، وإن بين الأحياء والأموات حاجزاً يمنع الاتصال فيما بينهم قطعياً، وعلى هذا فيستحيل الاتصال بينهم، لا ذاتاً ولا صفاتاً والله سبحانه يقول: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»^(٤).

عجيب والله أمر هذا الرجل، إنه يأتي بالشبه والأوهام بصورة

١. نهج البلاغة: الخطبة ٢٨. ٢. آل عمران: ١٧٠ - ١٧١.

٣. لاحظ آل عمران: ١٦٩.

٤. التوصل إلى حقيقة التوصل: ٢٦٧. والآية ١٠٠ من سورة المؤمنون.

البرهان، ويجتهد في مقابل النص، وقد تعرفت على الآيات التي تحدثت عن محاوراة الأنبياء أرواح أممهم الهالكة، وقد تعرفت على أنه سبحانه أمر النبي بالسؤال عن الأنبياء. فما هذا الاجتهاد في مقابل النص؟

لقد تناسى الرجل حديث تكلم النبي مع أصحاب القليب المقتولين من كفره قريش، وقد ذكره أصحاب الحديث والتاريخ، واليك نص صحيح البخاري في ذلك: وقف النبي على قليب بدر وخاطب الذين قُتلوا وألقيت أجسادهم في القليب:

لقد كنتم جيران سوء لرسول الله، أخرجتموه من منزله وطردهتموه، ثم اجتمعتم عليه فحاربتموه، وقد وجدت ما وعدني ربي حقاً.

فقال له رجل: يا رسول الله ما خطاب إلهام سديت؟

فقال ﷺ: واللّه ما أنت بأسمع منهم، وما بينهم وبين أن تأخذهم الملائكة بمقامع من حديد إلا أن أعرض بوجهي - هكذا - عنهم^(١).

وروى ابن هشام عن أنس بن مالك، قال: لما سمع أصحاب رسول الله كلام رسول الله ﷺ من جوف الليل وهو يقول: يا أهل القليب، ويا عبدة بن ربيعة، ويا شيبه بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام - فعدد من كان منهم في القليب - هل وجدت ما وعدكم ربكم حقاً؟ فقال المسلمون: يا رسول الله أتنادي قوماً قد جيفوا؟^(٢) قال: ما أنتم بأسمع

١. صحيح البخاري: ٧٦١/٥ - ٧٧، باب قتل أبي جهل.

٢. قد جيفوا: أي قد صاروا جيفة.

لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.^(١)

لما وقعت الفتنة بالبصرة، خرج كعب بن سور، وكان قاضي البصرة لحرب خليفة رسول الله وإمام زمانه، ولما كان النصر حليفاً له ﷺ مرّ على جسد كعب بن سور، فقال لمن حوله: أجلسوا كعب بن سور، فأجلسوه بين شخصين يمسانه، فقال ﷺ: يا كعب بن سور قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟ ثم قال: أضجعوه، وسار قليلاً حتى مرّ بطلحة بن عبيد الله، فقال: أجلسوا طلحة، فكلمه بمثل ما كلم كعب بن سور، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ما كلامك لتقيلين لا يسمعان منك؟ فقال ﷺ: يا رجل والله لقد سمعا كلامي، كما سمع أهل القلب كلام رسول الله.^(٢)

٣- يقول إن القرآن يخبر بأن النبي لا يستطيع إسماع الموتى ويقول: «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى»^(٣)، وقال «وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مِّنْ فِيهِ الْقُبُورِ»^(٤)، والرسول بعد أن توفاه الله هو من الموتى ومن أهل القبور، فثبت أنه لا يسمع دعاء أحد من أهل الدنيا.^(٥)

ولكنه غفل عن أن طرف المحاوراة ليس الأجساد الخالية عن

١. السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٢٩٤، طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢. الجمل للشيخ المفيد: ٢١٠ ط النجف؛ حق اليقين للسيد شير: ٧٣ / ٢.

٣. النمل: ٨٠.

٤. فاطر: ٢٢.

٥. التوصل إلى حفيقة التوسل: ٢٦٨.

الأرواح، بل أرواح هذه الأبدان، فإن لها عيشة برزخية مقترنة مع بدن برزخي. وأما الوقوف على القبر - مع أنّ التكلم مع أرواحهم لا مع أجسادهم - فإنما هو لأجل تحصيل حالة نفسانية يستطيع معها الإنسان التوجه إلى أرواحهم، والالتفات إليهم حتى يكلمهم بما يقصد .

ومن عجيب الأمر أنه يقول: إن قوله سبحانه: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم...» يختص بالمنافقين، فعلى ما ذكره يكون المناق أعز عند الله من المؤمن، حيث يجوز للأول، طلب الاستغفار منه دون المؤمن، فهو أشمل لرحمة الله من الثاني «فاقص ما أنت قاص» مع أنّ مورد الآية لا يخصص إطلاقها، بل الآية عامة لكل من ظلم نفسه سواء أكان منافقاً أم غيره.

هذا عمدة ما استدلّ به الكاتب على عدم صحة الاحتجاج بالرواية، وأما الإشكال على سنده، أو اشتمال متنه على الشذوذ فلا يضر أبداً، فلنفترض نحن أنّ السند ضعيف، وأنّ في المتن بعض الإشكال، لكن لو كان التوسل بدعاء النبي بعد رحلته شركاً يوجب الخروج عن الدين، أو أمراً محرماً يجب أن يتوب عنه المسلم، فلماذا قامت جموع كثيرة من المحدثين بنقله والاحتجاج به، أو ليس عاراً على محدث إسلامي أن ينقل في جامعه وكتابه أثراً يشتمل على الشرك والأمر المحرّم الواضح، ولا يعود عليه بشيء.

ولنفترض أنّ الراوي وضع هذا الحديث ولم يكن له حقيقة، ولكن الواضع إنما يضع الحديث لأجل إلفات الناس إليه، فلو كان ذلك الأمر موجباً للشرك أو ما يقارنه، فالدواعي تكون عن وضعه مصروفة. كل ذلك

يعرب عن أن هذا العمل كان أمراً مباحاً فجاء هذا الراوي ينقل هذا الأمر على عفو الخاطر .

والاستدلال بهذه الرواية وما يأتي بعده بهذا الوجه، ولأجل ذلك لم نحاول أن نصحح السند .

٤- روى السمهودي عن الإمام محمد بن موسى بن النعمان في كتابه «مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام» عن محمد بن المنكدر: أودع رجل أبي ثمانين ديناراً وخرج للجهاد، وقال لأبي: إن احتجت أنفقها إلى أن أعود. وأصاب الناس جهد من الغلاء، فأنفق أبي الدنانير، فقدم الرجل وطلب ماله، فقال أبي: عد إليّ غداً، ويات بالمسجد يلوذ بقبر النبي مرة وبمنبره مرة، حتى كاد أن يصبح يستغيث بقبر النبي ﷺ فبينما هو كذلك فإذا بشخص في الظلام يقول:

دونكها يا أبا محمد. فمدّ أبي يده، فإذا بصرة فيها ثمانون ديناراً، فلما أصبح جاء الرجل فدفعها إليه^(١) .

وقد نقل السمهودي في هذا الفصل قصصاً كثيرة عن شخصيات إسلامية، فمن أراد فليرجع إليه^(٢) .

وقد عرفت أن كيفية الاستدلال بهذه القصص ليس على أساس صحة إسنادها أو خلو متونها عن الشذوذ، وإنما هو على أساس أنه لو كان هذا الأمر شركاً أو أمراً محرماً لما اهتمّ المحدثون والمؤرخون بنقلها، بل ولما

١. وفاء الرفا: ٤ / ١٣٨٠ .

٢. نفس المصدر: ٤ / ١٣٨٠ - ١٣٨٧ .

قام الوضاعون بوضعها، فإن الغرض من وضع الحديث هو بثه بين المحذّثين الواعين، ومن المعلوم أنه إذا كان التوسل بدعاء النبي بعد رحلته شركاً وبدعة على ما تدّعيه الوهابية، لكانت الدواعي عن وضعها ونقلها مصروفة جداً، وهذا يعرب عن أن العمل كان مشروعاً وسائغاً بين المسلمين، فلأجل ذلك قام هؤلاء بنقل هذه الأحاديث، وقام المتوسلون - على فرض الصحة - بهذا العمل، أو قام الوضاعون - على احتمال - بوضعها.

إلى هنا تبينت أحكام التوسل بأقسامه الثلاثة :

- * التوسل بذوات الصالحين وأنفسهم .
- * التوسل بحقهم ومنزلتهم ومكانتهم .
- * التوسل بدعائهم بعد رحلتهم ووفاتهم .

وأرى أن بسط الكلام في هذه المواضيع أزيد من ذلك ضياع للوقت، ومن أراد الحق فيكفيه ما حررناه، فطوبى لمن يستمع القول ويتبع أحسنه، وتباً لقوم «نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون» .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) .

(٨)

ابن تيمية وطلب الشفاعة ممن ثبت كونه شافعياً

اتفق المسلمون عامة على شفاعته النبي الأكرم يوم القيامة، وإن اختلفوا في معنى الشفاعة بين كونها سبباً لغفران الذنوب كما عليه الأشاعرة والإمامية وأهل الحديث، أو لترقيع الدرجة كما عليه المعتزلة. إنَّما الكلام في طلب الشفاعة من النبي في حال حياته ومماته، فالمسلمون إلى عهد ابن تيمية اتفقوا على جوازه حياً وميتاً، وهو من فروع طلب الدعاء من المشفوع له، إلى أن جاء ابن تيمية في القرن الثامن الهجري ورفع راية الخلاف بين المسلمين، وقال: «لا يجوز طلب الشفاعة من النبي الأكرم ﷺ» فهو يسلم بأن نبي الإسلام وسائر الأنبياء لهم حق الشفاعة في الآخرة، ولكن يقول: لا يطلب الشفاعة إلا من الله، يقول ابن تيمية:

«قد ذكر العلماء وأئمة الدين الأدعية المشروعة وأعرضوا عن الأدعية

المبتدعة، ثم بيّن مراتب الأدعية المبتدعة على النحو التالي»:

١- الدعاء لغير الله سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً، وسواء أكان من

الأنبياء ﷺ أم غيرهم فيقال: يا سيدي فلان أغثنِي، وأنا مستجيرك ونحو

ذلك، فهذا هو الشرك بالله...

٢- أن يقول للميت أو الغائب من الأنبياء: ادع الله لي، أو ادع لنا ربك ونحو ذلك، فهذا لا يستريب عالم أنه غير جائز...

٣- أن يقول: أسألك بجاه فلان عندك أو بحرمة ونحو ذلك، فهو الذي تقدم عن أبي محمد أنه أفتى بأنه لا يجوز في غير النبي، وأفتى أبو حنيفة وأبو يوسف وغيرهما أنه لا يجوز في حق أحد من الأنبياء، فكيف بغيرهم...؟^(١)

يلاحظ على مجموع ما ذكره:

أما القسم الأول، فإن عدّه شركاً، عجيب جداً، هذا هو القرآن الكريم يذكر عن شيعة موسى قوله: «فَاسْتَفَّاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى السَّيِّدِ مِنْ عُدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ»^(٢)، ومعها كيف يقول: إن قول القائل «يا سيدي فلان أغثنى» شرك سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً، أو لم يكن موسى حياً حين استفأه الذي من شيعته؟ ولو خصّ الشرك بصورة كون المدعو ميتاً - فمع أنه مخالف لصريح كلامه - لا يكون سبباً للشرك، إذ لا معنى لكون خطاب في حال، عين التوحيد، وفي أخرى نفس الشرك، نعم الموت والحياة يؤثران في الجدوائية وعدمها.

وأما القسم الثالث، أعني قول القائل: أسألك بجاه فلان عندك أو بحرمة، فهو داخل في القسم الثاني من التوسل الذي قدمنا الكلام فيه،

وذكرنا هناك توسل شخص النبي بحقه وحق الأنبياء .

نعم، الكلام في القسم الثاني، وهو أن يخاطب الأنبياء والصالحين بقوله: «ادع الله لي، أو ادع لنا ربك» وهذا هو الذي ذكر في حقه «أنه لا يستريب عالم في أنه غير جائز» مع أن طلب الشفاعة هو طلب الدعاء من الشافعين في حال حياتهم ومماتهم .

ثم إن لأتباع محيي مسلك ابن تيمية في القرن الثاني عشر، أعني محمد بن عبدالوهاب، تعبيراً واضحاً في ذلك المجال يقول:

«إن طلب الشفاعة يجب أن يكون من الله لا من الشفعاء بأن يقول:

اللهم شفّع نبينا محمداً فينا يوم القيامة، أو اللهم شفّع فينا عبادك الصالحين، أو ملائكتك أو نحو ذلك مما يطلب من الله لا منهم، فلا يقال: يا رسول الله أو يا ولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها، مما لا يقدر عليه إلا الله، فإذا طلبت ذلك في أيام البرزخ كان ذلك من أقسام الشرك.^(١)

هكذا نرى أن الاتهام بالشرك أرخص وأوفر شيء في كتب الوهابية وشيخها ابن تيمية، ولتحقيق الحال نركّز على أمرين يتتني عليهما جواز طلب الشفاعة من الأنبياء والصالحين في هذه الدنيا وهما:

١- إن طلب الشفاعة هو طلب الدعاء .

٢- إن طلب الدعاء من الصالحين أمر مستحب في الإسلام، وقد جوّزته الوهابية إذا كان المدعو حياً، وإليك بيانهما:

أ - طلب الشفاعة هو طلب الدعاء

إن شفاعة النبي وسائر الشفعاء هي الدعاء إلى الله وطلب المغفرة منه سبحانه للمذنبين، والله سبحانه أذن لهم في الدعاء في ظروف خاصة، فيستجاب فيما أذن، وهم لا يدعون في غير ما أذن الله لهم .

نعم، نحن لا نحيط بكنه الشفاعة في يوم القيامة، ولعل لها في ذلك اليوم مرتبة أخرى، ولكن الدعاء إلى الله من مراتبها ومن أوضح مصاديقها، فقول القائل مقابل قبر النبي «يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله» لا يقصد إلا هذا المعنى. هذا هو المفسر المعروف النيسابوري يذكر عن مقاتل في تفسير قوله تعالى: «مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا»^(١).... الشفاعة إلى الله إنما هي دعوة الله لمسلم.^(٢)

وهذا هو الإمام الرازي يفسر الشفاعة بالدعاء والتوسل إلى الله، فقد قال في تفسير قوله سبحانه: «وَيَسْتَفْعِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً» هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين، وإذا ثبت هذا في حق الملائكة فكذلك في حق الأنبياء، لانعقاد الإجماع على أنه لا فرق.^(٣)

١. النساء: ٨٥.

٢. تفسير النيسابوري: ١١٨/٥ بهامش تفسير الطبري.

٣. مفاتيح الغيب: ٢٨٦/٧ - طبع مصر، سورة غافر: ٧.

وقال أيضاً قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَدُنِّكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فأمر محمداً أن يذكر أولاً الاستغفار لنفسه، ثم بعده يذكر الاستغفار لغيره، وحكى عن نوح ﷺ أنه قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.^(١)

وعلى هذا فالشفاعة هي دعاء الشفيع للمذنب، وطلب الشفاعة منه هو طلب الدعاء منه، وقد سمي في الأحاديث: دعاء المسلم لأخيه المسلم شفاعة له، روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس عن النبي أنه قال: ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله إلا شفّعهم الله فيه.^(٢)

فلو أن رجلاً أوصى في حال حياته أربعين رجلاً من أصدقائه الأوفياء على أن يقوموا بالدعاء له بعد موته وفوته، فقد طلب الشفاعة منهم .

وقد أفرد البخاري في صحيحه باباً بعنوان «إذا استشفعوا إلى الإمام ليستسقي لهم لم يردهم» وأفرد باباً آخر بعنوان «إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط».^(٣)

كل ذلك يدل على أن الشفاعة بمعنى الدعاء إلى الله، وطلبها هو طلب الدعاء .

١. مفاتيح الغيب: ٢٢٠/٨، سورة محمد: ١٩ وسورة نوح: ٢٨.

٢. صحيح مسلم: ٥٤/٣.

٣. صحيح البخاري: ٢٩/٢ - أبواب الاستسقاء .

ب - طلب الدعاء من المؤمن ليس شركاً ولا حراماً

لا يتصور أن يكون طلب الدعاء من المؤمن أو الصالح أو الأنبياء العظام شركاً سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً، أمّا الأحياء فقد صرح القرآن الكريم بجوازه، وأمر الظالمين بالمجيء إلى النبي وطلب الاستغفار منه. قال سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾^(١). وحكى عن ولد يعقوب أنهم قالوا لأبيهم ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾^(٢).

كما أنه لا يكون شركاً، لا يكون حراماً أيضاً، ونحن ننقل مجموعة من الأحاديث مما ورد فيه طلب الشفاعة:

١- هذا هو الترمذي يروي في صحيحه عن أنس أنه قال: سألت النبي أن يشفع لي يوم القيامة فقال: أنا فاعل. قلت: فأين أطلبك؟ قال: على الصراط.^(٣)

والعجب من الشيخ الرفاعي الذي يأتي بكل ما ذكره ابن تيمية

١. النساء: ٦٤.

٢. يوسف: ٩٧-٩٨.

٣. سنن الترمذي: ٤٢/٤، باب ما جاء في شأن الصراط.

ومحمد بن عبدالوهاب حرفاً بحرف، لكن بثوب جديد وصبغة جديدة،
استشكل على الاستدلال بهذا الحديث بقوله:

الف. إنه ليس من قبيل التوسل بالمخلوق، بل من قبيل التوسل إلى ربه
بدعاء أخيه المؤمن له .

ب. طلب أنس من الرسول أن يشفع له يوم القيامة، يفيد أن أنساً
يقصد أن يدعو له الله تعالى أن يشفعه به يوم القيامة، أي يجعله في جملة
الحد الذي يحده له فيشفع فيهم.^(١)

يلاحظ عليه: أن الهدف من الاستدلال بالحديث هو إثبات جواز طلب
الشفاعة من المخلوق، لا التوسل بذوات المخلوقين، فإنه بحث آخر، وله
حجج أخرى قدمناها. هذا حول الإشكال الأول .

وأما الثاني: فهو تأويل لظاهر الحديث دعماً للمذهب الذي تبناه، فإن
المتبادر من قوله: «سألت النبي أن يشفع لي يوم القيامة» أي قلت له: يا
رسول الله اشفع لي يوم القيامة. وأين هو من التأويل الذي يذكره الرفاعي
من أنه قصد أن يدعو الله تعالى أن يشفعه به يوم القيامة؟ ولو كان المقصود
هذا فإن أنساً من العرب العرياء، كان له أن يفصح عن مراده ويقول: يا
رسول الله ادع الله تعالى أن يشفعك في، يوم القيامة .

وليس هذا التأويل وأمثاله الذي ارتكبه ذلك الكاتب إلا تحريفاً للكلم
ليروج متاعه .

ثم إنه استشكل على الحديث بضعف السند، فقال: «إن في سنده أبا الخطاب حرب بن ميمون وقد ضَعَفَ ووَثَّقَ» وإليك ما ذكره الذهبي في حقه: حرب بن ميمون، أبو الخطاب الأنصاري، بصري صدوق يخطئ، قال أبو زرعة: لَين، وقال يحيى بن معين: صالح وثقه علي بن المديني وغيره.

وأما البخاري فذكره في الضعفاء.^(١)

وقال ابن حجر: «قال الخطيب في المتفق والمفترق: كان ثقة .

وقال الساجي في حرب بن ميمون: الأصغر، ضعيف عنده مناكير، والأكبر ثقة، والوارد في سند الرواية هو الأكبر، وقال ابن حبان: في الثقات، يخطئ .

وقرأت بخط الذهبي: وثقه ابن المديني ومات في حدود الستين والمائة.^(٢)

تري أن الأكثرية الغالبة وثقته غير البخاري، وهو ذكره في الضعفاء، ومن المعلوم أنه لا يمكن ترك حديثه بمجرد ذكر البخاري إياه في الضعفاء، ولم يعلم وجه كونه ضعيفاً عنده، ولعله لأجل كونه قديراً كما يظهر من ابن حجر في تهذيب التهذيب، أي قائلاً بالاختيار الذي هو على طرف النقيض من القول بالجبر، وهو موجب لقوته لا لضعفه، فالرواية حجة بلا إشكال.

٢. كيف لا يجوز طلب الشفاعة من الصالحين وهذا هو الطبراني روى

١. ميزان الاعتدال: ٤٧٠ / ١، رقم ١٧٧٣ .

٢. تهذيب التهذيب: ٢ / ٢٢٥ - ٢٢٦، رقم ٤١٨ .

في المعجم الكبير أن سواد بن قارب - رضي الله عنه - أنشد قصيدته:
 وأشهد أن الله لا ربَّ غيره وأنتك مأمون على كل غائب
 وأنتك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله يابن الأكرمين الأطائب
 فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل وإن كان فيما فيه شيب الذوائب
 وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة بمغنٍ فتيلاً عن سواد بن قارب^(١)

والشاهد هو البيت الأخير حيث طلب الشفاعة من النبي ﷺ .

إن الكاتب الوهابي الرفاعي لم يجد بدأً عن التسليم لما يفيد به البيت الأخير وقال:

«إن سواد بن قارب يخاطب رسول الله ويرجوه أن يدعو الله تعالى أن يكون له شفيعاً يوم القيامة، والخطاب هذا لا شك كان في حياته، وطلب الشفاعة منه في حياته لا بأس به، لأنه طلب لدعائه لأن يكون سواد في جملة من يشفعه فيهم يوم القيامة.»^(٢)

أقول: الذي اعتذر به الرفاعي هو الذي وصفه بالشرك شيخ منجه أحمد بن تيمية، قال: الدعاء لغير الله سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً... فهذا هو الشرك بالله.^(٣)

١. دلائل النبوة: ٢/ ٢٤٨ ونقله الطبراني في المعجم الكبير: ١٠٩/٧ - ١١١، ورواه الحاكم في

مستدرکه، وابن كثير في تاريخه: ١/ ٣٤٤، والهيتمي في مجمع الزوائد: ٨/ ٢٥٠.

٢. التوصل إلى حقيقة التوسل: ٣٩٩.

٣. مجموعة الرسائل والمسائل: ١/ ٢٢.

فما هذا التناقض بين كلامه وكلام شيخه، فالذي يجيزه، هو الذي يصفه شيخه بالشرك، أبهذه المناقضات تكفرون المسلمين وتدعون الناس إلى نهج الحق ومعين التوحيد؟!

ثم إنه نقل عن بعض الوهابيين - أعني : إسماعيل الأنصاري - أنه ضعف سند الحديث، وذكر وجوهاً للضعف، وقد سبقه معلق مجمع الزوائد، غير أنه غفل عن وجه الاستدلال وهو ما ذكرناه فيما سبق:

إن هذا الحديث ونظائره على فرض الصدق وعدمه حجة على ما في مدلوله، إذ لو كان صادقاً فهو، وإن كان مجعولاً فلماذا ذكره المحدثون الكبار في جوامعهم كالطبراني في المعجم الكبير، والبيهقي في دلائل النبوة وغيرهما؟ ولا يعني من هذا أنهم لا يذكرون الأحاديث الضعاف في جوامعهم حتى يقال إن المحدثين بين ملتزم بنقل الصحيح وغيره، بل المقصود أنه إذا كان طلب الشفاعة شركاً على ما ذكره أحمد بن تيمية، أو مما لا يستريب عالم في أنه غير جائز، فلماذا نقلوا الحديث الباطل من دون أن يناقشوا في مضمونه ومنتنه؟ إذ لا يصح لهؤلاء أن يمرروا على خرافة شركية في كتبهم، أو أمر محرم لا يستريب فيه عالم مرور الكرام .

كل ذلك يعرب عن أن المضمون ليس عليه غبار، وأما ضعف السند فلا يكون دليلاً على كذبه، فإليك السند الذي رواه الطبراني به، فقد ورد فيه هؤلاء:

حدثنا محمد بن محمد التمار البصري، ثنا: بشر بن حجر الشامي، ثنا علي بن منصور، عن الأنباري، عن عثمان بن عبدالرحمن الواقصي، عن محمد بن كعب القرظي .

٣- كيف يكون شركاً وقد جاء في التاريخ أن رجلاً اسمه «تبع» قد بلغه أن نبي آخر الزمان سوف يظهر من مكة ويهاجر إلى المدينة، فكتب كتاباً ودفعه إلى بعض أقربائه كي يسلموه إلى رسول الله ﷺ وذكر فيه إسلامه وإيمانه، وأنه من أمة رسول الله ﷺ و مما جاء في هذه الرسالة: «فإن لم أدركك فاشفع لي يوم القيامة ولا تنسني» ومات الرجل، وكان الكتاب ينتقل من واحد إلى آخر، فلما قدم النبي المدينة دفعوا إليه الكتاب فقال: مرحباً بالأخ الصالح»^(١) .

فهل يصح للنبي أن يصف المشرك بالأخ الصالح؟ أو أن تقرأ عليه الرسالة ويقف على ما طلبه منه من الأمر المحرم دون أن يرد عليه؟

كل ذلك يعرب عن أن طلب الدعاء وطلب الشفاعة من الصالحين والأنبياء ليس شركاً في العبادة، ولا أمراً محرماً، ما هذا الجمود في فهم الإسلام؟ وما هذه الظنون والشبه التي تعتمدون عليها؟ فإن الإسلام دين حنيف سهل .

نعم لهم اعتراض على ما ذكرناه من الأدلة، بأنها ترجع إلى طلب

الشفاعة من الأحياء، وأنّ البحث إنّما هو في طلبه من غيرهم، والجواب:

قد عرفت في البحث السابق بوجوه قيمة من أنّ الطلب متوجه إلى الأرواح المقدسة التي لم تنقطع صلتها بنا، وقد جرت السنة على ذلك، وقد عرفت الأدلة على جواز التكلم مع الأرواح المؤمنة والمشركة، كما عرفت أنّ الأنبياء العظام كصالح وشعيب، والنبى الأكرم كلّموا قومهم بعد هلاكهم ودمارهم، غير أنّه تكميلاً للبحث نذكر بعض ما ورد من الأثر في ذلك المجال، أي طلب الدعاء بعد الالتحاق إلى رحمة الله .

هذا ابن عباس يقول: لما فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من تغسيل النبي، قال:

«بأبي أنت وأمي، اذكّرنا عند ربك واجعلنا من بالك»^(١) .

ويروي أهل السنة أنّه لما توفّي رسول الله جاء أبو بكر من سلع، وكشف عن وجهه وقبله وقال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً واذكرنا عند ربك»^(٢).

فما معنى المعارضة مع هذه النصوص ومعاكستها؟

«فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ»^(٣) .

١. نهج البلاغة: الخطبة رقم ٢٣٥. ونقل السيد الأمين في كشف الارتباب: ٢٦٥ أنّه قال: «بأبي أنت وأمي اذكّرنا عند ربك واجعلنا من همك»، نقلاً عن مجالس المفيد .

٢. السيرة الحلبية: ٣/٣٩٢.

٣. الأعراف: ١٨٥ .

أدلة الوهابيين على حرمة طلب الشفاعة

لقد تعرّفت فيما مضى على أن طلب الشفاعة يساوق طلب الدعاء، ولا يتصوّر أن يكون من أقسام الشرك في العبادة، أو يكون طلبه من المخلوق عبادة له، إلا أن يكون طلب الدعاء من مخلوق شركاً وعبادة، وهو ممّال يقل به أحد حتى الوهابيون .

نعم لهم شبهة ربما يغتر بها البسطاء، وهي أن المشركين كانوا يطلبونها من أصنامهم، فسماه الله عبادة لهم وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَسْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١) .

والشاهد في قوله: «ويعبدون من دون الله» مع ملاحظة ما في ذيل الآية: «ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله» وكان وجه عبادتهم لهم هو قولهم: «هؤلاء شفعاؤنا»^(٢) .

إن الاستدلال بالآية على كون طلب الشفاعة شركاً من غرائب الاستدلال وعجائبه، فإن الآية لو لم تدل على أن طلب الشفاعة يغاير عبادتهم لها، لا تدل على أن طلب الشفاعة عبادة للمدعو، وذلك

١. بونس: ١٨.

٢. مجموعة الرسائل والمسائل: ١٥/١.

أنه ورد في الآية جملتان نسبتهما إلى المشركين:

١- ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم .

٢- ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

والعطف يدل على المغايرة، وأن هنا عبادة، وأن هناك أمراً آخر وهو

طلب الشفاعة، وما هذا الخلط؟

ولنفترض أن طلب شفاعتهم كان عبادة لمعبوداتهم، وأن الجملة الثانية من قبيل عطف العام على الخاص ولكن أين طلب شفاعة المسلم الموحد من سيد الموحدين، من طلب شفاعة عبدة الأصنام والأوثان، فالمشركون كانوا يعتبرون الأوثان مالكة للشفاعة والمغفرة، فكان الله في معزل عنهما تماماً، ولا شك أن طلب الشفاعة من أيّ موجود مقروناً بهذا الاعتقاد يعد شركاً، لأنّ هذا الطلب مقرون بالوهية المدعو وربوبيته، في حين أن الإنسان المسلم يطلب الشفاعة والدعاء من الشفيع باعتباره عبداً مقرباً إلى الله، وإنساناً وجيهاً عنده، أذن الله تعالى له في شفاعة المجرمين، وادّخرها النبي لأهل الكبائر من أمته، كما ورد عن النبي الأكرم، ورواه الفريقان .

والمصدر لهذه التهمة هو أن القوم لم يضعوا حداً منطقياً جامعاً ومانعاً للعبادة حتى يميزوا به الدعاء العبادي عن غيره، فجعلوا يخبطون خبط عشواء لا يميزون بين الصحيح والسقيم .

نعم، إن الشفاعة حق خاص بالله دل عليه الذكر الحكيم وقال: ﴿أَمْ

اتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَقُولُونَ ﴿١﴾
قُلْ لِلَّهِ الشُّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴿١﴾ .

ولأجل كونه حقاً مختصاً بالله، لا يشفع النبي الأكرم ولا الشفاعة الآخر لأحد إلا بإذنه سبحانه، ولكن قوله: «لِلَّهِ الشُّفَاعَةُ جَمِيعاً» ليس معناه أنه سبحانه هو الشفيع دون غيره، لهداهة أن الله لا يشفع لأحد عند أحد، بل معناه أنه مالك لمقام الشفاعة، لا يملكه غيره ولا يشفع إلا بإذنه .

هذا وإن المشركين كانوا على خلاف ذلك كما يعرب عنه قوله سبحانه: «قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً» .

وفي الختام نذكر النقطة الأخيرة من كلامهم، وهي أن النبي الأكرم بعد التحاقه بالرفيق الأعلى لا يسمع بدليل قوله سبحانه: «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» ﴿٢﴾ .

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِنْ فِي الْقُبُورِ» ﴿٣﴾، ولكنك عرفت أن الآيتين لا تمتان إلى طلب الشفاعة من الأنبياء بصفة، فإن الأجساد الراقدة تحت التراب، غير قادرة على الإدراك والسمع، ولكن المخاطب هو الروح الطاهرة والحية التي تعيش بالجسد البرزخي في عالم البرزخ، والخطاب لتلك الأرواح النورانية والشفاعة تطلب منها، وأما السعي إلى الحضور في مقابرهم ومراقدهم فلاجل أن الحضور فيها يهتئ أنفسنا

١. الزمر: ٤٣ - ٤٤ .

٢. النمل: ٨٠ .

٣. فاطر: ٢٢ .

للاتصال بأرواحهم المقدسة، وعند ذلك نجد في أنفسنا دافعاً إلى التحدث معهم وهم يستمعون إلينا.

هذا هو الإمام الصادق عليه السلام أحد الأئمة يعلم شيعته كيفية زيارة أئمة أهل البيت بقوله:

«عالمًا أنك تسمع كلامي وترد سلامي... فكن لي إلى الله شفيعاً، فما لي وسيلة أوفى من قصدي إليك وتوسلي بك إلى الله»^(١).

وجاء في كلام آخر له عليه السلام: «اللهم... وأعلم أن رسولك وخلفاءك عليهم السلام أحياء عندك يرزقون، يرون مقامي ويسمعون كلامي ويردون سلامي، وأنت حجبت عن سمعي كلامهم، وفتحت باب فهمي بلذيت مناجاتهم»^(٢).

هذا وقد قال ابن تيمية: وفي سنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: ما من رجل مسلم سلم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحه حتى أردّ عليه السلام. وفي موطأ الإمام مالك أن عبد الله بن عمر - رضي الله تعالى عنهما - كان يقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبا، ثم ينصرف، وكذلك أنس بن مالك وغيره من الصحابة رضي الله عنهم، نقل عنهم السلام على النبي صلى الله عليه وآله.^(٣)

فأي فرق بين التسليم على الميت وبين طلب الدعاء منه؟ وإذا كان قادراً على رد السلام، يكون قادراً على الدعاء إلى الله، والشفاعة للداعي،

١. بحار الأنوار: ٢٩٥/٩٧. ٢. عدة الداعي لابن فهد الحلبي: ٨٤١.

٣. مجموعة الرسائل والمسائل: ٢٣/١.

ولو فرضنا أنه قادر على شيء واحد وهو رد السلام، وليس قادراً على الدعاء، يكون طلبه عندئذ لغوياً، لا شركاً ولا محرماً، ويكون أشبه باعتقاد أثر في نبات مع كونه خطأً. أو كون شخص قادراً على إنجاز عمل ولم يكن كذلك. ولم يقل أحد بكون هذا النوع من الاعتقاد شركاً.

(٩)

ابن تيمية والنذر لأهل القبور

قال ابن تيمية: وإذا كان الطلب من الموتى - ولو كانوا أنبياء - ممنوعاً خشية الشرك، فالنذر للقبور أو لسكان القبور نذر حرام باطل يشبه النذر للأوثان .

ويقول: ومن اعتقد أن في النذر للقبور نفعاً أو أجراً فهو ضالّ جاهل، ثم يقرر: إن ذلك نذر في معصية، وإن من يعتقد أنها باب الحوائج إلى الله، وأنها تكشف الضر وتفتح الرزق وتحفظ العمر، فهو كافر مشرك يجب قتله.^(١)

أقول: إنه قد ذيل كلامه بشيء لا يعتقد به أحد من المسلمين، حتى يجعل ذلك ذريعة لقبول صدر كلامه. فأبي مسلم يعتقد أن النبي يكشف الضر ويفتح الرزق ويحفظ العمر؟ بل معتقد جماهير المسلمين هو أن كل الأمور بيده سبحانه، وأن الناس هم الفقراء والله هو الغني الحميد، قال سبحانه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»^(٢).

١. قاعدة حلية في التوسل والوسيلة: ١٠٣.

٢. فاطر: ١٥.

ولو اعتقد أحد من المسلمين أن الأنبياء والصالحين ربما يقومون بأمر خارجة عن السنن العادية فهو نفس الاعتقاد بأنهم أصحاب المعجز والكرامات، وقد تواترت النصوص على ذلك وأنهم يبرنون الأكمه والأبرص ويحيون الموتى بإذن الله.^(١)

ومن يصف أحداً من الصالحين بباب الحوائج فإنما يصفه بهذا المعنى، يعني أنه سبحانه يستجيب دعاءه إذا دعاه، أو أنه سبحانه أعطاه مقدرة كبيرة مثل ما أعطى لمن كان عنده علم من الكتاب.^(٢)

فإذا صح ما في القرآن من أن أناساً من الأنبياء وغيرهم كانوا أصحاب مقدرة كبيرة يقومون بخوارق العادات وعجائب الأعمال بإذن الله، لصح التصديق في غيرهم ممن لم يجئ عنهم ذكر في القرآن، فما معنى الإيمان ببعض والكفر ببعض؟

وأما النذر للأموات، فتحقيقه يتوقف على بيان مقدمة:

النذر معناه أن يلزم الإنسان نفسه بأداء شيء معين إذا تحقق هدفه وقضيت حاجته، فيقول: لله علي أن أفعل كذا، إذا كان كذا. مثلاً يقول: لله علي أن اختتم القرآن إذا نجحت في الامتحانات الدراسية .

هذا هو النذر الشرعي، ويجب أن يكون لله، فإذا قال التاجر: نذرت لفلان، ففي قوله مجاز لغاية الاختصار، والمعنى نذرت لله علي أن أفعل

١. انظر آل عمران: ٤٩ والمائدة: ١١٠.

٢. قال سبحانه: ﴿قَالَ جِبْرِيلُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ... قَالَ الَّذِي جِنْدُهُ جَلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ النمل: ٣٩ - ٤٠.

شيئاً يكون ثوابه لفلان، وثواب النذر يقع على ثلاثة أقسام:

١- أن يكون الثواب لنفس الإنسان الناذر .

٢- أن يكون لشخص ميت .

٣- أن يكون لشخص حي .

وهذه الأقسام الثلاثة كلّها جائزة، ويجب على الناذر الوفاء بنذره إذا قضيت حاجته، وقد مدح الله سبحانه أهل البيت، لأجل الوفاء بالنذر. قال تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾^(١)، هذا هو النذر . وقد تعارف بين المسلمين أنّ النذر لله وإهداء ثوابه لأحد أولياء الله وعباده الصالحين، وكانت عليه السيرة بين المسلمين، إلى أن جاء الدهر بابن تيمية فحرّم ذلك كما عرفت من عبارته، وقد نقل عنه أيضاً العبارة التالية، وقال: «من نذر شيئاً للنبي أو غيره من النبيين والأولياء من أهل القبور، أو ذبح ذبيحة، كان كالمشركين الذين يذبحون لأوثانهم وينذرون لها، فهو عابد لغير الله، فيكون بذلك كافراً»^(٢).

عجيب جداً حكم ابن تيمية وتكفيره المسلمين بحجة أنّ عمل الناذر يشبه عمل المشركين، أيصحّ في ميزان النصفة الحكم بتكفير المسلمين الذين أرسوا قواعد التوحيد، وحملوه جيلاً بعد جيل إلى عصر ابن تيمية، بمجرد أنّ عمل الذابح والناذر يشبه عمل المشركين .

١ . الإنسان: الآية ٧.

٢ . نقله عنه شهاب الدين ابن حجر الهيتمي في كتاب «الجوهر المنظم في زيارة القبر الشريف النبوي المكرم» كما في فرقان القرآن للقرامى القضاعي: ١٣٢ .

فلو كان هذا ملاكاً للتكفير فابن تيمية والوهابيون وحماة هذه البدع من أعظم المشركين! فإن كثيراً من مناسك الحج و فرائضه (التي يقوم بها المسلمون من غير فرق بين الوهابي وغيره) تشبه في ظاهرها أعمال عبدة الأصنام، فقد كانوا يطوفون حول أصنامهم ويقبلونها، ونحن أيضاً نطوف حول الكعبة المشرفة ونقبل الحجر الأسود، ونذبح الذبائح ونقرب القرابين في منى يوم عيد الأضحى، كما كانوا يذبحون لأصنامهم، أفيصح تكفير الجميع لأجل هذه المماثلة؟

أو المقياس هو النية القلبية، وأن المقياس هو النية والضمائر دون المشابهة والظواهر، وقد قال رسول الله ﷺ: **إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**.^(١)

ولا يصح التسرع في الحكم بمجرد المماثلة، لأن كل من ينذر لأحد من الأولياء فإنما يقصد النذر لله، وإهداء الثواب للولي الصالح ليس إلا، ولا تجد في أديم الأرض من يسجل اسمه في ديوان المسلمين إلا وينوي ذلك، نعم شدّ عنهم ابن تيمية ومن أحيا مسلكه حيث اتهموا المسلمين بغير ذلك.

يقول الشيخ الخالدي رداً على ابن تيمية:

«إن المسألة تدور مدار نيات الناظرين، وإنما الأعمال بالنيات، فإن كان قصد الناظر الميت نفسه، والتقرب إليه بذلك، لم يجز - قولاً واحداً - وإن كان قصده وجه الله تعالى وانتفاع الأحياء بوجه من الوجوه به، وإهداء ثوابه لذلك المنذور له، وسواء عيّن وجهاً من وجوه الانتفاع، أو أطلق القول فيه،

وكان هناك ما يطرد الصرف فيه في عرف الناس، أو أقرباء الميت، أو نحو ذلك، ففي هذه الصورة يجب الوفاء بالندور»^(١).

قال العزامي:

«...ومن استخبر حال من يفعل ذلك من المسلمين، وجدهم لا يقصدون بذبائهم وندورهم للأموال - من الأنبياء والأولياء - إلا الصدقة عنهم، وجعل ثوابها لهم، وقد علموا أن إجماع أهل السنة منعقد على أن صدقة الأحياء نافعة للأموال، واصله إليهم، والأحاديث في ذلك صحيحة مشهورة.

فمنها: ما صحَّ عن سعد أنه سأل النبي ﷺ قال: يا نبي الله إن أمي قد افتلتت، وأعلم أنها لو عاشت لتصدقت أفان تصدقت عنها أينفعها ذلك؟

قال ﷺ: نعم. فسأل النبي: أي الصدقة انفع يا رسول الله؟

قال: الماء.

فحضر بشراً وقال: هذه لأم سعد.^(٢)

وقد أخطأ محمد بن عبد الوهاب فادعى أن المسلم إذا قال: «هذه الصدقة للنبي أو للولي: فاللام بنفسها هي اللام الموجودة في قولنا: «نذرت لله» يراد منها الغاية».

بل العمل لله، بينما لو قال: للنبي، يريد بها الجهة التي يصرف

١. صلح الأخوان للخالدي: ١٠٢ وما بعده.

٢. لاحظ: فرقان القرآن: ١٣٣.

فيها الصدقة من مصالح النبي ﷺ في حياته ومماته.

وفي هذا الصدد يقول العزامي - بعد ذكر قصة سعد - :

«اللام في هذه لأم سعد»، هي اللام الداخلة على الجهة التي وجهت إليها الصدقة لا على المعبود المتقرب إليه، وهي كذلك في كلام المسلمين، فهم سعديون لا وثنيون، وهي كاللام في قوله تعالى: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ» لا كاللام في قوله سبحانه: «وَبِئْسَ إِتْمَانٌ تَدْرُتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا»^(١)، أو في قول القائل: صَلَّيْتُ لِلَّهِ وَنَدَرْتُ لَهُ، فإذا ذبح للنبي أو الولي أو نذر الشيء له فهو لا يقصد إلا أن يتصدق بذلك عنه، ويجعل ثوابه إليه، فيكون من هدايا الأحياء للأَمْوات، المشروعة، المثاب على إهدائها، والمسألة محررة في كتب الفقه وفي كتب الرد على الرجل ومن شابعه»^(٢).

وهكذا ظهر لك - أيها القارئ - جواز النذر للأنبياء والأولياء من دون أن تكون فيه شائبة شرك، فيثاب به الناذر إن كان لله وذبح المندور باسم الله: فقول القائل: «ذبحت للنبي» لا يريد أنه ذبحه للنبي ﷺ بل يريد أن الثواب له، كقول القائل: ذبحت للضيف، بمعنى أن النفع له والفائدة له، فهو السبب في حصول الذبح .

ويوضح ذلك ما روي عن ثابت بن الضحاك قال:

«نذر رجل عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً بـ «بوانة» فأتى رسول

الله ﷺ فأخبره، فقال النبي:

هل كان فيها من يعبد من أوثان الجاهلية؟

قالوا: لا .

قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟

قالوا: لا .

قال ﷺ للسائل: أوف بنذرك، فإنه لا وفاء في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»^(١).

وروي أيضاً:

«إن امرأة أمت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله... إنني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا، كان يذبح فيه أهل الجاهلية .

فقال النبي: الصنم؟

قالت: لا .

قال: الوثن؟

قالت: لا .

قال: في بنذرك»^(٢).

وعن ميمونة بنت كردم أن أباها قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إنني نذرت إن ولد لي ذكر، أن أنحر على رأس بوانة «في عقبة من الثنايا» عدة من الغنم..

١. سنن أبي داود: ٨٠/٢.

٢. سنن أبي داود: ٨١/٢.

قال «الراوي عنها»: لا أعلم إلا أنها قالت: خمسين .

فقال رسول الله ﷺ: هل من الأوثان شيء .

قالت: لا .

قال: فأوف بما نذرت به لله...^(١) .

أرأيت أيها القارئ كيف يكرر النبي ﷺ السؤال عن جود الأصنام في

المكان الذي تذبح فيه الذبائح؟

إن هذا دليل على أن النذر الحرام هو النذر للأصنام، حيث كان ذلك

عادة أهل الجاهلية، كما قال تعالى:

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ... ذَلِكُمْ فَسُقُ﴾^(٢) .

ومن اطّلع على أحوال الزائرين للعتبات المقدسة ومراقدة أولياء الله

الصالحين يعلم جيداً أنهم ينذرون لله تعالى ولرضاه، ويذبحون الذبائح

باسمه عز وجل، بهدف انتفاع صاحب القبر بثوابها، وانتفاع الفقراء بلحومها،

وبذلك تعرف سقوط كلمة محمد بن عبد الوهاب في اتهام المسلمين بأنهم

ينحرون للنبي، وزان النحر لله سبحانه، حيث يلقن أتباعه الحجة ويقول:

«فقل: فإذا عملت بقول الله تعالى: «فصل لربك» وأطعت الله ونحرت له هل

هذا عبادة؟ فلا بد أن يقول: نعم، فقل له: فإن نحرت لمخلوق: نبي أو أجنبي

أو غيرهما، هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ فلا بد أن يقر ويقول:

نعم^(٣) .

والمسكين تخيّل أنّ اللام في «هذا للنبي» نفس اللام في «نذرت لله» وقد عرفت أنّ إحداهما للغاية، والأخرى للانتفاع.

وختاماً لهذا الفصل نذكر كلمة للخالدي - بعد أن ذكر ما رواه أبو داود في سننه - قال:

«وأما استدلال الخوارج بهذا الحديث على عدم جواز النذر في أماكن الأنبياء والصالحين. زاعمين بأنّ الأنبياء والصالحين أوثان - والعياذ بالله - وأعياد من أعياد الجاهلية، فهو من ضلالاتهم وخرافاتهم وتجاسرهم على أنبياء الله وأوليائه، حتى سمّوهم أوثاناً، وهذا غاية التحقير لهم، خصوصاً الأنبياء، فإنّ من انتقصهم ولو بالكناية - يكفر ولا تقبل توبته - في بعض الأقوال - وهؤلاء المخذولون بجهلهم، يسمّون التوسل بهم عبادة، ويسمّونهم أوثاناً، فلا عبرة بجاهلة هؤلاء وضلالاتهم، والله أعلم»^(١)

﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعَمُونَ
الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ
مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾^(٢).

١. كشف الشبهات: ٨.

٢. الإنسان: ٧-٩.

(١٠)

ابن تيمية والحلف بغير الله تعالى

إن من المسائل المهمة عند الوهابيين هو الحلف بغير الله، وذهب ابن تيمية إلى كونه شركاً، اعتماداً على ما رواه الترمذي: «من حلف بغير الله فقد أشرك» وتحقيق الحق يتوقف على توضيح الأمور التالية:

١- هل اليمين الفاضل في الدعاوى هو الحلف بالله، أو يعمه وغيره؟

٢- هل ينمقد اليمين بالحلف بالنبي مثلاً، بحيث لو حنث لزمته

الكفارة أو لا؟

٣- هل يجوز الحلف بغير الله سبحانه أو لا؟

واليك نقل أقوال أئمة المذاهب الفقهية في المجالات المتقدمة:

أ - ما هو الحلف الفاضل في الخصومات؟

أما فقهاء الشيعة فقد اتفقت كلمتهم على أن اليمين الفاضل في

الخصومات هو الحلف بالله وأسمائه. قال المحقق الحلبي: لا يستحلف أحد

إلا بالله ولو كان كافراً، فلا يجوز الإحلاف بغير أسماء الله سبحانه، كالكتب المنزلة، والرسل المعظمة، والأماكن المشرفة.^(١) وأما السنة فلم أجد لهم نصاً في خصوص هذه المسألة في الكتب الفقهية، نعم يعلم حكمها مما سنذكره عنهم في المسألتين التاليتين.

ب - هل ينعقد الحلف بغيره سبحانه؟

قال ابن تيمية: وقد اتفق العلماء على أنه لا ينعقد اليمين بغير الله، ولو حلف بالكعبة أو بالملائكة أو بالأنبياء ﷺ لم تنعقد يمينه، ولم يقل أحد إنه ينعقد اليمين بأحد من الأنبياء، فإن عن أحمد في انعقاد اليمين بالنبي روايتين، لكن الذي عليه الجمهور كمالك والشافعي، وأبي حنيفة أنه لا ينعقد اليمين به، كإحدى الروايتين عن أحمد، وهذا هو الصحيح.^(٢)

وقال ابن قدامة في «المغني»: ولا تنعقد اليمين بالحلف بمخلوق كالكعبة والأنبياء وسائر المخلوقات، ولا تجب الكفارة بالحلف فيها... وهو قول أكثر الفقهاء، وقال أصحابنا: الحلف برسول الله يمين موجبة للكفارة، وروي عن أحمد أنه قال: إذا حلف بحق رسول الله وحنث فعليه الكفارة. قال أصحابنا: لأنه أحد شرطي الشهادة، فالحلف به موجب للكفارة، كالحلف باسم الله.^(٣)

١. جواهر الكلام، في شرح شرائع الإسلام: ٢٢٥/٤٠.

٢. مجموعة الرسائل والمسائل: ٢٠٩/١.

٣. المغني لابن قدامة: ١٧/١١.

وبالإمعان في كلام ابن قدامة يظهر عدم صحة ما ذكره ابن تيمية من أنه «اتفق العلماء على أنه لا ينعقد اليمين بغير الله» وأين هو من قول ابن قدامة: «قال أصحابنا: الحلف برسول الله يمين موجبة للكفارة؟ وهو وابن قدامة كلاهما حنبلين، وبما أن المسألة فقهية لا نستعرضها أزيد من ذلك، وإنما نركز البحث على المسألة الثالثة .

ج - هل يجوز الحلف بغير الله أو لا؟

هذه المسألة هي التي عقدنا الفصل لبيان حكمها. قال ابن تيمية: «لا يشرع ذلك بل ينهى عنه إما نهي تحريم وإما نهي تنزيه، وإن للعلماء في ذلك قولين، والصحيح أنه نهي تحريم، وفي الصحيح عنه عليه السلام أنه قال: من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت، وفي الترمذي أنه قال: من حلف بغير الله فقد أشرك»^(١).

وقال الصنعاني: إن الحلف بغير الله شرك صغير^(٢)، وقال ابن قدامة: ولا يجوز الحلف بغير الله وصفاته، نحو أن يحلف بأبيه أو الكعبة أو صحابي أو إمام. قال الشافعي: أخشى أن يكون معصية. قال ابن عبد البر: وهذا أصل مجمع عليه، وقيل: يجوز ذلك لأن الله تعالى أقسم بمخلوقاته فقال: «والصافات صفاً، والمرسلات عرفاً، والنازعات غرقاً»، وقال النبي للأعرابي السائل عن الصلاة: «أفصح وأبيه إن صدق» وفي حديث أبي

١ . مجموعة الرسائل والمسائل: ١٧/١ .

٢ . تطهير الاعتقاد: ١٤ .

الشعراء: «وأبيك لو طعنت في فخذها لأجزاك» ثم إن لم يكن الحلف بغير الله محرماً فهو مكروه، فإن حلف فليستغفر الله تعالى، أو ليذكر الله تعالى، كما قال النبي: من حلف بالآلات والعزى فليقل: لا إله إلا الله.^(١)

أنت ترى أن ابن تيمية وتلميذ منهجه الشيخ الصنعاني أفتيا بالحرمة، ولكن الظاهر من عبارة ابن قدامة أن المسألة مما اختلف فيه الفقهاء، فهم بين محرّم ومجوّز، حتّى أن الشافعي قال: أخشى أن يكون معصية، وإذ كانت المسألة على هذا المستوى من الاختلاف، فهل يجوز تكفير الحالف بمثل هذه المسألة؟ مع أن أكثر الفقهاء قائلون بالجواز.

قال في «الفقه على المذاهب الأربعة»: «إذا قصد الحالف إشراك غير الله معه في التعظيم ففيه تفصيل في المذاهب، ثم ذكر التفصيل بالنحو الآتي»:

«الحلف بالطلاق نحو: عليّ الطلاق: إن فعلت كذا، جائز بدون كراهة، ويلزمه الطلاق إذا كان الغرض منه الوثيقة، أي وثوق الخصم بصدق الحالف، جاز بدون كراهة. وإذا لم يكن الغرض منه ذلك، أو كان حلفاً على الماضي فإنه يكره، وكذلك الحلف (بنحو وأبيك ولعمرك).

وقالت الشافعية: يكره الحلف بغير الله إذا لم يقصد شيئاً مما ذكر في أعلى الصحيفة، ويكره الحلف بالطلاق.

وقالت الحنابلة: يحرم الحلف بغير الله وصفاته، ولو بنبي أو ولي،

١. المغني لابن قدامة: ١١/ ١٦٣ (كتاب الأيمان) طبع دارالكتاب العربي - بيروت.

ويكره الحلف بالطلاق والعتاق والمشهور الحرمة»^(١).

فعلى ضوء هذا فقد أفتى الحنابلة من بين المذاهب الأربعة بالحرمة،
وذهبت الحنفية والشافعية إلى الجواز وللمالكية قولان.

هذه هي الأقوال في المسألة، وإليك تحليلها فقهياً واجتهاداً:

عرض المسألة على القرآن

إنَّ القرآن الكريم هو الثقل الأكبر والقدوة العليا والمثل الحي لكل مسلم، نرى فيه الحلف بغير الله في غير واحد من السور، فقد أقسم تعالى في سورة الشمس وحدها بغير ذاته وصفاته، أعني: الشمس وضحاها، والقمر والنهار والليل، والسماء والأرض، والنفس الإنسانية، وأقسم سبحانه في سورة النازعات بأمرين: المرسلات والناشرات، كذلك ورد الحلف بغير الله في سورة «الطارق» و«القلم» و«العصر» و«البلد» وغيرها.

وإليك نماذج من آيات الحلف بغير الله سبحانه الواردة في غير هذه

السور:

﴿وَالْتَيْنِ وَالزُّيْتُونَ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾^(٢).

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾^(٣).

١. الفقه على المذاهب الأربعة: ٧٥/٢، (كتاب اليمين).

٢. التين: ١-٣.

٣. الليل: ١-٢.

﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾^(١) .
 ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ *
 وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾^(٢) .

إذا كان القرآن كتاب هداية للبشر والناس يتخذونه قدوة وأسوة، فلو كان هذا النوع من الحلف حراماً على العباد، وأمرأً خاصاً باللَّه سبحانه، لكان المفروض أن يحذّر منه القرآن، ويذكر بأن هذا من خصائصه سبحانه .

ومن هنا يعلم أن توصيف الحلف بغير الله بكونه شركاً صغيراً يستلزم نسبة الشرك إلى الله سبحانه، وإذا كانت ماهية الحلف بغير الله ماهية شركية فلا يفرق بينه وبين عباده، فإذا كانت ماهية الشيء ظلماً وتجاوزاً على البريء، فالله وعباده فيه سيان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

إن الحلف بهذه العظائم كما يتضمّن الدعوة إلى التدبّر والدقّة في صنعها، والنواميس السائدة عليها، واللطائف الموجودة فيها، وبالتالي يحتاج بها على صانع لها عالم وقادر وحي و...، كذلك يتضمّن جواز الحلف بها إذا كان موجوداً مقدساً، كما حلف سبحانه بحياة النبي وقال:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٤) .

١. الفجر: ١-٤ .

٢. الطور: ١-٦ .

٣. الأعراف: ٢٨ .

٤. الحجر: ٧٢ .

عرض المسألة على الأحاديث

هذا بالنسبة إلى القرآن، وإليك عرض المسألة على سنة النبي الأكرم ﷺ، أعني: قوله وفعله وتقريره، فقد حلف بغير الله في موارد عديدة منها:

١- روى مسلم في صحيحه:

«جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: أما وأبيك فننبئتك: أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل البقاء»^(١).

٢- روى مسلم أيضاً:

«وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ - من نجد - يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة.

فقال: هل عليّ غيرهن؟

قال: لا... إلا أن تطوع، وصيام شهر رمضان.

فقال: هل عليّ غيره؟

قال: لا... إلا أن تطوع، وذكر له رسول الله الزكاة.

فقال الرجل: هل عليّ غيرها؟

١. صحيح مسلم: ٣/٩٤، كتاب الزكاة - باب أفضل الصدقة.

قال: لا... إلا أن تطوع .

فأدبر الرجل وهو يقول: لا أزيد على هذا ولا أنقص منه .

فقال رسول الله: أفلح وأبيه^(١) إن صدق .

أو قال: دخل الجنة - وأبيه - إن صدق^(٢) .

٣- وروي الحديث في مسند أحمد بن حنبل، وفي نهايته: أن النبي

قال له:

«... فلعمري لئن تتكلم^(٣) بمعروف و تنهى عن منكر، خير من أن

تسكت»^(٤).

وهناك أحاديث أخرى لا يسع الكتاب لذكرها^(٥) .

وقد أقسم الإمام علي عليه السلام - ذلك النموذج البارع في التربية الإسلامية

والقيم العالية - بنفسه الشريفة مرات في خطبه ورسائله وكلماته^(٦).

وهذا أبو بكر بن أبي قحافة يقول للمسارق الذي سرق حلتي ابنته، فقال:

«وأبيك ما ليلك ليل سارق»^(٧) .

١. أي حلفاً بأبيه، فالواو واو القسم .

٢. صحيح مسلم: ٣٢/١، باب ما هو الإسلام.

٣. أي تتكلم - للمخاطب - كما في قوله تعالى: «فأنت له تصدى» «أي تصدى» .

٤. مسند أحمد: ٢٢٥/٥ .

٥. راجع مسند أحمد: ٢١٢/٥، وسنن ابن ماجه: ٢٥٥/١ وج ٥٩٥/٤ .

٦. نهج البلاغة: تعليق محمد عبده: الخطبة رقم ٢٢ و ٢٥ و ٥٦ و ٨٥ و ١٦١ و ١٦٨ و ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٧ .

والرسالة رقم ٦ و ٩ و ٥٤ .

٧. الموطأ، أخرجه في باب الحدود برقم ٢٩ .

ولا أرى البحث أكثر من هذا إلا تطويلاً بلا طائل، وبما أن الوهابيين يتمسكون ببعض الأحاديث فلا بأس بدراستها:

١- إن رسول الله سمع عمر وهو يقول: وأبي، فقال: إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو يسكت.^(١)

يلاحظ على الاستدلال: بأن وجه النهي عن الحلف بالأباء، أن أباءهم في الغالب كانوا مشركين وعبدة الأصنام، فلم تكن لهم حرمة ولا كرامة حتى يحلف أحد بهم، ويؤيد ذلك ما روي عن النبي أنه قال: «ولا تحلفوا بأبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد».^(٢) وروي أيضاً: «لا تحلفوا بأبائكم ولا بالطواغيت»^(٣).

على أنه يحتمل أن يكون النهي عن الحلف بالأب في مقام فصل الخصومات وحسم الخلافات، وقد عرفت أن الفاصل في هذا المجال هو الحلف بالله وصفاته.

وأكثر ما يمكن أن يقال: إن النهي تنزيهي لا تحريمي بشهادة ما سبق من الحلف بغير الله في حديث الرجل النجدي.

٢- جاء ابن عمر رجل فقال: أحلف بالكعبة؟ قال له: لا، ولكن احلف برب الكعبة، فإن عمر كان يحلف بأبيه، فقال رسول الله ﷺ

١. سنن ابن ماجه: ٢٧٧/١، سنن الترمذي: ١٠٩/٤ وغيرهما.

٢. سنن النسائي: ٩/٧.

٣. سنن النسائي: ٧/٧، سنن ابن ماجه: ٢٧٨/١. والطواغيت هي الأصنام.

لا تحلف بأبيك فإن من حلف بغير الله فقد أشرك.^(١)

يلاحظ على الاستدلال: أن الحديث يتألف من أمور ثلاثة:

١- إن رجلاً جاء إلى ابن عمر فقال: أحلف بالكعبة؟ فأجابه بقوله: لا، ولكن احلف برب الكعبة .

٢- إن عمر بن الخطاب كان يحلف بأبيه، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك .

٣- إن رسول الله ﷺ علل ذلك بقوله: «من حلف بغير الله فقد أشرك» .

والمبتادر من كلام الرسول حيث وقع تعليلاً لنهي عمر عن الحلف بوالده - الكافر - ما إذا كان المحلوف به شيئاً غير مقدس كالكافر والصنم، وأما إذا كان المحلوف به مقدساً وذا فضيلة وكرامة كالكعبة، فكلام الرسول منصرف عنه، وإنما اجتهد ابن عمر حيث حمل كلام الرسول حتى على الحلف بالمقدس، كالكعبة، واجتهاده حجة على نفسه لا على غيره .

وهناك جواب آخر، وهو أنه يحتمل وقوع التحريف في الخبر، وأن قوله فقال: «رسول الله» مصحّف قوله: وقال رسول الله، وعندئذ يكون كلام الرسول مستقلاً، لا تعليلاً بشيء حتى النهي عن الحلف بالكافر، وعلى هذا فالحديث مركب من أمور ثلاثة جمعها ابن عمر في حديث واحد .

والذي يعرب عن أن كلام الرسول كان كلاماً مستقلاً غير واقع في ذيل النهي عن الحلف بالأب، ما رواه إمام الحنابلة عن ابن عمر، قال:

١. السنن للبيهقي: ٢٩/١، وقريب منه في مسند أحمد: ٦٩/٢.

« كان يحلف أبي، فنهاه النبي وقال: من حلف بشيء دون الله فقد أشرك. »^(١) فلو كان كلام الرسول مصدراً ينهي عمر عن الحلف بأبيه كان اللازم أن يقول: «فقال» مكان «قال» وعلى فرض استقلاله ووروده بدون «الفاء» يكون القدر المتيقن منه الحلف بالأصنام .

ويشهد على ذلك ما رواه النسائي: أن النبي ﷺ قال: «من حلف فقال في حلفه باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله».^(٢)

والحديث يعرب عن أن رواسب الجاهلية كانت باقية في بعض النفوس، فكانوا يحلفون بأصنامهم المعبودة، فأمرهم النبي أن يقولوا بعد الحلف: «لا إله إلا الله» ليقضي على تلك الرواسب الجاهلية .

وحصيلة الجوابين: إن قول النبي: «من حلف بغير الله فقد أشرك» إما مختص بغير المقدسات كالحلف باللات والعزى والكافر، أو مختص بالأصنام والأوثان فقط، ولا يعم الكافر فضلاً عن المقدسات .

١. مستند أحمد: ٣٤/٢ .

٢. سنن النسائي: ٨/٧ .

(١١)

ابن تيمية والحلف على الله بحق الأولياء

إن من نقاط الاختلاف بين جماهير المسلمين والوهابيين هي مسألة الحلف على الله بحق الأولياء .

قال ابن تيمية: التوسل في لغة الصحابة: أن يطلب من النبي الدعاء والشفاعة فيكونون متوسلين و متوجهين بدعائه وشفاعته، ودعاؤه وشفاعته من أعظم الوسائل عند الله، وأما في لغة كثير من الناس: أن يسأل بذلك، ويقسم عليه بذلك، والله تعالى لا يقسم عليه بشيء من المخلوقات، بل لا يقسم بها بحال، فلا يقال أقسمت عليك يا رب بملائكتك، ونحو ذلك، بل إنما يقسم بالله وأسمائه وصفاته... وأما أن يسأل الله ويقسم عليه بمخلوقاته، فهذا لا أصل له في الإسلام .

وقال: وقوله: «اللهم إني أسألك بمعاهد العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك، وباسمك وجدك الأعلى وكلماتك التامة» مع أن في جواز الدعاء به قولين للعلماء: فجوزه أبو يوسف وغيره، ومنع منه أبو

حنيفة وأمثاله، فينبغي للخلق أن يدعوا بالأدعية المشروعة التي جاء بها الكتاب والسنة.^(١)

تري أن ابن تيمية يفتي بالحرمة من دون أن يذكر لها مصدراً، بل يفتي على خلاف النص كما ستعرفه .

وجاء الرفاعي يتفلسف في تبين حرمة الحلف على الله بمخلوقه، ويقول:

إن الإقسام على الله بمخلوقاته أمر خطير يقرب من الشرك، إن لم يكن هو ذاته، فالإقسام على الله بمحمد وهو مخلوق بل وأشرف المخلوقين لا يجوز، لأن الحلف بمخلوق على مخلوق حرام، وإنه شرك لأنه حلف بغير الله، فالحلف على الله، بمخلوقاته من باب أولى، أي جعلنا المخلوق بمرتبة الخالق، والخالق بمرتبة المخلوق، لأن المحلوف به أعظم من المحلوف عليه، ولذلك كان الحلف بالشيء دليلاً على عظمته، وأنه أعظم شيء عند المحلوف عليه.^(٢)

ومن هنا كان الحلف بالمخلوق على الله شركاً بالله، لأننا خصصنا هذه المكانة العليا بالمخلوق، مع أنها هي بالخالق أولى.^(٣)

يلاحظ عليه: أن كلامه يشتمل على أمرين:

١. مجموعة الرسائل والمسائل: ٢١١/١.

٢. تلاحظ أن هذا لا ينسجم مع ما سبق منه: «إن المحلوف به أعظم من المحلوف عليه» وفي النسخة بعد لفظة «عليه» لفظة «به» .

٣. التوصل إلى حقيقة التوصل: ٢١٧-٢١٨.

١- إنَّ الحلف بغير الله شرك .

٢- إنَّ المحلوف به أعظم من المحلوف عليه، فلازم الحلف بالمخلوق على الله كونه أعظم من الله .

وكلتا الدعويين باطلتان، أما الأولى فقد عرفت في البحث السابق أن الحلف بغير الله ليس بحرام، بل هو سنة متبعة بين المسلمين، فقد حلف رسوله ووصيه بغير الله، وأنَّ الكتاب قدوة وأسوة، فقد حلف بعمر النبي وحلف بالقرآن الكريم وقال: «يس والقرآن الحكيم» فما هذا الإفتاء بلا دليل، والتشريع بلا برهان؟

﴿قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾^(١) .

وأما الثانية فالمصيبة فيها أعظم، فإنَّ لازم الحلف بشيء على الله، أن يكون المحلوف به محترماً عند الله و مقبول الشفاعة والدعاء، لا كونه أعظم من المحلوف عليه، فالرجل لم يفرق بين كونه أكرم عند الله وبين كونه أعظم من الله.

والحاصل أنَّ هذه التفلسفات لا تكون مدركاً للتشريع والإفتاء بالحرمة، فيجب اتباع النص وتعليل المسألة في ضوء القواعد الفقهية، فهنا مقامان:

١- هل الحلف بمخلوق على الله شرك؟

٢- هل هناك ما يدل على حكم هذا الحلف؟

أما الشرك فقد حددناه ووضعنا له حداً منطقياً، وهو الخضوع عن اعتقاد بالوهية المخضوع له وربوبيته، أو كونه قائماً بفعله سبحانه، وهل ينطبق هذا الحد على الحلف بالمخلوق على الله؟

إن الذكر الحكيم يصف بعض عباد الله ويقول:

«الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِتِينَ وَالْمُسْتَفِيزِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ»^(١).

فلو أن إنساناً قام في هزيع من الليل وصلّى لربه ركعات، ثم تضرع إلى الله قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ الْمُسْتَغْفِرِينَ فِي الْأَسْحَارِ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي» فهل يصح لنا أن نعده مشركاً، وأنه أشرك الغير في عبادة الله، مع أنه رفع يديه إلى الله سبحانه ودعاه بالضرارة؟

إن القرآن الحكيم ذكر مقياساً للتمييز بين المشرك والموحد فقال:

«إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ إِنَّا نَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْثُونٍ»^(٢).

وقال: «وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ»^(٣). وقال سبحانه:

١. آل عمران: ١٧.

٢. الصافات: ٣٥-٣٦.

٣. الزمر: ٤٥.

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾^(١).

فهل ينطبق هذا المقياس المركز عليه في الذكر الحكيم على من أحلف الله بحبيب من أحبائه، أو شهيد من شهداء دينه؟ فهل هو من الذين إذا دعي الله وحده كفر، وإن أشرك به آمن؟
كلًا وألف كلًا.

إن أرخص شيء وأوفره في سوق الوهابيين هو البذاءة في اللسان، وتكفير المسلمين واتهامهم بالشرك، فكأنهم لا يوجد في علبتهم إلا السب والكلام البذيء والالتهام بالشرك، معرضين عن قوله سبحانه:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾^(٢).

وكأنه سبحانه خوّل تفسير الشرك إلى الوهابيين ليفسروه كيف يشاءون، فيعتبروا جماعة مشركين وأخرى موحدتين.

أما المقام الثاني، أعني: استخراج حكم المسألة من الكتاب والسنة، فيكفي في ذلك:

١- ما رواه أبو سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ ما خرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي...^(٣).

٢. النساء: ٩٤.

١. غافر: ١٢.

٣. لاحظ ص ٤١٣.

٢- ما رواه البيهقي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ:

لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي...^(١).

٣- وما رواه عثمان بن حنيف عن رسول الله من دعاء الرسول للضرير وفيه: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة...»^(٢).

٤- وما روي من دعاء النبي عند دفن فاطمة بنت أسد، قال: اغفر لفاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي»^(٣).

إن هذه الأحاديث وإن خلت من لفظ القسم بعينه، لكن مضمونه موجود لمكان الباء فيها، والمعنى: أقسم عليك بحقهم.

هذا ما روي عن النبي الأكرم، وإليك ما روي عن أئمة أهل البيت عليه السلام.

٥- هذا إمام المتقين أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول في دعائه بعد صلاة الليل: «اللهم إني أسألك بحرمة من عاذ بك منك، ولجأ إلى عزك، واستظل بفيثك، واعتصم بحبلك، ولم يثق إلا بك»^(٤).

٦- ويقول في دعاء علمه لأحد أصحابه: «... وبحق السائلين عليك، والراغبين إليك، والمتعوذين بك، والمتضرعين إليك، وبحق كل عبد متعبد

١- ٣. لاحظ ص: ٤١٨، ٣٨٢، ٤١٥-٤١٦ من هذا الجزء.

٤. الصحيفة العلوية: ٣٧٠.

لك في كل برّ أو بحر أو سهل أو جبل، أدعوك دعاء من اشتدت فاقته»^(١).

٧- وهذا أبو الشهداء الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام يقول في دعائه:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكَلِمَاتِكَ، وَمَعَاقِدِ عَرْكَ، وَسَكَانِ سَمَاوَاتِكَ
وَأَرْضِكَ، وَأَنْبِيَاءِكَ وَرَسَلِكَ أَنْ تَسْتَجِيبَ لِي، فَقَدْ رَهَقَنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرٌ،
فَأَسْأَلُكَ أَنْ تَصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدٌ وَآلُ مُحَمَّدٍ، وَأَنْ تَجْعَلَ مِنْ أَمْرِي يَسْرًا».

٨- وهذا هو الإمام زين العابدين يقول في دعائه يوم عرفة وهو

يناجي ربه:

«بِحَقِّ مَنْ انْتَخَبْتَ مِنْ خَلْقِكَ، بِمَنْ اصْطَفَيْتَهُ لِنَفْسِكَ، بِحَقِّ مَنْ
اخْتَرْتَ مِنْ بَرِيَّتِكَ، وَمَنْ اجْتَبَيْتَ لِسَانِكَ، بِحَقِّ مَنْ وَصَلْتَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِكَ،
وَمَنْ نَيْطْتَ مَعَادَاتِهِ بِمَعَادَاتِكَ»^(٢).

وهذا هو الإمام الصادق عليه السلام يقول عندما زار مرقد جده الإمام

أمير المؤمنين عليه السلام:

«اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ دَعَائِي، وَأَقْبِلْ ثَنَائِي، وَاجْمَعْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَوْلِيَائِي بِحَقِّ
مُحَمَّدٍ وَعَلِيِّ وَقَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ»^(٣).

ولعلّ القارئ يسأل: هل للوهابيين على تحريم هذا النوع من الحلف

دليل؟

والجواب: نعم، إن لهم شبهاً وظنوناً فحسب، واليك البيان:

١. الصحيفة العلوية: ٣٧٠.

٢. الصحيفة السجادية: الدعاء ٤٧.

٣. مصباح المتعجب: ٦٨١.

١- إن الإقسام على الله بمخلوق منهي عنه باتفاق العلماء^(١).

إن معنى الإجماع على حكم هو اتفاق علماء الإسلام في جميع الأعصار، أو في عصر واحد على حكم.

أيضاً نسأل من أين وقف هذا الناقل للإجماع على اتفاق علماء الإسلام على التحريم؟ ونحن نسامحه ونقول: هل أفتى خصوص أئمة المذاهب الأربعة بالحرمة؟ فأين هذه الفتاوى؟ دلونا على محلها ومصادرها وكتبها.

ثم ما قيمة هذه الفتاوى المدعاة تجاه النصوص والأحاديث الصحيحة والآثار المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، أو ليسوا من السلف الصالح والقادة الأعلىين؟

٢- إن المسألة بحق المخلوقين لا تجوز، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق.

إن هذا الاستدلال عجيب جداً. هذه هي الآيات القرآنية تثبت حقوقاً على الله سبحانه لعباد الله الصالحين، وكذلك الأحاديث الشريفة:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

﴿وَوَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(٣).

﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

١. الهدية السنية، المنسوب إلى عبدالعزيز بن محمد بن مسعود كما في كشف الارتباب: ٣٢٩.

٤. يونس: ١٠٣.

٣. التوبة: ١١١.

٢. الروم: ٤٧.

وبالإضافة إلى ما سبق من الآيات الكريمة... هناك مجموعة كبرى من الأحاديث الشريفة في هذا المجال، وإليك نماذج منها:

ألف - قال رسول الله ﷺ: «حُقُّ على الله عون من نكح التماس العفاف مما حرم الله»^(١).

ب - «ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد التعفف»^(٢).

ج - «أتدري ما حق العباد على الله...»^(٣).

نعم إن من الواضح أنه ليس لأحد بذاته حق على الله، فعندئذ، ربّما يُسأل عن معنى هذا الحق؟

الجواب: إن المقصود من الحق هو المنزلة التي يمنحها الله تعالى لعباده مقابل طاعتهم وانقيادهم له، وهو مزيد من التفضل والعناية منه تعالى حقاً، فهذا هو الحق الذي نقسم به على الله، حق جعله الله ومنحه لعبده، لا أن للعبد حقاً على الله ذاتاً، وهذا مثل القرض الذي يستقرضه سبحانه من عباده ويقول:

«مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا»^(٤).

وهذا النوع من التعبير لطف من الله سبحانه وعناية فائقة بعباده، حيث

٢. سنن ابن ماجه: ٢ / ٨٤١.

١. الجامع الصغير، للسيوطي: ٢ / ٣٣.

٣. النهاية لابن الأثير، مادة «حق».

٤. البقرة: ٢٤٥.

يعتبر نفسه المقدسة مدينة وعباده دِيَّاناً، فما أعظم لطفه، مع أنه سبحانه هو المالك، والعباد خلفاؤه .

قال: «آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ»^(١).

ترى أن مالك الملوك يستقرض من خلفائه ونوابه .

٣- عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل:

«من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحببت عملك» .

رواه مسلم:

وقد استدل به الشيخ عبدالرحمن حفيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتابه «قرة عيون الموحدين»^(٢).

ولم يذكر كيفية الاستدلال، وذيل كلامه بحديث أبي هريرة الذي رواه أبو داود عنه قال: سمعت رسول الله يقول: كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: اقصر، فوجده يوماً على ذنب فقال له: اقصر، فقال: خلني وربّي، أبعثت عليّ رقيباً؟ والله لا يغفر الله لك ولا

١. الحديد: ٧.

٢. ص ٣٣٣، طبع لاهور.

يدخلك الجنة، فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً؟ أو على ما في يدي قادراً؟ فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار.^(١)

والحديث الثاني يفسر الحديث الأول، وأن المراد من قوله: «يتألى علي أن لا أغفر لفلان» هو الحلف بلا علم على الله، كما ورد في الحديث الثاني: «أكنت بي عالماً، أو على ما في يدي قادراً؟» .

١. قرآءة عيون الموحدين: ٢٣٣. والحديث في التعليقة وفي المتن إشارة إليه .

(١٢)

ابن تيمية وتكريم مواليد أولياء الله ووفياتهم

إن من المنكرات والبدع عند ابن تيمية وابن عبد الوهاب هو تكريم مولد النبي ﷺ بالاحتفال وقراءة القرآن وإنشاد القصائد والأشعار، والإحسان إلى المؤمنين بالإطعام، إلى غير ذلك مما يعد مجالي لحب النبي ﷺ وتكريمه ورفعته، كما رفعه الله سبحانه وقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(١).

وقد عرفت في ترجمة ابن تيمية أن مسلكه يشتمل على أبعاد أربعة، وأحد الأبعاد هو الحط من كرامة النبي وعظمته التي جاءت في الكتاب والسنة، فجاء يحقق بغيته بتحريم الاحتفال بالمواليد والتأبين في الوفيات، مع أنه لا يشك ذو مسكة أنه ليس عبادة للنبي، لما عرفت من أن العنصر المقوم للعبادة هو الاعتقاد بالوهية المعبود أو ربوبيته أو كونه مفوضاً إليه فعل الرب، وليس في الاحتفال شيء من ذلك.

وكما أنه ليس عبادة، ليس بدعة، لأنه تجسيد للأصل الوارد في الذكر

الحكيم، وهو حب النبي ومودته على وجه يكون النبي مقدماً على الإنسان ونفسه ونفيسه، وقد قام به السلف طيلة قرون، وإجماع العلماء في عصر حجة، فكيف في قرون، ومع ذلك فابن تيمية يظهر ما يضره عن طريق تحريم هذه الاحتفالات ويقول:

إن اتخاذا هذا اليوم عيداً محدثاً لا أصل له، فلم يكن في السلف لا من أهل البيت ولا من غيرهم من اتخذا ذلك عيداً، حتى يحدث فيه أعمالاً، إذ الأعياد شريعة من الشرائع، فيجب فيها الاتباع لا الابتداع، وللنبي ﷺ خطب وعهود، ووقائع في أيام متعددة، يذكر فيها قواعد الدين، ثم لم يوجب ذلك أن يتخذ أمثال تلك الأيام أعياداً، وإنما يفعل مثل هذا، النصرى الذين يتخذون أمثال أيام حوادث عيسى ﷺ أعياداً، أو اليهود، وإنما العيد شريعة، فما شرعه الله أتبع، وإلا لم يحدث في الدين ما ليس منه.

وكذلك ما يحدثه بعض الناس إماماً مضاهاةً للنصارى في ميلاد المسيح ﷺ، وإماماً محبةً للنبي ﷺ وتعظيماً له، والله قد يشبههم على هذه المحبة، والاجتهاد، لا على البدع من اتخاذا مولد النبي ﷺ عيداً مع اختلاف الناس في مولده، فإن هذا لم يفعله السلف، مع قيام المقتضي له، وعدم المانع منه، ولو كان هذا خيراً محضاً أو راجحاً لكان السلف - رضي الله عنهم - أحق به منا، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً له منا، وهم على الخير أحرص. (١)

إن هذه البذرة التي بذرها ابن تيمية استغلها تلميذه ابن القيم وبعده الوهابية، وإليك بعض نصوصهم:

قال ابن القيم: «نهى رسول الله عن اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج، واشتد نهيه في ذلك حتى لعن فاعله، ونهى عن الصلاة إلى القبور، ونهى أن يتخذوا عيداً»^(١).

وقال الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ:

«وقد أحدث هؤلاء المشركون أعياداً عند القبور التي تعبد من دون الله، ويسمونها عيداً كمولد البدوي بمصر وغيره، بل هي أعظم لما يوجد فيها من الشرك والمعاصي العظيمة»^(٢).

وقال محمد حامد الفقي: «والمواليد والذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء، هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم»^(٣).

وقد استدلوا بما رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإنّ صلواتكم تبلغني حيث كنت»^(٤).

وملاحظة هذه الكلمات تفيد أنهم يستدلون على التحريم بأمور:

الأول: إنّها عبادة للأولياء وأصحاب الذكريات .

١. زاد المعاد في هدى خير العباد: ١/١٧٩.

٢. قرّة العيون، كما في فتح المجيد: ١٥٤.

٣. تعليق فتح المجيد: ١٥٤.

٤. مسند أحمد: ٢٤٨/٣.

الثاني: إنها بدعة، وإنها مما لم يشرعه الشارع الشريف .

الثالث: لو كان هذا خيراً لأقامه السلف .

الرابع: الاستدلال برواية أبي هريرة من النهي عن اتخاذ قبر النبي عبداً.

هذه هي الوجوه المهمة التي يستدل بها ابن تيمية وأتباعه على تحريم تكريم المواليد، ونحن ندرس كل واحد من هذه الأدلة واحداً بعد آخر :

أ . هل الاحتفال بالمواليد شرك؟

قد عرفت أنّ محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية أفتى بكونه شركاً، وقال: هو نوع من العبادة للأولياء وتعظيمهم. ولكنّه كعامة الوهابيين لم يفرّق بين التكريم والعبادة، ولذلك عطف التعظيم على العبادة، وهذا هو الداء العياء في دعاية الوهابيين وكتبهم وخطبهم، وأرخص شيء عندهم هو الشرك في العبادة، فلا تميل يميناً ولا يساراً إلا وتسمع من الجماعة المتسمين بالأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر يصرخون في وجهك «يا حاج! هذا شرك» وهم لم يحددوا للعبادة حداً منطقياً حتى يميزوا في ضوئه العبادة عن التعظيم، فعادوا يسمّون كل تعظيم شركاً، ولو كان التعظيم والخضوع عبادة، للزم كفر المملوك والزوجة، والولد والخادم، والأجير، والرعية، والجنود، بإطاعتهم وخضوعهم للمولى والزوج والأب والمخدوم والمستأجر والملك والأمراء، وجميع الخلق

لإطاعتهم بعضهم بعضاً، بل كفر الأنبياء لإطاعتهم آباءهم وخضوعهم لهم، وقد أوجب الله طاعة أوامر الأبوين، وخفض جناح الذل لهما، وقال لرسوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، وأمر بتعزيز^(٢) النبي وتوقيره، وأمر بإطاعة الزوجة لزوجها، وأوجب إطاعة العبيد لمواليهم وسمّاهم عبيداً.^(٣)

وقد عرفناك على أن العنصر المقوم لكون التعظيم عبادة، هو الاعتقاد بالوهية المعظم له، أو ربوبيته، أو كونه مالكاً لمصير المعظم، وأن بيده عاجله وآجله، ومنافعه ومضاره، ولا اقل مغفرته وشفاعته، وأما إذا خلا التعظيم عن هذه العناصر، وقام بالاحتفال بذكرى رجل ضحى بنفسه ونفيسه من أجل استقلال أمته وإخراجها عن نير الاستعباد، وهياً لهم أسباب الاستقلال، فلا يعد ذلك عبادة له، وإن كان هناك احتفال أو احتفالات، وألقي فيها عشرات القصائد والخطب فلا صلة لهذا بالعبادة. نعم يدور أمر كل ذلك بين الحلال والحرام، وهل الشارع رخص ذلك أو لم يرخص، وسيوافيك أن باذر هذه الشكوك ابن تيمية، يرى أن الأصل في العادات عدم الحظر، إلا ما حظره الله.^(٤) نعم، الاحتفال بمولد النبي ليس من العادات، ولا يقام بما أنه أمر عادي بل بما هو أمر قربي له أصل في الكتاب والسنة كما مرّ وسيأتي أيضاً.

١. الشعراء: ٢١٥.

٢. إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

٣. كشف الارتباب: ١٠٣ وللکلام صلة مفيدة جداً فمن أراد فليرجع إليه.

٤. المجموع من فتاوى ابن تيمية: ١٩٥/٤.

ب - هل الاحتفال بالمواليد بدعة؟

إنَّ القوم يعدّون الاحتفال شركاً تارة، وبدعة ثانياً، وقد عرفت أنه ليس بشرك لفقدان العنصر المقوم للشرك فيه، وأما كونه بدعة فقد عرفت بطلانه عند البحث عن أنه عبارة عن إحداث أمر باسم الدين، وليس له فيه نصّ أو أصل، والاحتفال وإن لم يكن فيه نص، لكن له أصلاً في الكتاب والسنة، وهو حبّ النبي ومودته وإظهاره؛ فليست هذه الاحتفالات إلا تجسيدا للحب لا للعداء والنصب والبغضاء. نعم، المنع عنه إظهار للضعيفة الكامنة في القلوب .

هلمّ معنا ندرس دليلهم الثالث:

ج - لو كان خيراً لأقامه السلف

هذا هو الدليل الثالث الذي يركن إليه المانع، وهو من أعجب الدلائل، فكأنَّ السلف مقياس الحق والباطل في الفعل والترك معاً، فلو تركوا شيئاً دل ذلك على أنه باطل يجب تركه، نحن نفترض أنَّ السلف لم يقيموه ولم يحوموا حوله، ولكن الخلف أبناء الدليل، فلو كان له أصل في القرآن والسنة لا يعبا بترك السلف. على أنَّ هذا ما يقوله القائل، ونحن إذا رجعنا إلى التاريخ نجد أنَّ السلف أقامه عبر القرون والأجيال قبل أن يتولد باذر هذه الشكوك .

هذا مؤلف تاريخ الخميس يقول: ولا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده، ويعملون الولائم ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، يظهرون السرور، ويزيدون في المبرات، يعتنون بقراءة مولده الشريف، ويظهر عليهم من كراماته كل فضل عميم.^(١)

وقال القسطلاني: ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ﷺ، ويعملون الولائم ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم. ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم... فرحم الله امرأةً اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً ليكون أشدَّ علةً على من في قلبه مرض وأعياء داء .

ولقد أطنب ابن الحاج في «المدخل» في الإنكار على ما أحدثه الناس من البدع والأهواء، والغناء بالآلات المحرمة في العمل بالمولد الشريف، والله تعالى يثيبه على قصده الجميل.^(٢)

وقال ابن عباد في رسائله الكبرى: «وأما المولد فالذي يظهر لي أنه عيد من أعياد المسلمين، وموسم من مواسمهم، وكل ما يفعل فيه مما يقتضيه وجود الفرح والسرور بذلك المولد المبارك... أمر مباح لا منكر».^(٣)

١. تاريخ الخميس: ١/ ٢٢٣ للديار بكرى .

٢. المواهب اللدنية: ٢٧/١ .

٣. لاحظ المواسم والمراسم، نقلاً عن القول الفصل في الاحتفال بمولد خير الرسل ص ١٧٥ .

كلمة أخيرة

إن المانعين عن الاحتفال بمولد النبي ﷺ يقولون: إن أول من احتفل بمولد النبي هو الأمير أبو سعيد مظفر الدين الأربلي عام ٦٣٠ هـ، وربما يقال: أول من أحدثه بالقاهرة، الخلفاء الفاطميون، أولهم المعز لدين الله، توجه من المغرب إلى مصر في شوال ٣٦١ هـ، وقيل في ذلك غيره.^(١)

وعلى أي تقدير فقد احتفل المسلمون حقباً وأعواماً من دون أن يعترض عليهم أي ابن أنثى، وعلى أي حال فقد تحقق الإجماع على جوازه وتسويغه واستحبابه قبل أن يتولد باذر هذه الشكوك، فلماذا لم يكن هذا الإجماع حجة؟ مع أن اتفاق الأمة بنفسه أحد الأدلة، وكانت السيرة على تبجيل مولد النبي إلى أن جاء ابن تيمية، والعز بن عبد السلام، وابن رجب، والشاطبي فناقشوا فيه ووصفوه بالبدعة، مع أن الإجماع انعقد قبل هؤلاء بقرون، أو ليس انعقاد الإجماع في عصر من العصور حجة بنفسه؟

الدليل الأخير «لا تجعل قبري وثناً يعبد»

آخر ما في كنانة القوم من نبال مرشوقة إلى المؤمنين المحتفلين بمولد النبي الأكرم، ما روى أبو هريرة، قال: قال رسول الله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإنّ صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

وفي الاستدلال بالحديث مجال للنظر:

أولاً: إنَّ إمام الحنابلة رواه في مسنده عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة. عن النبي أنه قال: «اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثناً. لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».^(١)

ورواه في كنز العمال بالنحو التالي:

«اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثناً يصلِّي إليه، فإنَّه اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».^(٢)

وفي الوقت نفسه رواه إمام الحنابلة عن أبي هريرة: قال رسول الله: «لا تتخذوا قبوري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وحشماً كنتم فصلوا عليَّ فإنَّ صلاتكم تبلغني».^(٣)

وروى أبو داود في صحيحه عن أبي هريرة نفس هذا المتن.^(٤)

ومن المحتمل جداً طرؤ التصحيف على الرواية، فبدل «وثناً» إلى «عيداً» ويؤيد ذلك ذيل الرواية، أعني قوله: «ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً» فإنَّه يناسب قوله: «لا تجعل قبري وثناً».

وثانياً: إنَّ العيد في اللغة هو الموسم، وهو كل يوم فيه اجتماع أو تذكار لذي فضل، أو حادثة مهمة، سمِّي عيداً لأنَّه يعود كل سنة بفرح مجدد.

١. مسند أحمد: ٢/٢٤٦. ٢. كنز العمال: ج ٢ برقم ٣٨٠٢.

٣. مسند أحمد: ٢/٣٦٧.

٤. سنن أبي داود: ٢/٢١٨، طبع دار إحياء التراث العربي.

فعلی هذا لا یصح أن یقع خبراً لقوله: «قبراً» إذ لا معنی لجعل القبر عيداً، فإنما یصح جعل موسم أو یوم مشخص عيداً، فهو یقع خبراً أو صفة للزمان لا للمكان، ولو صحَّ جعله صفة للمكان فإنما هو باعتبار الیوم الذي یجتمع الناس فيه فی ذلك المكان، فالتعبیر الوارد فی الحدیث لا یوافق الذوق العربی السلیم، فكیف يمكن نسبه إلى أشرف من نطق بالضاد، ولو أريد منه ما یحاول المستدل أن یثبته كان الأولى أن یقول: لا تتخذوا مولدي عيداً، لا قبری عيداً، أو یقول: لا تتخذوا مولدي حول قبری عيداً.

وحصيلة الكلام: أن یوم العید هو یوم الفرح ویوم الزینة، ولا يمكن تطبیق هذا المعنی علی القبر، إلا بارتكاب مجاز متكلف فيه .

وثالثاً: إن الروایة لم یعمل بها الصحابة حیث جعلوا بیت النبی قبوراً، إذ دفن فيه النبی الأكرم، وبعده أبو بكر وعمر، فصار بیته قبوراً.

وأما الاعتذار بأنَّ للأنبياء خصوصية لیست لغيرهم وهي أنهم یدفنون حیث یقبضون، لا یدفع الإشكال، إذ لیست هذه الخصوصية فی غیرهم كصاحبه «أبي بكر وعمر» فلماذا جعل بیت النبی قبوراً .

ورابعاً: إن الحدیث یحتمل معانی مختلفة وراء ما یرتبه المستدل .

١- منها ما ذكره الحافظ المنذري من أنه یحتمل أن یكون المراد به

الحث علی كثرة زیارة قبر النبی، وأن لا یهمل حتی یكون بمثابة العید.^(١)

٢- ومنها ما ذكره السبكي حیث قال: «ویحتمل أن یكون المراد: لا

١. شفاء السقام: ٦٧، نقلاً عن زكي الدين المنذري (أي: یزار بین المدة الطويلة كالعید الذي لا یكون فی كل عام إلا یوماً واحداً أو یومین).

تَتَّخِذُوا وَقْتاً مَخْصُوصاً لَا تَكُونُ الزِّيَارَةُ إِلَّا فِيهِ، كَمَا تَرَى أَنَّ كَثِيراً مِنْ الْمَشَاهِدِ، لَزِيَارَتِهَا يَوْمَ مَعِينِ كَالْعِيدِ، وَزِيَارَةَ قَبْرِهٖ ﷺ لَيْسَ لَهَا يَوْمٌ بَعِيْنُهُ، بَلْ أَيُّ يَوْمٍ كَانَ. ^(١)

٣- ومنها ما ذكره أيضاً من أنه يحتمل أن يراد أن يجعل كالعيد في العكوف عليه، وإظهار الزينة والاجتماع وغير ذلك مما يعمل في الأعياد، بل لا يؤتى إلا للزيارة والسلام والدعاء ثم ينصرف عنه .

وقال العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي: «يحتمل قوياً أن يكون المراد أن اجتماعهم عند قبره ﷺ ينبغي أن يكون مصحوباً بالخشوع والتأمل والاعتبار، حسبما يناسب حرمة واحترامه ﷺ فإن حرمة ميتاً كحرمة حياً، فلا يكون ذلك مصحوباً باللهو واللعب والغفلة والمزاح وغير ذلك مما اعتادوه في أعيادهم، ثم عقبه بقوله: ولعل هذا مراد السبكي». ^(٢)

وخامساً: إن الحديث بكلتا صورتيه (وثناً - عيداً) ضعيف .

أما الصورة الأولى فقد وقع في السند «سهيل بن أبي صالح» وهو ليس بالقوي في الحديث، والحديث ليس بحجة؛ قال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، وقد كان اعتل بعلّة فنسي بعض حديثه، وقال ابن المديني: مات أخ لسهيل ووجد عليه فنسي كثيراً من الحديث، وقال ابن أبي خيثمة: ابن معين يقول: لم يزل أصحاب الحديث يثقون بحديثه، وقال مرة: ضعيف. ^(٣)

١. المصدر نفسه .

٢. المواسم والمراسم: ٧١.

٣. ميزان الاعتدال: ٢٤٣ - ٢٤٤، ونقل أقوال الآخرين في توثيقه، فالرجل مختلف فيه جداً .

وأما الصورة الثانية فقد وردت في مسند الإمام أحمد وأبي داود «عبدالله بن نافع» قال البخاري: يعرف حفظه وينكر، وقال أحمد بن حنبل: لم يكن صاحب حديث، وكان ضعيفاً فيه، ولم يكن في الحديث بذلك، وقال أبو حاتم الرازي: ليس بالحافظ، هو لين يعرف حفظه وينكر، ووثقه يحيى بن معين، وقال أبو زرعة: لا بأس به، وقال ابن عدي: روى عن مالك غرائب، وهو في رواياته مستقيم الحديث.^(١)

هذا هو حال الحديث الذي يحتج به ابن تيمية ومن يلعق قصعته من الوهابية، وبذلك أفتوا بحرمة الاحتفال بذكرى النبي الأكرم ﷺ.

وهذه هي أدلة المانعين وشواهدهم، وقد عرفت ضعفها وعدم دلالتها على ما يرتوون، ولنختتم البحث بذكر أمور:

الأول: إن الاحتفال بالمواليد يجب أن يكون بعنوان أنه تطبيق للأصل القرآني من لزوم تكريم النبي وتوقيره وتعظيمه، ولأجل ذلك يصح إيقاعه في كل شهر وأسبوع ويوم، وعند ما يقام الاحتفال بمولده فإنما يقام بما أنه جزئي لذلك الأمر الكلي الوارد في الكتاب العزيز، وأما إذا أقيم الاحتفال بنية أنه ورد في ذلك اليوم الأمر بالتكريم بالخصوص، حتى يكون الاحتفال تجسيداً لهذا الأمر، فهو بدعة لا يصار إليها، ولا أرى أحداً يدعي أنه ورد الأمر بالخصوص بمولده.

الثاني: يجب أن يكون الاحتفال مطابقاً للسنن الإسلامية، خالياً عما

يستقبح فعله في الشريعة، كعزف المعازف، واتخاذ القيان، واختلاط الرجال بالنساء، فلو فرض أنه اقترنت بعض هذه الاحتفالات بالمحرمات، فلا يكون دليلاً على حرمة نفس الاحتفال، ولا يكون سبباً للمنع عنه، فإن بعض الفرائص ربما تكون ذريعة لما هو أعظم من هذه المحرمات .

الثالث: ليست لإقامة الاحتفال كيفية خاصة، بل ينبغي أن يكون الكل في إطار الشريعة الغراء، ويكون في طريق تكريم النبي وتعظيمه، وإظهار الحب، وأحسن الطرق هو تلاوة الآيات الواردة في حقه ﷺ ثم الإيعاز إلى الجهود التي بذلها الرسول في طريق إنقاذ البشر، وبلغ بهم إلى أعلى مراتب العز والعهمة، ثم دعوة المسلمين عن طريق إلقاء الخطب بالتمسك بالكتاب والسنة، والسعي لتطبيق وتجسيد مبادئها في الحياة، ودعم الصحة الإسلامية للنهوض والوقوف في وجه القوى الكبرى التي تتربص بهم الدوائر، إلى غير ذلك من الأمور التي فيها خير وسعادة للمسلمين كافة، في عاجلهم وأجلهم .

يقول العالم الجليل السيد محمد علوي بن عباس المالكي المكي الحسني:

«إننا نرى أن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ليست له كيفية مخصوصة لا بد من الالتزام والزام الناس بها، بل إن كل ما يدعو إلى الخير ويجمع الناس على الهدى ويرشدهم إلى ما فيه منفعتهم في دينهم ودنياهم، يحصل به تحقيق المقصود من المولد النبوي، ولذلك فلو اجتمعنا على

شيء من المدائح التي فيها ذكر الحبيب ﷺ وفضله، وجهاده، وخصائصه، ولم نقرأ قصة المولد النبوي التي تعارف الناس على قراءتها، واصطلحوا عليها حتى ظن بعضهم أن المولد النبوي لا يتم إلا بها، ثم استمعنا إلى ما يلقيه المتحدثون من مواظب وإرشادات، وإلى ما يتلوه القارئ من آيات؛ أقول: لو فعلناه فإن ذلك داخل تحت المولد النبوي الشريف، ويتحقق به معنى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وأظن أن هذا المعنى لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عنزان» انتهى.^(١)

ومن المؤسف جداً أن الوهاية قامت بشن حملة شعواء على هذا الكتاب، ولم ترع أدب الكتابة والمناظرة إلى حد اعتراف الكاتب بأسلوبه القاسي في المحاوره، وينتهي في خاتمة كتابه إلى قوله: «ونكرر أسفنا وتأثرنا من القسوة التي آثرنا أن يشتمل عليها أسلوبنا في رد ترهاته، وأباطيله، ويعلم الله أن الباعث لهذا الأسلوب القاسي، الغيرة لحق الله.^(٢)

ويؤاخذ عليه أن الغيرة لحق الله يجب أن تكون في إطار الأدب الذي ندب إليه الذكر الحكيم وقال: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»^(٣).

وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يؤدب أصحابه عند مقابلة

١. حوار مع المالكي، تأليف عبد الله بن سليمان بن منيع: ١٦٨.

٢. حوار مع المالكي: ١٩٠.

٣. النحل: ١٢٥.

الشاميين من الشاميين، من أصحاب معاوية القاسطين بقوله: إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَائِبِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَضَوِّبَ فِي الْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ احْقِنِ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقُّ مَنْ جَهَلَهُ، وَيَرَعَوْيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مِنْ لَهَجٍ بِهِ.^(١)

الرابع: روى أهل السنة عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام أَنَّ رجلاً كان يأتي كل غداة فيزور قبر النبي صلى الله عليه وآله ويصلي عليه، ويصنع من ذلك ما انتهره عليه علي بن الحسين عليهما السلام فقال له: ما يحملك على هذا؟ قال: حبّ التسليم على النبي صلى الله عليه وآله، فقال علي بن الحسين عليهما السلام: هل لك أن أحدثك حديثاً عن أبي؟

قال: نعم، فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: أخبرني أبي عن جدي أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تجعلوا قبوري عبداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ وسلّموا حيثما كنتم فسيلفني سلامكم وصلاتكم.^(٢)

ولو صحّ الحديث فلعل انتهاره كان لأجل أنّ الرجل زاد في الحدّ وخرج عن الحد الأوسط، ولا صلة له بنفي الزيارة بتاتاً، كما لا صلة له بإقامة الاحتفال والذكريات .

١. نهج البلاغة: الخطبة: ٢٠٦.

٢. رواه السيكي عن عبدالرزاق عن القاضي إسماعيل في كتاب فضل الصلاة على النبي، بسنده إلى علي بن الحسين عليهما السلام ورواه عبدالرزاق في مصنفه بسنده إلى الحسن بن علي؛ لاحظ شفاء السقام:

إن هذه الرواية ظاهرة في أنه عليه الصلاة والسلام قد لاحظ أن ذلك الرجل قد ألزم نفسه بأمر شاق، وهو المجيء، يوماً للصلاة عليه ﷺ وزيارته، فأراد ﷺ التخفيف عنه وإفهامه أن بإمكانه الصلاة والتسليم عليه ﷺ حيثما كان، فسيبلغه ذلك، فلا داعي لإلزام نفسه بما فيه كلفة ومشقة، ولم ينهه عن الصلاة والدعاء عند قبره ﷺ. ^(١)

(١٣)

ابن تيمية وإهداء ثواب العمل الصالح إلى الموتى

أثبتت البحوث العلمية والفلسفية أن الموت لا يمثل نهاية حياة الإنسان وفناءها، بل هو في الحقيقة، يمثل نقلة من عالم إلى عالم آخر، كما أثبتت تلك البحوث أن حقيقة الإنسان وجوهره لا يتمثل في بدنه المادي حتى تنعدم بانعدامه، بل الذي يمثل حقيقة الإنسان وواقعه هو روحه ونفسه، وهذه لا تفنى ولا تنعدم، بموت الجسد وفنائه، وإنما تنتقل لتعيش في بدن يناسب مقامها الجديد في ذلك العالم الذي أطلق عليه العلماء والمفكرون اسم «عالم البرزخ». وهنا يطرح سؤال وهو: هل الموتى يتفعلون بعمل الأحياء؟

وبعبارة أخرى: إذا قام الإنسان الحي بعمل صالح ثم أهدى ثواب ذلك العمل إلى والده أو أمه أو لقریب منه ممن كانوا قد رحلوا عن هذه الحياة، فهل ياترى ينتفع هؤلاء الموتى بذلك العمل ويعود ذلك العمل عليهم بالفائدة، أم لا؟

وفي مقام الإجابة عن هذا التساؤل لابد من مراجعة آيات الذكر

الحكيم والروايات الواردة عن النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته ﷺ لتحدد لنا الإجابة عن ذلك، لأنها هي المرجع الوحيد في الإجابة عن مثل تلك التساؤلات.

وقبل البدء بدراسة الآيات لابد من التذكير بنكتة مهمة، وهي: أن من المفاهيم الإسلامية الثابتة والأصول الواضحة أن الإيمان إذا لم يقترن بالعمل لا يجدي نفعاً ولا يكون سبباً للنجاة في ذلك العالم، من هنا نجد أن آيات الذكر الحكيم في الغالب تقرن الإيمان بالعمل كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ومن هنا لا يمكن للإنسان أن يتكفى على إيمانه فقط، أو على عمل ابنه أو صديقه أو...، بل لابد لمن يتوخى النجاة ويروم الفوز بالنعيم أن يقرن إيمانه بالعمل الصالح.

نعم ظهرت على الساحة الفكرية الإسلامية في نهاية القرن الأول وأوائل القرن الثاني فرقة كلامية يقال لها: «المرجئة» ذهبت إلى كفاية الإيمان ولم تعر للعمل الصالح أهمية تذكر، فتصدى لهذه الفرقة أئمة الهدى ﷺ وبينوا نقاط الخلل والانحراف الكامن في طي هذه النظرية، كما حذروا المسلمين عامة وشيعتهم خاصة من الانجراف مع هذا التيار المنحرف، وخاصة بالنسبة إلى الشباب حيث قالوا ﷺ: «بادروا أولادكم بالأدب قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة»^(١).

كما واجه الأئمة ﷺ النظرية الأخرى التي ترى في الانتساب إلى بيت الرسالة عاملاً للفوز والنجاح حتى إذا لم يقترن ذلك الانتساب بالعمل

الصالح، وقد اعتبر الأئمة عليهم السلام أن هذه النظرية هي الأخرى لا أساس لها من الصحة ولا تقوم على أسس قرآنية متينة، بل هي في الحقيقة تمثّل امتداداً للفكر اليهودي المنحرف المتمثّل في قولهم: «نَحْنُ أَوْلَادُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ»^(١).
ومن هنا ندرك جيداً أنّ نجاة الإنسان وفوزه مقترنان بالإيمان أولاً والعمل الصالح ثانياً، وأما الاتكاء على مجرد الإيمان أو مجرد العلاقة النسبية بأهل بيت الوحي فهو في الواقع تفكير خاطئ ورؤية باطلة لا يصحّ الاعتماد عليها والركون إليها أبداً.

ولأمير المؤمنين وإمام البلاغة وسيد الفصاحة كلام رائع في هذا المجال، حيث يقول عليه السلام مؤكداً على العمل:

١. «ألا وإنّ اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل»^(٢).

٢. «ألا وإنّ اليوم المضمارُ وغداً السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار، أفلا تائب من خطيئته قبل منيته، ألا عامل لنفسه قبل يوم يؤسه»^(٣).

ومع التسليم بهذا الأصل والمفهوم الإسلامي الثابت يبقى السؤال الذي أثرناه مطروحاً، هل يتنفع الميت بعمل الحي أم لا؟
وفي مقام الإجابة عن التساؤل المطروح، لابدّ من الإشارة إلى مقدّمة ضرورية، وهي:

إنّ عمل الإنسان الحي بالنسبة إلى الميت تتصوّر على صنفين:

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٤٢.

١. المائة: ١٨.

٣. نهج البلاغة: الخطبة ٢٨.

١. تارة يكون للميت دور في العمل الصادر من الحي.
 ٢. وتارة أخرى لا يكون له أي دور في ذلك العمل إلا كونه مؤمناً فقط.
 ولا كلام في النوع الأول الذي يكون للإنسان المتوفى دور في صدور العمل من الحي، فلا ريب أنه يستفيد منه ويتنفع به، ويكفي شاهداً على ذلك الحديث المروي عن الرسول الأكرم ﷺ والذي رواه الفريقان، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله، إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١)
 فالحديث الشريف يشير إلى ثلاثة أمور يبقى ثوابها يتابع الإنسان حتى بعد رحيله من هذه الدنيا، وهي:

١. الصدقة الجارية كبناء المسجد، أو تعبيد الطرق أو إقامة جسر، أو بناء مستشفى، أو تشييد مدرسة، وغير ذلك من أعمال الخير التي يتنفع بها الناس.

٢. علم ينتفع به.

٣. ولد صالح يدعو له.

ولا ريب أن الإنسان يتنفع بهذه الأعمال انطلاقاً من دوره الفاعل في نشوئها في حياته كالبناء، أو التأليف، أو إعداد الولد الصالح وتربيته تربية إسلامية صحيحة.

١. صحيح مسلم: ٥ / ٧٣، باب «وصول ثواب الصدقات إلى الميت» من كتاب الإلهيات.

روى جرير بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء؛ ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء»^(١).

إذا عودت أثر العمل على الميت - سواء كان ذلك الأثر ثواباً أو عقاباً - يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدور الذي يقوم به الميت في أثناء حياته في إظهار السنة - حسنة كانت أم سيئة - إذ لو لم يقم هو بذلك العمل لما استنّ به غيره من الناس ولم يعمل بها أحد بعده.

نعم يقع البحث في العمل من الصنف الثاني الذي لم يكن للميت دور فيه أبداً فإذا قام الإنسان الحي بعمل صالح فهل يستطيع أن يهدي ثوابه إلى الميت أم لا؟ وهل يتنفع به الميت أم لا؟

إن القرآن الكريم والسنة المطهرة يؤكدان ذلك، وأنه يمكن للإنسان أن يهدي ثواب ذلك العمل، هذا من جهة ومن جهة أخرى الميت يتنفع بذلك العمل وإن لم يكن له دور فيه. فإذا استغفر الحي للميت، أو قام بعمل صالح من صوم أو صلاة أو صدقة أو برّ - إمّا نيابة عن الميت أو بدون أن يقصد النيابة - ثم أهدى ثوابه للميت، فلا ريب أن الميت يتنفع بذلك، ولقد أشار القرآن الكريم إلى نماذج متعدّدة من الاستغفار للآخرين وانتفاعهم بها،
مثل:

١. صحيح مسلم: ٦١/٨، باب «من سنّ سنة حسنة أو سيئة» من كتاب العلم.

استغفار الملائكة للمؤمنين

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بوضوح تام لا لبس فيه وأكد أن الملائكة تستغفر للمؤمنين، فإذا لم يكن في هذا الاستغفار فائدة تعود على الميت، فحينئذ يكون طلب الاستغفار لغواً لا طائلاً وراءه. ومن تلك الآيات:

١. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾. (١)

٢. وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. (٢)

٣. في الآيتين السابقتين كان الحديث عن استغفار الملائكة للمؤمنين، وأما الآية الثالثة فتحدث عن استغفار المؤمنين للمؤمنين، حيث قال سبحانه:

﴿الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ

١. المؤمن: ٧.

٢. الشورى: ٥.

سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ»^(١)

إن الآيات الثلاث المذكورة تحكي عن انتفاع الموتى باستغفار الملائكة والمؤمنين، ولكن الأمر لا ينحصر بالاستغفار فقط، بل الفائدة أوسع من ذلك وأشمل، وهذا ما أكدته الروايات الكثيرة، فقد وردت في مجال الإحسان إلى الموتى روايات كثيرة متشرة في المصادر الحديثية كلها تؤكد حقيقة انتفاع الميت بعمل الحي، وهانحن نستعرض تلك الروايات ضمن العناوين التالية:

١. انتفاع الميت بالصوم والحج النيايتين

وقد ورد في هذا المجال روايات متعدّدة، منها:

الف: أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وعليه صيام، صام عنه وليه»^(٢)

ب: روى ابن عباس: أن امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن أمي ماتت وعليها صوم شهر فقال ﷺ: «أرأيت لو كان عليها دين أكنت تقضينه؟»

قالت: نعم.

قال ﷺ: «فدين الله أحقّ بالقضاء»^(٣)

١. الحشر: ١٠. ٢. صحيح مسلم: ١٥٥/٣، باب قضاء الصيام عن الميت.

٣. نفس المصدر.

ج: عن عبد الله بن عطاء، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إني تصدقت على أُمِّي بجارية وأنها ماتت، قال: فقال ﷺ: «وجب أجرك»، ثم قالت: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفصوم عنها؟ قال: «صومي عنها» قالت: إنها لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال ﷺ: «حجِّي عنها»^(١).

٢. انتفاع الميت بالصدقة عنه

إن الروايات الواردة في هذا المجال كثيرة لا يمكن حصرها هنا، ولذا نكتفي بذكر روايتين منها يكفي نقلهما للإجابة عن بعض الإشكالات المطروحة:

الف: قالت عائشة: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أُمِّي اقتلعت نفسها، ولم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال ﷺ: «نعم»^(٢).

ب: عن سعد بن عباد، أنه قال: يا رسول الله إن أُمَّ سعد ماتت فأبي الصدقة أفضل؟ قال ﷺ: «الماء». فحضر بئراً وقال: هذه لأُم سعد^(٣).

وإذا أردنا أن نحلل تلك الروايات نقول:

١. نفس المصدر.

٢. صحيح مسلم: ٧٣/٣، باب دخول ثواب الصدقات إلى الميت.

٣. سنن أبي داود: ١٣٠/٢ برقم ١٦٨١.

إنَّ الإنسان قد يقوم بسلسلة من الأعمال الصالحة من دون تعهد مسبق ثمَّ يهدي ثوابها إلى الموتى، فإنَّ من المسلمَّ به أنَّ الأعمال التي تصدر من الإنسان ويراد بها وجه الله تعالى والتقرُّب إليه، فإنَّ الله سبحانه يثيب على ذلك ويجزي المحسنين، ولكن هذا الثواب والجزاء تفضُّل منه سبحانه وتعالى وليس للعبد أو عمله استحقاق على الله، وانطلاقاً من هذا التفضُّل والعطف الإلهي والرحمة الربانية جاءت الروايات لتجيز العمل النيابي عن الميت، ليتسنى للميت الحصول على ذلك الفضل الرباني والرحمة الإلهية.

النذر لأولياء الله

إنَّ النذر سنةٌ معروفة بين كافة المسلمين في العالم كله، وخاصة في البلاد التي تحتضن قبور أولياء الله وعباده الصالحين.

ولقد تعارف بين المسلمين النذر لله وإهداء ثوابه للنبي أو لعترته الطاهرة أو لأحد الصالحين، فيقول الناذر: «الله عليّ» ثمَّ يهدي ثوابه للنبي مثلاً، ولا مانع من ذلك أبداً.

إذا عرفنا ذلك الأصل حينها تتضح لنا وبجلاء معنى قول الناذر في بعض الأحيان: «الله عليّ أن أذبح شاة للنبي أو للوصي»، فإنَّ مفاد كلمة «الله» غير مفاد كلمة «للنبي» قطعاً، وإن كانت الكلمتان مقرونتين بحرف اللام، ولكن مفاد الحرف في لفظ الجلالة غير مفاده في لفظ النسب، وذلك لأنَّ

معنى اللام في الأوّل يراد به التقرب والقيام بالفعل لله تعالى وحده، والحال أنّ المراد من اللام في الثاني «النبى» ينصرف إلى معنى آخر ويراد به معنى الانتفاع والاستفادة، ومن حسن الحظ أنّ كلا التعبيرين قد وردا في الذكر الحكيم حيث قال سبحانه:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾. (١)

وفي آية أخرى قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾. (٢)

وعلى هذا الأساس لا يمكن عدّ هذا النوع من التعبير علامة للشرك بالله وعبادة لغيره، بل إنّ هذا التعبير نفسه قد ورد في حديث سعد بن عبادة الذي مرّ ذكره حيث قال: «هذه لأُمّ سعد».

المعيار هو النية لا ظاهر العمل

روى المحدثون عن النبى الأكرم ﷺ أنه قال: «إنّما الأعمال بالنيات» (٣).

ومن هذا المنطلق واعتماداً على هذا الأصل الإسلامى المسلم لا بدّ من التفريق ووضع المائز بين العمل الذى يقوم به الموحّدون من النذر أو

١. سبأ: ٤٦.

٢. التوبة: ٦٠.

٣. صحيح البخارى: ١/١.

الذبيح للنبي أو الأولياء وبين ما يقوم به المشركون تجاه أصنامهم وأوثانهم، فإنَّ العملين وإن اتَّحدا ظاهراً وشكلاً، ولكنَّهما يختلفان جوهرأً وحقيقةً، فلا يمكن قياس أحدهما بالآخر. لأنَّ الإنسان الموحد إنَّما ينذر لله وحده ويذبح طمعاً في نيل ثوابه وجزائه تعالى، والحال أنَّ المشركين يذبحون باسم أوثانهم ويطلبون الثواب منها، فكيف ياترى جعل العملين عملاً واحداً والتسوية بينهما؟!؟

فإذا كان المعيار في الحكم هو ظاهر العمل، فلا شكَّ أنَّ ظاهر أعمال الحجِّ لدى المسلمين يشبه عمل المشركين، فهم يطوفون حول أصنامهم ونحن نطوف حول الكعبة المشرفة ونقبلها، وهم ينحرون في منى لأصنامهم ونحن أيضاً ننحر في ذلك اليوم، ولكن هل من الصحيح التسوية بين العملين اعتماداً على الشكل الظاهري للعمل وإغفال جانب النيَّة التي تدفع الإنسان إلى القيام بذلك الفعل؟!؟

فلا ريب أنَّ المحرَّك والدافع للمشركين هو التزلف للأوثان والتقرب إليها والطمع بنيل رضاها، والحال أنَّ المحرَّك الذي يدفع الموحدين هو التزلف والتقرب لله وحده لا شريك له والطمع بنيل ثوابه والفوز بالجنة والرضوان، ولقد أكَّدت الروايات صحَّة هذا العمل وأضفت عليه صفة الشرعية.

إذا عرفنا ذلك كلَّه نعطف عنان القلم للحديث عن نظرية علماء أهل السنَّة في هذا المجال وما يذهبون إليه.

نقريّة المحقّقين من أهل السنّة

لأجل إتمام الفائدة وأنّصاح الأمر جلياً نأتي هنا بكلمتين لعلمين ومفكرين من أهل السنّة، وهما:

الأوّل: الخالدي البغدادي (المتوفى سنة ١٢٩٩هـ) حيث قال في كتابه «صلح الإخوان»: إنّ المسألة تدور مدار نيات الناذرين، وإنّما الأعمال بالنيّات، فإن كان قصد الناذر الميت نفسه والتقرب إليه بذلك لم يجز، قولاً واحداً. وإن كان قصده وجه الله تعالى وانتفاع الأحياء - بوجه من الوجوه - وثوابه لذلك المندور له - سواء عيّن وجهاً من وجوه الانتفاع، أو أطلق القول فيه وكان هناك ما يطرد الصرف فيه في عرف الناس، أو أقرباء الميت أو نحو ذلك، ففي هذه الصورة يجب الوفاء بالندور.^(١)

الثاني: العزامي في كتابه «فرقان القرآن» حيث قال:

ومن استخبر حال من يفعل ذلك من المسلمين، وجدّهم لا يقصدون بذبائحتهم وندورهم للأموات - من الأنبياء والأولياء - إلا الصدقة عنهم وجعل ثوابها إليهم، وقد علموا أنّ إجماع أهل السنّة منعقد على أنّ صدقة الأحياء نافعة للأموات، واصلة إليهم، والأحاديث في ذلك صحيحة مشهورة.^(٢)

ومنها ما نقله أبو داود عن ميمونة بنت كردم قالت: خرجت مع أبي في

٢. فرقان القرآن: ١٣٣.

١. صلح الإخوان للخالدي: ١٠٢ وما بعده.

حجة رسول الله ﷺ ... إلى أن قالت: فقال (أبي): يا رسول الله ﷺ إنني نذرت إن ولد لي ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة في عقبه من الشايبا عدة من الغنم، قال: لا أعلم إلا أنها قالت خمسين، فقال رسول الله ﷺ: «هل بها من الأوثان شيء؟» قال: لا، قال ﷺ: «فأوف بما نذرت به لله»^(١).

ومن الملاحظ أن الرسول الأكرم ﷺ قد ركّز في جوابه على وجود الأوثان في المنطقه مما يحكي أن النذر المحرّم هو النذر للأصنام والأوثان، لأنه كان من عادات عرب الجاهلية، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ... ذَلِكَمْ فِسْقٌ﴾^(٢).

ومن يمعن النظر في سلوك ومنهج الزائرين وطريقة تصرفهم في العتبات المقدّسة ومرآقد الأولياء الصالحين، يصل إلى نتيجة قطعية ويكتشف بما لا مزيد عليه أن هؤلاء يذبحون باسمه ولغرض الفوز برضاه والتقرب إليه سبحانه ثمّ انتفاع صاحب القبر بثواب ذلك العمل من جهة وانتفاع الفقراء والمحتاجين من جهة ثانية.

فتوى فقهاء أهل السنّة

بما أنّ المسألة من المسائل الفقهيّة لذلك من الجدير بنا أن نشير إلى فتاوى فقهاء أهل السنّة، لتتضح حقيقة الحال وليتجلّى الأمر بأحسن صورة،

١. سنن أبي داود: ٢/١٠٤، ح ٣٣١٤.

٢. المائدة: ٣.

وقد قَسَم هؤلاء المسألة إلى صورتين، هما:

الف: إذا أوصى الميت بالقيام بعد وفاته بعمل صالح فقد أجمع الفقهاء الأربعة على لزوم تنفيذ الوصية، وقالوا: الميت يتتبع بعمل الحي.

ب: إذا لم يوص الميت، ولكن تصدى أبناؤه وذووه للقيام بالعمل نيابة عنه، فقد أفتى بصحة هذا العمل جميع الفقهاء إلا الإمام مالكا.

١. قال فقهاء الحنابلة: الحج يقبل النيابة وكذلك العمرة... ومن توفي

قبل أن يحجَّ الحج الواجب عليه، سواء كان ذلك بعذر أو بغير عذر، وجب أن يخرج من جميع ماله نفقة حجة وعمرة، ولو لم يوص. (١)

٢. وأما فقهاء الحنفية فقالوا: إذا لم يوص - الميت - وتبرع أحد الورثة

أو غيرهم، فإنه يرجى قبول حجهم عنه إن شاء الله تعالى. (٢)

٣. وأما الشافعية فقالوا: فإن عجز عن مباشرة الحج بنفسه يحج عنه

الغير بعد موته من تركته. (٣)

ونحن إذا أردنا استعراض جميع كلمات وآراء علماء أهل السنة لطلال

بنا المقام، لذا نكتفي بهذا المقدار، ونعطف عنان القلم للحديث عن

الشيئات المثارة هنا، وهي:

١. الفقه على المذاهب الأربعة: ٥٧١/١، كتاب الحج، مباحث الحج عن الغير.

٢. الفقه على المذاهب الأربعة: ٥٦٧/١، كتاب الحج، مباحث الحج عن الغير.

٣. الفقه على المذاهب الأربعة: ٥٦٩/١، كتاب الحج، مباحث الحج عن الغير.

الشبهة الأولى

تنطلق هذه الشبهة من نكتة مفادها أن القرآن الكريم قد حصر انتفاع الإنسان بالعمل الذي يتصدى بنفسه للقيام به ويسعى في تحصيله ويبدل الجهد بإنجازه، حيث قال تعالى: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى»^(١)، ومع هذا التصريح في الآية كيف يتفجع الميت بعمل لم يبذل فيه أدنى جهد أو سعي؟!||

جواب الشبهة

إن الإجابة عن الشبهة المذكورة واضحة، بشرط بيان المراد من الآية آنفة الذكر، ومن هنا نقول:

أولاً: إن الآية المباركة بصدد الحديث عن العقاب والجزاء وإن كل إنسان إنما يجازى بعمله ويؤاخذ به وبما يقترفه هو بنفسه، ولا علاقة للآية بالثواب والجزاء، والشاهد على ذلك أنها تقول:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أِهْنَدَهُ عَلِمَ الْغَيْبِ
فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُتَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا
تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ

يُرَى * ثُمَّ يُجْزَأُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُتَّبِعِينَ»^(١).

فإن ملاحظة لحن الخطاب الوارد في الآيات والذي هو في الحقيقة لحن ذم وتوبيخ، يظهر وبجلاء أن الآية في مقام الحديث عن العقاب والجزاء وخاصة الآية السابقة عليها والتي تقول: «أَلَا تَسِرُّ وَاِزْرَةً وِزْرَ أُخْرَى» ومن هنا نعرف أن اللام الداخلة على كلمة الإنسان في قوله تعالى «لِلْإِنْسَانِ» لا يراد منها الانتفاع، بل هي بمعنى الاستحقاق، ولقد أكد علماء اللغة أن أحد معاني «اللام» الاستحقاق كما في قوله تعالى: «وَيُؤْتِلُ لِلْمُطَفِّفِينَ»^(٢)، فعلى هذا الأساس لا علاقة للآية بمسألة الهدية والثواب.

وثانياً: على فرض التسليم بشمولية الآية ودلالاتها على الثواب والعقاب معاً، مع ذلك نقول: يوجد هنا أمران لا ينبغي الخلط بينهما:

١. أن سعادة الإنسان وشقاءه مرهون بعمله وسلوكه، فإذا كان محسناً فاعلاً للخيرات فلا ريب أنه سعيد، وأما إذا كان سيئاً العمل مذموم الطريقة والمنهج فلا ريب أن عاقبته الشقاء والخسران، وهذا أصل قرآني أكدته آيات الذكر الحكيم حيث قال عز من قائل: «مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا»^(٣).

٢. إذا قام الإنسان بعمل صالح ثم أهدى ثواب ذلك العمل إلى آخر قد رحل عن هذه الدنيا، فإن الميت يتفجع بثواب ذلك العمل الصالح.

ولا ريب أنه لا منافاة بين هذين الأصلين، لأن الأصل يمثل قاعدة

عامة شاخصة للعيان في حياة الإنسان، كما أنَّ هذا الأصل يبيِّن المحور الذي تدور عليه كلُّ من السعادة والشقاء. والحال أنَّ الأصل الثاني أصل فرعي وحالة استثنائية، ومن الممكن بيان عدم التنافي بين الأصلين من خلال المثال التالي:

لو فرضنا أنَّ إنساناً ما ينصح ولده ويقول له: إنَّ سعادتك أو شقاءك في الحياة رهن بعملك وسعيك، وإنَّ الأمل بالنجاح والسعادة بلا عمل أو كدح خيال واه وحلم باطل، فهل تعني تلك النصيحة أنه لا يحقُّ لهذا الابن أن يتلقَّى الهدية من الآخرين، أو إذا تلقَّها لا تزيده نفعاً؟ أو أنَّ استلامه للهدية يُعدُّ مخالفةً لنصيحة الأب وإرشاده؟

فلا ريب أنَّ الإجابة عن هذا التساؤل بالنفي قطعاً، وذلك لأنَّ الأب في واقع الأمر بصدد بيان قاعدة كُلية وأصل عام تسيّر عليه الحياة وتدور عليه رحاها والنجاح أو الإخفاق فيها، وأمَّا الانتفاع بهدايا الآخرين ومنحهم فهو حالة استثنائية، فإنَّ الأب يقول لولده: اعتمد على نفسك وسعيك وجهدك ودع التكاسل والبطالة والاعتماد على الآخرين بالكلية، ولكن ذلك لا يمنع أن تحصل وفي حالات خاصة واستثنائية بين الحين والآخر على هدية أو هبة تنتفع بها في حياتك.

الشبهة الثانية

تقوم هذه الشبهة على الحصر الوارد في الحديث النبوي الشريف حيث حصر انتفاع الإنسان بعد موته بثلاثة أمور لم يكن من ضمنها انتفاع

الإِنسان بعمل غيره، لأنَّ الحديث النبوي قال: «إذا مات الإنسان، انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

جواب الشبهة

إنَّ الحديث ناظر إلى تلك الأعمال التي تصدر من الإنسان بصورة مباشرة، وليس بالخفي أنَّ الإنسان إذا مات انقطعت الأعمال التي يقوم بها بنفسه وبصورة مباشرة إلا الثلاثة التي بقي أثرها بعده ولم تمت بموته.

وعلى هذا الأساس لا توجد بين الحديث وبين انتفاع الإنسان بعمل يقوم به غيره أية صلة أو علاقة، بل أنَّ هيكل الحديث المستثنى «انقطع عمله» والمستثنى منه «إلا من ثلاثة» ناظر إلى الأعمال التي يقوم بها الإنسان بصورة مباشرة وأنَّ محور الحديث يدور حول بيان انقطاع عمل الإنسان بموته إلا ما استثنى في الحديث، وليس الحديث بصدد بيان الانتفاع بثواب العمل الذي يقوم به غيره ويهدي ثوابه إليه.

الشبهة الثالثة

إنَّ العبادات على صنفين: بعضها يقبل النيابة كالصدقة والحج، والبعض الآخر لا يقبل النيابة كالصلاة وقراءة القرآن والصيام، وحينئذٍ كيف يتصدى الإنسان للنيابة عن الميت في أمور لا تقبل النيابة أصلاً؟

جواب الشبهة

إن قبول العمل للنيابة أو عدم قبوله لا بد أن يؤخذ من الشرع، فالشارع هو الذي يحدّد ذلك، فعلى سبيل المثال: الإسلام لا يقبل النيابة، فلو تشهد الإنسان الشهادتين ألف مرة - نيابة عن الكافر - لا يجدي الكافر نفعاً أبداً، وأمّا الصوم مثلاً فلا ريب أن الروايات قد أكّدت قبوله للنيابة فقد روي عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «من مات وعليه صيام، صام عنه وليه».^(١)

ونظير ذلك الروايات التي ذكرناها في صدر البحث، وحينئذٍ كيف يدعى المستشكل أن الصلاة لا تقبل النيابة في الوقت الذي يعترف به بقبول الحجّ للنيابة، والحال أن من أعمال الحجّ الواجبة صلاة الطواف؟! فلا ريب أن العمل إذا قبل النيابة في مورد يقبلها في المورد الآخر بلا فرق بين الموردين أبداً.

ولقد روى الإمام أحمد في مسنده الحديث التالي:

ونس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له، وقرأوها على موتاكم.^(٢)

١. صحيح مسلم: ١٥٥/٣، باب قضاء الصيام عن الميت.

٢. مستند أحمد: ٢٦/٥.

(١٤)

ابن تيمية والبكاء على الميت

الحزن والتأثر عند فقدان الأحبة أمر جُبلت عليه الفطرة الإنسانية، فإذا ابتلي بمصائب عزيز من أعزائه أو فلذة من أفلاذ كبده وأرحامه، يحس بحزن شديد يتعقبه ذرف الدموع على وجناته، دون أن يستطيع أن يتمالك حزنه أو بكاءه.

ولا أجد أحداً ينكر هذه الحقيقة إنكار جِدِّ وموضوعية، ومن الواضح بمكان أن الإسلام دين الفطرة يجاريها ولا يخالفها.

قال سبحانه: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» (١).

ولا يمكن لتشريع عالمي أن يحرم الحزن والبكاء على فقد الأحبة إذا لم يقترن بشيء يغضب الرب.

ومن حسن الحظ نرى أن النبي ﷺ والصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان ساروا على وفق الفطرة.

فهذا رسول الله ﷺ يبكي على ولده إبراهيم، ويقول: «العين تدمع،

والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

روى أصحاب السير والتاريخ، أنه لما احتضر إبراهيم ابن النبي، جاء ﷺ فوجده في حجر أمه، فأخذه ووضعته في حجره، وقال: «يا إبراهيم إنا لن نغني عنك من الله شيئاً - ثم ذرفت عيناه - وقال: إنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب، ولولا أنه أمر حق ووعد صدق وأنها سبيل مآتية لحزننا عليك حزناً شديداً أشد من هذا».

ولما قال له عبد الرحمان بن عوف: أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ أجاب بقوله: «لا، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين وآخرين، صوت عند مصيبة وخمش وجوه وشق جيوب ورتة شيطان، وصوت عند نغمة لهو، وهذه رحمة، ومن لا يرحم لا يرحم»^(٢).

وليس هذا أول وآخر بكاء منه ﷺ عند ابتلائه بمصاب أعزائه، بل بكى ﷺ على ابنه «طاهر» وقال: «إن العين تذرف، وإن الدمع يغلب والقلب يحزن، ولا نعصي الله عز وجل»^(٣).

وقد قام العلامة الأميني في موسوعته الكبيرة «الغدير» بجمع موارد كثيرة بكى فيها النبي ﷺ والصحابة والتابعون على موتاهم وأعزائهم عند

١. سنن أبي داود: ٥٨/١؛ سنن ابن ماجه: ٤٨٢/١.

٢. السيرة الحلبية: ٣/٣٤٨.

٣. مجمع الزوائد للهيتمي: ٨/٣.

افتقادهم، وإليك نص ما جاء به ذلك المتعب الخبير.

وهذا هو عليه السلام لما أصيب حمزة عليه السلام وجاءت صفية بنت عبد المطلب (رضي الله عنها) تطلبه، فحال بينها وبينه الأنصار، فقال عليه السلام: «دعوها، فجلست عنده فجعلت إذا بكت بكى رسول الله عليه السلام، وإذا نشجت نَشَجَ، وكانت فاطمة عليها السلام تبكي، ورسول الله عليه السلام كلما بكت يبكي، وقال: لن أصاب بمثلك أبداً.»^(١)

ولما رجع رسول الله عليه السلام من أحد بكت نساء الأنصار على شهدائهن، فبلغ ذلك النبي عليه السلام فقال: «لكن حمزة لا يواكي له»، فرجع الأنصار فقالوا لنسائهم: لا تبكين أحداً حتى تبدأن بحمزة، قال: فذاك فيهم إلى اليوم لا يبكين ميتاً إلا بدأن بحمزة.»^(٢)

وهذا هو عليه السلام يعنى جعفرأ، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، وعيناه تدرقان.^(٣)

وهذا هو عليه السلام زار قبر أمه وبكى عليها وأبكى من حوله.^(٤)

وهذا هو عليه السلام يقبل عثمان بن مظعون وهو ميت ودموعه تسيل على خده.^(٥)

وهذا هو عليه السلام يبكي على ابن لبعض بناته، فقال له عبادة بن الصامت:

١. إمتاع المقرئ: ١٥٤. ٢. مجمع الزوائد: ٦ / ١٢٠.

٣. صحيح البخاري: كتاب المناقب في علامات النبوة في الإسلام: سنن البيهقي: ٤ / ٧٠.

٤. سنن البيهقي: ٤ / ٧٠؛ تاريخ الخطيب البغدادي: ٧ / ٢٨٩.

٥. سنن أبي داود: ٢ / ٦٣؛ سنن ابن ماجه: ١ / ٤٤٥.

ما هذا يا رسول الله ﷺ؟ قال: «الرحمة التي جعلها الله في بني آدم، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(١).

وهذه الصديقة الطاهرة تبكي على رسول الله ﷺ، وتقول: «يا أبتاه من ربّه ما أدناه، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه إلى جبرئيل نعاها، يا أبتاه جنّة الفردوس مأواه»^(٢).

وهذه هي ﷺ وقفت على قبر أبيها الطاهر، وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها وبكت، وأنشأت تقول:

ما ذا على من شمّ تربة أحمد أن لا يشمّ مدى الزمان غواليا

صبت عليّ مصائب لو أنّها صبت على الأيام صرن لياليا

وهذا أبو بكر بن أبي قحافة يبكي على رسول الله ﷺ ويرثيه بقوله:

يا عين فابكي ولا تسأمي وحقّ البكاء على السيّد

وهذا حسان بن ثابت يبكيه ﷺ ويقول:

ظلمت بها أبكي الرسول فأسعدت

عيونٌ ومثلاها من الجفن أسعد

ويقول:

١. سنن أبي داود: ٥٨ / ٢؛ سنن ابن ماجه: ٤٨١ / ١.

٢. صحيح البخاري، باب مرض النبي ووفاته؛ مسند أبي داود: ١٩٧ / ٢؛ سنن النسائي: ٤ / ١٣؛

مستدرک الحاكم: ١٦٣ / ٣؛ تاريخ الخطيب: ٢٦٢ / ٦.

يُبْكُونُ مَنْ تَبْكِي السَّمَاوَاتِ يَوْمَهُ
وَمَنْ قَدْ بَكَتَهُ الْأَرْضُ فَالِنَّاسِ أَكْمَدُ

ويقول:

يا عين جودي بدمع منك إسبال
ولا تملنَّ من سَخِّ وإعوال

وهذه «أروى» بنت عبد المطلِّب تبكي عليه عليه السلام وترثيه بقولها:

ألا يا عين! ويحك! أسعديني بدمعك ما بقيت وطاوعيني
ألا يا عين! ويحك! واستهلي على نور البلاد وأسعديني
وهذه عاتكة بنت عبد المطلِّب ترثيه وتقول:

عينيَّ جوداً طوال الدَّهر وانهجراً
سكباً وسخاً بدمع غير تعذير

يا عين فاسحنفري بالدمع واحتفلي
حتى الممات بسجل غير مندور

يا عين فانهملي بالدمع واجتهدي
للمصطفى دون خلق الله بالنور

وهذه صفية بنت عبد المطلِّب تبكي عليه وترثيه عليه السلام وتقول:

أفاطمُ بكِّي ولا نسأمي بصحك ما طلع الكوكبُ

هو المرء يُبكي وحقّ البكاء هو الماجد السيّد الطيّب
وتقول:

أعيني! جودا بدمع سحجُم يسبادر غرباً بما مُنهدم
أعيني! فاسحفرأ وأسكبا بوجدٍ وحزنٍ شديد الألم
وهذه هند بنت الحارث بن عبد المطلب تبكي عليه وترثيه وتقول:

يا عين جودي بدمع منك وابتدري
كما تنزل ماء الغيث فانتعبا

وهذه هند بنت أثانة ترثيه وتقول:

ألا يا عين! بكّي لا تملي فقد بكر النعي بمن هويت
وهذه عاتكة بنت زيد ترثيه وتقول:

وأمت مراكبه أوحشت وقد كان يركبها زينها
وأمت تُبكي على سيّد تـردّد عبرتها عيناها
وهذه أم أيمن ترثيه عليها السلام وتقول:

عين جودي فإنّ بذلك للدمع شفاه فاكثري من بكاء
بدموع غزيرة منك حتّى يقضي الله فيك خير القضاء
وهذه عمّة جابر بن عبد الله جاءت يوم أُحد تبكي على أخيها عبد الله
بن عمر، وقال جابر: فجعلتُ أبكي وجعل القوم ينهوني ورسول الله ﷺ لا

ينهاني، فقال رسول الله ﷺ: «أبكوه ولا تبكوه فوالله ما زالت الملائكة تظلمه بأجنحتها حتى دفتموه»^(١).

دليل المانعين

نعم روي عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ يَعْذَّبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ»^(٢).

أقول: إن ظاهر هذا الحديث يخالف فعل الخليفة في مواطن كثيرة أثبتها التاريخ.

منها: أنه بكى على النعمان بن مقرن المزني لما جاءه نعيه، فخرج ونعاه إلى الناس على المنبر، ووضع يده على رأسه يبكي^(٣).

ومنها: بكاؤه على خالد بن الوليد عندما مات وامتنعت النساء من البكاء عليه، فلما انتهى ذلك إلى عمر، قال: و ما على نساء بني المغيرة أن يرقن من دمعهن على أبي سليمان ما لم يكن لغواً ولا لقلقة^(٤).

ومنها: بكاؤه على أخيه زيد بن الخطاب، وكان صحبه رجل من بني عدي ابن كعب فرجع إلى المدينة، فلما رآه عمر دمعت عيناه، وقال: و خلقت زيدا قاضياً وأتيتني^(٥).

١. الغدير: ٦/١٦٤ - ١٦٧.

٢. صحيح مسلم: ٣/٤١ - ٤٤، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.

٣. العقد الفريد: ٣/٢٣٥.

٤. العقد الفريد: ٣/٢٣٥.

٥. العقد الفريد: ٣/٢٣٥.

فالبكاء المتكرّر من الخليفة يهدينا إلى أن المراد من الحديث - لو صحّ سنده - معنى آخر ، كيف وأنّ ظاهر الحديث لو قلنا به فإنّه يخالف الذكر الحكيم، أعني قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(١). فأبي معنى لتعذيب الميت ببكاء غيره عليه!!

فقه الحديث

كلّ هذه النقول توقّفنا على أن المراد من الحديث «إنّ الميت يعذب...» - إن صحّ سنده - غير ما يفهم من ظاهره، وقد كان محتقناً بقرائن سقطت عند النقل، ولأجل ذلك توهم البعض حرمة البكاء على الميت استناداً إلى هذا الحديث، غافلاً عن مرمى الحديث ومغزاه.

أخرج مسلم في صحيحه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: ذكر عند عائشة قول ابن عمر: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، فقالت: رحم الله أبا عبد الرحمن، سمع شيئاً فلم يحفظه، إنّما مرّت على رسول الله ﷺ جنازة يهودي، وهم يبكون عليه، فقال: أنتم تبكون وإنّه ليعذب.^(٢)

وأخرج أبو داود في سننه عن عروة عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ الميت ليعذب ببكاء أهله عليه، فذكر ذلك لعائشة فقالت - وهي تعني ابن عمر -: إنّما مرّ النبي ﷺ على قبر يهودي فقال: إنّ

١. فاطر: ١٨.

٢. صحيح مسلم: ٤٤ / ٣، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه من كتاب الصلاة.

صاحب هذا ليعذب وأهله ليكون عليه. ثم قرأت ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (١).

قال الشافعي: ما روت عائشة عن رسول الله ﷺ أشبه أن يكون محفوظاً عنه ﷺ بدلالة الكتاب والسنة، فإن قيل: فأين دلالة الكتاب؟ قيل: في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ...﴾ و﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٢) وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٣) وقوله: ﴿...لَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (٤).

فإن قيل: أين دلالة السنة؟ قيل: قال رسول الله ﷺ لرجل: «ابنك هذا؟» قال: نعم، قال: «أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه». فأعلم رسول الله مثلما أعلم الله من أن جناية كل امرئ عليه، كما أن عمله لا لغيره ولا عليه. (٥)

وأخرج مسلم عن ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمَيِّتَ يَعَذَّبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»، فقال ابن عباس: فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة، فقالت: يرحم الله عمر، لا والله ما حدث رسول الله ﷺ أن الله يعذب المؤمن ببكاء أحد، ولكن قال: إِنَّ اللَّهَ يَزِيدُ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ، قال:

١. سنن أبي داود: ٣/١٩٤، برقم ٣١٢٩.

٢. النجم: ٣٩.

٣. الزلزلة: ٧-٨.

٤. طه: ١٥.

٥. اختلاف الحديث بهامش كتاب الأم للشافعي: ٧/٢٦٧.

وقالت عائشة: حسبكم القرآن: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»^(١).

وما أخرجه مسلم عن هشام بن عروة هو الحقّ دون ما أخرجه عن ابن عباس لأنّ تعذيب الكافر ببكاء أهله عليه يضادّ الذكر الحكيم.

(١٥)

ابن تيمية وتسمية الأبناء بعبد النبي أو عبد الحسين

قد تصل درجة الحب والولاء وشدة الشوق في الإنسان إلى درجة بحيث يرى نفسه «عبدًا» أو «غلامًا» لمن يحبه ويوده، وما ذلك إلا إمعاناً منه في إبراز الحب وإظهار التصاغر أمام حبيبه.

ومن هذا المنطلق تجد الكثير من ذوي النفوس الطاهرة والأرواح الزكية يعشقون الرسول الأكرم ﷺ، ويهيمون به وبالأولياء والصالحين إلى درجة يدفعهم ذلك الحب والشوق والمودة لهم إلى أن يسموا أبناءهم «بعبد النبي» أو «عبد الحسين»، وغير ذلك من الأسماء التي تبدأ بكلمة «عبد»، وفي الحقيقة أن هذه التسمية هي انعكاس طبيعي وتعبير بريء عما تكن نفوسهم من الحب والولاء والشوق للنبي ﷺ وأهل بيت الوحي ﷺ.

وليس وراء تلك التسمية غاية أو قصد آخر غير ما ذكرنا، وما يدرك ذلك إلا ذوق النفوس الطاهرة والأحاسيس المرهفة.

بعد هذه المقدمة نشير إلى إشكالية أثارها البعض حول تلك التسمية

حيث قالوا:

لا ينبغي للإنسان أن يرتدي برداء العبودية إلا لله سبحانه، لأن هذا الرداء من شأنه سبحانه وتعالى وحده لا يشاركه فيه أحد مهما كان، كما يقول عز وجل: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(١).

فإذا كان الإنسان عبداً لله سبحانه وتعالى فكيف يصح أن نسميه بـ«عبد زيد» أو «عبد عمرو» فإن هذه التسمية تشم منها رائحة الشرك؟!!

جواب الشبهة

من أجل أن تظهر الحقيقة وينجلي الحق، وليتضح مدى وهن هذا الإشكال لا بد أولاً من معرفة وبيان ملاك «العبودية» ثم الانتقال للحديث عن «الانحصار وعدم الانحصار» ثانياً.

وبعبارة أخرى: لا بد من التمييز بين العبودية التكوينية التي عجزت مع جوهر الإنسان، وبين العبودية التشريعية أو القانونية التي قد تنفصل عن الإنسان، فإن ذلك مهم جداً في مقام الإجابة عن الشبهة المطروحة فنقول:

إذا كان الملاك في العبودية هو «الخالقية» و«منح الوجود» للطرف المقابل، فلا شك أن جميع بني الإنسان يشتركون في هذه العبودية لله سبحانه وتعالى ولا يشاركه فيها أحد أبداً، وإذا ما وجدنا السيد المسيح ﷺ يقول: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾^(٢)، أو نراه سبحانه ينادي المؤمنين بقوله: ﴿يَا عِبَادِ﴾،

ويقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾^(١) فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ منطلق من هذا الملاك، أعني: ملاك الخالقية ومنح الوجود للإنسان.

ومن الواضح أنّ هذا النوع من العبودية ملازم للإنسان ويستحيل أن ينفك عنه أبداً، ولا بدّ للإنسان أن ينطلق في عبوديته لله سبحانه ويطيعه ويعبده من خلال هذا الملاك؛ أما إذا كانت العبودية ناشئة من الملاك التشريعي أو العقد الاجتماعي، فحينئذٍ لا تكون العبودية هنا منحصرة بالله سبحانه وتعالى، بل يمكن - و تحت شروط خاصة وظروف معينة - أن يكون الإنسان عبداً لغيره، نشير هنا إلى كلا النموذجين:

١. طالما هيمن الطواغيت والمستكبرون على مقدّرات المستضعفين والمحرومين واسترقّوهم بحيث أصبحوا بمنزلة السلعة تباع وتشتري في أسواق النخاسة، ولم ينحصر الأمر بهم بل امتد ليشمل أبناءهم وذرائعهم، وليس التاريخ الأوروبي والأمريكي ببعيد عنّا، حيث كانوا ولفترة قريبة جداً يزاولون تجارة الرق، بل كان كسب الكثير منهم قائماً على أساس سرقة واختطاف الإنسان الأسود في أفريقيا وشحنه بطريقة مأساوية جداً في سفن لا تتوفر فيها أبسط الوسائل لنقل الإنسان، بل كانت تمارس بحقهم أقسى أنواع المعاملة، وأنت إذا نظرت إلى المجتمع الأوروبي أو الأمريكي تجد الكثير من نسل أولئك الأفارقة الذين اختطفوا من أرضهم وأرسلوا قسراً إلى تلك البلاد. ولقد عارض الإسلام هذا النوع من الاسترقاق والعبودية. وسعى للقضاء على ظاهرة الرق، وإذا ما وجدنا الإسلام قد أجاز ذلك في الحروب

الشرعية فلأجل الحفاظ على حياة الأسرى، ولكنه في الوقت نفسه جعل لهم أحكاماً خاصة تؤول في النتيجة إلى تحريرهم وخلصهم، وقد بحثت هذه القضية مفصلاً في أبواب الفقه الإسلامي.

٢. إن القرآن الكريم قسّم الناس إلى صنفين، فقال: «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ»^(١)، ولا ريب أنه ليس المقصود في الآية هو العبد التكويني، وذلك لأن العبودية بهذا المعنى لا تختص بصنف من الناس دون صنف، بل الكل فيها سواسية فالجميع عبيد له سبحانه، إذاً المقصود من الآية «العبد» مقابل «الحر»، فلا بدّ حينئذٍ من بيان هذه العبودية، وإن العبد الذي جاء ذكره في القرآن عبد لمن؟

لا ريب أن المراد منه الإنسان الذي يكون عبداً لغيره، والذي يمتلك زمام أموره ويتسلط عليه وفقاً للقانون والتشريع الإسلامي. وفي آية أخرى نجد القرآن المجيد وفي مجال الحث على التزويج والترغيب فيه يقول:

«وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ»^(٢).

وحينئذٍ نتساءل الآية تقصد عبد من؟ وأمة من؟ لا شك أنها تقصد العبد أو الأمة اللذين تسلط عليهما مالكما بطريقة شرعية.

بعد هذه المقدمة يتّضح لنا وبجلاء أن العبودية النابعة من الخالقية

١. البقرة: ١٧٨.

٢. النور: ٣٢.

والربوبية لا يمكن أن تضاف إلى غيره سبحانه وتعالى ، فالكل عبده بما فيهم الأنبياء والأولياء فضلاً عن عامة الناس، وأما العبودية النابعة من التشريع والتقنين فمن الممكن أن تنسب إلى غيره سبحانه فيقال: «زيد غلام النبي ﷺ»، و«قنبر غلام علي» و«فلان عبد زيد» و«فلانة أمة فلان» وهكذا.

وبالالتفات إلى هذين النوعين من العبودية نفهم: أن العبودية القانونية رمز للطاعة والتبعية للمولى، أي ينبغي على العبد أو الأمة إطاعة مولاها واتباع أوامره ونواهيه، ولقد حدّد الفقه الإسلامي دائرة تلك الأوامر والنواهي ومقدار دائرة حقّ المولى على عبده وإمائه. ومن هنا نعرف أن الغاية من تسمية الأبناء بـ«عبد النبي» أو «عبد الحسين» هو تشبيه الأطفال بالعبد القانوني الذي جوهر حقيقته هو الطاعة، فيكون المعنى هكذا: كما أن العبد القانوني مطيع وتابع لمولاه، فهكذا صاحب هذا الاسم - أي الوليد - هو عبد للنبي أو لسيد الشهداء ومطيع لهما.

وبعبارة أخرى: أن مصطلح «العبد» يراد به هنا «المطيع»، وهذا المعنى قد استعمل في اللغة العربية^(١)، والمسلمون وطبقاً لقوله تعالى: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»^(٢) هم في الحقيقة مطيعون لله وللرسول ولأولي الأمر وتابعين لهم.

والعجب أن الذين تثار حميتهم وتنبض عروق الغيرة على الدين في

١. انظر لسان العرب: مادة «عبد»؛ القاموس المحيط: مادة «عبد».

أبدانهم حينما يسمعون بمثل تلك التسميات، تجدهم في نفس الوقت يقفون موقف الخائر الذليل والعبد المطيع أمام السلاطين والحكام غير الشرعيين، ولا يكتفون بذلك، بل يسبقون عليهم - زوراً وبهتاناً - صفة أمير المؤمنين!!!

ولقد أشارت الصحف في المملكة العربية السعودية إلى نماذج من ذلك حينما تصدى الملك «فيصل بن عبد العزيز» لمنصب القيادة في السعودية بعد أخيه «سعود بن عبد العزيز» حيث خاطبه في حينها مفتي الديار السعودية السابق «ابن باز» بلقب أمير المؤمنين، الأمر الذي اعتذر منه الملك فيصل نفسه ووجده لقباً كبيراً لا يستحقه.

ولقد أشارت الصحف والمجلات في المملكة إلى تلك المذكرات، وقد طالعتها بنفسي.



إلى هنا تمّ تبين عقائد ابن تيمية ومحبي مسلكه ابن عبد الوهاب فبقي الإلماع إلى حياة المحبي والناصر لابن تيمية - أعني: محمد بن عبد الوهاب -، وهو ما سيوافيك في البحث التالي .



الفصل السادس

محمد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة الوهابية

نشأته ووفاته

استشفاف بوادر الضلال من كلماته

اتفاق الشيخ ومحمد بن سعود

بدء الدعوة ونشرها

صدام بين ابن عبد الوهاب وأمير عيينة

تكفير محمد بن عبد الوهاب جميع المسلمين

حروبه مع المسلمين

تاريخ الوهابية

مؤسسها، ناصرها وتطورها

قد وقفت في الفصول السابقة على العقائد الوهابية عن كسب، وأنها لم تكن شيئاً جديداً سوى ما ابتدعه أحمد بن تيمية في القرن الثامن الهجري، وقد كاد أن يصير نسياً منسياً، ويذهب أدراج الرياح، غير أن بذورها لما كانت تقبع في طيات كتبه ورسائله، قام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي بتجديد العهد بها، وإحيائها مرة أخرى بفضل سيف آل سعود في الشطر الثاني من القرن الثاني عشر إلى أوليات القرن الثالث عشر الهجري، أي من سنة ١١٦٠ إلى سنة ١٢٠٧ هـ التي وافاه الأجل فيها، ثم تعاهد أبناؤه من بعده مع أبناء بيت قبيلة آل سعود فترة بعد فترة، على أن تكون الدعوة والإرشاد والتخطيط على أبنائه، والتطبيق والتنفيذ والسلطة على كاهل آل سعود، فلم تزل هذه المعاهدة باقية إلى يومنا هذا، غير أنها اتخذت في هذه الآونة لنفسها شكلاً آخر، وهو أن القوة والسلطة كانت في بدء التأسيس آلة طيعة بيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولكنه في عصرنا هذا تبدلت رأساً على عقب، فأصبحت السلطة الدينية أداة طيعة في يد آل سعود، يأترون

بكل ما يلقى إليهم من البلاط السعودي والملك الحاكم من قبلهم على شبه الجزيرة العربية.

وهذه إحدى الصور التي تحكي لنا عن تراجع الروهابية عن مبادئها الأولية التي قامت على اعتبارها يوم تأسيسها، وسنوافيك بما يحكي لك المزيد من ذلك .

نشأته ووفاته

اختلف المؤرخون في عام ولادته ووفاته، فمن قائل^(١) بأنه ولد سنة ١١١١ هـ وتوفي عام ١٢٠٧ هـ فيكون عمره ستاً وتسعين؛ إلى آخر^(٢) بأنه ولد عام ١١١٥ هـ وتوفي ١٢٠٧ هـ فيكون قد ناهز إحدى وتسعين، نشأ وترعرع في بلده «العيينة» في نجد، وتلقى دروسه بها على رجال الدين من الحنابلة، ثم غادر موطنه ونزل المدينة المنورة ليكمل دروسه.

يقول أحمد أمين المصري: «سافر الشيخ إلى المدينة ليتم تعلمه، ثم طاف في كثير من بلاد العالم الإسلامي، فأقام نحو أربع سنين في البصرة، وخمس سنين في بغداد و سنة في كردستان، وستين في همدان، ثم رحل إلى إصفهان، ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوف، ثم رحل إلى «قم» ثم

١. الدرر السنية: ٤٢، طبع الأستانة وغيره .

٢. زعماء الإصلاح في العصر الحديث: ١٠؛ طبع بيروت. وقد أرخ الألووسي ولادته ب ١١١١ هـ ولكنه أرخ وفاته ب ١٢٠٦ هـ.

عاد إلى بلده، واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر، ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة^(١).

وقد ذكر كثير من المؤرخين تجواله وترحاله في هذه البلاد، منهم عبد الرزاق الدنبيلي في كتابه «مآثر سلطانية»^(٢)، والشيخ أبو طالب الإصفهاني الذي كان معاصراً للشيخ محمد بن عبد الوهاب، فقد ذكر سفر الشيخ إلى إصبهان وإلى أكثر بلاد العراق وإيران، حتى إلى «غزنين» الذي هو بلد في أفغانستان^(٣).

استشفاف بوادر الضلال من كلماته

إنَّ الإنسان مهما كان ذكياً مواظباً على ستر عقيدته لا يتمكن من إخفائها في الفترة التي يكون فيها الوعي غائباً والدهن خاملاً، وعند ذلك يبدو على صفحات وجهه وفتلات لسانه ما يكتمه ويخفيه في الأوعية، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه»^(٣).
وقد كان محمد بن عبد الوهاب ممن يتفرّس مشايخه وأساتذته فيه الضلال، حيث كان عندما يتردد إلى مكة والمدينة لأخذ العلم من علمائهما، وعندما كان يدرس على الشيخ محمد بن سليمان الكردي، والشيخ محمد حياة

١. نفس المصدر السابق: ١٠. ٢. مآثر سلطانية: ٨٢ و...

٣. سفرنامه: ٤٠٩ و...

٣. نهج البلاغه: قسم الحكم ٢٦٠.

السندي كانا يتفرسان فيه الغواية والإلحاد، بل يتفرس غيرهما فيه مثل ذلك، وكان ينطق الكل بأنه سيضل الله تعالى هذا، ويضل به من أشقاه من عباده، حتى أن والده عبد الوهاب - وهو من العلماء الصالحين - كان يتفرس فيه الإلحاد ويحذر الناس منه، حتى أن أخاه الشيخ سليمان ألف كتاباً في الرد على ما أحدثه من البدع والعقائد الزائفة، وكان محمد بن عبد الوهاب بادئ بدء كما ذكره بعض المؤلفين مولعاً بمطالعة أخبار من ادعى النبوة كاذباً كمسيلمة الكذاب وسجاح، والأسود العنسي، وطليحة الأسدي وأضرابهم.^(١)

يكتب ميرزا أبو طالب الإصفهاني وهو معاصره ويقول: أخذ في أول أمره عن كثير من علماء مكة والمدينة، وكانوا يتفرسون فيه الضلال والإضلال، وكان والده عبد الوهاب من العلماء الصالحين، وكان يتفرس فيه ذلك ويذمه كثيراً، ويحذر الناس منه، وكذا أخوه سليمان بن عبد الوهاب أنكر عليه ما أحدثه، وألف كتاباً في الرد عليه، وكان في أول أمره مولعاً بمطالعة أخبار مدعي النبوة كمسيلمة و...»^(٢).

لو صح هذا فهو يعرب عن أن محمد بن عبد الوهاب كان يضم في مكان ذهنه شيئاً يشاكل فعل هؤلاء المتنبئين، فصب ما أضمره في الدعوة الجديدة إلى التوحيد، وعاد يكفر رجال الدين عامة في كافة العصور، وينسبهم إلى الجهل والضلال، وهذه سمة المبتدعين عامة.

١. انفجر الصادق: ١٧؛ فتنة الوهابية: ٦٦.

٢. سفرنامه: ٤٠٩.

انتقال عبد الوهاب إلى حريملة.

ترك أبوه «العيينة» ونزل بلدة «حريملة» وبقي فيها إلى أن وافته المنية سنة ١١٤٣^(١) ولم يكن راضياً عن ابنه، وطالما زجره ونهاه، ولمّا توفي الوالد تجزأ عليه أهل «حريملة» وهمّوا بقتله، فلم يجد بداً من الهرب إلى «العيينة» وهي مسقط رأسه ودار نشأته، وقد تعاهد هو وأميرها «عثمان بن معمر» على أن يشد كلُّ أزر الآخر، فيترك الأمير للشيخ الحرية في إظهار الدعوة والعمل على نشرها، لقاء أن يقوم محمد بن عبد الوهاب بدوره بشتى الوسائل لسيطرة الأمير على نجد بكاملها، وكانت يومذاك موزعة إلى ست أو سبع إمارات منها إمارة العيينة^(٢) ولكن لكسي تقوى الروابط بين الاثنين زوج الأمير أخته «جوهرة» من الشيخ، فقال له الشيخ: «إني لأمل أن يهبك الله نجداً وعربانها»^(٣).

هكذا بدأ التآلف بين الشيخ والأمير، واحدة بواحدة... مساومة ثم أخذ وعطاء، والثمن هو الدين والشعب، أمّا زواج الشيخ من «جوهرة» فتثبيتاً للتحالف، وضمّاناً للوفاء... لقد سخر محمد بن عبد الوهاب الدين لأجل الدنيا، وتطوع لتعزيز حكمه دون أن يكون على يقين من عدله، أو يأخذ منه موثقاً لتحسين الأوضاع وراحة الناس، والعمل للصالح العام، بل على

١. هذه هي الوهاية: ١١١. ٢. تاريخ نجد لمحمود الأوسى: ١١.

٣. تاريخ نجد لعبد الله فيليبي: ٣٦.

العكس، فقد وعده بملك نجد وعربانها... ولكن لا بالاقتراع وحرية تقرير المصير، بل بالحرب والغزو وبأشلاء الضحايا.^(١)

أبعد ذلك يصحّ أن يعدّ الشيخ من المصلحين المجددين، وممن له رسالة إنسانية كما عدّه نفر منهم أحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»، ومهما كان فإنّ التحالف بين الشيخ والأمير لم يطل عمره ولم يتم أمره، وما تمخّض إلا عن زواج الشيخ بجوهرة، وهدم قبر زيد بن الخطاب، وإثارة الفتن والقلقل فقط. لم يطل عمر التحالف بين ابن عبد الوهاب والأمير ابن معمر، لأنّ سليمان الحميدي صاحب الأحساء والقظيف أمر عثمان بن معمر - وكان أقوى منه - أن يقتل الشيخ.

يقول عبدالله فيلبي في «تاريخ نجد»: «قرر عثمان أن يتخلص من ضيفه، فطلب منه أن يختار المكان الذي يريد الذهاب إليه، فاختار «الدرعية»، فأرسل عثمان معه رجلاً اسمه فريد: وكلفه أن يقتل ابن عبد الوهاب في الطريق، ولكن فريداً خذلته إرادته، وترك الشيخ وقفل راجعاً دون أن يمسه بسوء.^(٢)

ويذكر السيد محمود شكري الألوسي انتقال الشيخ من «عيننة» إلى «حريملة» نحو ما مرّ ويزيد: خرج إلى «الدرعية» سنة: ١١٦٠ هـ، وهي بلاد مسيلمة الكذاب.^(٣)

١. هذه هي الوهاية: ١١٢.

٢. تاريخ نجد: ٣٩٠، ط المكتبة الأهلية، بيروت.

٣. كشف الارتباب: ١٣ - ١٤ نقلاً عن كتاب تاريخ نجد لمحمود شكري الألوسي.

اتفاق الشيخ ومحمد بن سعود

ورد الشيخ إلى الدرعية في العام الذي عرفت، وكان أميرها آنذاك محمد بن سعود جد السعوديين، وتم الاتفاق بين الأمير والشيخ على غرار ما كان قد تمّ بينه وبين ابن معمر في «العيينة»، فقد وهب الشيخ نجد وعربانها لابن سعود، كما وهبهما من قبل لابن معمر، ووعده أن تكثر الغنائم عليه والأسلاب الحربية التي تفوق ما يتقاضاه من الضرائب^(١) على أن يدع الأمير للشيخ ما يشاء من وضع الخطط لتنفيذ دعوته .

وتقول الرواة: إن الأمير سعود بايع محمد بن عبد الوهاب على القتال في سبيل الله... ومعلوم انهما لم يفتحا بلداً غير مسلم في الشرق أو في الغرب، وإنما كانا يغزوان ويحاربان المسلمين الذين لم يدخلوا في طاعة ابن سعود، ولأجل ذلك قال الأمير لابن عبد الوهاب: «أبشر بالنصر لك ولما أمرت به، والجهاد لمن خالف التوحيد، لكن أريد أن اشترط عليك اثنين: أولاً: إذا قمنا بنصرتك وفتح الله لنا ولك، أخشى أن ترحل عنا وتستبدل بنا غيرنا. فعاهده الشيخ أن لا يفعل .

ثانياً: إنني أتقاضى من أهل «الدرعية» مالا وقت الثمار، وأخاف أن تمنع ذلك، فقال الشيخ: لعل الله يفتح الفتوحات فيعوضك الله من الغنائم ما هو أعظم منها»^(٢).

١. تاريخ نجد: ٣٩.

٢. محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى لعبد الفتاح أبو عليّة: ١٣ - ١٤.

وعلى هذا تم الاتفاق بين أمير «الدرعية» والشيخ .

إن بعض المستشرقين مثل «فيليب حتى»^(١) و «جولد تسيهر»^(٢) وغيرهما يذكرون أنه قد تقوّت الروابط بين الاثنين بمثل ما تقوّت بينه وبين أمير «عيننة» وزوّج محمد بن سعود ابنه عبدالعزيز من إحدى بنات محمد بن عبد الوهاب، ولا يزال المهدي بين آل سعود وعائلة عبد الوهاب مستمراً إلى يومنا هذا، وإن اختلف مضمونه مع استمرار التزاوج على نطاق واسع.^(٣)

بدء الدعوة ونشرها

شعر محمد بن عبد الوهاب بقوته عن طريق هذا التحالف الجديد، وأنّ الإمارة السعودية أصبحت تناصره وتؤازره، فلأجل ذلك جمع الشيخ أنصاره وأتباعه وحثّهم على الجهاد، وكتب إلى البلدان المجاورة المسلمة أن تقبل دعوته، وتدخل في طاعته، وكان يأخذ ممّن يطيعه عشر المواشي والنقود والعروض، ومن أبى غزاه بأنصاره، وقتل الأنفس ونهب الأموال، وسبى الذراري، وكان شعارهم: «ادخل في الوهابية وآل فالقتل لك، والترمل لنسانك، واليتم لأطفالك» هذا هو بالذات مبدأ الوهابية الذي لا تتنازل عنه لأية مصلحة، ومن أجله تحالف مع ابن معمر في «العيننة»، ثم مع ابن سعود

١. تاريخ العرب : ٢ / ٩٢٦ المترجم إلى الفارسية .

٢. العقيدة والشريعة في الإسلام : ٢٦٧، ط مصر، الطبعة الثانية .

٣. آل سعود ماضيهم ومستقبلهم لجبران شامية: ٢٣، ط الرياض .

في «الدرعية»، وكان على أتم استعداد أن يتحالف مع أية قوة يستعين بها على ذلك.^(١)

كان الشيخ يغزو بأنصاره وأتباعه عربان نجد، يسلبونهم مصدر حياتهم، ثم يتقلون إلى الدرعية بعد أن يتركوا وراءهم أشلاء الضحايا، والخرائب والأرامل والأيتام، ويوزع الشيخ عليه أربعة أحماس الغنائم والأسلاب من المسلمين الأمنين، ويخص الخمس بالخزينة التي يشرفون عليها هو والأمير السعودي .

يقول عبدالله فيلبي في «تاريخ نجد»: «وقد أدخل الإمام في عقول طلابه مبادئ فريضة الجهاد المقدس، فوجد الكثير منهم في الجهاد أقدس تعاليمه، إذ أنه يتفق مع ما اعتاد عليه العرب - يريد أن العرب قد اعتادوا على السلب والنهب -، كما خصَّص الشيخ خمس الأسلاب لخزينته المركزية التي كان الأمير والإمام يتقاضيان منها ما يقوم بأودهما... وهكذا كان سلطان الشيخ في تصرف شؤون البلاد بعد مرور سنة أو سنتين، وقد أصبح شريكاً مؤسساً.

الوهابية أو السيف

ربما يستغرب القارئ عندما يسمع أن الوهابية تحصنت في بدء دعوتها بهذا الشعار، وطبقته في حياتها سنين، ولكنه لعمرك حقيقة لا مرية

١. هذه هي الوهابية: ١١٤.

فيها، فقد ارتفع صرح الإمارة السعودية يوم انتشارها إلى العصر الحاضر على هذا الأصل، فإنَّ السعودية آنذاك ويوم تعاهدها مع محمد بن عبد الوهاب تعيش حياة البؤس، ولم يكن ابن سعود متمكناً حتى من تأمين الأغذية لأعز تلاميذ محمد بن عبد الوهاب، الذي يمارس تأثيره بقوة الإقناع فقط.^(١)

وبعد أولى غزوات الدرعيين على جيرانهم، وزعت الغنائم بالعدل طبقاً لأحكام الوهابية: الخمس لابن سعود، والباقي للجند؛ ثلث للمشاة، وثلثان للخيالة؛ وكان التمسك بالوهابية يكافئ مادياً، وإذا كان الغزو في السابق مجرد حملة شجاعة، فقد تحول الآن إلى انتزاع أموال المشركين! وإحالتها إلى المسلمين الحقيقيين!

صدام بين ابن عبد الوهاب وأمير «العيننة»

قد تعرفت أنَّ التحالف بين الشيخ وأمير «العيننة» لم يلبث إلا برهة قليلة، وأنه اعتذر عن ضيفه وسمح له أن يغادر الإمارة ويذهب إلى أية نقطة شاء، ولما التحق محمد بن عبد الوهاب بأمر «الدرعية» ويزغ نجمه، أحسَّ عثمان بن معمر أمير «العيننة» بتمخض خطر من جانب السعوديين، فلم يجد مناصاً من إظهار التودد والمداراة معهم، إلى أن انتهى به الأمر إلى تزويج ابنته من ابن عبد العزيز بن محمد بن سعود، الذي بلغ الوهابيون في

١. عنوان المجلد لابن بشر: ١٣/١.

عهده أوج قوتهم^(١). إلا أن العداء حتى الموت بين الأقارب ظاهرة عادية تماماً في الجزيرة العربية، فلا داعي للدهشة من تطور الأحداث لاحقاً، وكان لموقف محمد بن عبد الوهاب - الذي لم ينس أن أمير «العيينة» نفاه منها - أهمية حاسمة في التنافس بين حكام «الدرعية» و «العيينة»، فلم يلبث إلا يسيراً حتى اتهم أمير «العيينة» بأنه أجرى مراسلات سرية مع حاكم الأحساء «محمد بن عفالق» وأعد العدة للخيانة.^(٢)

ولأجل ذلك أرسلوا بعض المرتزقة، ومنهم حمد بن راشد، وإبراهيم بن زيد إلى عثمان بن معمر حاكم «العيينة» فاغتالوه أثناء أدائه لصلاة الجمعة.

ومما جاء في كتاب أصدره آل سعود وآل الشيخ تحت عنوان: تاريخ نجد، ونقله عن رسائل محمد بن عبد الوهاب، الشيخ حسين بن غنام، وأشرف على طباعته عبدالعزيز بن باز مفتي الديار السعودية، العبارة التالية: إن عثمان بن معمر مشرك كافر، فلما تحقق أهل الاسلام من ذلك تعاهدوا على قتله بعد انتهائه من صلاة الجمعة، وقتلوه وهو في مصلاه بالمسجد في رجب سنة ١١٦٣ هـ، وفي اليوم الثالث من مقتله جاء محمد بن عبد الوهاب إلى «العيينة» وعين عليهم مشاري بن معمر، وهو من أتباع محمد بن عبد الوهاب.^(٣)

١. عنوان المجلد: ١ / ٢٣.

٢. فصول من تاريخ العربية السعودية لفاسيليف: ٢٨.

٣. تاريخ نجد: ٩٧.

هكذا كانوا يحكمون على الموحددين المصلين في محراب العبادة بالشرك والخروج عن التوحيد «وما نعموا منهم» «إلا أن قالوا ربنا الله ثم استقاموا» ولم يخضعوا للسلطة التي أسسها محمد بن عبد الوهاب .

ثم إن محمد بن عبد الوهاب نحى «مشاري» عن منصة الحكم وأسكنه «الدرعية» مع عائلته، وعين شخصاً آخر لإشغال الحكم، حتى يكون الحاكم أطوع له كطوع الظل لذي الظل، ولم يكتف بذلك حتى جاء إلى قصر آل معمر وأمر بتدميره^(١) .

إن هذه العملية تسفر عن عقيدة محمد بن عبد الوهاب في حق عامة أهل نجد دون استثناء، لأنه لو كان ابن معمر كافراً فقد كان سكنة نجد كلهم على دينه، فهم حينئذ كفرة تباح دماؤهم ونساؤهم وممتلكاتهم، والمسلم هو من آمن بالطريقة التي يسير عليها محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود^(٢) .

لم يبرح زمن علي سلطة آل سعود على «العيينة» حتى ثاروا على النظام الذي فرض عليهم من جانب محمد بن عبد الوهاب، ولكن لم يكتب لانتفاضتهم النجاح، فعاد السعوديون إلى «العيينة» فدمروا البلد عن آخره، فهدموا الجدران، ورددوا الآبار، وأحرقوا الأشجار، واعتدوا على أعراضهم وبقروا بطون الحوامل من النساء، وقطعوا أيدي الأطفال، وأحرقوهم بالنار، وسرقوا المواشي وكل ما في البيوت، وقتلوا كل الرجال .

١. عنوان المجلد: ٤٣/١، تاريخ نجد لابن غنام: ٥٧/٢ .

٢. تاريخ نجد: ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١ .

هكذا خربت «العيينة» وما زالت مخروبة منذ عام ١١٦٣ هـ حتى يومنا هذا، وما زالت الوهاية يبررون أعمالهم بما قاله محمد بن عبد الوهاب: إن الله سبحانه وتعالى قد صبَّ غضبه على العيينة وأهلها وأفنائهم تطهيراً لذنوبهم، وغضباً على ما قاله حاكم العيينة، عثمان بن معمر، فقد قيل لحاكمها بأن الجراد آت إلى بلادنا ونحن نخشى أن يأكل الجراد زراعتنا، فأجاب الحاكم ساخراً من الجراد: سنخرج على الجراد دجاجاً فتأكله، وبهذا غضب الله سبحانه لسخرية الحاكم بالجراد، وهو آية من آيات الله لا يجوز السخرية منها، ولهذا أرسل الله الجراد على بلدة العيينة فأهلكها عن آخرها.^(١)

نحن نفترض أن أمير العيينة استهزأ بآية من آيات الله فكفر، فيجب ضرب عنقه بسيف الجلادين، فهل كفر الآخرون، وهل تزر وازرة وزر أخرى، وما هي إلا خدعة يمؤه بها الأمر على الصبيان وأشباههم.

فلما قضى محمد بن عبد الوهاب وآل سعود على مناوئتهم في المنطقة، قويت الإمارة السعودية من طريق الدين باتباعها محمد بن عبد الوهاب، وقويت دعوة ابن عبد الوهاب بطريق السيف باتباع ابن سعود له وانتصاره به، فكان ابن سعود الأمير الحاكم، وابن عبد الوهاب الزعيم الديني، وصارت ذرية كل منهما تتولى مرتبة سلفها.

لقد قوى انتصار القبيلة السعودية على حاكم «العيينة» عزمهم على

توسيع نطاق حكومتهم، مغبة أمر محمد بن عبد الوهاب بالجهاد وحث أتباعه عليه، وأزل جيش تمّ تأليفه له من سبع ركائب.^(١) ومعلوم أنّ هذه الجيوش والركائب لم تغز بلاد الكفّار والمشرّكين، ولا الرومان، وإنما غزوا بلاد المؤمنين، بلاد القائلين بـ (لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله ﷺ) ولما أحسّ ابن عبد الوهاب بسلطة وقدرة، كتب إلى أهل نجد (وهم المسلمون بزعمهم) على الدخول في مذهب التوحيد، فأطاع بعضهم بينما امتنع آخرون، فأمر أهل «الدرعية» بالقتال، فأجابوه وقاتلوا معه أهل نجد والأحساء مراراً، حتّى دخل بعضهم في طاعته طوعاً أو كرهاً، وصارت جميع إمارة نجد لآل سعود بالقهر والغلبة.^(٢)

سراب لا ماء

قد كان للحركة الوهابية في عصر مؤسسها صدى ودوي، والقريب منها يستشف الحقيقة عن كذب، ويرى أنّها قد بنيت على القتل الذريع، والسفك المروع، وأنّ محمد بن عبد الوهاب يهتف بأنّه لا عدل ولا سلم، ولا رحمة، ولا إنسانية، ولا حياة، لا شيء أبداً إلاّ الوهابية أو السيف .

وهذه السنّة التي استنّها محمد بن عبد الوهاب يتحمل وزرها منذ يومه إلى يوم القيامة، لأنّها كما ترى دعوة تقوم على الحرب والضحايا،

١. هذه هي الوهابية: ١١٧ نقلاً عن ابن بشر عثمان في كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد .

٢. كشف الارتباب: ١٣ - ١٤ نقلاً عن كتاب تاريخ نجد لمحمود شكري الأكوبي .

وتتطبع بطابع الدم والفوضى، ويكفي في ذلك قول أخيه الشيخ سليمان بن عبدالوهاب في كتاب الصواعق الإلهية مخاطباً لأخيه وأتباعه:

«فأنتم تكفرون بأقل القليل والقال، بل تكفرون بما تظنون أنتم أنه كفر، بل تكفرون بصريح الإسلام، بل تكفرون من توقف عن تكفير من كفرتموه»^(١).

ولم يكن أخوه فريداً في قضائه، فقد رجع عن طريقته بعض المنصفين المنخدعين بدعوته، وهذا هو السيد محمد بن إسماعيل الأمير لما بلغه من أحوال الشيخ النجدي، الدعوة إلى التوحيد، فأنشأ قصيدته المشهورة:

سلام على نجد ومن حلّ في نجد

وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي

ثم حقّق الأحوال من بعض من وصل إلى اليمن، ووجد الأمر على عكس ما روي له، فأنشأ يقول في قصيدته ثانياً عمّا قاله أولاً:

رجعت عن القول الذي قلت في نجد

فقد صحّ لي عنه خلاف الذي عندي

حكى عن محمد بن إسماعيل أنه قال في شرح القصيدة المذكورة المسماة بـ «محو الحوية في شرح أبيات التوبة»: لما بلغت قصيدتي الأولى نجداً التي مدحت فيها الحركة الوهابية، جاء إلينا بعد أعوام رجل كان يعرف

نفسه بـ «الشيخ مرید بن أحمد التميمي» وذلك في صفر سنة ألف ومائة وسبعين، وحمل بعض كتب ابن تيمية وابن القيم بخطه، ثم عاد إلى وطنه في شوال تلك السنة، وكان من تلاميذ ابن عبد الوهاب الذي وجهنا إليه القصيدة، وقد قدم إلينا قبله الشيخ الفاضل عبد الرحمن النجدي، ووصف لنا من حال ابن عبد الوهاب أشياء أنكرناها عليه من سفك الدماء ونهب الأموال والتجري على قتل النفوس، ولو بالاغتتيال، وتكفيره الأمة المحمدية في جميع الأقطار، فبقي فينا تردد فيما نقله ذلك الشيخ، حتى قدم إلينا الشيخ «مرید» وله نبأه، ومعه بعض رسائل ابن عبد الوهاب التي جمعها في وجه تكفير أهل الإيمان، وقتلهم ونهبهم، وحقق لنا أحواله، فعرفنا أحوال رجل عرف من الشريعة شطراً ولم يمعن النظر ولا قرأ على من يهديه نهج الهداية، ويدله على العلوم النافعة ويفقهه، بل طالع بعض مؤلفات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقلدهما من غير إتقان، مع أنهما يحرمان التقليد.^(١)

يقول العلامة السيد محسن الأمين العاملي:

هذا يدل على أن محمد بن إسماعيل رجح عن مقالاته في التوهم، ولعل رجوعه كان بعد تأليفه رسالة «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد» فإن تلك الرسالة لا تقصر عن كتب ابن عبد الوهاب في المغالاة.^(٢)

١. كشف الارتباب: ٨.

٢. كشف الارتباب: ١٦ - ١٩.

أهل البيت أدرى بما فيه

هذه لمحة خاطفة عن حياة محمد بن عبد الوهاب، جثنا بها ليكون القارئ الكريم على اطلاع بحقيقة حاله على جهة الإجمال، ولكن هناك الكثير الكثير في الزوايا والخبايا ذكرت في تاريخ حياته أغفلنا ذكرها روماً للاختصار، ولكن ما يجب ذكره في المقام كلمة أخيه في حقّه، وهو من أهل بيته وأدرى بحاله منّا ومن كل كاتب. يقول في كتاب أسماه «الصواعق الإلهية» رداً على آراء أخيه: «فإنّ اليوم ابتلي الناس بمن يتسبب إلى الكتاب والسنة، ويستنبط من علومهما، ولا يبالي من خالفه .

وإذا طلبت منه أن يعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل، بل يوجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه، ومن خالفه فهو عنده كافر، هذا وهو لم تكن فيه خصلة واحدة من فعال أهل الاجتهاد ولا والله، ولا والله عشر واحدة، ومع هذا فراج كلامه على كثير من الجهال، فإنّا لله وأنا إليه راجعون، الأمة كلّها تصيح بلسان واحد، ومع هذا لا يرد لهم في كلمة بل كلّهم كفّار وجهال! اللهمّ اهد هذا الضال وردّه إلى الحق...»^(١)

ويقول أيضاً: إنّ هذه الأمور (التي يكفر بها محمد بن عبد الوهاب) حدثت من قبل زمان الإمام أحمد في زمن أئمة الإسلام، حتّى ملأت بلاد الإسلام كلها، ولم يُرَوَّ عن أحد من أئمة المسلمين أنهم كفّروا بذلك، ولا قالوا هؤلاء مرتدون، ولا أمروا بجهادهم، ولا سموا بلاد المسلمين بلاد

شرك وحرب كما قلتُم أنتم، بل كَفَرْتُم من لم يكفر بهذه الأفاعيل وإن لم يفعلها، وتمضي قرون على الأئمة من ثمانمائة عام، ومع هذا لم يُرَوَّ عن عالم من علماء المسلمين أنه كفر، بل ما يظن هذا عاقل، بل والله لازم قولكم أن جميع الأمة بعد زمان الإمام أحمد رضي الله عنه، علماؤها وأمرؤها وعامتها كلهم كفار مرتدون، فإننا لله وإنا إليه راجعون، واغوثاه إلى الله اثم واغوثاه أن تقولوا كما يقول بعض عامتكم إن الحجة ما قامت إلا بكم، وألا قبلكم لم يعرف دين الإسلام.^(١)

وهذه العبارة من أخيه صريحة في أنه كان يكفر جميع طوائف المسلمين، ويعتبر بلادهم بلاد حرب .

تكفير محمد بن عبد الوهاب جميع المسلمين

ولعل القارئ يتابه الاستغراب مما نسب إليه أخوه، ولكنه إذا رجع إلى مبادئ دعوته سهل له التصديق بالنسبة، وإليك خلاصة رسالته تحت عنوان «أربع قواعد»:

الأولى: إن الكفار الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرّون بأن (الله) هو الخالق الرازق المدبّر، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام لقوله تعالى: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ... فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ»^(٢).

١. نفس المصدر السابق: ٣٨.

٢. يونس: ٣١.

الثانية: إنهم يقولون: ما دعونا الأصنام وما توجهنا إليهم إلا لطلب القرب والشفاعة لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(١). وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٢).

الثالثة: إنه ظهر (صلى الله عليه وآله) على قوم متفرقين في عبادتهم، فبعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم الأنبياء والصالحين، وبعضهم الأشجار والأحجار، وبعضهم الشمس والقمر، فقاتلهم ولم يفرق بينهم.

الرابعة: إن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين، لأن أولئك يشركون في الرخاء، ويخلصون في الشدة، وهؤلاء شركهم في الحالتين لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(٣).

وهو لا يريد من قوله: «إن مشركي زماننا أغلظ شركاً...» إلا المسلمين عامة، وذلك لأنهم يتوسلون بالنبي ﷺ في شدتهم ورخائهم، ولذلك صاروا عنده أغلظ من مشركي عهد الرسالة.

ومما يؤخذ عليه فيما ذكره في القاعدة الثانية، وهي المحور الرئيس للضلالة، أن هناك فرقاً جلياً بين المسلمين وعبدة الأوثان والأصنام، فإن المسلمين يعبدون الله وحده، ولا يتوجهون إلى النبي ﷺ إلا بقصد أن

٢. يونس: ١٨.

١. الزمر: ٣.

٣. رسالة أربع قواعد: ١ - ٤ ط، مصر، المنار. سورة العنكبوت: الآية ٦٥.

يدعو لهم عند الله، ويشفع لهم عنده، وأين هو من عبدة الطاغوت الذين كانوا يعبدون الأصنام ولا يعبدون الله، ويتوجهون إليها على أنها آلهة تملك ضرهم ونفعهم، وما هذه إلا مغالطة مفضوحة، وقد تكررت هذه الظاهرة في أكثر رسائله وكتبه، فإليك نتفاً منها في كتابه الآخر المسمى بـ «كشف الشبهات» الذي فرض تدريسه على علماء الحرمين في بعض الفترات التي شهد لها التاريخ، حيث يقول :

١- أرسله - أي الرسول الأكرم ﷺ - إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات بينهم وبين الله، يقولون نريد منهم التقرب إلى الله، ونريد شفاعتهم عنده، مثل الملائكة وعيسى ومريم وأناس غيرهم من الصالحين.^(١)

وفي هذه العبارة من المغالطة مالا يخفى، فقد حاول تزيف الحقيقة وقال: ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله، فقد ركز على التوسيط، مع أنهم عبدوهم أولاً، واتخذوهم وسائط ثانياً، فالممنوع هو عبادة الغير لا توسيطه، فالشيخ يركز على مجرد الوساطة التي ليست ملاكاً لشركهم، ويترك ما هو الملاك لكفرهم، أعني: عبادتهم. وعمل المسلمين على اتخاذ الوسيلة لا على عبادتها .

٢- يقول في موضع آخر ما نصه:

إن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة، الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد، كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلاً ونهاراً، ثم منهم من

يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفَعوا له، أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات، أو نبياً مثل عيسى. (١)

فتراه كيف يستر الحقيقة فيقول: «ثم منهم من يدعو الملائكة أو يدعو رجلاً صالحاً فيركّز على الدعوة التي هي أعم من العبادة، مع أن منهم من يعبد الملائكة، أو يعبد رجلاً صالحاً، وليس كل دعوة عبادة، وألا فلا يوجد فوق البسيطة من يصحّ تسجيل اسمه في ديوان الموحّدين، والرجل لأجل إثبات أن المسلمين في دعوة النبي والصالحين كهؤلاء المشركين في عبادة الملائكة والصالحين، يركّز على كلمة «يدعو» ويترك كلمة «يعبد» فهناك فرق بين الدعوة والعبادة، وليس كل دعوة عبادة، ولا كل عبادة دعوة، بل بينهما من النسب عموم وخصوص من وجه، فلو كانت الدعوة تنبثق من إلهية المدعو وربوبيته فتتسم بالعبادة، ولو كان انبثاقها من أنه عبد من عباد الله ولكنه عبد عزيز عند الله تستجاب دعوته إذا دعا، فلا تكون الدعوة عبادة، بل يدور الأمر بين كونه مفيداً إذا كان مستجاب الدعوة، وغير مفيد، إذا لم يكن كذلك .

٣- يقول أيضاً: «تحققت أن رسول الله قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله» .

أما كون الدعاء كله لله فإن كان المراد به العبادة فلا غبار عليه، والمسلمون على هذا عن بكرة أبيهم، وإن كان المراد هو القسم الذي لا يراد

١ . كشف الشبهات: ٤، ط مصر بتمحيب محب الدين الخطيب .

به العبادة فليس بمنحصر في الله، وما أكثر دعاء إنسان لإنسان وهذا هو الدعاء ورد في القرآن الكريم في غير مورد العبادة. قال سبحانه:

﴿قَالَ رَبُّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾^(١).

وأما النذر فلا شك أن المسلمين يندرون لله سبحانه، ويذكرون لفظ الجلالة في إنشاء صيغته الدالة عليه، وقد أسهنا القول في ذلك فيما مضى، والشيخ خلط بين اللام للغاية واللام للانتفاع، فلو استعملت في بعض الموارد لفظة اللام فإنما يراد منه الانتفاع، فلو قيل هذا نذر للنبي ﷺ أو للروضة المباركة، فالمراد هو إهداء ثوابه إلى النبي ﷺ أو انتفاع الروضة به.

٤- ويقول أيضاً:

﴿إِنَّ الْمُشْرِكِينَ يَقْرُونَ بِالرَّبُوبِيَّةِ وَإِنْ كَفَرَهُمْ بِتَعَلُّقِهِمْ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ﴾.

يؤاخذ عليه أن كفرهم إنما لعبادتهم الملائكة والأنبياء لا لتعلقهم بها، إذ ليس مجرد التعلق مع الاعتراف بعبوديتهم وعدم تفويض الأمر إليهم موجباً للتكفير.

٥- ويقول أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ مَقْرُونَ بَأْنِ أَوْلِيَانِهِمْ لَا تَدْبُرُ شَيْئاً وَإِنَّمَا أَرَادُوا مِنْهَا الْجَاهِ وَالشَّفَاعَةَ﴾^(٢).

فترى أنه كيف يقرب الحقيقة، فلم يكن تكفيره لهم لأجل طلب

١. نوح: ٥.

٢. نفس المصدر السابق: ٦.

الشفاعة، بل لعبادتهم أولاً، ثم طلب الشفاعة منهم ثانياً، قال سبحانه:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١).

٦- ويقول: «إنَّ الله كَفَّرَ من قصد الأصنام، وكَفَّرَ من قصد الصالحين، وقاتلهم رسول الله».

كلاً، إنَّ رسول الله كَفَّرَ من عبد الصالحين، لا من قصدهم، فمن قصد الصالحين لطلب العلم والمال والدعاء لا يكون كافراً.

٧- ويقول أيضاً - وهو يعلم أتباعه كيف يناظرون المخالف -: اقرأ عليه: «ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين» فإذا أعلمته بهذا فقل له: هل علمت هذا عبادة لله؟ فلا بد أن يقول نعم، والدعاء مخ العبادة، فقل له: إذا أقررت أنها عبادة، ثم دعوت تلك الحاجة نبياً أو غيره، هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلا بد أن يقول نعم.^(٢)

والمغالطة في كلامه واضحة، فإنَّ الدعاء في قوله: «ادعوا ربكم» مساوق للعبادة لا بمعنى أنَّ الدعاء بمعنى العبادة، بل معناه أنَّ الدعوة إذا انبثقت من الاعتقاد بالالهوية والربوبية تصير مصداقاً للعبادة، وجزءاً من جزئياته، كما أنَّ المراد من قوله: «والدعاء مخ العبادة» هو أنَّ الدعاء مخ العبادة، أو دعاء من يعتقد أنه ند لله في جميع الشؤون أو بعضها مخ العبادة، وأين هو من دعوة الأنبياء والصالحين الذين لا يُدْعَوْنَ إِلَّا بعنوان أنهم عباد

١. يونس: ١٨.

٢. نفس المصدر السابق.

صالحون لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يعملون، ولا يملكون شيئاً لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضرراً إلا بإذن الله، أهل تكون الدعوات متماثلتين حتى تشتركا في الحكم؟

وإنك إذا تتبعت كلماته وجمله في هذا الكتاب يظهر لك أنه يحاول التضليل من طريق تشبيه توسل المسلمين ودعائهم، بعمل المشركين وعبدة الأوثان، بالتمسك بمشابهات ومشاركات بعيدة، وتناسي ما هو البون الشاسع بين الأمتين والدعوتين .

قال زيني دحلان: كان محمد بن عبد الوهاب يخطب للجمعة في مسجد الدرعية ويقول في كل خطبة: ومن توسل بالنبي فقد كفر، وكان أخوه الشيخ سليمان ينكر عليه إنكاراً شديداً، فقال لأخيه يوماً: كم أركان الإسلام يا محمد؟ فقال: خمسة^(١) فقال أنت جعلتها ستة: السادس: من لم يتبعك فليس بمسلم، هذا عندك ركن سادس للإسلام .

وقال رجل آخر: كم يعتق الله كل ليلة في رمضان؟ فقال له: يعتق في كل ليلة مائة ألف، وفي آخر ليلة، يعتق مثل ما أعتق في الشهر كله، فقال له: لم يبلغ من أتبعك عشر ما ذكرت، فمن هؤلاء المسلمون الذين يعتقهم الله تعالى، وقد حصرت المسلمين فيك وفي من أتبعك؟ فبهت الذي كفر .

ولما طال النزاع بينه وبين أخيه فخاف على نفسه، فارتحل إلى

١ . يشير إلى ما رواه البخاري في كتاب الإيمان .

المدينة المنورة، وأُلف رسالة في الرد على محمّد بن عبد الوهاب وأرسلها له، فلم ينته، وأُلف كثير من علماء الحنابلة وغيرهم رسائل في الردّ عليه وأرسلوها إليه، فلم ينته.^(١)

ويقول جميل صدقي الزهاوي: كان محمد بن عبد الوهاب يسمّي جماعته من أهل بلده، الأنصار؛ وكان يسمّي متابعيه من الخارج، المهاجرين؛ وكان يأمر من حج حجة الإسلام قبل اتّباعه أن يحجّ ثانياً قائلاً: إن حجّتك الأولى غير مقبولة لأنك حججتها وأنت مشرك، ويقول لمن أراد أن يدخل في دينه: اشهد على نفسك أنك كنت كافراً، واشهد على والديك أنّهما ماتا كافرين، واشهد على فلان وفلان (يسمّي جماعة من أكابر العلماء الماضين) أنّهم كانوا كافراً.

فإن شهد بذلك قطعه، وكان يصرّح بتكفير الأمة منذ ستعانة سنة، ويكفر كلّ من لا يتبعه وإن كان من أتقى المسلمين، ويسمّيهم مشركين، ويستحل دماءهم وأموالهم، ويثبت الإيمان لمن اتّبعه.

وكان يكره الصلاة على النبي بعد الأذان، وينهى عن ذكرها ليلة الجمعة وعن الجهر بها على المنابر، ويعاقب من يفعل ذلك عقاباً شديداً، حتّى أنّه قتل رجلاً أعمى مؤذناً لم ينته عن الصلاة على النبي بعد الأذان، ويلبس على أتباعه أنّ ذلك كلّهُ محافظة على التوحيد.

كان قد أحرق كثيراً من كتب الصلاة على النبي، كدلائل الخيرات

وغيرها، وكذلك أحرق كثيراً من كتب الفقه والتفسير والحديث ممّا هو مخالف لأباطيله.^(١)

قال أحمد زيني دحلان: إن الوهابيين أرسلوا في دولة الشريف مسعود بن سعيد بن زيد (المتوفى سنة ١١٦٥ هـ) ثلاثين نفرًا من علمائهم فأمر الشريف أن يناظرهم علماء الحرمين، فناظرهم فوجدوا عقائدهم فاسدة، وكتب قاضي الشرع حجة بكفرهم فأمر بسجنهم، فسجن بعضهم وفرّ الباقيون .

ثم في دولة الشريف أحمد (المتوفى سنة ١١٩٥ هـ) أرسل أمير الدرعية بعض علمائه فناظرهم علماء مكة وأثبتوا كفرهم، فلم يأذن لهم بالحج.^(٢)

وقال أيضاً: لما منع الناس من زيارة النبي ﷺ خرج ناس من الأحساء وزاروا النبي ﷺ وبلغه خبرهم، فلما رجعوا مروا عليه بالدرعية، فأمر بحلق لحاهم، ثم أركبهم مقلوبين من الدرعية إلى الأحساء .

وبلغه مرة أن جماعة قصدوا الزيارة والحج، وعبروا على الدرعية، فسمعه بعضهم يقول لتابعيه: خلّوا المشركين يسيرون طريق المدينة، والمسلمون (أتباعه) يخلفون معنا.^(٣)

١. الفجر الصادق: ١٧ - ١٨ .

٢. كشف الارتياب: ١٥ - نقلاً عن خلاصة الكلام .

٣. الدرر السنينة: ٤١ .

تكفير المسلمين شعارهم الوحيد

من رجع إلى كتب محمد بن عبد الوهاب وما ألف في الفترة المتاخمة إلى عصره يقف على أنهم اتفقوا على تكفير المسلمين قاطبة، سنيهم وشيعيهم ولم تكن المحاربة وقتل الأنفس وسفك الدماء في عصره وما بعده إلا على أساس أن غيرهم مشركون، لا حرمة لدمائهم وممتلكاتهم، يجب ترويبهم قسراً، وإلا فإنه ستهدر دماؤهم، ويشهد على ذلك ما كتبه الألوسي صاحب تاريخ نجد الذي له مع السعوديين ألفة وطيدة حيث يقول بعد التطرق لذكر سعود بن عبد العزيز^(١): إنه قاد الجيوش وأذعنت له صناديد العرب و رؤساؤهم، بيد أنه منع الناس عن الحج، وخرج على السلطان وغالى في تكفير من خالفهم، وشدد في بعض الأحكام، وحمل أكثر الأمور على ظواهرها، كما غالى الناس في قدحه، والإنصاف، الطريق الوسطى، لا التشديد الذي ذهب إليه علماء نجد من تسمية غاراتهم على المسلمين بالجهاد في سبيل الله، ومنعهم الحج، ولا التساهل الذي عليه عامة أهل العراق والشامات وغيرهما^(٢).

فهذا الاعتراف الصريح من موالي الوهابيين يدل على أنهم كانوا في فترة من الزمن على تكفير المخالفين، وتسمية الغارة على المسلمين جهاداً في سبيل الله .

١. سعود بن عبدالعزيز بن محمد وهو حفيد أول من بايع محمد بن عبد الوهاب، وسيتم التعرض لتاريخ حياته .

٢. كشف الارتباب: ٩ نقلاً عن تاريخ نجد .

نعم في الفترة الأخيرة التي أخذ فيها أزمة الحكم في نجد والحرمين الشريفين عبد العزيز، ثم خلفه أبناؤه من بعده سعود وفیصل وخالد وفهد اليوم، تنازلوا عن تكفير المسلمين علانية، ولا ترى هذه التهمة في صفحات وسائلهم الإعلامية السمعية والبصرية، فتغيّر موقفهم بالنسبة إلى جميع الطوائف الإسلامية، فيرون الحرمة لبلادهم ودمانهم وممتلكاتهم، إلا الشيعة، فهم على موقفهم السابق منهم، وخصوصاً بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران فقد تأججت نار أحقادهم وحميتهم العصبية عليهم، فلا تمر برهة زمنية إلا ويتشتر كتاب ضد الشيعة بأقلام المأجورين في مختلف أنحاء العالم، ويبدلون مال الله ليصدوا الناس عن طريقه .

سؤال وجواب

إن الوهابية امتداد فكري لما بذره أحمد بن تيمية في أوائل القرن الثامن وتعتبر حركتهم الهدامة انعكاساً جذرياً لمبادئ الضالة، ويتمخض عن ذلك، سؤال يستثيره نجاح محمد بن عبدالوهاب النسبي في تطبيق وإقرار مبادئ دعوته، دون مؤسس المنهج أحمد بن تيمية، فقد أخفق في دعوته، وأحمدت في بادئ بدنها، وإن كان قد تبعه بعض الناس فلم تكن متابعتهم له عن علم بمبادئ وغاياته .

وهذا ابن كثير الشامي التابع لمنهج ابن تيمية يقول: كان الناس يتبركون بجنائزته^(١) مع أنه عنده شرك، والشرك من أعظم الجرائم عند ابن

١. البداية والنهاية، ج ١٤، حوادث عام ٧٢٨ هـ.

تيمية، فلم تكن متابعة جماعة من الناس له عن إحاطة ودراية، بل مخالفته للحكم السائد في الشام، وإبعاده منها إلى مصر ثم سجنه، صارت سبباً لاستمالة قلوب الناس إليه من دون وعي بمعتقده، وهذا بخلاف محمد بن عبد الوهاب، فقد تكلفت دعوته بالنجاح النسبي، فياترى ما هو السبب؟ .

نجيب بكلمة واحدة، إن ابن تيمية افتقد الأرضية الكفيلة بإنجاح دعوته، لأنه بثها بين أوساط علمية، كان فيهم كبار العلماء والفقهاء، فأخذوا وضواها بالاستدلال والبرهنة، فثاروا في وجهه ثائرة أخدمت دعوته وأبطلت كيده، وكانت السلطة أيضاً ناصرته العلماء في مجابتهم له، فلم يكن لبذرة الفساد نصيب سوى الكمون في ثنايا الكتب، أو النجاح عند مرضى القلوب .

وأما ما يرتبط بدعوة محمد بن عبد الوهاب فقد ساعد على إنجازها وجود أرضية خصبة مليئة بالأمية والجهل بمبادئ الإسلام، مضافاً إلى ذلك مناصرة سلطة آل سعود وتحالفهم معه في تطبيق دعوته، على أن يكون التخطيط من الشيخ، والإنجاز من السلطة بالقوة والإغارة والفتك والتخويف.

يقول الزهاوي: لَمَّا رَأَى ابْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ أَنَّ قَاطِبَةَ بِلَادِ نَجْدٍ بَعِيدُونَ عَنِ عَالَمِ الْحَضَارَةِ، لَمْ يَزَالُوا عَلَى الْبَسَاطَةِ وَالسَّذَاجَةِ فِي الْفِطْرَةِ، وَقَدْ سَادَ عَلَيْهِمُ الْجَهْلُ حَتَّى لَمْ تَبْقَ لِلْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ عِنْدَهُمْ مَكَانَةٌ وَلَا رَوَاجٌ، وَجَدَ هُنَالِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ مَا هُوَ صَالِحٌ لِأَنَّ تَرْزُوعَ فِيهِ بَذُورُ الْفَسَادِ، مِمَّا كَانَتْ نَفْسُهُ تَنْزِعُ إِلَيْهِ وَتَمْنِيهِ بِهِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَهُوَ الْحَصُولُ عَلَى رِنَاسَةِ عَظِيمَةٍ يَنَالُهَا

باسم الدين - إلى أن قال: - فلم يجد للحصول على أمنيته طريقاً بين أولئك إلا أن يدعي أنه مجدد في الدين، مجتهد في أحكامه؛ فحملة هذا الأمر على تكفير جميع طوائف المسلمين، وجعلهم مشركين بل أسوأ حالاً وأشد كفرةً وضلالاً، فعمد إلى الآيات القرآنية النازلة في المشركين فجعلها عامة شاملة لجميع المسلمين، الذين يزورون قبر نبيهم ويستشفعون به إلى ربهم.^(١)

الرادون علي محمد بن عبد الوهاب

هذا غيظ من فيض من حياة محمد بن عبد الوهاب المليئة بالإجرام والإفساد والتضليل، وشق عصا المسلمين، فمن أراد التوسّع في دراسة حياته وما جرّه على المسلمين من حروب وويلات؛ فليرجع إلى الكتب المؤلفة حول الوهابية ومؤسستها، وتاريخ نجد والسلطة القبلية الحاكمة فيه منذ عصر محمد بن عبد الوهاب إلى يومنا هذا.

إلا أنّ العلماء الواعين في الحرمين الشريفين في عصره وما بعده، وفي سائر الأقطار الإسلامية، قد أدوا ما عليهم من وظائف رسالية تجاه هذه الحركة الهدامة، فترى كيف أنهم قد بذلوا الجهود المضنية في سبيل ردّ دعوتهم وإثبات بطلانها، وإليك قائمة من الردود المؤلفة في إبطالها، تأتي بأسمائها وأسماء مؤلفيها:

١- «مقدمة شيخه محمد بن سليمان الكردي الشافعي» التي قرّظ بها

رسالة أخيه سليمان بن عبد الوهاب، وقع في نحو ثلاث ورقات، وقد تضمنت ما يشير إلى ضلاله ومروقه عن الدين، على نحو ما حكى في ذلك عن شيخه الآخر محمد حياة السندي، ووالده عبد الوهاب .

٢- «تجريد سيف الجهاد لمذعي الاجتهاد» لشيخه العلامة عبد الله بن عبد اللطيف الشافعي .

٣- «الصواعق والرعود» للعلامة عفيف الدين عبد الله بن داود الحنبلي .

قال العلامة علوي بن أحمد الحداد: كتبت عليه تقارير أئمة من علماء البصرة وبغداد وحلب والأحساء وغيرهم، تأييداً له وثناء عليه .
ثم قال: ولو وقفت عليه قبل هذا ما ألقت كتابي هذا .
ولخصه محمد بن بشير قاضي رأس الخيمة بعجمان .

٤- «تهكم المقلدين بمن ادعى تجديد الدين» للعلامة المحقق محمد بن عبد الرحمن ابن عفالق الحنبلي، وقد ترصد فيه لكل مسألة من المسائل التي ابتدعها وردَّ عليها بأبلغ رد، وقد ضمن كتابه هذا ملحقاً يتناول ما يتعلق بالعلوم الشرعية والأدبية، كما أرفقه بأسئلة كان قد بعثها إلى محمد بن عبد الوهاب، منها شطر وافر حول علم البيان تتعلق بسورة «العاديات»، وألح في ذيلها إلى عجزه عن الجواب عن أدناها فضلاً عن أجلها .

٥- رسالة للعلامة أحمد بن علي القباني البصري الشافعي، وتقع في نحو عشر كراريس عقد فصولها كافة للرد على معتقداته وتزييف أباطيله .

- ٦- رسالة للعلامة عبدالوهاب بن أحمد بركات الشافعي الأحمدي
المكي .
- ٧- «الصارم الهندي في عنق النجدي» للشيخ عطاء المكي .
- ٨- رسالة للشيخ عبد الله بن عيسى المويسي .
- ٩- رسالة للشيخ أحمد المصري الأحساني .
- ١٠- «السيوف الصقال في أعناق من أنكر على الأولياء بعد الانتقال»،
لأحد علماء بيت المقدس .
- ١١- «السيف الباتر لعنق المنكر على الأكابر»، للسيد علوي بن أحمد
الحداد، طبع في نحو مائة ورقة .
- ١٢- رسالة للشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن عبداللطيف الأحساني .
- ١٣- «تحريض الأغبياء على الاستغاثة بالأنبياء والأولياء»، للعلامة
عبدالله بن إبراهيم مير غني الساكن بالطائف .
- ١٤- رسالة للشيخ محمد صالح الزمزمي الشافعي، تقع في نحو
عشرين كراساً، حكى السيد علوي بن أحمد الحداد أنه رآها أمام مقام
إبراهيم بمكة .
- ١٥- «الانتصار للأولياء الأبرار» للعلامة طاهر سنبل الحنفي، حكى
السيد علوي المذكور أنفاً أنه رآه عند مؤلفه بالطائف .
- ١٦- مجموعة أجوبة وردود نظماً ونثراً لأكابر علماء المذاهب

الأريفة، لا يحصون، من أهل الحرمين الشريفين والأحساء والبصرة وبغداد وحلب واليمن وغيرها.

حكى عنها السيد علوي أيضاً وذكر أنه أتى بها إليه رجل من آل ابن عبد الرزاق الحنابلة، الذين يقطنون الزيارة والبحرين .

١٧- كتاب ضخيم يحتوي على جملة من الأسئلة والأجوبة، كلها من علماء أهل المذاهب الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، حدث به أيضاً السيد المذكور، كلها في الرد على محمد بن عبد الوهاب .

١٨- قصيدة للسيد المنعمي ردّ بها على ابن عبد الوهاب إثر قتله جماعة كانوا قد عفوا شعر رؤسهم، مطلعها:
أفي حلق رأس بالسكاكين «الحدّ»

حديث صحيح بالأسانيد عن جدي

١٩- «مصباح الأنام وجلياء الضلام في رد شبه البدعي النجدي التي أضل بها العوام» للعلامة السيد علوي بن الحداد المتقدم، طبع سنة ١٣٢٥ هـ بالمطبعة العامرية، وما سبق حكايته عن مؤلفه منقول عنه .

٢٠- «الصواعق الإلهية» لأخيه سليمان بن عبد الوهاب «مطبوع» .

٢١- كتاب لشيخ الإسلام بتونس المحقق إسماعيل التميمي المالكي (المتوفى سنة ١٢٤٨ هـ)، وهو في غاية التحقيق والإحكام، نقض فيه رسالة لابن عبد الوهاب طبعت في تونس .

٢٢- رسالة مسجعة محكمة للمحقق الشيخ صالح الكواش التونسي،

طُبعت ضمن كتاب «سعادة الدارين في الردّ على الفرقتين» نقض فيها مؤلفها رسالة لابن عبد الوهاب .

٢٣- رسالة للعلامة المحقق السيد داود البغدادي الحنفي، مطبوعة .

٢٤- قصيدة للشيخ غلبون الليبي، ردّ بها على قصيدة الصنعاني التي مدح بها ابن عبد الوهاب، تقع في أربعين بيتاً، مطلعها:

سلامي على أهل الإصابة والرشد وليس على نجدٍ ومن حلّ في نجد
وهي مذكورة في سعادة الدارين .

٢٥- قصيدة أخرى للسيد مصطفى المصري البولاقي، يرد فيها أيضاً على قصيدة الصنعاني التي ذكرت في المصدر السابق، تقع في مائة وستة وعشرين بيتاً، مطلعها:

بحمد وليّ الحمد، لا الذم أستبدي وبالحق لا بالخلق، للحق أستهدي

٢٦- قصيدة ثالثة للسيد الطباطبائي البصري، يرد فيها على قصيدة الصنعاني، وقد كان لهذه القصائد الأثر الأكبر في إرجاع الصنعاني عن غيه الذي وقع فيه، حتّى بلغ به الأمر إلى إنشاد قصيدة يعلن فيها توبته مما بدر منه: مستهلها:

رجعت عن القول الذي قلت في نجدٍ

فقد صحّ لي عنه خلاف الذي عندي

٢٧- «سعادة الدارين في الرد على الفرقتين - الوهابية والظاهرية»

للعامة الشيخ إبراهيم السمنودي المنصوري المتوفى في العقد الثاني من هذا القرن، وقد طبع في مجلدين .

٢٨- «الدرر السنية في الرد على الوهابية» لمفتي مكة السيد أحمد زيني دحلان (المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ) وهو مطبوع .

٢٩- «شواهد الحق في التوسل بسيد الخلق» للشيخ يوسف النبهاني. طبع في مجلد .

٣٠- «الفجر الصادق» لجميل صدقي الزهاوي، مطبوع .

٣١- «إظهار العقوق ممن منع التوسل بالنبي والولي الصدوق» للشيخ المشرفي المالكي الجزائري .

٣٢- رسالة في جواز التوسل، للشيخ المهدي الوزاناني مفتي فاس، ردّ فيها على محمد بن عبد الوهاب في منعه ذلك .

٣٣- «غوث العباد (في) بيان الرشاد» للشيخ مصطفى الحمامي المصري، مطبوع .

٣٤- «جلال الحق في كشف أحوال أشرار الخلق» للشيخ إبراهيم الحلبي القادري الاسكندري، وهو كتاب جيد طبع في الاسكندرية سنة ١٣٥٥ هـ .

٣٥- «البراهين الساطعة» للعلامة الشيخ سلامة العزامي (المتوفى سنة ١٣٧٩ هـ).

٣٦- «النقول الشرعية في الردّ على الوهابية» للشيخ حسن الشطي الحنبلي الدمشقي، مطبوع .

٣٧- رسالة أخرى له أيضاً في تأييد مذهب الصوفية والردّ على من ناوأهم، مطبوعة .

٣٨- رسالة في حكم التوسل بالأنبياء والأولياء، للشيخ محمد حسنين مخلوف، مطبوعة.

٣٩- «المقالات الوفية في الردّ على الوهابية» للشيخ حسن قزبك، مطبوعة .

٤٠- «الأقوال المرضية في الردّ على الوهابية» وهي رسالة صغيرة للشيخ عطا الكسم الدمشقي .

والردود على الوهابية أكثر مما ذكر، وقد اكتفينا بهذا العدد المبارك، وفيه غنى وكفاية، وكلّها لأهل السنّة والجماعة، وأمّا الشيعة فحدث عنها ولا حرج، وأول من ردّ عليه، الفقيه الشيخ جعفر كاشف الغطاء الأكبر بكتاب أسماه بـ«منهج الرشاد لمن أراد السداد» كبه ردّاً على الرسالة التي بعثها سعود بن عبد العزيز إليه يشرح فيها مواقف الوهابية في المسائل الراجعة إلى التوحيد والشرك، وقد طبع في النجف الأشرف عام ١٣٤٣ هـ، ثم توالى النقد من علماء الشيعة بعد تدمير قباب البقيع عام ١٣٤٤ هـ، إلى يومنا هذا، ونشير إلى قليل من كثير ممّا طبع وانتشر باللغة العربية:

١- الآيات البيّنات في قمع البدع والضلالات، للشيخ محمد حسين

كاشف الغطاء (١٢٩٤ - ١٣٧٣ هـ) طبع بالنجف الأشرف ١٣٤٥ هـ.

٢- «آيات الجلية في ردّ شبهات الوهابية، للشيخ مرتضى كاشف الغطاء (المتوفى ١٣٤٩ هـ).

٣- «إزاحة الوسوسة عن تقبيل الأعتاب المقدسة»، للشيخ عبد الله بن محمد حسن المامقاني (المتوفى ١٣٥١ هـ) طبع في النجف الأشرف مع كتابه مخزن المعاني .

٤- «البراهين الجلية في دفع شبهات الوهابية»، للسيد محمد حسن القزويني الحائري (المتوفى ١٣٨٠ هـ) طبع بالنجف ١٣٤٦ هـ.

٥- «التبرك»، للشيخ علي الأحمد الميانجي، طبع في بيروت .

٦- «دعوى الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى»، للشيخ محمد جواد البلاغي (المتوفى ١٣٥٢ هـ). طبع في النجف الأشرف ١٣٤٤ هـ.

٧- «الرد على الوهابية»، للشيخ محمد علي الغروي الأردوبادي، طبع سنة ١٣٤٥ هـ.

٨- الرد على الوهابية للسيد حسن الصدر الكاظمي (المتوفى ١٣٥٤ هـ)، طبع في بغداد ١٣٤٤ هـ.

٩- «كشف الارتباب في أتباع محمد بن عبد الوهاب»، للسيد محسن الأمين العاملي (المتوفى ١٣٧٣ هـ) طبع في صيدا .

١٠- «المواسم والمراسم»، للسيد جعفر مرتضى العاملي، يبحث عن

مشروعية إقامة مراسم الاحتفال في الأعياد، أو مظاهر الحزن في المآتم ،
 طبع في طهران .

١١- «هذه هي الوهابية»، للشيخ محمد جواد مغنية العاملي (المتوفى
 ١٤٠٠ هـ) طبع في بيروت .

١٢- «مع الوهابيين في خططهم وعقائدهم»، لمؤلف هذا الكتاب،
 طبع في طهران، عام (١٤٠٦ هـ) .

١٣- «الوهابية في الميزان»، له أيضاً، طبع طبعات عديدة منها ما
 نشرته مؤسسة الإمام الصادق في قم المقدسة سنة ١٤٢٤ هـ .

١٤- وأخير الردود لا آخرها «التوحيد والشرك في القرآن الكريم» له
 أيضاً، نشرته مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام في قم المقدسة سنة ١٤١٦ هـ ،
 استعرض فيه الآيات الواردة حولهما بامعان ودقة، وفند جميع مستمسكات
 الوهابيين فيه .

ولنكتف بهذا المقدار، وآلاً فالردود عليها من الشيعة بالسنة مختلفة
 كثيرة .



«فاحتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها»

الإمام الصادق عليه السلام

الفصل السابع

تاريخ الإمارة القبلية السعودية

قد تعرفت على أن آل سعود وعلى رأسهم محمد بن سعود كانوا هم الحماة لدعوة محمد بن عبد الوهاب، وقد تمخض عنها إبرام اتفاقية بين ابن عبد الوهاب وأمير العائلة السعودية، وهذه الاتفاقية لا تزال باقية إلى يومنا هذا وإن تبدلت بأشكال مختلفة، غير أن الوقوف على كيفية توسع نطاق دعوة ابن عبد الوهاب يتوقف على دراسة تاريخ حياة هذه القبيلة بعد هذه الاتفاقية، كيف أنهم سلّوا سيوفهم في طريق نشرها إلى حدّ خضبوا وجه الأرض بإراقة دماء الصالحين والمؤمنين، وقتل الأطفال في حجور أمهاتهم، وتدمير الأبنية، وإحراق الأشجار والنخيل، إلى غير ذلك ممّا يكّل البيان عن وصفه والقلم عن الإحاطة به، والقارئ إذا استطلع ما سنذكره مؤيداً بمصادر موثقة، يقف على أنه لم تكن هناك رسالة دينية ولا إنسانية، بل كانت الدعوة الوهابية واجهة وغطاء لما تربّوا عليه وألفوه في حياتهم القبلية من النهب والغارة والقتل والسفك، وتوسيع نطاق السلطة، إلى غير ذلك ممّا كانوا يمارسونه قبل قبول الدعوة الوهابية، التي تركز بزعمهم على رفض الشرك وزيادة رقعة الموحّدين، وكانت فكرةً اغترّ بها البسطاء

وانطلقت على عقولهم الساذجة، لأنهم كانوا يعيشون في واحات الصحاري منقطعين عن الأمم المتحضرة، فلأجل ذلك تمكنت الدعوة الوهابية من النفوذ إلى أذهانهم بيسر وسهولة، فصار البدو أداة طيعة بيد الأمير وصاحب الدعوة، فأشاعا الفساد بما أوتيا من قوة.

إن تاريخ العائلة السعودية حسبما يذكره المؤرخون تتلخص في فترات ثلاث:

الفترة الأولى: (١١٣٧ - ١٢٣٣ هـ)

وقد تصدى للحكم فيها الأمراء التالية أسماؤهم: ١- محمد بن سعود
٢- عبدالعزيز بن محمد بن سعود ٣- سعود بن عبدالعزيز ٤- عبد الله بن سعود .

الفترة الثانية: (١٢٤٠ - ١٣٠٩ هـ)

٥- تركي ابن أخي عبد العزيز ٦- مشاري بن عبدالرحمن ٧- فيصل بن تركي ٨- خالد بن سعود ٩- عبدالله بن ثنيان ١٠- فيصل بن تركي ١١- عبدالله بن فيصل بن تركي ١٢- سعود بن فيصل بن تركي ١٣- عبدالرحمن بن فيصل .

الفترة الثالثة: (١٣١٩ هـ - ...)

١٤- عبد العزيز بن عبدالرحمن ١٥- سعود بن عبدالعزيز ١٦-

فيصل بن عبدالعزيز ١٧- خالد بن عبدالعزيز ١٨- فهد بن عبدالعزيز ١٩-
عبد الله بن عبد العزيز.

ويعلم الله من سيتحكم في الديار المقدسة بعد هذا الرجل .

الفترة الأولى لحياة العائلة

١- إمارة محمد بن سعود: (١١٣٧هـ - ١١٧٩هـ).

إن محمد بن سعود هو أول من صافح محمد بن عبد الوهاب و كان معه إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة في العام الأنف الذكر، وقد حصل صدام بينه وبين عثمان بن معمر شيخ «العيينة»، وقد خشي عثمان من امتداد السلطة السعودية ف عقد حلقاً مع «ثرمدة» و «ابن سويط» شيخ الظفير، ولكنه بآء بالفشل واغتيل على يد الوهابيين عند خروجه من المسجد، فانضمت «العيينة» بعد ذلك إلى الحكم السعودي، وقد آل معمر دورهم السياسي في نجد.^(١)

يقول زيني دحلان: «كان ابتداء ظهور أمره (ابن عبد الوهاب) في الشرق سنة ١١٤٣ هـ، واشتهر أمره بعد الخمسين وألف ومائة بنجد وقراها، فتبعه وقام بنصرته أمير الدرعية محمد بن سعود، وجعل ذلك وسيلة إلى اتساع ملكه ونفاذ أمره، فأحمل أهل «الدرعية» على متابعة محمد بن عبد الوهاب فيما يقول، فتبعه أهل «الدرعية» وما حولها، وما زال يطيعه على ذلك كثير من أحياء العرب، حي بعد حي، و قبيلة بعد قبيلة، حتى قوي أمره

١. محاضرات في تاريخ الدولة السعودية لأبي علي عبدالفتاح: ١٦.

فخافته البادية، فكان يقول لهم إنَّما أدعوكم إلى التوحيد، وترك الشرك بالله، ويزين لهم القول وهم بوادٍ في غاية الجهل لا يعرفون شيئاً من أمور الدين، فاستحسنوا ما جاءهم به، وكان يقول لهم إنِّي أدعوكم إلى الدين، وجميع من هو تحت السبع الطباق مشرك على الإطلاق ومن قتل مشركاً فله الجنة، فتابعوه وصارت نفوسهم بهذا القول مطمئنة، وكان محمد بن عبدالوهاب بينهم كالنبي في أمته، لا يتركون شيئاً ممَّا يقول، وإذا قتلوا إنساناً أخذوا ماله وأعطوا الأمير محمد بن سعود الخمس، واقتسموا الباقي، وكانوا يمشون حينما مشى، ويأتمرون له بما شاء، والأمير محمد بن سعود ينفذ كلَّ ما يقول، حتى اتسع له الملك .

البعثة الوهابية إلى مكة

تولى ولاية مكة الشريف مسعود من عام ١١٤٦ إلى عام وفاته ١١٦٥ هـ، وقد أرسل محمد بن سعود عندما استفحل أمر محمد بن عبدالوهاب ثلاثين عالماً إلى مكة يستأذنونهم في الحج، ولكن كان هدفهم هو الدعوة إلى الوهابية ونشرها في أوساط أهل الحرمين، وقد كان أهلها قد سمعوا بظهورهم في نجد وإفسادهم عقائد البوادي، ولم يعرفوا حقيقتهم بعد عن كتب، فلما وصلت بعثته أمر الشريف مسعود أن يناظرهم علماء الحرمين، فإذا بهم فوجئوا بعقائد غريبة، فأقاموا عليهم الحججة والبرهان، فقبض على جماعة منهم، بينما فرَّ بجلدته البعض الآخر.^(١)

الصدام مع حاكم الرياض

كان دهام بن دواس حاكماً على الرياض، وكان من ألد الأعداء للدعوة الوهابية، وقد دامت الحروب بين الرياض والدرعية زهاء سبعة وعشرين عاماً على الرغم من قرب المسافة بينهما، وكانت سجالاتاً، فلم تمرّ سنة إلا وقعت فيها غزوة بين البلدين، وفي إحدى هذه الهجمات قتل ولداً محمد بن سعود، أعني: فيصلاً وسعوداً.^(١)

وظل أمير الرياض المنافس الرئيسي لمحمد بن سعود، وكانت الغزوات بين الدرعية والرياض تدور رحاها كل عام تقريباً.

ففي عام ١١٧٨ هـ اتفق أبناء «يام» من أهالي نجران وقبيلتي العجمان و«بني خالد» وتحالفوا على سحق محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب.

فقد تحالف بنو يام على أن يسيروا من نجران بقيادة السيد حسن بن هبة الله، وأن يسير بنو خالد والعجمان من الأحساء بقيادة حاكمها آنذاك باسم الخالدي، وتواعد الجميع على الزحف على الدرعية، فصارت جموع من نجران والأحساء، ولكن قائد نجران قد وصل إلى ضواحي «الدرعية» قبل وصول العجمان وبني خالد، وبوحدتهم تمكنوا من سحق الجند السعودي واختفى محمد بن سعود، وكاد ينتهي أظلم حكم دخيل عرفته

شبه الجزيرة العربية على أيدي أهالي نجران الأبطال، لو لم يلجأ محمد بن عبد الوهاب إلى المكر والخداع، فقد رفع راية الصلح على أن يقف أهالي نجران عند حدهم ويمتنعوا من دخول «الدرعية»، وأن يسلموا ما تحت أيديهم من الأسرى السعوديين، ويتعهد كل من محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود بدفع عشرة آلاف جنيه ذهب كتعويض لأهالي نجران عن رحلتهم هذه، وأن لا يتعدى محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب حدود «الدرعية»، وبهذا شهد محمد بن عبد الوهاب ببطلان دعوته أمام أهالي نجران .

ولما وصلت قوات الخالدي المسلحة بالمدافع إلى ضواحي «الدرعية»، وكان قد انضم إليها الكثير من النجديين فوجئوا بهذا الصلح، واضطروا لقبوله تمسحاً مع ما اتخذته أبناء عمهم من أبناء نجران، ولم يكن سبب فشلها إلا التصرفات الفردية للشيخ حسن بن هبة الله، وألا لقضي على الوجود السعودي في ذلك الوقت، وقد كان عنف الهجوم وإيجاد الرعب على حد أصيب محمد بن سعود بإسهال، ومرض مرضاً شديداً من جراء ما انتابه من رعب شديد حينما شاهد أن أبناء يام يحاصرون «الدرعية»، بعد سحقهم للجنود السعودي، وقد تسبب ذلك هلاك محمد بن سعود من جراء المرض الذي أصابه من ذلك الحادث، ومات عام ١١٧٩ هـ. ^(١)



٢- عبد العزيز بن محمد بن سعود (١١٧٩ - ١٢١٨ هـ)

اختار محمد بن سعود ولده عبدالعزيز ولياً للعهد من بعده، باقتراح من محمد بن عبدالوهاب، فكان أول أمير يبايع بولاية العهد من السعوديين، ومنذ ذلك الحين أصبحت الإمارة تنتقل بالمبايعة بولاية العهد، تماماً كما فعل معاوية مع ولده يزيد، وهذه واحدة من بدع الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقد تزوج عبدالعزيز ابنة محمد بن عبدالوهاب، وامتزج النسب بعضه ببعض أكثر من ذي قبل.^(١)

ولم تكن سيرة عبدالعزيز خيراً من سيرة أبيه بل شراً منه، وقد نجمت في عهده حروب دامية سفكت فيها دماء الأبرياء بما يتجاوز حد الوصف، وإن كنت في شك مما نقول فعليك بقراءة ما أسجله لك من وثائق موثقة:

احتلال الأحساء عام ١٢٠٧ هـ

تشكل الأحساء وسواحلها وموانئها جزءاً من البلاد المطلّة على الخليج، والتي يتنازع عليها العثمانيون وولاية العراق ومصر.

كانت الأحساء في القرن الثاني عشر (١١٠٠ - ١٢٠٠ هـ) تخضع لنفوذ قبائل بني خالد، وهي قبائل نجدية كبيرة منتشرة على شاطئ الخليج تحت حكم شيخهم محمد آل حميد، الذي أنذر عثمان بن معمر شيخ

العينة بطرد محمد بن عبد الوهاب من قريته، لما أساءت تعاليمه إلى القرى المجاورة، وكان ذلك من أسباب العداء بين بني خالد وآل سعود، بالإضافة إلى رغبة هؤلاء في التوسع، وأدى ذلك إلى سقوط الأحساء في يد الوهابيين عام ١٧٨٥ م «حوالي ١٢٠٧ هـ» .

وفي خريف ١٧٩٣ م «حوالي ١٢١٥ هـ» توجه سعود بن عبدالعزيز مع قوات كبيرة إلى الأحساء، ونهبت قواته البدوية كل ما صادفته في طريقها، وقتلت دون رحمة كل من أبدى مقاومة، ودمرت بساتين النخيل واستأثرت بمحاصيل التمور، ورعت الماشية في الحقول، وأعربت الأحساء كلها عن خضوعها لهم، وعين براك بن عبدالمحسن أميراً للأحساء^(١) ولكنه حاول في ربيع ١٧٩٦ م أن يتخلص من سلطة الوهابيين، ولكنه أطلع عليه سعود بن عبدالعزيز فجاء بجيش قوي إلى الأحساء وقمع الحركة فيها من جديد^(٢) .

يقول ابن بشر في كيفية إخضاع الأحساء: فلما أصبح الإصباح رحل سعود بعد صلاة الصبح، فلما استووا على ظهور ركائبهم وقربوا من الأحساء، أطلقوا رصاص بنادقهم دفعة واحدة، فأسقط الكثير من النساء الحوامل ما في بطونهم لهول الموقف، فاحتلها، ثم نزل سعود فأمرهم بالخروج إليه، فخرج فأقام هناك مدة أشهر يقتل من أراد قتله، ويجلي من أراد إجلاءه، ويحبس من أراد حبسه، ويأخذ من الأموال، يهدم من المحال،

١. تاريخ نجد لابن غنام: ١٥٨ / ٢ - ١٦٦ .

٢. تاريخ نجد لابن غنام: ١٧٤ / ٢ - ١٧٥ .

ويبني ثغوراً ويهدم دوراً، وضرب عليهم ألوفاً من الدراهم وقبضها منهم، وذلك لما تكرر منهم من نقض العهد ومناوذة المسلمين وأكثر فيها القتل - إلى أن يقول: - فلما أراد ابن سعود الرحيل من الأحساء أمسك عدة رجال من رؤساء أهلها... فاستقدمهم إلى «الدرعية» وأسكنهم فيها، واستعمل في الأحساء أميراً باسم (ناجم) وهو رجل منهم.^(١)

تدمير كربلاء والتصفية الجسدية

وفي سنة ١٢١٦ هـ جهز سعود بن عبد العزيز بن محمد جيشاً جراراً من أعراب نجد، وغزاه به العراق، وحاصر كربلاء ثم دخلها عنوة، وأعمل في أهلها السيف، ولم ينج منهم إلا من فرّ هارباً، أو اختفى في مخبأ من حطب ونحوه فلم يعثروا عليه، وهدم قبر الحسين عليه السلام واقطع الشباك الموضوع على القبر الشريف، ونهب جميع ما في خزانة المشهد، ولم يرع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا لذريته أدنى حرمة، وجدد بجريمته النكراء مأساة واقعة كربلاء ويوم الحرة، وجرائم بني أمية وبني العباس .

ويتناول كوران سيز وصف تلك الواقعة بقوله:

وقد جرت العادة أن يحتفل الشيعة كل عام بعيد الغدير في يوم الغدير في النجف الأشرف، فخرج أهالي كربلاء من بلدتهم، فانتهز الوهابيون فرصة غيابهم عن البلدة واقتحموها، وهم حوالي اثني عشر ألف جندي،

١. نفس المصدر: ١٧٤/٢ - ١٧٥؛ عنوان المجلد: ١٠٥/١ - ١٠٦.

ولم يكن في البلدة إلا عدد قليل من الرجال المستضعفين، قتلهم الوهابيون ولم يبقوا أحداً منهم حيّاً، ويقدر عدد الضحايا خلال يوم واحد بثلاثة آلاف، وأمّا السلب فكان فوق الوصف، ويقال إن مائتي بعير حملت فوق طاقاتها بالمنهوبات الثمينة، فقد استولى الوهابيون على كل الكنوز والأموال، وجردوا القبة من صفائح النحاس المطلية بالذهب.^(١)

وقال «فيلبي» في «تاريخ نجد»: اقتحم سعود بجيش أبيه كربلاء، وبعد حصار قصير أعمل السيف في رقاب أهلها، ودمر ضريح الحسين عليه السلام، ونهب المجوهرات التي كانت تغطي الضريح، وجمع كل شيء ذا قيمة في المدينة...

والحق أن يقال إن عمله هذا هزّ العالم كله، فضلاً عن الشيعة، فقد كان منعطفاً تاريخياً للثورة على الوهابيين، كما أدى فيما بعد إلى عواقب وخيمة على سلطة هذه الإمارة الضالة.^(٢)

ويقول العلامة السيد جواد العاملي مؤلف «مفتاح الكرامة»:

«... فأغار سعود بن عبدالعزيز في سنة ١٢١٦ هـ على مشهد الحسين عليه السلام وقتل الرجال والأطفال، وأخذ الأموال، وعاث بالحضرة المقدسة، وخرّب بنيانها وهدم أركانها، ثم إنه بعد ذلك استولى على مكة

١. تاريخ البلاد العربية للدكتور منير العجلاني: ١٢٦ - ١٢٧.

٢. تاريخ نجد لفيلبي: ص ٩٩.

وهذا الكاتب، أعني فيلبي كان رجلاً إنجليزياً باسم «سنت جون فيلبي» فقد أظهر الإسلام وأقام مدة مديدة في نجد، وكان له علاقة وطيدة مع السعوديين ثم توترت علاقته معهم بسبب تسجيله هذه الحوادث التاريخية المريرة التي أصبحت وصمة عار في حيين الأسرة السعودية إلى الأبد.

المكرمة والمدينة المنورة، وفعل بالبقيع ما فعل، ولم يستثن من ذلك إلا قبر النبي ﷺ. (١)

كان تدمير كربلاء أفذح هزيمة مني بها سليمان باشا والي بغداد، ممّا زاد في تدهور وضع الوالي .

احتلال الطائف عام ١٢١٧ هـ

قال الجبرتي: في أواخر سنة ١٢١٧ هـ أغار الوهابيون على الحجاز، فلما قاربوا الطائف خرج إليهم الشريف غالب فهزموه، فرجع إلى الطائف وأحرق داره وهرب إلى مكة، فحاربوا الطائف ثلاثة أيام حتى دخلوها عنوة، وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال، وهذا دأبهم في من يحاربهم، وهدموا قبة ابن عباس في الطائف. (٢)

يقول زيني دحلان: فدخلوا البلد عنوة في ذي القعدة سنة ١٢١٧ هـ فقتلوا الناس قتلاً عاماً حتى الأطفال، وكانوا يذبحون الطفل الرضيع على صدر أمه، وكان جماعة من أهل الطائف خرجوا قبل ذلك هاربين، فأدركتهم الخيل وقتلت أكثرهم، وفتشوا على من توأرى في البيوت وقتلوه، وقتلوا من في المساجد - إلى أن قال: - وصارت الأعراب تدخل كل يوم إلى الطائف وتنقل المنهوبات إلى الخارج حتى صارت كأمثال الجبال، فأعطوا خمسها للأمير واقتسموا الباقي، ونشروا المصاحف وكتب الحديث والفقه والنحو

١. مفتاح الكرامة: ٥١٢/٥.

٢. أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي لغالب محمد أديب: ٩٣.

في الأزقة، وأخبروا أن الأموال مدفونة في المخابئ فحفروا في موضع فوجدوا فيه مالاً، وعندها حفروا جميع بيوت البلد حتى بيوت الخلاء والبالوعات .

استيلاء الوهابيين على مكة في سنة ١٢١٨ هـ

عزم الوهابيون في سنة ١٢١٧ هـ على الاستيلاء على مكة المكرمة وإخضاعها لسيطرتهم ونفوذهم، فأعدوا العدة وحشدوا الحشود المكثفة لذلك في أول الأشهر الحرم، فشاع خبرهم في الآفاق وبلغ مسامع الناس وهم في موسم الحج، وقد كان ممن حج في ذلك العام، إمام مسقط: سلطان بن سعيد ونقباء وأمراء حجيج مصر والشام وغيرهما، فاستنجد بهم الشريف غالب أمير مكة فأبوا عليه، ودعاهم إلى الجهاد ضد الوهابية بعد انقضاء مناسك الحج فأعرضوا عنه، وتعللوا بعلل واهية، وأكثر الإلحاح عليهم فلم يجد فيهم أذناً صاغية، فاضطر إلى الجلاء عن مكة برفقة أتباعه وخزائنه وذخائره، وكثير من أهالي مكة إلى مدينة جدة، للأمن من غائلة سطوة الوهابيين .

ووصل ابن سعود بقواته مشارف مكة المكرمة يومه العاشر من المحرم، فدخلها من دون مقاومة تذكر، ففعل بها وبأهلها ما فعله جنده بأهل الطائف. (١)

وفرض ابن سعود على علمائها تلقي أفكار ابن عبد الوهاب ومدارسة

كبه، كما منع مسلمي الأفاق من أداء الحج والعمرة، فانقطع عن أهل مكة والمدينة ما كان يصل إليهم من الصدقات، أو أسباب التجارة التي كانوا يتعيشون منها.^(١)

وبعد استيلائهم على مكة، قدمت جموع غفيرة من نجد من الوهابيين، فتوجهت حشودهم بتخطيط مسبق إلى الأضرحة والمزارات ذات القباب التي شيدت لتكريم شخصيات صدر الإسلام فهدموها، وكذا فعلوا بدار مولد النبي وقبة السيدة خديجة وقبة زمزم^(٢)، فما مضت عليهم إلا ثلاثة أيام حتى محوا جميع آثار صدر الإسلام ومعالمه، وأثار الصالحين، فأزالوها عن بكرة أبيها.^(٣)

طرد الوهابيين من مكة المكرمة

كانت الوهابية مسيطرة على الحرم الشريف على نحو ما مر ذكره، فدفعت جرائمهم التي ارتكبوها بمكة الشريف غالب إلى تصميمه على تجديد العهد بها لتطهيرها من دنس الوهابيين، فسار برفقة الشريف باشا حاكم جدة وكثير من العسكر والعيبد، وتمكنوا من اقتحام متاريس الوهابيين المحيطة بها، فدخلوها وأحكموا السيطرة عليها، بعد أن طردوا منها كل ما تبقى من شرادم الوهابيين.

١. أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي: ٩٣.

٢. عنوان المجلد: ١/ ١٢٢.

٣. تاريخ الجبرتي: ١١٨ بتصرف.

ثم أخذ الشريف غالب يحارب كل من كان يوالي الوهابيين ممن جاور مكة من القبائل بالغارة عليهم، حتى تمكن من استئصالهم والقضاء على تبعيتهم وعمالتهم لهم.

هذا غيض من فيض من جرائم عبدالعزيز بن محمد آل سعود، وهذه كلها حروب وفتن، وتدمير وتخريب وضحايا، ونهب وسلب وهتك للمقدسات الدينية، وغارات متصلة ليل نهار على المسلمين الأمنيين .

وظل على هذه السيرة إلى عام ١٢١٨ هـ حتى اغتاله رجل. قال جبران شامية الكاتب الوهابي: وانتقم الشيعة من غزوة كربلاء بعد ستين باغتيال الإمام عبد العزيز وهو يصلي في المسجد عام ١٢١٨ هـ. وقال فيليبي: لقد تنكر القاتل بزي «درويش» وذهب إلى «الدرعية» وبقي فيها أياماً يصلي خلف عبد العزيز، وفي ذات يوم ألقى بنفسه على عبد العزيز وهو يصلي، وطعنه بمديية في ظهره اخترقت به إلى بطنه، وعجلت به إلى مقره الأخير، وتكاثر الناس على القاتل وقتلوه.^(١)

وقال ابن بشر: كان مقتل أمير الدرعية عبدالعزيز ضربة جديدة للوهابيين، ففي خريف عام ١٨٠٣ م قتل في مسجد الطريف بالعاصمة على يد درويش غير معروف يدعى عثمان، وهو كردي من إحدى قرى الموصل، وكان هذا الدرويش قد حلّ ضيفاً على البلاط، وعندما سجد عبدالعزيز أثناء الصلاة هجم هذا الدرويش الذي كان في الصف الثالث على الأمير وقتله بطعنة من خنجر، ثم جرح أخاه عبداللّه، وتفيد بعض

المعلومات أن قاتل عبد العزيز شيعي هلك كل أفراد عائلته أثناء غزو كربلاء.^(١)

وبذلك طويت صفحات حياته السوداء، وقد اقتصرنا في التعرض لتاريخ حياته على ما هو الجدير بالذكر منها، والآن فقد قال أحمد بن زيني دحلان: إن الشريف غالباً (أمير مكة) غزا الوهابيين ما ينوف عن خمسين غزوة، من سنة ١٢٠٥ هـ إلى سنة ١٢٢٠ هـ، وكانت أكثر هذه الحروب أيام سلطة عبد العزيز آل سعود، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب «خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام» وكتاب «كشف الارتياح» للسيد الأمين، وقد ذكر الأخير نبذاً من هذه الحروب.



٣- سعود بن عبدالعزيز (١٢١٨ - ١٢٢٩ هـ)

استولى سعود على السلطة في الإمارة القبلية السعودية بعد وفاة والده، وكان أول عمل قام به غزو بلدتي الزبير والبصرة، وأعمل فيهما القتل والسلب وهدم قبري طلحة والزبير، وتوسعت رقعة النفوذ السعودي في عهده إلى أوجها، فقد كثف الغزوات والغارات بقصد الاحتلال والسلب والنهب، بشكل رهيب لم يكن له سابقاً في تاريخ دويلتهم، وقد تمخض عن تلك الأغراض التوسعية ضم جميع نواحي نجد والأحساء وسواحل

١. تاريخ العربية السعودية لفاسيليف: ٥٤.

البحر الأحمر إلى نفوذهم، واستمر حكمه أحد عشر عاماً.^(١)

واليك بعض حروبه وغاراته على جدة، والحرمين الشريفين على وجه الاختصار:

معاصرة الوهابيين جدة ١٢١٩ هـ

ثم دخلت سنة ١٢١٩ هـ فأقبلت جيوش الوهابيين وعلى رأسها ابن شبكان والمضايقي باثني عشر ألف مقاتل لحصار جدة، فأراد الشريف غالب تحصين مكة لعلمه بعدم قدرتهم على جدة، فنادى بالنفير العام، فخرج الناس على طبقاتهم إلى «الزاهر» حاملين السلاح، وبقوا هناك سبع ليال .

أما الذين حاصروا جدة فبقوا ثلاثة أيام يحملون عليها حملة واحدة، فيفرقهم المدفع ويقتل منهم فينهزمون إلى خيامهم، حتى قتل الكثيرون منهم وامتلات الحفر والقنوات من جيفهم، وكانوا يدفنون العشرة في محل واحد، فلما رأوا ذلك ارتحلوا، وقتلوا في طريقهم حياً من الأعراب، وأخذوا إبلاً للشريف غالب، فجهز الشريف جيشاً بقيادة الشريف حسين للانتقام منهم، فهجموا عليهم في منطقة تسمى «الليث» فغلبوهم، وقتل كثير من الوهابيين في تلك الملحمة، واستشهد الشريف حسين، فعاود الشريف غالب إرسال الجند والكتائب عليهم حتى يترصدوا لهم كل موضع،

١. آل سعود ماضيهم ومستقبلهم: ٦٢ - ٦٣ بتصرف.

فهزموهم هزائم ساحقة، واقتطعوا الكثير من رؤوسهم، وعلقت على أبواب مكة للعبرة.^(١)

محاصرة مكة والمدينة سنة ١٢٢٠ هـ ثانياً

يقول زيني دحلان:

ودخلوا مكة في أواخر ذي القعدة سنة ١٢٢٠ هـ وتملكوا المدينة المنورة، على ساكنها أفضل السلام، وانتهبوا الحجرة (النبوية) وأخذوا ما فيها من الأموال، وفعلوا أفعالاً شنيعة، وجعلوا على المدينة أميراً منهم يدعى «مبارك مزيان» واستمر حكمهم سبع سنين ومنعوا دخول الحاج الشامي والمصري مع المحامل مكة، وصاروا يصنعون للكعبة ثوباً من العباء، وأكروهوا الناس على الدخول في دينهم، وهدموا القباب التي على قبور الأولياء، وكانت الدولة العثمانية في تلك السنة في ارتباك كثير وشدة قتال مع النصارى، وفي اختلاف في خلع السلاطين وقتلهم.^(٢)

وقال الكاتب جبران شامية: إن سعود بن عبد العزيز حاصر المدينة المنورة وفعل بها ما فعله بالطائف ومكة.^(٣)

وقال السيد جواد العاملي: في سنة ١٢٢١ هـ في الليلة التاسعة من شهر

١. كشف الارتباب: ٢٥-٢٦.

٢. فتنة الوهابية: ٧٢، تاريخ الجبرتي: ١١٦-١١٨.

٣. آل سعود ماضيهم ومستقبلهم: ٦٥ تقرأ عن خطط الشام.

صفر قبل الصبح بساعة، هجم علينا بالنجف الأشرف ونحن في غفلة، حتى بعض أصحابه صعّدوا السور وكادوا يأخذون البلد، فظهرت لأمير المؤمنين عليه السلام الكرامات الباهرة، فقتل من جيشه الكثير، ورجع خائباً، وله الحمد على كل حال^(١).

وقال أيضاً: جاء سعود بن عبدالعزيز عام ١٢٢٣ هـ في شهر جمادى الآخرة من نجد بما يقرب من عشرين ألف مقاتل، أو أزيد، فجاءتنا النذر بأنه يريد أن يدهمنا في النجف الأشرف غفلة، فتحذرنا منه، وخرجنا جميعاً إلى سور البلد، فأتانا ليلاً فرأنا على حذر قد أحطنا بالسور بالبنادق والأطواب، فمضى إلى الحلة فرأهم كذلك، ثم مضى إلى مشهد الحسين على حين غفلة نهاراً، فحاصرهم حصاراً شديداً فشتوا له خلف السور، وقتل منهم وقتلوا منه، ورجع خائباً، ثم عاث في العراق فقتل من قتل، وبقينا مدة تاركين البحث والنظر على خوف ووجل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقد استولى على مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتعطل الحج سنين وما ندري ما يكون.^(٢)

ويظهر من غير واحد من المؤرخين أنّ الحج انقطع من العراق أربع سنين، ومن الشام ثلاث سنين، ومن مصر ستين، ولا يعلم هل انقطع بعد ذلك أو لا.

١. مفتاح الكرامة: ٥١٢/٥.

٢. نفس المصدر: ٤٣٥/٦.

غزو الوهابيين لبلاد الشام

وقد غزا سعود منطقتي عسير وتهامة، ثم انسحب منهما وغزا كربلاء مرة ثانية عام ١٢٢٣ هـ، فاستعصت عليه لأن أهلها حصنوها بعد الغزوة الأولى، ثم هاجم البصرة والزيبر وغنم بعض الأموال.^(١)

وفي هذه السنة هجم ولد عبدالله بن سعود على بلاد حوران فنهب الأموال، وأحرق الغلال، وقتل الأنفس البريئة، وسبى النساء وقتل الأطفال، وهدم المنازل وعاث في الأرض فساداً.^(٢)

ويقول صلاح الدين المختار، وهو من المعجبين بآل سعود:

في السادس من ربيع الثاني عام ١٢٢٥ هـ (١٨٠٩ م) سار الأمير سعود بشمانية آلاف مقاتل إلى الديار الشامية، وقد بلغه أن عشائر سوريا من عنزة وبني صخر وغيرهما قد نزلوا في نقرة الشام، فلما وصلها لم يجد فيها أحداً، فتوجه بقواته إلى «حوران» وهاجم القرى والدساكر وبصرى، واستولى على ما عثر عليه من مال ومتاع وطعام، وكان أهلها قد هربوا إلى مختلف النواحي عند ما سمعوا بقدومه، ثم هاجم الأمير قصر المزرب فاستعصى عليه، وارتحل إلى بصرى ليلاً ومنها قفل عائداً إلى بلده ومعه غنائم كثيرة.

وقال السيد جواد العاملي: وفي سنة ١٢٢٥ هـ قد أحاطت الأعراب من

١. آل سعود ماضيهم ومستقبلهم: ٦٥.

٢. لمع الشهاب: ٢٠١.

عيزة القائلين بمقالة الوهابي بالنجف الأشرف ومشهد الحسين عليه السلام وقد قطعوا الطرق ونهبوا زوار الحسين عليه السلام بعد منصرفهم من زيارة نصف شعبان، وقتلوا منهم جمعاً غفيراً، وأكثر القتلى من المعجم، وربما قيل إنهم مائة وخمسون، وقيل أقل، وبقي جملة من زوار العرب في الحلة ما قدروا أن يأتوا إلى النجف، فبعضهم صام في الحلة، وبعضهم مضى إلى الحسكة، ونحن الآن كأننا في حصار، والأعراب إلى الآن ما انصرفوا وهم من الكوفة إلى مشهد الحسين بفرسخين أو أكثر.^(١)

وقد بلغ تعصب الوهابيين إلى حدّ حملهم على قطع العلاقات التجارية مع غيرهم، وكانت التجارة إلى عام ١٢٦٩ هـ مع الشام والعراق محرمة.^(٢)

وكانوا إذا وجدوا تاجراً في طريق يحمل متاعاً إلى المشركين صادروا ماله.^(٣)

وفي سنة ١٢٢٦ هـ أرسل محمد علي باشا، والي مصر ولده طوسون لتحرير الحجاز من الوهابيين، فصدوه في الكزة الأولى، وتغلب عليهم في الثانية، واستولى على مكة والمدينة، وحاول أن يفتح نجداً، فلم يستطع.

يقول ابن بشر:

«وصلت التجذات المصرية عام ١٢٢٧ هـ فزحف طوسون على

١. كشف الارتباب: ٢١، نقلاً عن مفتاح الكرامة.

٢. تاريخ العربية السعودية: ١٠٥.

٣. عنوان المجد في تاريخ نجد: ١٢٢/١.

المدينة، وانضم إليه كثير من عرب جهينة وحرب، فحاصرها وقطع عنها المياه، وكان فيها سبعة آلاف من أهل نجد، فدخل المصريون البلد، وقتل من النجديين نحو أربعة آلاف.^(١)

ثم تابع طوسون حتى دخل مكة والطائف بمساعدة الشريف غالب من دون قتال عام ١٢٢٩ هـ (١٨٨٣ م).

وفي سنة ١٢٢٨ هـ حج محمد علي باشا وعزل الشريف غالباً وأرسله منفياً إلى سلانيك، وعيّن مكانه الشريف محمد بن عون، فانتقلت الإمارة من فرع إلى آخر من أسرة الأشراف، ومحمد بن عون هو جدّ الشريف حسين أبي فيصل ملك العراق وعبد الله ملك الأردن.

يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية:

إنّ سعود بن عبدالعزيز أقام هيئة باسم الأمرين بالمعروف ومهمتها التجول في الأسواق أوقات الصلاة، تحضّ الناس على أدائها، وما زالت هذه الطريقة متبعة إلى اليوم عند السعوديين، وأصبحت تحمل العصا وتجول في الأسواق والشوارع تنهال ضرباً بها على حليق الذقن أو من يلمس قبر الرسول، أو قبر إمام من أئمة البقيع، وغير ذلك ممّا يخالف العقيدة الوهابية، بل كانوا إلى أمس القريب يضربون المدخنين علناً وإن كانوا غرباء عن الديار.^(٢)

وقد هلك سعود في الدرعية عام ١٢٢٩ هـ وهو في الثامنة والستين من

١. عنوان المجلد: ١٦٠.

٢. هذه هي الوهابية: ١٢٧.

عمره، وكانت ولايته إحدى عشرة سنة أي من سنة ١٢١٨ هـ إلى سنة ١٢٢٩ هـ، وبذلك طويت صحيفة عمره السوداء وكانت حياته كلها مليئة بالحرب والدمار:



٤- عبدالله بن سعود (١٢٢٩ - ١٢٣٤ هـ)

وتولى بعد سعود ابنه عبدالله، ونازعه عمه عبدالله بن محمد، وانقسمت الأسرة على نفسها، وفي هذه السنة أرسل الباشا عساكر كثيرة إلى ناحية القنفذة برأً وبحراً، فاستولوا عليها وهرب من كان فيها من الوهابيين، وفي أول سنة ١٢٣٠ هـ عاد إلى الطائف، ووقعت بينه وبين الوهابيين حروب كان النصر له فيها عليهم، واستولى على تربة وبيشة ورينة، وقتل الكثير من الوهابيين، فاستسلم أهلها، ومنها استولى على عسير، وقضى فيها على آخر مقاومة وهابية، ثم عاد إلى مكة ومنها إلى القاهرة^(١).

بقي طوسون في الحجاز بعد حملته على نجد.

تدمير الدرعية

وفي أوائل سنة ١٢٣٤ هـ أرسل محمد علي باشا ولده إبراهيم باشا إلى الحجاز، لإكمال محاربة الوهابيين والاستيلاء على «الدرعية»، فتوجه

١. آل سعود ماضيهم ومستقبلهم: ٦٨.

بعساكر وأموال وذخائر كثيرة حتى دخل مكة، ثم خرج منها بالعساكر قاصداً «الدرعية»، وجعل يملك كل أرض وصلها بلا معارضة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم وغنم خياماً ومدفعين.^(١)

وفي سنة ١٢٣٣ هـ ملك بلدأ من بلاد الوهابيين وقبض على أميره، ثم استولى على الشقراء، وكان بها عبدالله بن سعود، فخرج هارباً إلى «الدرعية» ليلاً، وبينها وبين الشقراء يومان، ثم استولى إبراهيم باشا على بلد كبير من بلادهم ولم يبق بينه وبين «الدرعية»، إلا ثمان عشرة ساعة، ثم زحف على «الدرعية»، فملك جانباً منها، وحاصر الوهابيين وأحاط بهم.^(٢)

وقال جبران شامية: استمر الحصار خمسة أشهر، فكانت تتوالى على إبراهيم باشا النجدات والذخيرة من مصر، والأرزاق والمواشي من البصرة والمدينة، وبقيت قبائل البدو التي انضمت إليه تناصره مادامت عطاياه مستمرة، وفي نهاية الشهر الخامس من الحصار، أي في سنة ١٢٣٤ هـ، استسلم عبدالله بن سعود لإبراهيم باشا فأرسله أسيراً للقاهرة ثم للآستانة، حيث طوفوه في الأسواق ثم أعدموه، وقتل في «الدرعية» عدد كبير من آل سعود وآل الشيخ، ونفي قسم منهم إلى مصر، وبذلك انتهت الدولة السعودية الأولى.^(٣)

ثم أقام إبراهيم باشا في «الدرعية» سبعة أشهر، ثم أمر بتدميرها فأصبحت أثراً بعد عين^(٤). وانتهت ستة أشهر من المعارك الطاحنة، وفقد

١. كشف الإرتياب: ٤٥.

٢. المصدر السابق.

٣. آل سعود ماضيهم ومستقبلهم: ٦٩.

٤. المصدر السابق.

السعوديون أثناء تلك المعارك زهاء عشرين من أقرباء الإمام بمن فيهم ثلاثة من إخوانه، وكتب إبراهيم باشا إلى القاهرة والآستانة بأنّ الوهابيين خسروا ١٤ ألف من القتلى، و ٦ آلاف من الأسرى، ومن بين الغنائم ٦٠ مدفعاً.^(١)

بسبب هزيمة الوهابيين جرت في القاهرة احتفالات بهية، أطلقت فيها نيران المدافع، وأجريت الألعاب النارية، وكان الناس يسرحون ويمرحون، وأعرب شاه إيران (فتح علي شاه) في رسالة إلى محمد علي باشا عن تقديره لدحر الوهابيين.^(٢)

وقال العلامة الشيخ محمد جواد مغنية في هذا المجال:

«وطنى إبراهيم باشا وبقي في البلاد، وأكثر فيها الفساد، وصادر أموال آل سعود وآل محمد بن عبدالوهاب، وأجلى الكثير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم من الديار، ونفى الكثير منهم إلى مصر، وكان هذا جزاء وفاقاً لما فعلوه من قبل بأمة محمد ﷺ من المظالم والمآثم، وما ارتكبه من الخيانة لله وكتابه، وللنبي ﷺ وسنته: وهكذا كل ظالم لا بد أن يبتلئ بأظلم وأغشم.»^(٣)

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾^(٤).

١. تاريخ العربية السعودية: ١٣١، نفلأ عن أرشيف السياسة الخارجية لروسيا.

٢. تاريخ الجبرتي: ٦٣٦، طبع مصر.

٣. هذه هي الوهابية: ١٢٩.

٤. المحشر: ٢.

الفترة الثانية للإمارة القبلية السعودية

قد هرب كثير من كبار الوهابيين عندما ملك إبراهيم باشا «الدرعية»، فلما ارتحل عنها رجعوا إليها، منهم عمر بن عبدالعزيز وتركبي ابن أخي عبدالعزيز، ومشاري بن سعود، فعمروا «الدرعية» ورجع أكثر أهلها، فجهز محمد علي باشا عسكرياً بامر حسين بك، فقبضوا على مشاري الذي كان قد انتخب رئيساً لـ «الدرعية» وأرسلوه إلى مصر فمات في الطريق، وتحصن الباقون في قلعة الرياض، بينها وبين «الدرعية» أربع ساعات، فحصارهم حسين بك ثلاثاً فطلبوا الأمان فأمّنهم فخرجوا (إلا تركبياً فهرب من القلعة ليلاً) فقيدهم وأرسلهم إلى مصر.

٥- تركبي ابن أخي عبدالعزيز (١٢٣٩ - ١٢٥٠ هـ)

عاش تركبي ابن أخي عبدالعزيز مختفياً طوال عدة سنوات في المناطق الجنوبية، وكان يتجول في صحراء نجد داعياً العربان إلى إحياء مجد الأسلاف، وتزوج أثناء تجواله بامرأة من آل تامر، ولدت له ذكراً أسماه جلوي، فجتمع حول تركبي ثلاثون رجلاً ثم انضمت إليه بعض القبائل، وفي تلك الأثناء بدأت في التصميم انتفاضة ضد المصريين إلى حدّ ألجأهم إلى

الجللاء إلى الحجاز، وتركوا حاميتين في الرياض ومنفوخة.^(١)

وانتهز تركي فرصة ضعف المواقع المصرية في نجد في عامي ١٢٣٩ و ١٢٤٠ هـ فوسّع نفوذه في المنطقة المحيطة بالرياض ومنفوخة، وعزل الحاميتين المصريتين، وبعد عدة شهور سقطت الرياض بيد تركي، وتمّ جلاء المصريين عن نجد، وأعلنت بعض مناطق القصيم عن اعترافها بحكم تركي، فتركي إذاً هو الأمير السعودي الوهابي الأول من الفرع الثاني لمحمد بن سعود، وبه انتقلت الإمارة من سلالة عبدالعزيز بن محمد بن سعود إلى سلالة أخيه عبدالله بن محمد بن سعود، وما زالت فيها إلى اليوم.^(٢)

ولكنه نشب خلاف في العائلة السعودية، فتمرد مشاري بن عبدالرّحمن بن مشاري بن سعود مع بعض أفخاذ قبيلة قحطان على الأمير، فكبر على نسل عبد العزيز أن تخرج الإمارة منهم، فدبر مشاري أمر اغتيال تركي، وتم له ذلك، ونادى مشاري بنفسه أميراً.

٦- مشاري بن عبدالرحمن (١٢٥٠ هـ)

قال جبران شامية: انتهت ولاية الإمام الخامس تركي بن عبد الله اغتيالاً على يد ابن عمه مشاري بن عبد الرحمان، الذي استولى على السلطة وأصبح الإمام السادس، ودام حكم مشاري أربعين يوماً، إذ زحف فيصل بن

١. عنوان المجلد: ١٢/٢.

٢. عنوان المجلد: ٢٦/٢ - ٣٠.

تركي من الهفوف إلى الرياض بمساعدة عبدالله، وعبيدالله، من آل الرشيد شيوخ حائل، واستولى على المدينة وأعدم مشاري، وأصبح فيصل الإمام السابع في العائلة السعودية.

٧- فيصل بن تركي (١٢٥٠ - ١٢٥٣ هـ)

تولى فيصل بن تركي الحكم بعد أبيه وهو في حوالي الأربعين من العمر، في أوج نضوج قابلياته الجسمانية والروحانية، وأصبح يتقبل البيعة من أهالي العاصمة، ولكن محمد علي باشا لم يمهل طويلاً، فأرسل حملة كبرى إلى نجد ومعها خالد بن سعود، الذي كان مع السعوديين المنفيين بمصر، فدخل جيش محمد علي باشا واستولى على العاصمة بلا مقاومة، بعد أن فرّ منها فيصل، ثم أسروا ونفي إلى مصر، وأقام المصريون فيها خالد بن سعود حاكماً مكان فيصل، وكان ذلك سنة ١٢٥٣ هـ.

وكانت الحجاز لم تزل بيد محمد علي، وكان من أعوانه خالد أصغر أبناء سعود الكبير، وأخو الإمام عبد الله الذي استسلم لإبراهيم باشا في الحملة المصرية الأولى وأعدم في استنبول.

٨- خالد بن سعود (١٢٥٣ - ١٢٥٥ هـ)

نشأ خالد بن سعود في القاهرة في كنف محمد علي، الذي أعدّه ليتولى الحكم في الجزيرة العربية نيابة عنه، وكان لخالد أنصاره الذين لم

يرضوا عن انتقال الإمامة عن أولاد سعود الكبير إلى أولاد عبد الله بن محمد.^(١)

وجد فيصل أن أهل الرياض وقبائل كثيرة مالت إلى الأمير خالد، لأنه كان يمثل نزعة دينية بحكم ثقفه في القاهرة، وذلك مما دعا فيصل إلى ترك الرياض، ودخل الأمير خالد الرياض سنة ١٢٥٣ هـ. فأعاد الحكومة إلى فرع سعود الكبير، وأصبح الأمير الثامن، فاستمر خالد في الإمارة ستين .

٩- عبد الله بن ثنيان (١٢٥٥ - ١٢٥٨ هـ)

ثم ثار عليه عبد الله بن ثنيان مع النجديين، فأرادوا الفتك به فهرب إلى مكة، ثم مات.^(٢)

ولمّا بلغ ذلك فيصلاً وهو محبوس بمصر، استطاع أن يهرب ليلاً من القلعة ومن معه، حتى وصلوا جبل شمر مقر عمارة ابن الرشيد، فأكرمهم وتوجهوا إلى القصيم فانضاف إليهم كثير منهم.

إلى أن استطاع بعون أهالي عنيزة أن يقاتل ابن ثنيان في الرياض، فقبضوه وحصروا عليه، ثم قتل في الحبس خنقاً في سنة ١٢٥٨ هـ.

١ . الدولة السعودية الثانية لأبي علي عبد الفتاح: ٤١ .

٢ . كشف الارتباب: ٤٧٠ ، نقلاً عن خلاصة الكلام لزيبي دحلان .

١- فيصل بن تركي (١٢٥٨ - ١٢٧٨ هـ)

صار بعد ذلك فيصل سيداً في دياره لمدة تقرب من عشرين عاماً، وفي سنة ١٢٦٢ هـ صدر الأمر من الدولة العثمانية بتجهيز العساكر لمحاربة فيصل بن تركي أمير الرياض، لأنه استفحل أمره وبنخشي أن يقع منه ما وقع من أسلافه، وأن يكون ذلك برأي الشريف محمد بن عون أمير مكة المكرمة، فتوجه الشريف مع العساكر من المدينة حتى وصل جبل شمر، فسار معه أميره ابن الرشيد بكثير من القبائل، ولما وصلوا القصيم أطاعهم أهله، فخاف فيصل فأرسل لأهل القصيم أن يتوسط في الصلح على تأدية عشرة آلاف ريال في كل سنة، فتم الصلح، ورجع الشريف بالعساكر، واستمرّ فيصل يدفع ذلك حتى مات سنة (١٢٨٢ هـ)^(١).

ولكنه بعد ما أصيب بالشلل فقد البصر، سلم الأمور لابنه عبدالله، وبعدها مات نشبت حرب أهلية بين أولاده الأربعة، وهم عبدالله وسعود ومحمد وعبدالرحمن، وعمت الفوضى البلاد.

١١- عبدالله بن فيصل بن تركي (١٢٧٨ هـ - ١٢٨٤ هـ)

كان فيصل قد بايع ولده الأكبر عبدالله بولاية العهد مطابقاً للتقاليد المتبعة في البيت السعودي، ولكن نشبت الحروب الأهلية بين أولاده

١. آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم: ٧٨.

الأربعة وهم: عبدالله وسعود ومحمد وعبدالرحمن، وعمّت الفوضى في البلاد، وقد نازع سعود أخاه عبدالله وثار عليه، واستمرت الحروب الأهلية بين الطرفين، ونشبت الفتن والقلاقل واستمرت ٢٥ عاماً، ممّا أدى إلى ضعف الإمارة وذهاب سلطانها، وانتفاضة حكام المقاطعات عليها، واستقلال كلّ بدويلته واحتل الأتراك الأحساء والقطيف.^(١) واستمرّ الصراع داخل أسرة آل سعود، وظهر عبدالله في الأراضي المحتلة من قبل الأتراك، وطرد سعود من الرياض مؤقتاً، ففي سنة ١٢٨٣ هـ عاد عبدالله من جديد إلى الرياض إلا أنّ الوضع في الإمارة كان ميؤوساً منه فالمجاعة مستمرة، وكان الناس يأكلون جيف الحمير ويحرقون جلود المعاز ويدقونها، بل كانوا يدقون العظام ويأكلون مسحوقها، ومع هذا فمن لم يمت بالسيف مات جوعاً.^(٢)

١٢- سعود بن فيصل بن تركي (١٢٨٤ هـ - ١٢٩١ هـ)

وفي العام القادم ١٢٨٤ هـ عاد سعود مجدداً إلى الرياض، واستمرت المعارك سجّالاً بين الأخوين واقترنت كالعادة بالنهب والقتل، ولكن عبدالله بن فيصل كان يعتمد على الأتراك، بينما يعتمد سعود على الإنجليز، حتّى أنهم أرسلوا أغذية له، وبعد طائفة من الأحداث استتب الأمر إلى سعود، ودخل الرياض في محرم ١٢٩٠ هـ وتوفي بعده بعام ١٢٩١ هـ. وأمّا عبدالله

١. خمسون عاماً في جزيرة العرب لوهبة حافظ: ٢٤.

٢. تاريخ نجد الحديث لأمين الريحاني: ٩٩.

فقد تنازل عن الحكم وترك الرياض هو وأخوه محمد، ورحل إلى مقرية من الكويت واستقرّ في بادية قحطان، ثم تركها بعد أن رفضوا الخوض في معركة جديدة يكونون حطّبا بلا فائدة، ولما توفي سعود أخذ الحكم مكانه أخوه عبد الرحمن الذي كان يميل إلى سعود بعكس محمد، فحكم لمدة عامين، ثم تلاها حرب بينه وبين أخيه محمد الذي كان يكبره سناً، ف وقعت معركة بينهما في ثرمدا في غرب الرياض، وعاد الأمر من جديد للتوتور، حتّى وافق الاثنان على أن يتولى الحكم أخوهم الكبير عبدالله، فعاد هذا الأخير من البادية واستلم الحكم عام ١٢٩٣ هـ حتّى عام ١٣٠٥ هـ ولم يقبل أبناء سعود أن يتولى عنهم الكبير عبدالله، فغادروا الرياض احتجاجاً على ذلك، واستقروا في «الخرج». وعندئذ توجه عبد الرحمن خوفاً من أبناء أخيه إلى عبدالله، فقرر الإخوة الثلاثة (عبدالله - محمد - عبد الرحمن) تشكيل جبهة واحدة بزعامة عبدالله ضد أولاد سعود الذين تمكنوا من السيطرة على الرياض بضعة أسابيع، ثم فرّ أولاده ودخل عبدالله الرياض من جديد، وبقي فيها إلى أن مات عام ١٣٠٥ هـ.

١٣- عبدالرحمن بن فيصل

ولما توفي عبدالله أخذ أخوه عبدالرحمن الأمر بيده، وأعلن نفسه أميراً خلفاً لأخيه عبدالله، ولم يطل الوقت حتّى اختلف عبدالرحمن مع أولاد سعود، ومن جانب آخر جنحت قبائل نجد لمحمد بن الرشيد مع أنّه

لم يكن وهابياً بل كان حليفاً للخليفة العثماني، الذي يتبع المذهب الحنفي ويستمد منه المال والسلاح.^(١)

ولمّا رأى عبدالرحمن قوة ابن الرشيد شعر أنّه بين أمرين: إمّا أن يحارب ابن الرشيد وإمّا أن يخضع له كموظف عنده، ولا طاقة له على الأولى ولا تطبيقه نفسه على الثانية، فلم يبق أمامه إلا الرحيل، فرحل عن نجد بأهله سنة ١٣٠٩ هـ وظلّ منتقلاً في الأمصار، فذهب أولاً إلى الأحساء، ثمّ إلى الكويت، ثمّ إلى قبائل بني مرة قرب الربع الخالي، ثمّ إلى قطر ومنها عاد إلى الكويت، واستقرّ فيها مع عائلته وأولاده؛ وكان عمر ولده عبدالعزيز عشر سنوات، وعين له أمير الكويت الشيخ محمد بن الصباح مرتباً إلى أن خصصت له الدولة العثمانية ستين ليرة عثمانية في الشهر.^(٢)

فقطع ابن الصباح عنه المرتب، وعاش هو وأفراد عائلته في شدة وضيق.^(٣) وبذلك انتهت الدولة السعودية الثانية.

يقول بعض المؤرخين: «إنّ الوهابية فقدت صيتها وبريقها لما توسعت فوق طاقتها فانهزمت، وهكذا خسروا الأرض والحركة الوهابية».

لم يكرم الشيخ مبارك الصباح ضيافة آل سعود في الكويت، فسكنوا ثلاث غرف من طين في أحد أزقة الكويت، ومع ذلك كان آل سعود خلال إقامتهم في الكويت مدة سبعة أو ثمانية أعوام متعاونين مع الشيخ مبارك

١. آل سعود ماضيهم ومستقبلهم: ٨١-٨٢.

٢. تاريخ نجد الحديث: ٩١.

٣. هذه هي الوهابية: ١٣٢-١٣٣.

حسبما تمليه مصالحهم، لقد كانت مجالس الشيخ مبارك بالنسبة إلى الشاب عبدالعزيز مدرسة تلقى مما يدور فيها من الأحداث، ولعل أهم درس وعاء هو الحذر عند التعامل مع القوى الدولية، والنظر بعين الاعتبار لمركز بريطانيا المتفوق.^(١)

الفترة الثالثة للإمارة القبلية السعودية

ذات يوم جاء الفتى عبدالعزيز إلى الشيخ مبارك وقال له: أريد أن أنقذ نجداً من ابن الرشيد فهل تساعدني بالمال والعتاد؟ فأعطاه الشيخ مائتي ريال وثلاثين بندقية وأربعين جماً وبعض الزاد، فأخذها ومضى هو وأرحامه وأصحابه، ورافق عبدالعزيز أخوه محمد وابن عمه عبدالله بن جلوي وبعض أتباعهم وعددهم نحو أربعين رجلاً.^(١)

سارت الجماعة متخفية حتى وصلت ضواحي الرياض وغافلت حراسها، وذلك في ٣ شوال سنة ١٣١٩ هـ، ودخلت المدينة خلسة، وقتلت قائد الحامية الشمري عبدالرحمن بن ضبعان، فاستسلم رجاله وخضعت الواحة لآل سعود، فأرسل عبدالعزيز ناصر بن سعود إلى الشيخ مبارك مبشراً وطالباً المدد، ثم بنى سوراً حول الرياض، ثم دامت مساعدات شيخ الكويت واستتب له الأمر.

١٤- عبدالعزيز بن عبدالرحمن (١٣١٩ - ١٣٧٣ هـ)

وبعد هذا صار عبدالعزيز حاكماً للرياض وهو في الثانية والعشرين، وظل أبوه مستشاراً رئيسياً له وإماماً للمسلمين.^(٢)

١. العلاقات بين نجد والكويت: ٦٨.

٢. المصدر السابق.

اتصلت الدولة العثمانية بعبد العزيز بن سعود بواسطة الشيخ مبارك ودعته لإرسال والده عبدالرحمن لمفاوضة والي البصرة، ولبي عبدالرحمن الدعوة ووصل إلى الكويت ومنها إلى الزبير برفقة الشيخ مبارك، حيث عقدت الجلسة الأولى من المباحثات عام ١٣٢٢ هـ وتوصل الفريقان إلى اتفاق تضمن إقرار العثمانيين بسيطرة عبدالعزيز على مناطقه بوصف أنه موظف عثماني برتبة قائم مقام، وتعهد العثمانيون بمنع آل الرشيد عن التدخل في شؤون إمارة آل سعود.^(١)

عبدالعزیز يتحالف مع الإنجليز

انتهاز عبدالعزيز الفرصة فاجتمع لأول مرة في سنة ١٣٢٨ هـ برسمي بريطاني هو المعتمد في الكويت، أعني: «وليم شكسبير» ونشأت بينهما مودة وتقدير متبادل، واجتمعا ثانية سنة ١٣٣٠ هـ، وكذلك في ربيع الأول ١٣٣١ هـ، وشرح عبدالعزيز لمندوب بريطانيا بأن الوقت مناسب لتخليص نجد والأحساء نهائياً من السيطرة العثمانية .

تمكن شكسبير من إجراء مباحثات سياسية مع عبدالعزيز، فوضع مسودة معاهدة التزم الإنجليز بموجيها بضممان مواقع أمير الرياض في نجد والأحساء، وحمايته من الهجمات العثمانية المحتملة من جهة البحر والبر إذا التزم بمساعدة الحلفاء، وتخلّى الإنجليز عن سياستهم القديمة، والتزموا بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لشبه الجزيرة العربية، والتزم عبدالعزيز

بعدم إقامة علاقات مع البلدان الأخرى بدون مشاورة تمهيدية مع السلطات البريطانية، وتسيين الدراسة التي أجراها «تلولير» لوثائق الأرشيفات الإنجليزية، أن عبدالعزيز كان يدرك بدقة مضامين السياسة البريطانية في الجزيرة العربية.^(١)

وجاء في المعاهدة أن ابن سعود يتعهد أن يمتنع عن كل مخابرة أو اتفاق أو معاهدة مع أية حكومة أو دولة أجنبية، وأن أمير نجد لا يمكن أن يتنازل عن الأراضي أو جزء منها، ولا أن يؤجرها أو يرهنها أو يتصرف بها بأي شكل، ولا أن يقدمها على سبيل الامتياز إلى أية دولة أجنبية، أو إلى أحد من رعايا دولة أجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية.

وجاء في المادة السادسة أن ابن سعود يتعهد كما تعهد والده من قبل بأن يمتنع عن كل تجاوز وتدخل في أرض الكويت والبحرين وأراضي مشايخ (قطر) وعمان وسواحلها، وكل المشايخ الموجودين تحت حماية الإنجليز، والذين لهم معاهدات معها، ولم يرد في المعاهدة شيء عن الحدود الغربية لنجد، وهكذا فرضت هذه المعاهدة، الحماية البريطانية على نجد وتوابعها، وصارت هذه المعاهدة جزءاً من شبكة النفوذ البريطاني التي أرادت لندن فرضه على القسم الأكبر من الشرق الأوسط، وعلى أية حال على الجزيرة العربية كلها بعد الحرب العالمية الأولى .

ثم استلمت نجد من عام ١٣٤٤ هـ، مقابل توقيع المعاهدة مؤونة

شهرية بمبلغ ٥ آلاف جنيه استرليني مع إرساليات معينة من الرشايات والبنادق.^(١)

وكما كان ابن الرشيد حليفاً مخلصاً للأتراك، فقد كان عبدالعزیز حليفاً دائماً وصديقاً وفتياً للإنجليز، فكان يذكرها ويشكرها في خطبه وغيرها، وهذا مثال من أقواله «بحق الإنجليز» جاء في خطبة ألقاها بمكة المكرمة عام ١٣٦٢ هـ:

«ولا يفوتني في هذا الموقف أن أتمثل بأن من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فأثني على الجهود التي قدّمتها الحكومة البريطانية بتقديم بواخر الحجاج وتسهيل سفرهم، كما أثني على مساعدتها ومساعدة الحلفاء القيمة، ومتابعتهم تموين البلاد بما يحتاجه الأهالي من أسباب المعيشة وغيرها، وكذلك لا بدّ من الإشارة إلى أن سيرة البريطانيين معنا طيبة من أول الزمن إلى آخره».

يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية بعد نقل هذا الكلام:

«ويعلم الصغير والكبير أن الإنجليز والحلفاء وأيّة دولة استعمارية يستحيل أن تفعل شيئاً بقصد الخير والإنسانية، وإذا فعلت مع بلد أو بلدان ما يبدو كذلك فإنّما تتخذ منه وسيلة إلى التسرب إلى أسواقه والسيطرة على مقدراته. إنّ الاستعمار يوافق ويتصنع ليمتص دماء الشعوب».

وغريب أن تخفى هذه الحقيقة على الملك عبدالعزیز، وأن يقول:

وهو الوهابي الذي يصلي في أول الوقت حتى في بيت عدوه عجلان -: من لم يشكر الناس (أي الإنجليز) لم يشكر الله، وهذا مع العلم بأن الوهابية تقول بفساد الصلاة عند قبر نبي أو ولي، لأنها تكون مشوبة بعبادة صاحب القبر، إذاً كيف ربط الملك عبد العزيز شكر الله بشكر الإنجليز بحيث لا يقبل الأول بدون الثاني، وبعد أن ضعف الإنجليز حل محلهم الأمريكيون.^(١)

التوسع السعودي بعد التعاون مع بريطانيا

ترافقت هذه الفترة مع تطورات دولية عملت لمصلحة آل سعود، فقد انتهت الحرب العالمية الأولى واستسلمت تركيا عام ١٣٣٧ هـ، وتبعتها ألمانيا، فانقطع دور تركيا في الجزيرة العربية، وانفردت بريطانيا بالتحكم بشؤون المنطقة .

ومن ناحية أخرى نجد بريطانيا قد خانت وعودها للهاشميين بإنشاء الدولة العربية الكبرى في الشمال، وصارت تسعى للتخلص منهم ومن وعودها لهم، فتوجه عبدالعزيز ضدهم في هذه الفترة التي شهدت احتلال آل سعود للحائل، ثم للحجاز وعسير، واختلطت السياسة بالدين.^(٢)

١. هذه هي الوهابية: ١٣٥ - ١٣٦.

٢. آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم: ١١٤ - ١١٥.

هجوم الوهابيين على الحجاز

في سنة ١٣٤٠ هـ غزا الوهابيون عرب الفرع من قبيلة حرب في عقر دارهم في الحجاز، ونهبوا المواشي، فجاء النذير إلى أهل الفرع فلحقوهم واستخلصوا منهم ما نهبوه، وقتلوا منهم، وغنموا جميع ما معهم وولوا منهزمين، ومن جملة ما غنموه أعلام وبيارق، فدفعوها إلى الملك حسين وانقطع مجيء أعراب نجد إلى الفرع لاكتيال التمر، فحصل بذلك ضيق على أهل الفرع بسبب كساد تمورهم التي كان يشتريها النجديون»^(١)

هجوم الوهابيون على الحجاج اليمانيين وقتلهم سنة ١٣٤١ هـ

في هذه السنة التقى الوهابيون بالحجاج اليمانيين وهم عزل من السلاح وجميع آلات الدفاع، فسأروهم في الطريق وأعطوهم الأمان، ثم غدروا بهم لَمَّا وصلوا إلى سفح جبل، مشى الوهابيون في سفح الجبل واليمانيون تحتهم، فمطفوا على اليمانيين وأطلقوا عليهم الرصاص حتى قتلوهم عن بكرة أبيهم، وكانوا ألف إنسان، ولم يسلم منهم غير رجلين هربا وأخبرا بالحال»^(٢)

١. كشف الارتباب: ٥٠.

٢. كشف الارتباب: ٥٤.

هجوم الوهابيين على الحجاز عام ١٣٤٣ هـ

وقد هجم الوهابيون في هذه السنة على الحجاز وحاصروا الطائف، ثم دخلوها عنوة وأعملوا في أهلها السيف، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى قتلوا منهم ما يقرب من ألفين، بينهم العلماء والصلحاء، وأعملوا فيها النهب، وعملوا فيها من الفظائع ما تقشعر منها الجلود، نظير ما عملوه في المرة الأولى، حتى أن السلطان عبد العزيز بن سعود لما سئل عنها لم ينكر وقوعها، لكنه اعتذر بما وقع من خالد بن الوليد يوم فتح مكة، وقول النبي: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد.^(١)

أصبح الحجاز بعد معركة الطائف مفتوحاً أمام عبدالعزيز، لكنه تباطأ بالزحف على مكة حتى يستكشف نوايا الإنجليز الذين كانوا أئذروه وطلبوا منه التوقف عن القتال، لكن سياسة بريطانيا كانت قد تغيرت خلال هذه المدة، وأصبحوا يريدون التخلص من الملك حسين وأولاده في الحجاز، حتى يكفوا عن مطالبتهم بتنفيذ تعهداتهم لعرب الشمال، وكانت وسيلتهم المفضلة أن يضربوا العرب بالعرب، وكان عبدالعزيز أداتهم في تلك السياسة.^(٢)

١. كشف الارتباب: ٥٢.

٢. آل سعود ماضيهم ومستقبلهم: ١٣٤.

هجوم الوهابيين على شرقي الأردن

وفي سنة ١٣٤٣ هـ هجمت جماعة من الوهابيين فجأة على أعراب شرقي الأردن الآمنين، فهجموا على أم العمدة وجوارها، فقتلوا ونهبوا، ومالبثوا أن ارتدوا مدحورين مأسورين، وإن الدبابات والطائرات الإنجليزية اشتركت في قتالهم مع عرب شرقي الأردن، وانجلت المعركة عن قتل ثلاثمائة من الوهابيين بأمر من الإنجليز.

استيلاء الوهابيين على مكة المكرمة سنة ١٣٤٣ هـ

كان الملك حسين يظن أن الإنجليز سيتدخلون لإنقاذه على نحو ما فعلوا في شرقي الأردن في الشهر الماضي، فأرسل برقية إلى المستر بولارد القنصل البريطاني في جدة ذكر فيها أن الحالة حرجية، وأن علاقته بالحكومة البريطانية تجعله يطلب منها الاهتمام بصد ابن سعود، وتجنّب ما وقع في الطائف، وهو يأمل منها النظر في طلبه بأسرع ما يمكن، فأبرق القنصل إلى حكومته في لندن فوافاه الجواب أن الحكومة البريطانية متمسكة بسياستها في عدم التدخل في الأمور الدينية، وهي لذلك لا تريد أن تتدخل في أي نزاع بشأن امتلاك الأماكن المقدسة في الإسلام.^(١)

وفي الوقت نفسه كتب الدكتور «ناجي الأصيل» مندوب الحسين في

١. دائرة الوثائق العامة في لندن (أف، أو رقم ٣٧١ - ١٠٠١٤).

لندن رسالة إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول فيها: «إن صاحب الجلالة الهاشمية يناشد الحكومة البريطانية - طبقاً لروح المعاهدة التي هي تحت المفاوضة - أن تتدخل لوضع حد للاعتداء الوحشي الذي يقوم به الوهابيون ضد الأماكن المقدسة، وإخراجهم من الطائف .

فوافاه الجواب: إن الحكومة البريطانية لا تريد أن تتورط في النزاع القائم بين أمراء عرب مستقلين، حول امتلاك الأماكن المقدسة في الإسلام». ثم رد ناجي الأصيل على جواب وزارة الخارجية في ٢ تشرين الأول وقال: إن ما قام به شعب الحجاز من مخاطرة كبرى في تأييد بريطانيا في الحرب العامة يستدعي من بريطانيا مساعدتها له في إنقاذ مكة من ويلات الحرب، وإن العالم الإسلامي لا يرضى أن تقع الأماكن المقدسة ولو لفترة قصيرة جداً في أيدي طائفة كالوهابية.^(١)

تنازل الحسين عن العرش لصالح ولده علي

ارتأت الحكومة البريطانية حفاظاً على مصالحها في المنطقة خلع الأسرة الهاشمية عن الحرمين الشريفين، حتى تحل محلها السلطة الوهابية، ولأجل ذلك استعملت بريطانيا جميع وسائل الضغط لتجبر الملك حسين على التنازل عن العرش، وعلى رأسها قطع المساعدات المالية عنه، حتى عجز عن دفع رواتب الضباط والجنود.^(٢)

أصبح وضع الحسين ميؤوساً منه، فاجتمع أعيان الحجاز ومنهم أشرف مكة وعلماء الدين وكبار التجار في جدة، وقرروا خلع الحسين لترضية ابن سعود، وبعد أخذ ورد، وافق الحسين على التنازل عن العرش لولده الذي نصب ملكاً على الحجاز في ٦ تشرين الأول (عام ١٩٢٤ م) الموافق ١٣٤٣ هـ، وبعد ثلاثة أيام أرسل الحسين مع أمتعه إلى جدة لكن الحكومة البريطانية تضايقت من وجوده هناك، فأرسلت إليه إنذاراً بمغادرة المدينة تلبية لطلب عبد العزيز، وأبلغته بأن عليه أن يسافر إلى قبرص، حتى مات هناك عام ١٩٣١ م / ١٣٥٠ هـ، ونقلت جنازته إلى الأردن فدفن في المسجد الأقصى، وانتهت بذلك حقبة محزنة من تاريخ العرب.^(١)

دخل الوهابيون مكة بغير قتال بعدما خرج الملك حسين وولده منها إلى جدة، فنهبوا داره واستولوا على جميع ما يؤول إليه، ثم قامت الحرب بينهم وبين الملك علي المتحصن في جدة، وانقطع الحج في تلك السنة، وعين خالد بن لؤي حاكماً على مكة ثم انطلق الوهابيون وفرضوا على السكان حضور صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم، كما منعوا التدخين وقراءة المولد النبوي وزيارة القبور، ومن يشاهدونه يفعل ذلك يشتمونه ويضربونه، وربما ساقوه إلى الحبس أو فرضوا عليه الغرامة.^(٢)

دخل عبد العزيز مكة المكرمة، واستعرض الجيش، واجتمع مع العلماء وفرض عليهم اعتناق الأصول التي جاء بها محمد بن عبد الوهاب،

١. آل سعود ماضيهم ومستقبلهم: ١٣٥.

٢. كشف الارتباب: ٥٢.

وكان يقول وهو يحارب الملك علياً: إنّه ما جاء إلى الحجاز إلا لينقذه من ظلم الأشراف، ولا يريد تملكه وإنما يجعل مصيره إلى رأي عموم المسلمين .

وهذا هو الأسلوب الماكر لجميع الدهاة إذا تغلبوا على قطر من الأقطار، حتّى أنّ دولة إسرائيل الغاشمة بعدما استولت على أراض جديدة عام ١٩٦٧ م كانت تقول بأنّها لا تريد الاستيلاء عليها .

اكتساح قبور البقيع

لما استتبّ الأمر لعبد العزيز وملك الحجاز قاطبة، عمد إلى تخريب المعالم الإسلامية في مكّة وجدة والمدينة، فخربوا في مكّة قباب عبدالمطلب جدّ النبي، وأبي طالب عمّه، وخديجة أم المؤمنين، وخربوا مولد النبي ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام، ولما دخلوا جدة هدموا قبة حواء، وخربوا قبرها بل خربوا في هذه البلاد كل القباب والمزارات والأمكنة التي يتبرك بها، ولما حاصروا المدينة هدموا مسجد حمزة ومزاره، لوقوعهما خارج المدينة المنورة.^(١)

يقول الدكتور علي الوردي أستاذ علم الاجتماع في جامعة بغداد:

كان البقيع مقبرة المدينة في عهد النبي صلى الله عليه وآله وما بعده، دفن فيه العباس والخليفة عثمان، وزوجات النبي والكثير من الصحابة والتابعين، كما دفن

فيه أربعة من أئمة أهل البيت عليهم السلام هم: الحسن بن علي، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي وجعفر بن محمد، وقد صنع الشيعة لقبور هؤلاء الأربعة ضريحاً باهراً يشبه الأضرحة المعروفة في العراق وإيران، لكن على نطاق أصغر، واعتاد الشيعة أن يزوروا هذا الضريح فيقبلونه ويتبركون به ويصلون عنده، على نحو ما يفعلون في أضرحة العراق وإيران.^(١)

طلّت هذه القبور سليمة أكثر من أربعة أشهر دون أن يمسه أحد بسوء، ولكن اتهم ابن سعود في تنفيذ مبدأ الوهابية لإبقائه عليها، فاضطر ابن سعود في شهر رمضان سنة ١٣٤٤ هـ إلى إرسال كبير علماء نجد عبدالله بن بليهد من مكة إلى المدينة للعمل على هدم القبور، وعندما وصل ابن بليهد إلى المدينة اجتمع بعلمائها ووجه إليهم الاستفتاء التالي:

«ما قول علماء المدينة - زادهم الله فهماً وعلماً - في البناء على القبور واتخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟ وإذا كان غير جائز بل ممنوع منهي عنه نهياً شديداً، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا؟ وإذا كان البناء في مسبلة كالبقيع، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليها، فهل هو غصب يجب دفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا؟ وما يفعله الجهال عند هذه الضرائح من التمسح بها ودعائها مع الله، والتقرب بالذبح والنذر لها، وإيقاد السرج عليها، هل هو جائز أم لا؟ .

وما يفعل عند حجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من التوجه إليها عند الدعاء وغيره،

والطواف بها وتقبيلها والتمسح بها، وكذلك ما يفعل في المسجد من الترحيم والتذكير بين الأذان والإقامة وقبل الفجر ويوم الجمعة، هل هو مشروع أم لا؟ أفتونا مأجورين وبينوا لنا الأدلة المستند إليها لا زلتُم ملجأً للمستفيدين»^(١).

تري أن الأسئلة طرحت بشكل أدرج فيها الجواب، وألزم المفتين على الإجابة بما يرتثيه السائل، ولأجل ذلك جاء الجواب بالشكل التالي:

«أما البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً لصحة الأحاديث الواردة في منعه، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجود هدمه مستندين في ذلك بحديث عليّ قال لأبي الهياج:

ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته؟» (رواه مسلم).

وأما اتخاذ القبور مساجد والصلاة فيها وإيقاد السرج عليها فممنوع، لحديث ابن عباس: «لعن الله زائرات القبور المتخذين عليها المساجد والسرج»، رواه أهل السنن، وأما ما يفعله الجهال عند الضرائح من التمسح بها والتقرب إليها بالذبائح والندور، ودعاء أهلها مع الله فهو حرام ممنوع شرعاً لا يجوز فعله أصلاً.

وأما التوجه إلى حجرة النبي ﷺ عند الدعاء فالأولى منعه، كما هو معروف عن معتبرات كتب المذهب، ولأن أفضل الجهات جهة القبلة، وأما

الطواف والتمسح بها وتقبيلها فهو ممنوع مطلقاً، وأما ما يفعل من التذكير والترحيم والتسليم في الأوقات المذكورة فهو محدث، هذا ما وصل إليه علمنا.^(١)

وعلى أثر صدور هذه الفتوى هدمت القبور، فأحدثت هذه الجريمة ضجة مدوية في أقطار العالم الإسلامي، خصوصاً الشيعة منها، فقرر علماء الشيعة على أثر تلقّيهم هذا الخبر إعلان الحزن العام وإظهار الحداد وترك التدريس، وعقد في صحن الكاظمية اجتماع حضرته جماهير كثيرة، وتليت فيه البرقيات والرسائل الواردة في هذا الشأن، كما نظمت البرقيات التي قرّر إرسالها إلى ملوك وعلماء العالم الإسلامي في أقطارهم المختلفة، وجرى مثل ذلك في كربلاء والنجف.^(٢)

وفي ذلك يقول الدكتور الوردى: وأخذت الجرائد العراقية تنشر المقالات في التنديد بابن سعود وشجب أعماله، فقد كتبت جريدة «العراق» في مقالة افتتاحية لها تقول: «قضي الأمر وأصدر ابن بليهد الفتوى المعلومة، فقام بأكبر خدمة لسيدته ابن سعود، ولم يعلم بأن مسعاه كان سهماً أصاب كبد العالم الإسلامي فألمه أيما ألم».

كما نشرت مقالة أخرى بقلم إسماعيل آل ياسين من الكاظمية عنوانها «الطامة الكبرى والأماكن المقدسة في الحجاز» وورد فيها ما نصّه:

١. لمحات اجتماعية: ٣٩٦ - نقلًا عن كشف الارتباب: ٣٤٩ - ٣٦٠. ولقد عرفت في الفصول السابقة أنّها فتاوى فارغة عن البرهانية، فلا حظ.

٢. نفس المصدر السابق: ٣٠٨.

«أيها المسلمون، ما هذا السبات وما هذا الجمود الذي أدى بكم إلى السكون وإلى عدم الاكتراث بهذه القضايا المؤلمة، والأدوار المخزية التي يمثلها ذلك الطاغية في البلاد المقدسة؟»^(١).

يقول الوردی: نشرت جريدة «العراق» حديثاً جرى بين أحد محرريها والسيد محمود الكيلاني نقيب أشرف بغداد، أعلن فيه السيد محمود انتقاده لما قام به الوهابيون من هدم قبور البقيع وذكر أن بناء القبر على القبور ليس مخالفاً للسنة النبوية، لأن النبي نفسه دفن في حجرة عائشة وهي حجرة ذات جدران وسقف كقبة، وذكر أيضاً أن تقبيل الأضرحة هو من باب تقبيل المحبوب، وهو أمر غير ممنوع في الإسلام.

ونشرت صحيفة «العراق» بعدئذٍ ثلاثة أبيات من الشعر، طالبة من الشعراء تشطيرها وتخميسها وهي:

لعمري إن فاجعة البقيع	يشيب لهولها فود الرضيع
وسوف تكون فاتحة الرزايا	إذا لم تضح من هذا الهجوع
أما من مسلم لله يرعى	حقوق نبيه الهادي الشفيع ^(٢)

حل شهر محرم عام ١٣٤٤ هـ فكانت خطب مجالس التعزية ونوحيات المواكب الحسينية تدور في معظمها حول فاجعة البقيع، وتطالب الانتقام

١. المصدر السابق. نقلًا عن عددها الصادر في ٢٩ أيار، ١٩٢٦ م.

٢. لمحات اجتماعية: ٣٠٩. ولم يذكر الوردی قائل الشعر وناظمه، وهو للعلامة الفقيه الراحل آية الله السيد صدر الدين الصدر العاملي، المتوفى عام ١٣٧٣ هـ، وهو والد الإمام السيد موسى الصدر المختطف.

من ابن سعود، إن يوم ٨ شوال أصبح يوم حداد في السنوات التالية في النجف وكربلاء، حيث تغلق فيه الأسواق وتخرج مواكب اللطم.^(١)

الصراع الداخلي بين عبدالعزيز وأتباعه

بعدما استتب الأمر لعبد العزيز بتأييد من بريطانيا، وطرد الملك حسين وولده الأمير علي من الحجاز، فصار سلطان نجد سلطان الحجاز اليوم، كما صار الأمير ملكاً للقطرين، ولكن أتباعه الذين يعبر عنهم في تاريخ المملكة بالإخوان أورثوا له مشكلة خاصة، وهي الإصرار على تطبيق مبادئ الوهابية، فرموه بموالة الكفار الإنجليز والتساهل في الدين، وأنكروا عليه ألقاب السلطان والملك، وتطويل شاربه وثوبه، ولبس العقال، وإرساله ولده سعود لزيارة مصر للعلاج، لأنه بلد الكفار، وإرسال ابنه فيصل لزيارة البلاد الأوروبية لأنها أكثر كفراً، ورأوا أن استخدام السيارات وأجهزة اللاسلكي والهاتف بدع لأنها من صنع الفرنج، وأنه يجب محاربة الدول المجاورة كالعراق والأردن واحتلالها ونشر الوهابية بين سكانها، وقد أحرقوا أول شاحنة ظهرت في مدينة (الحوّل) وكاد سائقها يلقي المصير ذاته، إلى غير ذلك مما عليه بني المذهب الوهابي.^(٢)

قال أمين الريحاني: إن الإخوان فيما ظهر من بسالتهم أورثوا

١. المصدر السابق.

٢. الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز لأبي عليّة: ١٦٠؛ الجزيرة العربية في القرن

عبدالعزیز مشکلاً آخر، فقد طغى الإخوان وتجبّروا، فضجّ الناس، وراح الإخوان يحاربون من لم يتبعهم من البدو، ويكفّرون وينهبون ويقتلون ويقولون: أنت يا بدوي مشرك، والمشرك حلال الدم والمال، وقد انتشرت من جراء ذلك الفوضى في البلاد، وكاد يقطع حبل الأمن والسلام.^(١)

كان الإخوان كارهين للعلم والتقدّم، فاعتبروا أي نوع من أنواع التكنولوجيا الحديثة شراً وكفراً، كالهاتف والتلغراف والسيارات والساعات والكهرباء، وقالوا إنها سحر من عمل الشيطان، فقاوموا استخدامها ونشرها وأخروا تقدّم البلاد.^(٢)

وفي مطلع عام ١٣٤٥ هـ اجتمع رؤساء الإخوان، ومن أبرزهم فيصل الدويش وابن حثلين وابن بجاد في الغطف، وأعدّوا قائمة ذكروا فيها ما يؤاخذون به عبدالعزیز ومن جملته:

١- سفرة ابنه سعود إلى مصر .

٢- سفرة ابنه فيصل إلى لندن للتفاوض مع الإنجليز، وهو يعني التعاون مع بلد الشرك .

٣- استخدام التلغراف والهاتف والسيارة في أرض إسلامية .

٤- فرض رسوم جمركية على مسلمي نجد، وكان هذا في الواقع احتجاجاً على تشديد استغلال السكان عن طريق الضرائب .

١. تاريخ نجد الحديث: ٢٦٠ .

٢. توحيد المملكة العربية السعودية لمحمد المناع: ١٥ .

٥- منع قبائل الأردن والعراق حق الرعي في أراضي المسلمين .

٦- حظر المتاجرة مع الكويت لأنهم كفّار لم يأخذوا بمبادئ الوهابية.

٧- التسامح مع الخوارج (الشيعة) في الأحساء والقطيف، فيجب عليه

أن يهديهم إلى الإسلام أو يقتلهم.^(١)

هذه بعض القرارات التي اتخذها مؤتمر الإخوان، وكان عبدالعزيز آنذاك في الحجاز، فأسرع بالسفر إلى نجد عن طريق المدينة محاولاً علاج غضب الإخوان بالحيل والدجل، ولما وصل إلى الرياض عقد فيها مؤتمراً بتاريخ ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥ هـ وحضر الدعوة جميع زعماء الإخوان، إلا سلطان بن بجاد، وهو القائد الذي استولى على الحجاز، وبرر عدم حضوره بقوله: «إنه لم يثق بعبد العزيز وأقواله، وخاصة بعد أن اتخذنا قراراتنا بتجريمه وتكفيره وعزله» وفي هذا الاجتماع قال عبدالعزيز عن نفسه إنه خادم الشريعة، يحافظ عليها أتم المحافظة، وهو الذي يعهدونه من قبل ولم يتغير كما يتوهم الناس، ولا يزال ساهراً على مصالح العرب والمسلمين .

وفي عام ١٣٤٦ هـ قررت الحكومة العراقية التفاوض لإقامة مخافر للشرطة مجهزة باللاسلكي والسيارات المصفحة بالقرب من الحدود النجدية، للإشراف على تنقلات البدو، ومنع الغزو، وفي أثناء إنشاء المخافر هاجم الإخوان مخفر البصية فقتلوا عدداً من العمال والشرطة الذين كانوا فيه، ثم عادوا من حيث أتوا، وتقدر المصادر البريطانية عدد القتلى بعشرين

١. تاريخ ملوك آل سعود لابن هذلول: ١٨٠.

كان من بينهم امرأة واحدة. كان الإخوان يشنون غاراتهم على العشائر العراقية ويعيشون فيها نهياً وقتلاً، إلى أن اضطرت الطائرات الإنجليزية بإصرار من الحكومة العراقية إلى إلقاء منشورات على البادية تنذر الإخوان بالابتعاد عن الحدود العراقية بمسافة أربعمائة ميل، ولكن لم يهتم الإخوان بهذه المنشورات، فانتهت بقصف تجمعاتهم وقواهم^(١).

إن قصف الطائرات وضع ابن سعود بين نارين: نار الإنجليز ونار الإخوان، ووجد ابن سعود أن الأفضل أن يتفاوض مع الإنجليز بدلاً من محاربتهم، فجرت مفاوضات في جدة مرتين، وكان يمثل الجانب البريطاني (سرجلبرت كلايتون) ورجع عبدالعزيز بعد ذلك إلى الرياض واجتمع مع الإخوان، فأخذ يهدئ روعهم، وطلب منهم أن يعرضوا شكاواهم عليه، فذكروا له منها علاقته بالكفار وصداقته مع الإنجليز، واستعمال مخترعاتهم الشيطانية كالسيارات وأجهزة الهاتف، وتساهله تجاه المخافر التي يبنيها الكفار على الحدود، ومنع المسلمين من الجهاد لإعلاء كلمة الله ونصر دينه، وفي هذا المؤتمر حاول ابن سعود أن يقنعهم بأن جهاد الكفار يجب أن يكون في حدود الطاقة، وأن هذه الآلات ليست من السحر وعمل الشيطان .

ثورة الإخوان

إن النتيجة التي انتهى إليها مؤتمر الرياض لم يرض عنها الرؤساء الثلاثة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وابن حثلين، فصاروا ينشرون الإشاعات السيئة ضد ابن سعود، وأنه بصدد هدم الدين وموالاته الكفار وطلب الملك، ويقطعون الطريق على القوافل، ويهاجمون عشائر العراق .

كان عدد الثائرين نحواً من خمسة آلاف رجل فأعدَّ عبدالعزيز جيشاً كبيراً لقتالهم يربو على خمسة عشر ألفاً، ووقعت المعركة بين الفريقين في صباح ٢٥ آذار سنة ١٩٢٩ م الموافق ستة ١٣٤٩ هـ وانتهت بهزيمة الإخوان وانتصار عبدالعزيز .

يقول الدكتور علي الوردي: إن معظم بناء الدول يقتلون من ساعدتهم على بنائها، وسبب ذلك أن أولئك المساعدين يريدون أن يشاركوا الباني في ثمرة بنائه، بينما هو لا يريد أن يتنازل لهم عن تلك الثمرة، فينشأ النزاع بينهم، وربما ينتهي إلى القضاء على أولئك المساعدين، وقد صدق من قال: السياسة لا أب لها.

ويبدو أن هزيمة الإخوان كانت بسبب أن المشايخ والعلماء كانوا مع عبد العزيز، وهذا مما أدى إلى الوهن في عزيمة الإخوان، وقلل من فدائيتهم وحماسهم الديني.^(١)

١ . العلاقات العراقية السعودية لصداق حسن السوداني: ٣٠٨؛ لمحات اجتماعية: ٣٣٥ .

لما تخلص عبدالعزيز من حركة الإخوان، أنشأ جيشاً تحت إشراف بعض الضباط العرب من بقايا الجيش العثماني واستورد السيارات وأجهزة اللاسلكي، وأنشأ مدارس حديثة في بلاده، وهو وإن تخلص من شر الإخوان لكنه ابتلي بشر علماء الدين النجديين، فقد أوجد فتح المدارس الابتدائية في الحجاز ضجة بينهم، فاحتجوا على عبد العزيز بأنه يجري تعلم الرسم أولاً، واللغات الأجنبية ثانياً، والجغرافيا ثالثاً في تلك المدارس الحديثة.

ظل المشايخ يستنكرون المخترعات الحديثة التي ترد إلى البلاد، فاستنكروا الحاكي والسينما والأنوار الكشافية والطائرات، فهم يعتقدون في الطائرات مثلاً أن ركابهم يتحدثون ربهم بها.^(١)

وحين بدأ الأمريكيون ينقبون عن النفط في منطقة الظهران، قال المشايخ لابن سعود: لا يجوز دخول الكفار البلاد لأنهم يفسدون الرجال والنساء، ويدخلون الخمر والفوتوغراف وما شاكل ذلك من الأمور الشيطانية إلى داخل البلاد، ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد أن جماعة من البريطانيين زاروا ابن سعود في قصره في الرياض، وبينما هم في القصر حل وقت الصلاة، فقام ابن سعود وحاشيته يصلون خلف إمام لهم، فقرأ الإمام في الركعة الأولى قوله تعالى: «وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنَمَسْكُمُّ النَّارُ» وأعاد قراءة الآية في الركعة الثانية، ولما انتهت الصلاة زحف ابن سعود من مكانه نحو الإمام وأشبعه وخزاً وركلاً، وهو يؤنبه قائلاً:

«ما لك بالسياسة يا خبيث، وما الذي تقصده من ترديد هذه الآية في كل ركعة؟ أفلا توجد آيات غيرها»^(١).

فلم تُجدِ اعتراضات الإخوان ومعارضة المشايخ نفعاً.

وهنا يقف القارئ على تطور الوهابية في سيرها التاريخي، فمبادئ الوهابية هي التي كان الإخوان يطلبونها، فقضى عليهم عبد العزيز بالسيف والنار، ثم ما يطلبه المشايخ من تحريم العلم الحديث والاختراعات الحديثة وإيقاف المجتمع على ما كان عليه من السذاجة والبساطة، وهؤلاء يستنكرون، وعبد العزيز كان يعمل بقوة وقدرة، ويستقطب الرأي العام لصالحه، فلم يجد المشايخ بداً من السكوت. وأين هذه المبادئ التي تسوق إلى الأمية من وهابية اليوم التي يدرس مشايخها في الجامعات الحديثة وينالون الدرجات العلمية الرائجة في الغرب، ويأكلون ويلبسون ويسافرون مثل الإفرنج، حتى أن مفتي المملكة تذاع خطبه مباشرة عن طريق وسائل الإعلام السمعية والبصرية، وها هنّ البنات يدرسن في الجامعات في مختلف العلوم، وهذه المقاهي ودور السينما والأفلام المبتذلة الخليعة، وأشرطة الأغاني والموسيقى: هذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنه لم يبق من مبادئ الوهابية إلا ما يمت إلى الأولياء وقبورهم ومراسم إحياء موالدهم، لم يبق شيء منها، سوى ما يرجع إلى الحط من مقامات الأولياء وتوقيرهم واحترامهم، فبناء القباب على مشاهد الصالحين محرم، والتوسل بهم محظور، لكن الربا جائز والحلف مع الكفار سائغ، وتسليطهم على بلاد

١. المملكة العربية السعودية كما عرفتها لأمين المميز: ١٢٦ - ١٢٩.

المسلمين لدعم عرش السلطة أمر لا بد منه، والأغاني التي تشيع الخلاعة وتدفع الشباب إلى الميوعة والتسيب الخلقي مباحة ومشروعة، وهكذا دواليك .

﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾^(١) .

أزمة الثالثة يواجهها عبدالعزيز

قد قضى عبدالعزيز على فتنة الإخوان، وكافح مخالفة مشايخ الدين، ولكنه قد واجه عام ١٣٤٩ هـ وما بعدها أزمة خاصة، وهذه السنوات كانت منحوسة على أمير الحجاز، حيث إن الأزمة الاقتصادية قد خيمت بكابوسها على الحجاز ونجد، وقلّ مجيء الحجاج إلى الحجاز، فبعد ما كان عدد الحجاج في السنوات السابقة يقدر بمائة ألف انخفض إلى أربعين ألفاً في عام ١٣٥٠ هـ وإلى ثلاثين ألفاً في عام ١٣٥١ هـ وإلى عشرين ألفاً في العام المتأخر عنها، فساد البؤس والحرمان في أنحاء الحجاز، وأصبح الكثير من سكانه على حافة المجاعة، وأينما سار الحجاج يحيط بهم المتسولون من كل جانب للاستجداء، وإذا رمى أحد الحجاج بفضلات الطعام أو قشور الفواكه تهافت عليها الأطفال متكالبين من شدة الجوع .

وهذا فيلبي يذكر في مذكراته: بدأ القلق يستحوذ على الملك عبدالعزيز، فأعرب عن قلقه في ذات يوم، وقال بأننا سنواجه كارثة اقتصادية

تحل بالبلاد، ويضيف فيلبي: قلت له إن بلدك مليء بالكنوز الدفينة من نفط وذهب، وأنت عاجز عن استغلالها بنفسك، ولا تسمح للآخرين باستغلالها بالنيابة عنك، فقال عبد العزيز: لو وجدة من يدفع لي مليون جنيه فأبني سأمنحه كل ما يريد من امتيازات في بلادي.

لما وقف الغرب على وجود الكنوز في أراضي نجد، حصل التنافس للحصول على امتياز التنقيب عن النفط بين شركتين:

إحدهما أمريكية والأخرى بريطانية، وقد تمكنت الشركة الأمريكية من الحصول على الامتياز عام ١٣٥٣ هـ، ووقعت الاتفاقية في جدة، من قبل مستر هاملتون والشيخ عبدالله سليمان ممثل الحكومة السعودية.^(١) وكانت هذه هي الخطوة الأولى التي مكنت الأمريكيين من السيطرة على منابع الثروة في شبه الجزيرة العربية.

وبعد فترة من الزمن، وبشكل تدريجي تمكن الأمريكيون من إعمال نفوذهم، والسيطرة على جميع مصادر الثروة بالحد الذي نشاهده اليوم، ولا نطيل الكلام في ذلك، ونحيل القراء الكرام إلى مطالعة الصحف اليومية التي تصدر من أجهزة الإعلام العالمي، والتي تحكي مراراً وتكراراً أخبار خيانة آل سعود لشعوب العالم الإسلامي، وسعيهم الحثيث لاستنزاف مصادر الثروة لصالح الأمريكيين.

زوجاته وأولاده

يقول الوردى: كان عبدالعزيز مزواجاً إلى درجة يندر أن يكون له مثل في عصرنا، وكان مولعاً بزيادة نسله حتى بلغ مجموع أولاده الذكور أخيراً خمسة وأربعين ولداً، مات منهم عشرة وبقي منهم خمسة وثلاثين، وأما بناته فلا نعلم عن عددهن شيئاً، وقد تولد آخر ولده في عام ١٣٦٨ هـ وكان في الواحدة والسبعين من عمره، وقد ناهز عدد أولاده وأحفاده بما فيهم من البنات عند وفاته الثلاثمائة .

إن هذا العدد الكبير من الأمراء أصبح ظاهرة اجتماعية لها أثرها الكبير في المملكة السعودية، فقد صاروا طبقة متميزة تعيش فوق القانون، وقد توافر لدى أفراد هذه الطبقة من جراء تدفق النفط مال كثير يكاد لا يحصى، ولا حاجة إلى القول بأن اجتماع هذين العاملين - التميز الطبقي وتوافر المال - لا بد أن يؤدي بطبيعته إلى الترف الباذخ والانهماك في الشهوات بلا حدود.^(١)

نهاية العهد

بدأت تظهر على عبدالعزيز منذ سنة ١٣٦٧ هـ أعراض الشيخوخة والانحلال، وزاد الألم في ركبته فلم يعد يقوى على المشي، ولجأ إلى

١. لمحات اجتماعية: ٣٢٢.

الاستعانة بكرسي متحرك، وعاد لا يميز الأشياء على الرغم من ارتداء النظارات، إلى أن لفظ أنفاسه في ثاني شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٣ هـ عن سبعة وسبعين عاماً، ونودي بسعود بن عبدالعزيز ملكاً، وبفصل ولياً للعهد، وبعدهما عُزل سعود عن العرش جرت البيعة لفیصل ملكاً، ولخالد ولياً للعهد، فلما قتل فیصل جرت البيعة لخالد بن عبدالعزيز ملكاً، وفهد ولياً للعهد، وبعد موت خالد أقيمت مقاليد الملوكية بيد فهد، وصار عبدالله بن عبدالعزيز ولياً للعهد؛ وإليك لمحة خاطفة عن حياة هؤلاء إكمالاً للبحث.^(١)

١٥ - سعود بن عبدالعزيز (١٣٧٣ - ١٣٨٤ هـ)

ولد سعود بن عبدالعزيز عام ١٣٢٠ هـ وهو الابن الثاني لعبد العزيز، وولد فیصل عام ١٣٢٤ هـ من الزوجة الثانية لعبد العزيز، وهي من آل الشيخ، وقد جرى بين الأخوين غير الشقيقين تنافس مستمر لم ينقطع حتى بعد موت عبدالعزيز، بالرغم من اليمين الذي أقسمه، وقد أدلى سعود في أول اجتماع لمجلس الوزراء ببيانه السياسي الأول بوصفه أنه ملك، وأن من أهدافه تعزيز الجيش ومكافحة الفقر والجوع والمرض، وتحسين الخدمات الطبية، وتأسيس وزارات للمعارف والزراعة والمواصلات.^(٢)

ولكن كان لسعود وفیصل تاريخ من المنافسة حتى دعاهما أبوهما إلى غرفة نومه التي أمضى فيها آخر شهور حياته، وقال لهما: أمسكا

١. آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم: ١٦٦.

٢. تاريخ المملكة السعودية: ١٦/٣.

بأيديكما وأقسماً بأن تعملاً معاً حينما أموت، وأن لا تتجادلا فيما بينكما بحيث لا يسمع العالم عدم توافقتكما، ولكن ما مضى شيء من موت الوالد حتى بدأت الخلافات تظهر بسرعة، وتزايدت الانشقاقات بأكثر مما كان يتصور. (١)

سقط الملك سعود عام ١٣٨١ هـ مريضاً بسبب قرحة في الأمعاء، وأشار الأطباء الأمريكيون عليه بالذهاب للعلاج إلى أمريكا، ولما عاد سعود إلى البلاد بعد بضعة أشهر استغرقت علاجه في الخارج، وبعد أن استحوذ فيصل على كل شيء من أجهزة الدولة، وكادت أن تقع مصادمات عنيفة بين الأخوين لولا أن تدخلت العائلة، حيث أثمرت تسوية بين الأخوين على أن يتقاسما الوزارة.

وفي خريف عام ١٣٨٢ هـ قصد سعود أوروبا للعلاج، فأخذ فيصل يعمل بنشاط لإحكام سيطرته على السلطة، وعين أخاه غير الشقيق قائداً للحرس الوطني، وأخاً آخر حاكماً للرياض، فلما عاد سعود فوجئ بالتغييرات الأخيرة، فاضطر إلى الرضوخ لما أملاه عليه أخوه من الظهور بمظهر الملك، دون صلاحية للتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد.

وانتهى بعد خلافات واسعة إلى خلع سعود بن عبدالعزيز عن الملك، وحلّ فيصل بن عبدالعزيز ملكاً مطلقاً على المملكة، وصدرت الفتوى (الشرعية) اللازمة من الشيخ محمد إبراهيم مفتي الديار السعودية في ١٦ من شهر جمادى الثانية عام ١٣٨٢ هـ، واضطر سعود إلى مغادرة البلاد

١. صراع الأجنحة في العائلة السعودية لفهد القحطاني: ٨٠ ط لندن.

والانتقال إلى مصر، فحلّ في القاهرة ضيفاً على عبد الناصر أيام كانت العلاقات بين مصر والجزيرة العربية متوترة، إلى أن مات فيها عام ١٣٨٩ هـ وقد كان ذا ثروة طائلة بذلها لاسترداد عرشه، ولكنه خسر في هذه المحاولة. يقول جبران شامية: ما من رجل استطاع أن يبذل هذه الأموال في مثل هذا الوقت القصير، وبمثل هذه النتائج الضئيلة كسعود^(١).

١٦- فيصل بن عبدالعزيز (١٣٨٥ - ١٣٩٥ هـ)

قد تسنّم فيصل منصة العرش بعد خلع أخيه سعود من الحكم وهو يعلم أن الضمان الوحيد للإبقاء عليه على منصة الحكم هو إظهار الولاء للأمريكيين، فاتصل بسفير أمريكا ورؤساء شركة آرامكو مراراً ليقنعهم بأنه أجدي لهم وأبقى لمصالحهم من سعود، وفي عام ١٣٨٥ هـ سافر إلى أمريكا ومكث مدة مبدئياً للمسؤولين الأمريكيين تدمره من سعود، واجتمع بوزير خارجية أمريكا آنذاك (جون فوستر دالاس) وبالرئيس الأمريكي السابق (أيزنهاور) شاكياً لهما سوء تصرفات سعود.^(٢)

وقال فيصل: إنني أقول لكم بصراحة: إن هناك من الأمريكيان المسؤولين عندما يكتب لكم ضدي ويزعم أن سعوداً أكثر إخلاصاً لأمريكا مني لكنهم على خطأ، فإنني أصدق صديق لأمريكا.^(٣)

١. آل سعود ماضيهم ومستقبلهم: ١٧٩ - ١٨٠.

٢. تاريخ آل سعود لناصر السعيد: ٦٦١ - ٦٦٢.

٣. مجلة المصور المصرية في عددها الصادر بتاريخ ١٣/٧/١٩٥٨ م.

وجهت مجلة «المصور» لفصل الأسئلة التالية التي أقحم فيها تعبيره عن حبه لأمريكا بطريقة غير مستقيمة:

س - ما سبب رحلة سموكم إلى أمريكا؟

ج - السبب هو أنني أصدق صديق لأمريكا، لكن الأمريكيان مع الأسف الشديد لم يقدروا هذه الصداقة حتى الآن. ونشرت له مجلة المصور أيضاً بتاريخ (١٧/٨/١٩٥٨) تصريحاً قال فيه: يعتقد الأمريكيان أنني عدو لهم، مع أنهم لو أدركوا معنى نصحي لهم لعرفوا أنني أصدق صديق لهم.

وعقد «جون فوستر دالاس» وزير خارجية أمريكا مؤتمراً صحيفياً أعلن فيه بكل صراحة عندما سئل عن رأيه بتولي فيصل لمناصبه، قائلاً: إنني مطمئن كل الإطمئنان بكل ما حدث في السعودية، نحن قد تفاهمنا مع الأمير فيصل في ذلك عندما كان في أمريكا.^(١)

قد وجه وفد مبعوث عن التلفزيون البريطاني سؤالاً عن إمكان قيام نظام ديمقراطي في السعودية، فأجاب فيصل: في اعتقادنا أن في المملكة في وقتها الحاضر أحسن وأجود نظام ديمقراطي، ونحن في بلادنا لا نشعر بأن هناك أي فوارق أو مميزات لفئة أو لأشخاص دون أشخاص، وإن الجميع متساوون في الحق أمام الحكم العادل، ولذلك نعتقد أننا نمثل أعلى ديمقراطية^(٢).

١. تاريخ آل سعود لناصر السعيد، نقلاً عن مجلة المصور المصرية.

٢. فيصل القاتل والقتيل لناصر الشمrani، نقلاً عن كتاب فيصل بن عبدالعزيز من خلال أقواله

وأعماله، صلاح الدين المحمد: ٢٠٤.

وفي الوقت الذي يجيب فيه عن الأسئلة بهذه الصورة بكل صلف وشراسة، نجد أن المملكة الواسعة صارت ملكاً لقبيلة واحدة تملك كل شيء، وليس هناك مجلس للنواب ولا مجلس للشيوخ، ومع ذلك فهم يمثلون أجود نظام ديمقراطي، وأقصى ما عندهم مجلس الوزراء، وهم الطبقة الأولى من هذه العائلة يمثلون الوزارة!

كان فيصل يملك ويحكم إلى أن قتل بيد ابن أخيه فيصل بن مساعد بن عبدالعزيز، حيث دخل مكتبه مع الوفد النفطي الكويتي الذي قدم للقاء فيصل، وحين وصل دوره للسلام على الملك وانحنى لتقبيل كفه، أخرج من معطفه مسدساً أطلق منه ثلاث رصاصات وجهت لرأس الملك وصدرة، وبذلك طويت صحيفة عمره، وقد كثرت التعاليق السياسية على هذا القتل حتى رمي القاتل بالجنون مع أنه أجري عليه القصاص!

١٧- خالد بن عبدالعزيز (١٣٩٥ - ١٤٠٢ هـ)

اجتمعت العائلة السعودية وأفراد الأسرة المالكة وبايعوا خالداً أخاه بالملك، وفهد كولي لعهد، وقد جاءت المبايعة بسرعة لاستباق الأحداث، ولكن منذ اليوم الأول لإعلان البيعة لخالد كانت الأنظار متوجهة إلى فهد كملك غير متوج، وكان خالد يملك ولا يحكم، وهو يحكم ولا يملك، إن الأمريكيين كانوا يرغبون في وصول فهد إلى الملك، ففهد هو الذي يلقي بيانات الملك خالد وكلماته وخطبه، وهو الذي تفرد بالزيارات الرسمية، فزار الكويت والعراق، ثم إيران وفرنسا ولندن وسوريا والأردن ومصر.

زلزال جهمان في مكة

وفي مطلع القرن الخامس عشر الهجري في شهر محرم، سيطرت مجموعات من الأشخاص الذين يتعمون إلى حركة «الإخوان» على الحرم المكي الشريف، يرافقهم في ذلك نساؤهم وأطفالهم، وحاول النظام السعودي إخفاء ما حدث، وقام بعدة إجراءات ابتدأت بالصمت وانتهت بغلق المطارات وقطع الاتصالات الهاتفية بالخارج، ولكن لما تسرب الخبر إلى الخارج، اضطر آل سعود إلى إعلان النبأ مشوهاً، ومنعوا الصحفيين من الدخول إلى البلاد، وقال فاسيليف:

«أعلنت منظمة حركة الثوار المسلمين في شبه الجزيرة العربية، التي لم تكن معروفة آنذاك، أنها تتولى قيادة الانتفاضة، وأعلن الزعيم الروحي للثوار وهو محمد القحطاني الذي قال عن نفسه إنه المهدي المنتظر، أن هدف الحركة يتمثل في تحرير البلد من زمرة الكفار (العائلة المالكة ورجال الدين المرتزقة الذين لا هم لهم سوى التمسك بمناصبهم وامتيازاتهم).

أما الزعيم السياسي للحركة فهو الجهمان العتيبي البالغ من العمر ٤٧ عاماً، فقد ندد في خطبه بأن الحكومة تدعي من جهة أنها مركز الدين الحنيف في العالم، ولكنها من الجهة الأخرى تناصر الظلم والفساد والرشوة، وندد جهمان بالأمرء الذين يستولون على الأراضي ويبدرون أموال الدولة، وبعثهم بـ «السكيرين» الذين يعيشون حياة الفسق والفجور في البيوت والقصور الفخمة.

ولم يكن في وسع العائلة المالكة القبول بشروط المنتفضين للتفاوض إذ أنها تضمنت مطالب بإجراء تعديلات في الوزارة، منها إقصاء كبار الأمراء عن مناصبهم، وإعادة النظر جذرياً في سياسة استخراج وتسويق النفط، وطلب المنتفضون بوقف بيع النفط إلى الغرب عموماً، والعودة إلى أحكام الإسلام الخالص، وطرد جميع المستشارين العسكريين الأجانب من البلد .

وأضاف فاسيليف: عاد ولي العهد فهد من تونس، وأصر على قمع الانتفاضة بالقوة، وقد استخدمت قوات الحكومة القنابل المسيلة للدموع والمدافع والطائرات لإرغام المنتفضين على الانسحاب من المسجد الحرام، وردّ المنتفضون بإطلاق النار من السطوح والمنائر، واستمرت المقاومة الضارية التي أبداها زهاء ألف شخص أسبوعين، وأدّت كما تقول السلطات، إلى مصرع عشرات الأشخاص، بينما يقول شهود العيان إن القتلى كانوا يعدون بالمئات، وكان بين القتلى «المهدي» ذاته، أمّا الزعيم السياسي للحركة (جهيمان العتيبي) فقد أعدم مع ٦٢ شخصاً من رفاقه، في ٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠م، وكان بين من أعدموا علاوة على السعوديين مصريون ويمنيون وكويتيون وعرب آخرون...^(١) .

فتوى ونجاة السلاطين ضد المستأمنين بحرم الله

اجتمع الملك خالد مع عدد من العلماء المتواجدين في الرياض بعد وقوع الحادثة، وأطلعهم على ما جرى، فقدم لهم معلومات مصطنعة عن تعداد الرهائن وقتل المصلين والحجاج وغير ذلك، فاستفتاهم في كيفية حل الأزمة، فوافاه الجواب بالنحو التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم»: أما بعد، ففي يوم الثلاثاء اليوم الأول من شهر محرم عام أربعمئة وألف من الهجرة، دعانا نحن الموقعين أدناه جلالة الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود وأخبرنا أن جماعة في فجر هذا اليوم بعد صلاة الفجر مباشرة دخلوا في المسجد الحرام مسلحين، وأغلقوا أبواب الحرم وجعلوا عليها حراساً مسلحين، وأعلنوا طلب البيعة لمن سمّوه المهدي، ومنعوا الناس من الخروج من الحرم، وقاتلوا من مانعهم، وأطلقوا النار على أناس داخل المسجد وخارجه، وقتلوا بعض رجال الدولة وأصابوا غيرهم، وأنهم لا يزالون يطلقون النار على الناس والمسجد، واستفتانا في شأنهم وما يعمل معهم فأفتيناه أن الواجب دعوتهم إلى الاستسلام ووضع السلاح، فإن فعلوا قبل منهم وسجنوا حتى ينظر في أمرهم شرعاً، وإن امتنعوا وجب اتخاذ كافة الوسائل للقبض عليهم ولو أدى إلى قتالهم وقتل من لم يحصل القبض عليه منهم، ولا يستسلم إلا بذلك، لقوله تعالى:

﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَوْكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَوْكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

ولقول النبي ﷺ: «من أتاكم جمع يريد يفرق جماعتكم ويشق عصاكم فاضربوا عنقه...» .

هذه الفتوى أصدرت على أساس المعلومات قدمها الخصم، وكان من واجبه أن يتقربوا من الحرم حتى يطلعوا على الأمر، وكيف يحق للقاضي أن يصدر حكمه على أساس معلومات يقدمها أحد المتخاصمين، وبالتالي قتل من قتل وأخذ من أخذ، ثم قطعت رؤوس عدة من المقبوض عليهم وسجن النساء .

وهناك سؤال يتبادر إلى الذهن وهو: لماذا التجأ هؤلاء إلى بيت الله الحرام؟ ولعله لما جاء في الروايات بأن المهدي حين يظهر في الحرم يأتي لقتاله جيش عرمرم يخسف الله به الأرض، وهذه الفكرة هي التي دفعت بالجماعة إلى الحرم .

وهناك خطأ غير مغفور، وهو أن ما ورد بأنما هو في المهدي المتظر، لا في من أسمي نفسه مهدياً .

وبذلك انتهت هذه الحركة التي كانت استمراراً لحركة الإخوان، وكان الملك وأبناء العائلة فرحين مسرورين بذلك، ولم يبرح خالد يملك ولا يحكم إلى أن وافته المنية وأخترمه الأجل المحتوم عام ١٤٠٢ هـ، وأصدر الديوان المكي بياناً آخر جاء فيه:

«لقد قام أفراد الأسرة وعلى رأسهم صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن عبدالعزيز بمبايعة ولي العهد الأمير فهد بن عبدالعزيز ملكاً على البلاد، وبعد إتمام البيعة أعلن صاحب الجلالة الملك فهد بن عبدالعزيز ترشيح صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولياً للعهد.

وقد أجمع أفراد الأسرة على ذلك وقاموا بمبايعة سموه... وقد تقرر أن يقوم المواطنون، بالبيعة لجلالة الملك فهد بن عبدالعزيز ولسمو ولي العهد الأمير عبدالله بن عبدالعزيز في قصر الحكم بالرياض صباح غد». .
جدير ذكره أن موت الملك لم يحدث فراغاً سياسياً، لما عرفت أنه كان يملك ولا يحكم .

الملك فهد واستقدامه قوى الكفر^(١)

ويكفي في مساوئ «فهد» المتسلط على مقدرات الحرمين الشريفين، وعدم أهليته لهذا المنصب الخطير وهذه المسؤولية المقدسة، استقدامه لقوى الكفر والشرك إلى أرض مكة والمدينة، المحرمة على المشركين، واستعانته بهم بحجة الدفاع عن الحجاز، ولكن في الحقيقة للدفاع عن مطامع الأمريكان والصهاينة الكثيرة في ثروات المسلمين، من دون التفات إلى حكم المذاهب الإسلامية بحرمة دخول الكفار والمشركين مكة

١. كان تقديم البحوث الأخيرة من هذا الجزء، مقارناً لهذه الحادثة المؤلمة، فأثبتناها في هذا المقام لتبقى في ذاكرة التاريخ غير الناسي، وإن كان الإنسان ذهولاً.

والمدينة وما حولهما، بل وحكم القرآن قبل ذلك بحرمة الركون إلى الكفار وتوليهم .

فقد قال الله سبحانه في محكم كتابه: «وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ»^(١) .

وقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»^(٢) .

وقال سبحانه: «وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ»^(٣) .

وقال تعالى: «إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»^(٤) .

وقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ»^(٥) .

وقال سبحانه: «الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيَتَّقُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا»^(٦) .

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ

٢. الممتحنة: ١٣ .

١. هود: ١١٣ .

٤. الممتحنة: ٩ .

٣. هود: ٥٢ .

٦. النساء: ١٣٩ .

٥. المائدة: ٥١ .

هَرُؤاً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ»^(١).

وقال سبحانه: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ

الْحَرَامَ»^(٢).

وقال تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِمَعْضُومِ أَوْلِيَاءِ بَعْضُهُمْ»^(٣).

وقال رسول الله ﷺ في حديث متواتر: «أخرجوا اليهود من جزيرة

العرب»^(٤).

وقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»^(٥) وأمر

بمضايقتهم في الطرقات حتى يضطروا إلى أضيقتها.

وأما الفقهاء، فقال الإمام النووي في كتاب المنهاج: «ويُمنع كل كافر

من استيطان الحجاز، وهو مكة والمدينة واليمامة وقراها...» راجع كتاب

الجزية منه .

فكيف يجوز لفهد، وهو يدعي خدمة الحرمين الشريفين أن يقوم

بمثل هذه الخيانة العظمى للحرمين وأهلها، ويستقدم جيوش الغزو الغربي

الصلبي والصهيوني إلى بلاد الوحي والرسالة، ويتكفل مؤونتهم، ويحمل

المسلمين مليارات لاستضافتهم، كما صرح المسؤولون السعوديون

١. المائة: ٥٧.

٢. التوبة: ٢٨.

٣. الأنفال: ٧٣.

٤. صحيح البخاري: ٤ / ٦٥، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب.

٥. السنن الكبرى للبيهقي: ٩ / ٢٠٨.

الوهابيون أنفسهم بذلك، وصرّح به قادة الغزو الغربي، كل ذلك بحجة الدفاع.. الدفاع عن ماذا؟ عن الحكم الوهابي الرجعي الأسود، وليس عن الشعب الحجازي المضطهد المظلوم، وليس عن الحرمين الشريفين، اللذين يفديهما المسلمون متى لزم الأمر بأرواحهم، وأنفسهم، وبأعز مالديهم من الأهل والولد .

كل هذا بغض النظر عما يجلبه هؤلاء الكفار من فسق وفجور، بل وأمراض وعاهات خلقية إلى شعب هذه البلاد المقدسة.

هذه صورة إجمالية عن حياة العائلة السعودية بسلاطينها وأمرائها وملوكها، وقد وضعناها أمام القارئ ليقف على حقيقة المذهب، وعلى نزعات حماته وجنباياتهم طيلة استيلائهم على الحكم والعرش، وأما تفصيل حياة الملك الأخير الذي يحكم على البلاد حالياً فتركه إلى جهد القراء لكي يقفوا على حياته وأعماله وتحالفه مع الكفار عن كتب، والله يعلم إلى متى يبقى هذا ويبقى عرشه .

إن إدارة الحرمين الشريفين رهن كفاءات ومؤهلات للقائمين بها، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وهل للعائلة السعودية، التقوى اللازمة لإدارة الحرمين الشريفين؟!

وهل هم متقون حتى يتسئموا هذه المنصة؟! لا أدري، ولكن القراء يدرون!!

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .



تمّ الجزء الرابع من هذه الموسوعة، ويليه الجزء الخامس في تبين عقيدة الخوارج، ومبدأ تكونهم، و حياة مشايخهم بإذنه ومنه سبحانه .

والحمد لله رب العالمين

جعفر السبھاني

١ جمادى الآخرة ١٤١١ هـ

الفهارس

١. فهرس المصادر

٢. فهرس المحتويات

فهرس المصادر

نبدأ تبركاً بالقرآن الكريم

حرف الألف

١. آل سعود ماضيهم ومستقبلهم: جبران شامية، طبع الرياض.
٢. ابن تيمية حياته وعصره: محمد أبو زهرة (المتوفى ١٣٩٦ هـ)
دار الفكر العربي.
٣. إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي (المتوفى ٥٠٥ هـ) دار
المعرفة، بيروت.
٤. أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي: غالب محمد أديب.
٥. أخبار مدينة الرسول: محمد بن محمود النجار (المتوفى ٦٤٣ هـ)
طبع مكة المكرمة - ١٤٠١ هـ.
٦. اختلاف الحديث (المطبوع بهامش كتاب الأم): محمد بن
إدريس الشافعي (المتوفى ٢٠٤ هـ) دار المعرفة، بيروت -
١٤٠٤ هـ.

٧. أربع قواعد: محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ)
مؤسسة المنار، مصر.
٨. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: أبو العباس أحمد بن محمد القسطلاني (٨٥١ - ٩٢٣ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٩. أساس التقديس: فخر الدين الرازي (٥٥٠ - ٦٠٦ هـ) طبع مصر.
١٠. الاستيعاب (المطبوع في حاشية الإصابة): ابن عبد البر (المتوفى ٤٦٣ هـ) دار النهضة، القاهرة، مصر.
١١. أسد الغابة: ابن الأثير الجزري (المتوفى ٦٣٠ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٢. الأسماء والصفات: البيهقي أحمد بن الحسين (المتوفى ٤٥٨ هـ) تعليق محمد زاهد الكوثري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٣. الإصابة: ابن حجر العسقلاني (المتوفى ٨٥٢ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٤. الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبد العزيز: أبو علي عبد الفتاح.
١٥. اقتضاء الصراط المستقيم: ابن تيمية الحراني (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) دار المعرفة، بيروت.

١٦ . الأم: محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) دار المعرفة، بيروت - ١٤٠٨ هـ.

١٧ . إمتاع الأسماع: أحمد بن علي المقرئزي (المتوفى ٨٤٥ هـ) طبع مصر.

١٨ . أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى البلاذري (من أعلام القرن الثالث الهجري) مؤسسة الأعلمي، بيروت - ١٣٩٤ هـ.

١٩ . إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: إسماعيل باشا البغدادي (المتوفى ١٣٣٩ هـ) دار الفكر، بيروت - ١٤٠٢ هـ.

حرف الباء

٢٠ . بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي (المتوفى ١١١٠ هـ) مؤسسة الوفاء، بيروت.

٢١ . البداية والنهاية: ابن كثير الدمشقي (المتوفى ٧٧٤ هـ) دار الفكر، بيروت - ١٤٠٢ هـ.

٢٢ . البرهان في تفسير القرآن: السيد هاشم التوبلي البحراني (المتوفى ١١٠٧ هـ) مؤسسة البعثة، قم المقدسة.

حرف التاء

٢٣. تاريخ آل سعود: ناصر السعيد، منشورات اتحاد شعب الجزيرة العربية.

٢٤. تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر): إسماعيل بن علي بن محمد أبي الفداء (المتوفى ٧٣٢هـ) دار المعرفة، بيروت - ١٣٧٥ هـ.

٢٥. تاريخ الإسلام: حسن إبراهيم حسن، مصر - ١٩٣٥ م.

٢٦. تاريخ بغداد: أحمد بن علي الخطيب البغدادي (المتوفى ٤٦٣هـ) المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

٢٧. تاريخ البلاد العربية: الدكتور منير العجلاني.

٢٨. تاريخ الجبرتي (عجائب الآثار في التراجم والأخبار): عبد الرحمن بن حسن الجبرتي (المتوفى ١٢٣٧هـ) دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤١٧ هـ؛ وطبع مصر.

٢٩. تاريخ الخميس: حسين بن محمد الديار بكري، مؤسسة شعبان، بيروت.

٣٠. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك): محمد بن جرير الطبري

- (المتوفى ٣١٠ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت.
٣١. تاريخ العرب: فيليب حتى، ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، بيروت - ١٩٦٥ م.
٣٢. تاريخ العربية السعودية: اليكسي فاسيليف، شركة المطبوعات، بيروت - ١٩٩٥ م.
٣٣. تاريخ مختصر الدول: ابن العبري (المتوفى ٦٧٥ هـ) دار الرائد اللبناني، بيروت - ١٤٠٣ هـ.
٣٤. تاريخ ملوك آل سعود: ابن هذلول.
٣٥. تاريخ المملكة العربية السعودية: أمين سعيد.
٣٦. تاريخ نجد: حسين بن غنام، دار الشروق، بيروت - ١٤١٥ هـ.
٣٧. تاريخ نجد: عبد الله فيلبي، المكتبة الأهلية، بيروت.
٣٨. تاريخ نجد: محمود الألوسي البغدادي (المتوفى ١٣٤٢ هـ) القاهرة - ١٣٤٧ هـ.
٣٩. تاريخ نجد الحديث: أمين الريحاني (١٢٩٣ - ١٣٥٩ هـ) المطبعة العلمية، بيروت - ١٩٢٨ م.
٤٠. التبيين بشرح الأربعين: ابن حجر الهيتمي (المتوفى ٩٧٤ هـ) طبع الحلبي.

- ٤١ . تذكرة الحفاظ: أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت .
- ٤٢ . تطهير الاعتقاد: محمد بن إسماعيل اليماني (١٠٩٩ - ١١٨٢هـ) المكتب الإسلامي، بيروت - ١٤٠٥ هـ ؛ وطبع مصر .
- ٤٣ . تطهير الفؤاد: محمد بن خيث (المتوفى ١٣٥٤هـ) طبع مصر - ١٣١٨ هـ ، وطبع اسلامبول - ١٤٠٥ هـ .
- ٤٤ . تفسير الجلالين: جلال الدين السيوطي (المتوفى ٩١١هـ) الطبعة الحجرية .
- ٤٥ . تفسير الطبري (جامع البيان): محمد بن جرير الطبري (المتوفى ٣١٠هـ) دار المعرفة، بيروت .
- ٤٦ . تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (المتوفى ٦٧١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٤٠٥ هـ .
- ٤٧ . تفسير النيسابوري (غرائب القرآن) المطبوع بهامش تفسير الطبري: الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، دار المعرفة، بيروت .
- ٤٨ . تقريب التهذيب: ابن حجر العسقلاني (المتوفى ٨٥٢هـ) بيروت - ١٩٧٥ م .

- ٤٩ . تكملة السيف الصقيل: محمد زاهد الكوثري، طبع دمشق.
- ٥٠ . تهذيب الأحكام: محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران - ١٣٩٧ هـ .
- ٥١ . تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني (المتوفى ٨٥٢ هـ) دار الفكر، بيروت - ١٤٠٤ هـ .
- ٥٢ . توحيد المملكة العربية السعودية: محمد المانع، الطبعة الأولى - ١٤٠٤ هـ .
- ٥٣ . التوسل بالنبي والصالحين وجهلة الوهابية: أبو حامد بن مرزوق الدمشقي الشامي، طبعة حسين حلمي، اسلامبول - ١٩٧٥ و ١٩٨٤ م .
- ٥٤ . التوصل إلى حقيقة التوسل: محمد نسيب الرفاعي، بيروت - ١٣٩٤ هـ .

حرف الجيم

- ٥٥ . الجزيرة العربية في القرن العشرين: حافظ وهبة، القاهرة - ١٩٥٦ م .
- ٥٦ . الجمل: محمد بن محمد بن النعمان المفيد (٣٣٦ - ٤١٣ هـ) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

٥٧ . جوامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي (المتوفى ٧٩٥ هـ)
 طبع الهند.

٥٨ . جواهر الأدب: أحمد الهاشمي، انتشارات استقلال، طهران -
 ١٣٦٦ هـ . ش .

٥٩ . جواهر الكلام: محمد حسن النجفي (المتوفى ١٢٦٦ هـ) دار
 الكتب الإسلامية، إيران - ١٣٩٢ هـ .

حرف الحاء

٦٠ . حق اليقين: عبد الله شبر (١١٨٨ - ١٢٤٢ هـ) المطبعة الحيدرية،
 النجف الأشرف - ١٣٧٥ هـ .

٦١ . حوار مع المالكي: عبد الله بن سليمان بن منيع، تقديم عبد
 العزيز ابن باز.

حرف الخاء

٦٢ . الخصائص الكبرى: جلال الدين السيوطي (المتوفى ٩١١ هـ)
 دار الكتب العلمية، بيروت .

٦٣ . الخلاف: محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) مؤسسة
 النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة.

٦٤ . خمسون عاماً في جزيرة العرب: حافظ وهبة (١٣٠٧ -
١٣٨٧هـ).

حرف الدال

٦٥ . دائرة المعارف الإسلامية: مراجعة الدكتور محمد مهدي علام،
دار المعرفة، بيروت .

٦٦ . الدرر السنية في الرد على الوهاية: أحمد زيني دحلان، مكتبة
مصطفى البابي الحلبي، مصر - ١٣٨٦ هـ .

٦٧ . الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: أحمد بن علي بن حجر
العسقلاني (المتوفى ٨٥٢ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٦٨ . الدر المنثور: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ) دار الفكر،
بيروت - ١٤٠٣ هـ .

٦٩ . درة البحال في أسماء الرجال: ابن القاضي محمد بن أحمد،
الرباط، المغرب .

٧٠ . دفع الشبهة عن الرسول والرسالة: تقي الدين الحصني الدمشقي
(٧٥٢ - ٨٢٩ هـ) تحقيق لجنة من العلماء، الطبعة الثانية - ١٤١٨ هـ .

٧١ . دفع شبهة من شبه وتمرد: أبو بكر الحصني الدمشقي (المتوفى
٨٢٩ هـ) طبع مصر - ١٣٥٠ هـ .

٧٢. دلائل النبوة: أحمد بن الحسن البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ) دار
الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٥ هـ.

٧٣. الدولة السعودية الثانية: أبو علي عبد الفتاح.

حرف الذال

٧٤. الذريعة: آقا بزرك الطهراني (المتوفى ١٣٨٩ هـ) دار الأضواء،
بيروت .

حرف الراء

٧٥. الرحلة: ابن جبير (المتوفى ٦١٤ هـ) دار صادر، بيروت - ١٣٨٤ هـ.

٧٦. الرحلة: ابن بطوطة محمد بن عبد الله (المتوفى ٧٧٩ هـ) دار
الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٨ هـ.

٧٧. الرسائل: الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (٣٥٥ -
٤٣٦ هـ) مؤسسة النور، بيروت .

٧٨. رياض الجنة: مقبل بن الهادي، طبع الكويت.

حرف الزاء

٧٩. زاد المعاد في هدى خير العباد: ابن قيم الجوزية (المتوفى ٧٥١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٨٠. زعماء الإصلاح في العصر الحديث: أحمد أمين المصري (المتوفى ١٣٨٨هـ) دار الكتاب العربي، بيروت.
٨١. زيارة القبور: محمد بن عبد الوهاب.
٨٢. زيارة القبور والاستنجد بالمقبور (ضمن رسائل ابن تيمية): ابن تيمية الحراني (المتوفى ٧٢٨هـ) طبعة مصر - ١٣١٧هـ.

حرف السين

٨٣. سفرنامه: الميرزا أبو طالب الاصفهاني (المعاصر إلى محمد بن عبد الوهاب).
٨٤. السنن: ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧ - ٢٧٥هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٣٩٥هـ.
٨٥. السنن: أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي (٢٠٢ - ٢٧٥هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨٦. السنن: الترمذي محمد بن عيسى بن سورة (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٨٧. السنن: النسائي أحمد بن شعيب (٢١٥ - ٣٠٣ هـ) دار الفكر، بيروت - ١٣٤٨ هـ.
٨٨. السنن الكبرى: البيهقي أحمد بن الحسين (المتوفى ٤٥٨ هـ) دار المعرفة، بيروت - ١٤٠٦ هـ.
٨٩. سيرة زيني دحلان (المطبوع بهامش السيرة الحلبية): المكتبة الإسلامية، بيروت.
٩٠. السيرة الحلبية: علي بن إبراهيم الحلبي (المتوفى ١٠٤٤ هـ) المكتبة الإسلامية، بيروت.
٩١. السيرة النبوية: أبو محمد عبدالملك بن هشام (المتوفى ٢١٨ هـ) دار التراث العربي، بيروت.

حرف الشين

٩٢. شرح الجامع الصغير: عبد الرؤوف المناوي (المتوفى ١٠٣١ هـ) دار المعرفة، بيروت.
٩٣. شرح الشفاء في هامش نسيم الرياض: ملا علي القاري الحنفي، مؤسسة دار العلوم، لخدمة الكتاب الإسلامي، دمشق.

٩٤. شرح صحيح مسلم: النووي يحيى بن شرف (٦٣١- ٦٧٦ هـ) دار القلم، بيروت - ١٤٠٧ هـ.
٩٥. شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي (المتوفى ٦٥٥ هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - ١٣٧٨ هـ.
٩٦. شفاء السقام في زيارة خير الأنام: علي بن عبد الكافي السبكي (المتوفى ٧٥٦ هـ) مصر - ١٤١٩ هـ.

حرف الصاد

٩٧. الصحيح: البخاري محمد بن إسماعيل (المتوفى ٢٥٦ هـ) دار الفكر، بيروت.
٩٨. الصحيح: مسلم بن الحجاج النيشابوري (المتوفى ٢٦١ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٩٩. الصحيفة السجادية: الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام (المتوفى ٩٤ هـ) مؤسسة الإمام المهدي - عجل الله فرجه الشريف - قم المقدسة.
١٠٠. الصحيفة العلوية: جمع عبدالله بن صالح بن جمعة السماهيجي، طبع إيران.
١٠١. صراع الأجنحة في العائلة السعودية: فهد القحطاني، طبع لندن -

١٩٨٨ م.

١٠٢ . صلح الإخوان: داود بن سليمان الخالدي البغدادي (المتوفى

١٢٩٩ هـ) طبع بمبي، الهند.

١٠٣ . الصواعق الإلهية: سليمان بن عبد الوهاب النجدي (المتوفى

١٢١٠ هـ) استنبول، تركيا - ١٣٩٩ هـ.

١٠٤ . الصواعق المحرقة: أحمد بن حجر الهيتمي (المتوفى ٩٧٤ هـ)

مكتبة القاهرة، مصر - ١٣٨٥ هـ.

حرف الطاء

١٠٥ . طبقات الشافعية الكبرى: عبد الوهاب بن علي السبكي (المتوفى

٧٧١ هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - ١٣٩٦ هـ.

١٠٦ . الطبقات الكبرى: محمد بن سعد (المتوفى ٢٣٠ هـ) دار صادر،

بيروت - ١٣٨٠ هـ.

حرف العين

١٠٧ . عدة الداعي ونجاح الساعي: أحمد بن فهد الحلبي (المتوفى

٨٤١ هـ) دار المرتضى ودار الكتاب الإسلامي، بيروت - ١٤٠٧ هـ.

١٠٨ . العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى ٣٢٨ هـ) دار الكتب

العلمية، بيروت - ١٤٠٤ هـ.

١٠٩ . العقيدة والشريعة في الإسلام: اجناس جولد تسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١ م) دار الكتاب العربي، مصر.

١١٠ . العلاقات بين نجد والكويت: خالد السعدون.

١١١ . العلاقات العراقية السعودية: صادق حسن السوداني.

١١٢ . العمدة عيون صحاح الأخبار: ابن البطريق الحلبي (المتوفى ٦٠٠ هـ) مؤسسة النشر الإسلامي، قم - ١٤٠٧ هـ.

١١٣ . عمدة القاري في شرح صحيح البخاري: محمود بن أحمد العيني الحنفي، طبع مصر.

١١٤ . عنوان المجد في تاريخ نجد: عثمان بن بشر النجدي الحنبلي، طبع مصر - ١٣٤٩ هـ.

١١٥ . العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٥ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت - ١٤٠٨ هـ.

حرف الغين

١١٦ . الفدير: العلامة عبد الحسين أحمد الأميني (١٣٢٠ - ١٣٩٠ هـ) دار الكتاب العربي، بيروت - ١٣٨٧ هـ.

حرف الفاء

١١٧. الفتاوى الحديثة: ابن حجر الهيثمي (المتوفى ٩٧٣ هـ) طبع مصر.

١١٨. الفتاوى الكبرى: ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) دار القلم، بيروت - ١٤٠٧ هـ.

١١٩. فتح الباري: ابن حجر العسقلاني (المتوفى ٨٥٢ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢٠. فتح المجيد: عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: (المتوفى ١٢٨٥ هـ) دار القلم، بيروت.

١٢١. فتنة الوهابية: أحمد زيني دحلان (المتوفى ١٣٠٤ هـ) مكتبة الحقيقة، إسلامبول، تركيا.

١٢٢. الفجر الصادق: جميل صدقي الزهاوي (المتوفى ١٣٥٤ هـ) مطبعة الواعظ، مصر - ١٣٢٣ هـ.

١٢٣. فرقان القرآن: العزامي الشافعي القضاعي، المطبوع مع كتاب الأسماء والصفات للبيهقي.

١٢٤. فضائل الصحابة: أحمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١ هـ) جامعة أم القرى، مكة المكرمة - ١٤٠٣ هـ.

١٢٥. الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢٦. فوات الوفيات: محمد بن شاعر الكتبي (المتوفى ٧٦٤هـ) دار صادر، بيروت.

١٢٧. فيصل بن عبد العزيز من خلال أقواله وأفعاله: صلاح الدين المجد.

١٢٨. فيصل القاتل والقتيل: ناصر الشمrani.

حرف القاف

١٢٩. قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة: ابن تيمية الحراني (٦٦١ - ٧٢٨هـ) دار العربية، بيروت - ١٣٩٠هـ.

١٣٠. قررة عيون الموحدين: عبدالرحمن (حفيد محمد بن عبد الوهاب).

حرف الكاف

١٣١. الكافي: محمد بن يعقوب الكليني (المتوفى ٣٢٩هـ) دار الكتب الإسلامية، طهران - ١٣٩٧هـ.

١٣٢. الكامل في التاريخ: ابن الأثير الجزري (المتوفى ٦٣٠هـ) دار

الكتاب العربي، بيروت .

١٣٣ . كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب: محسن الأمين (المتوفى ١٣٧١ هـ) منشورات مكتبة الحرمين، قم - ١٣٨٢ هـ .

١٣٤ . كشف الشبهات: محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ) دار القلم، بيروت .

١٣٥ . كشف الظنون: حاج خليفة مصطفى بن عبد الله (المتوفى ١٠٦٧ هـ) طبع استنبول - ١٣٦٢ هـ .

١٣٦ . كنز العمال: عماد الدين علي المتقي الهندي (المتوفى ٩٧٥ هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٤٠٥ هـ .

حرف اللام

١٣٧ . لسان الميزان: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (المتوفى ٨٥٢ هـ) مؤسسة الأعلمي، بيروت .

١٣٨ . لمحات اجتماعية: علي الوردي .

١٣٩ . لمع الشهاب: الشهابي، حققه أحمد مصطفى أبو حاكم، بيروت - ١٩٦٧ م .

حرف الميم

- ١٤٠ . مآثر سلطانية (فارسي): عبد الرزاق الدنيلبي (المتوفى ١٢٤٣هـ ش) تبريز - ١٢٤١هـ ش .
- ١٤١ . مجمع البيان: الفضل بن الحسن الطبرسي (المتوفى ٥٤٨هـ) دار المعرفة، بيروت - ١٤٠٦هـ .
- ١٤٢ . مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي (٧٣٥ - ٨٠٧هـ) دار الكتاب العربي، بيروت - ١٤٠٢هـ .
- ١٤٣ . المجموع من فتاوى ابن تيمية: ابن تيمية الحراني (المتوفى ٧٢٨هـ) .
- ١٤٤ . مجموعة الرسائل الكبرى: ابن تيمية الحراني (المتوفى ٧٢٨هـ) مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، مصر .
- ١٤٥ . مجموعة الرسائل والمسائل: ابن تيمية الحراني (المتوفى ٧٢٨هـ) دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤١٢هـ .
- ١٤٦ . محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى: أبو عليه عبد الفتاح .
- ١٤٧ . مرآة الجنان: عبدالله بن أسعد اليافعي (المتوفى ٧٦٨هـ) دائرة

المعارف العثمانية، الهند - ١٣٧٧ هـ.

١٤٨ . مرقاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح: علي القاري،
المكتبة الحبيبية، باكستان.

١٤٩ . مروج الذهب: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي
(المتوفى ٣٤٦ هـ) منشورات الجامعة، اللبنانية، بيروت - ١٩٦٥ م.

١٥٠ . المستدرک: الحاكم النيسابوري (المتوفى ٤٠٥ هـ) دار المعرفة،
بيروت.

١٥١ . المسند: أحمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١ هـ) دار الفكر، بيروت.

١٥٢ . المصطلحات الأربعة: أبو الأعلى المودودي، دار التراث العربي،
مصر.

١٥٣ . مصباح المتهجد: الشيخ الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) الطبعة
الحجرية.

١٥٤ . المعارف: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى ٢٧٦ هـ)
دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٧ هـ.

١٥٥ . المعجم الصغير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ -
٣٦٠ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٤٠٩ هـ.

١٥٦ . المعجم الكبير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ -

- ٣٦٠ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٤٠٤ هـ.
- ١٥٧ . معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٥٨ . المغني: عبدالله بن قدامة (٥٤١ - ٦٢٠ هـ) مطبعة الإمام، مصر.
- ١٥٩ . مفاهيم القرآن: جعفر السبحاني (مؤلف هذا الكتاب - تولد ١٣٤٧ هـ) مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام في ١٠ أجزاء، قم - ١٤٢٠ هـ.
- ١٦٠ . مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): محمد بن عمر الخطيب الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١٦١ . مفاتيح الكرامة: سيد محمد جواد الحسيني العاملي (المتوفى ١٢٢٦ هـ) مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم - ١٤١٩ هـ.
- ١٦٢ . المفردات: الراغب الاصفهاني (المتوفى ٥٠٢ هـ) المكتبة المرتضوية، طهران.
- ١٦٣ . مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا (المتوفى ٣٩٥ هـ) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة - ١٣٦٦ هـ.
- ١٦٤ . المملكة العربية السعودية كما عرفتها: أمين المميز.
- ١٦٥ . مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب محمد بن علي السروي المازندراني (٤٨٨ - ٥٨٨ هـ) المطبعة العلمية، قم.

١٦٦ . مناقب أحمد: عبد الرحمن بن الجوزي (المتوفى ٥٩٧ هـ)
القاهرة - ١٣٤٩ هـ .

١٦٧ . المنتظم في تاريخ الأمم: عبد الرحمن بن الجوزي (المتوفى
٥٩٧ هـ) حيدرآباد - ١٣٥٧ هـ، وطبعة لبنان.

١٦٨ . منتهى المطلب: العلامة الحلبي الحسن بن يوسف (٦٤٨ -
٧٢٦ هـ) مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، إيران - ١٤١٢ هـ .

١٦٩ . المنهل الصافي والمستوفي بعد الوفي: يوسف بن تغري
الأتابكي (٨١٢ - ٨٧٤ هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر -
١٩٨٤ م .

١٧٠ . موارد الظمان: علي بن أبي بكر الهيثمي (٧٣٥ - ٨٠٧ هـ) دار
الثقافة العربية، دمشق - ١٤١١ هـ .

١٧١ . المواسم والمراسم: جعفر مرتضى العاملي، منظمة الاعلام
الإسلامي، طهران - ١٤٠٨ هـ .

١٧٢ . المواهب اللدنية: أحمد بن محمد القسطلاني، نشر المكتب
الإسلامي، بيروت - ١٤١٢ هـ .

١٧٣ . الموطأ: مالك بن أنس (المتوفى ١٧٩ هـ) دار الأفاق الجديدة،
بيروت - ١٤٠٣ هـ .

١٧٤ . الميزان في تفسير القرآن: العلامة الطباطبائي (١٣٢١ - ١٤٠٢ هـ)

مؤسسة الأعلمي، بيروت - ١٤٠٣ هـ.

١٧٥. ميزان الاعتدال: محمد بن أحمد الذهبي (المتوفى ٧٤٨ هـ) دار
المعرفة، بيروت.

حرف النون

١٧٦. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: يوسف بن تغري بردي
الأتابكي (٨١٣ - ٨٧٤ هـ) المؤسسة المصرية العامة، مصر -
١٣٨٣ هـ.

١٧٧. النهاية: ابن الأثير الجزري (المتوفى ٦٠٦ هـ) مؤسسة
إسماعيليان، قم - ١٤٠٥ هـ.

١٧٨. نهج البلاغة: جمع الشريف الرضي (المتوفى ٤٠٦ هـ) بيروت -
١٣٨٧ هـ.

١٧٩. نور الثقلين: عبدعلي بن جمعة العروسي الحويزي (من أعلام
القرن الحادي عشر الهجري) مؤسسة إسماعيليان، قم - ١٤١٢ هـ.

حرف الهاء

١٨٠. الهدية السنية: محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ).

١٨١. هذه هي الوهابية: محمد جواد مغنية (المتوفى ١٤٠٠ هـ) دار

العلم للملايين، بيروت؛ ودار النهضة، بغداد.

حرف الواو

١٨٢ . وسائل الشيعة: محمد بن الحسن الحر العاملي (المتوفى

١١٠٤هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت - ١٤٠٣ هـ .

١٨٣ . وقاء الوفا بأخبار دار المصطفى: نور الدين علي بن أحمد

السمهودي (المتوفى ٩١١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت -

١٤٠١ هـ .

١٨٤ . الوهاية في الميزان: جعفر السبحاني (مؤلف هذا الكتاب - تولد

١٣٤٧ هـ)، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم - ١٤٢٤ هـ .

١٨٥ . الوهاية في نظر المسلمين: إحسان عبد اللطيف البكري، مكتبة

السيد المرعشي، قم - ١٤٠٨ هـ .

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٩	مقدمة المؤلف: كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة دعامتان للإسلام
١٨	الحروب الصليبية (٤٩١ - ٦٩٠ هـ)
١٩	زحف التتار إلى البلاد الإسلامية
٢٠	الداهية العظمى أو خروج التتار إلى بلاد الإسلام
٢٣	سقوط الخلافة العباسية بأيدي وحوش التتار
٢٨	إبادة المسلمين في الأندلس
٣٠	حصيلة البحث
٣١	الحواضر الإسلامية آنذاك، داؤها ودواؤها
٣٦	ابن تيمية لم يكن سلفياً
٣٧	تقسيم إنجازات ابن تيمية
٣٩	اللسان والقلم مرأتان للضمير
٣٩	ابن تيمية في مرآة الرأي العام

الفصل الأول

ابن تيمية: حياته والرأي العام فيه

- ٤٨ آراء معاصريه ومقاربي عصره في حقّه
- ٤٩ ١- الشيخ صفى الدين الهندي الأرموي (المتوفى ٧١٥ هـ)
- ٥٠ ٢- الشيخ شهاب الدين ابن جهيل الكلابي الحلبي
- ٥٠ ٣- قاضي القضاة كمال الدين الزملكاني (٦٦٧ - ٧٣٣ هـ)
- ٥١ ٤- الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي
- ٥٤ ٥- الشيخ الإمام صدر الدين المرحل
- ٥٤ ٦- الحافظ علي بن عبدالكافي السبكي (المتوفى ٧٥٦ هـ)
- ٥٧ ٧- محمد بن شاكر الكتبي (المتوفى ٧٦٤ هـ)
- ٥٨ ٨- أبو محمد المعروف بالياضي (المتوفى ٧٦٨ هـ)
- ٥٩ ٩- أبو بكر الحصني الدمشقي (المتوفى ٨٢٩ هـ)
- ٦٠ ١٠- أحمد بن حجر، العسقلاني (المتوفى ٨٥٢ هـ)
- ٦٢ ١١- جمال الدين يوسف بن تغري الأتابكي
- ٦٣ ١٢- شهاب الدين، ابن حجر، الهيتمي (المتوفى ٩٧٣ هـ)

الصفحة	الموضوع
٦٥	١٣- ملاً علي القارئ الحنفي (المتوفى ١٠١٦ هـ)
٦٥	١٤- أحمد بن محمد المكناسي، الشهير بابن القاضي
٦٥	١٥- النبھاني (المتوفى ١٣٥٠ هـ)
٦٦	١٦- المحقق الشيخ محمد الكوثري المصري
٦٨	كلامه في حق تلميذه ابن القيم
٧٠	كلام الحافظ الذهبي وغيره في حق ابن القيم
٧١	كلام ابن الحصني في حقه
٧٣	١٧- الشيخ سلامة القضاءي العزامي (المتوفى ١٣٧٩ هـ)
٧٦	١٨- الشيخ محمد أبو زهرة (١٣١٦ - ١٣٩٦ هـ)
٧٧	الناقضون والرادون على ابن تيمية
٨٠	الفتيا التي أصدرها الشاميون في حق ابن تيمية

الفصل الثاني

ابن تيمية وملاكات التوحيد والشرك في العبادة

- ٨٣ الاتهام بالشرك والبدعة
- ٨٤ مراتب التوحيد
- ٨٧ تعريف العبادة
- ٩٦ الوهابيون وملاكات التوحيد والشرك
- ٩٧ ١- هل الاعتقاد بالسلطة الغيبية معيار للشرك؟
- ١٠٠ ٢- هل طلب قضاء الحاجة بأسباب غير طبيعية معيار للشرك؟
- ١٠٢ ٣- هل الموت والحياة ملاكان للتوحيد والشرك؟
- ١٠٥ ٤- هل القدرة والعجز حدان للتوحيد والشرك؟
- ١٠٦ ٥- طلب فعل الله من غيره
- ١١٣ ما هو المراد من النهي عن دعوة غير الله؟

الفصل الثالث

البدعة في الدين وما هو حدها؟

١١٨	المنهج العقلي
١٢٢	القرآن وحصر التشريع بالله سبحانه
١٢٤	سؤال وإجابة
١٢٦	التصرف في التشريع الإلهي أو «البدعة في الدين»
١٢٧	تعريف البدعة
١٢٧	البدعة لغة
١٢٩	البدعة في اصطلاح المتكلمين والفقهاء
١٣٠	١. التدخّل والتصرف في الدين عقيدة أو حكماً
١٣٢	٢. عدم وجود الدليل الداعم لما يُطرح من الكتاب والسنة
١٣٤	٣. الإشاعة بين الناس
١٣٦	تحريم البدعة في القرآن الكريم
١٣٧	البدعة في السنة
١٣٨	خلاصة البحث

الصفحة

الموضوع

- ١٤٠ تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة
- ١٤٢ عوامل التحريف في الدين
- ١٤٣ ١. التقدّس والتحرّج
- ١٤٤ ٢. اتّباع الهوى
- ١٤٦ ٣. التعصّب الممقوت
- ١٤٨ تحصين الدين من الابتداع
- ١٥٠ هل الاحتفال بالمواليد من التقاليد أو من صميم الدين ؟
- ١٥٥ القرآن الكريم وتكريم الأنبياء والأولياء
- ١٦٢ القرآن الكريم وتكريم النبي الأكرم ﷺ
- ١٦٢ الأول: لزوم تكريم النبي ﷺ حياً وميتاً
- ١٦٦ الثاني: الاحتفال تجسيداً لتكريم النبي ﷺ

الفصل الرابع

التبرك بآثار النبي الأكرم ﷺ والصالحين

- ١٧٦ الله واهب السببية وسالها
- ١٧٧ تجليات أخرى لمنح السببية والفاعلية

الصفحة

الموضوع

١٧٨

كرامتان لمريم عليها السلام

١٧٩

ما هو التبرك؟

١٨٠

١. التبرك بمقام إبراهيم عليه السلام

١٨١

٢. قميص يوسف عليه السلام وعودة البصر إلى يعقوب

١٨١

٣. تابوت بني إسرائيل والسكينة

١٨٣

٤. التبرك بمقام أصحاب الكهف

١٨٤

الغرض من التبرك

١٨٦

١. التبرك بتحنيك الأطفال

١٨٦

٢. التبرك بالمسح واللمس

١٨٧

٣. التبرك بماء وضوء النبي صلى الله عليه وآله وسلم

١٨٨

٤. التبرك بقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم

١٩١

نتيجة البحث

الفصل الخامس

عقائد ابن تيمية وأراؤه

- ١٩٦ (١) ابن تيمية ورأيه في الصفات الخيرية
- ٢٠٢ الآراء المتضاربة حول الصفات الخيرية
- ٢٠٦ نظرية ابن تيمية تلازم الجهة والتجسيم
- ٢٢٥ (٢) ابن تيمية وشد الرحال إلى زيارة النبي ﷺ
- ٢٣٠ تحليل آخر للنهي عن السفر
- ٢٣٢ الدليل على جواز السفر إلى زيارة القبور
- ٢٣٧ نصوص الأعلام على جواز السفر لزيارة النبي ﷺ
- ٢٤٢ (٣) ابن تيمية ورأيه في زيارة النبي ﷺ
- ٢٤٣ زيارة القبور
- ٢٤٦ الوقوف على قبور الأحنف
- ٢٤٧ زيارة قبور العلماء
- ٢٤٩ زيارة مراقد الشهداء وقبورهم
- ٢٥١ زيارة القبور في القرآن الكريم

الصفحة	الموضوع
٢٥٤	زيارة القبور في السنّة
٢٥٧	زيارة النساء للقبور في الشريعة الإسلامية
٢٥٩	١. حديث عائشة
٢٦٢	٢. حديث بريدة
٢٦٢	٣. حديث أبي هريرة
٢٦٢	٤. حديث ابن مسعود
٢٦٤	٥. حديث أنس بن مالك
٢٦٥	٦. زيارة عائشة قبر أخيها
٢٦٦	٧. زيارة السيدة فاطمة <small>عليها السلام</small> قبر حمزة
٢٦٦	دليل من لم يجوز زيارة القبور للنساء
٢٧٠	زيارة الرسول الأكرم <small>عليه السلام</small>
٢٧٤	زيارة الرسول الأكرم <small>عليه السلام</small> في القرآن الكريم
٢٧٩	زيارة النبي الأكرم <small>عليه السلام</small> في السنّة النبوية
٣١٢	(٤) ابن تيمية والبناء على القبور
٣١٥	هل هناك إجماع على التحريم؟
٣١٧	النتائج المحمودة لحفظ الآثار الإسلامية

الصفحة	الموضوع
٣٢١	أ. حديث أبي الهياج
٣٢١	مناقشة الحديث سنداً ودلالة
٣٢٧	الحديث دلالة
٣٣١	ب - حديث جابر وتحليله سنداً ومنتأ
٣٣٥	أحاديث ثلاثة في الميزان
٣٣٧	آخر ما في كنانة المستدل
٣٣٨	عرض المسألة على الأدلة المحكمة
٣٣٩	١- الكتاب العزيز والبناء على القبور
٣٤٠	٢- السيرة المستمرة بين المسلمين
٣٤٥	حصيلة البحث
٣٤٦	٣- البناء تعظيم لشعائر الله
٣٤٩	٤- الإذن في ترفيع بيوت خاصة
٣٥١	٥- إظهار المودة للنبي والقريبى
٣٥٢	٦- الأصل هو الإباحة
٣٥٤	(٥) ابن تيمية وبناء المساجد على القبور
٣٦٤	عرض المسألة على القرآن الكريم

الصفحة	الموضوع
٣٦٨	(٦) ابن تيمية وإقامة الصلاة عند قبور الأنبياء
٣٧٤	(٧) ابن تيمية والتوسل بالأنبياء والصالحين
٣٧٥	آيتان على طاولة التفسير
٣٧٨	أقسام التوسل المشروع والممنوع عند الوهابيين
٣٨٠	اقسام التوسل:
٣٨٠	(١) التوسل بالأنبياء والصالحين أنفسهم
٣٨٢	١- توسل الضرير بالنبي الأكرم ﷺ
٣٨٢	كلمات حول سند الحديث
٣٨٥	دلالة الحديث
٣٨٧	تشكيك الرفاعي في دلالة الحديث
٣٩١	٢- التوسل بالنبي بتعليم من الصحابي الجليل
٣٩٦	٣- توسل الخليفة بعم النبي
٣٩٧	استسقاء عبدالمطلب بالنبي وهو رضيع
٣٩٧	استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام
٣٩٩	التوسل بعم النبي ﷺ
٤٠١	تشكيك الرفاعي في دلالة الحديث

الصفحة

الموضوع

- ٤٠٤ - توسل الأعرابي بالنبي نفسه
- ٤٠٥ دلالة الحديث
- ٤٠٧ نقد ما ذكره الرفاعي
- ٤٠٨ المناقشة في سند الحديث
- ٤٠٩ ٥- توسل المنصور بالنبي بتعليم مالك
- ٤١٢ (٢) التوسل إلى الله بحق النبي وحرمة ومنزله
- ٤١٣ أ - التوسل بحق السائلين
- ٤١٥ ب - توسل النبي بحقه وحق من سبقه من الأنبياء
- ٤١٨ ج - توسل آدم بحق النبي
- ٤٢٣ أقسام التوسل:
- ٤٢٣ (٣) التوسل بدعاء النبي ﷺ
- ٤٢٧ ١- بقاء الروح بعد الموت
- ٤٢٧ ٢- الحقيقة الإنسانية هي الروح
- ٤٢٨ ٣- إمكان الاتصال بالأرواح
- ٤٣٢ شبهات للكاتب الوهابي
- ٤٣٩ (٨) ابن تيمية وطلب الشفاعة ممن ثبت كونه شفيحاً

الصفحة

الموضوع

- ٤٤٠ يلاحظ على مجموع ما ذكره:
- ٤٤٢ أ - طلب الشفاعة هو طلب الدعاء
- ٤٤٤ ب - طلب الدعاء من المؤمن ليس شركاً ولا حراماً
- ٤٥١ أدلة الوهابيين على حرمة طلب الشفاعة
- ٤٥٦ (٩) ابن تيمية والنذر لأهل القبور
- ٤٦٥ (١٠) ابن تيمية والحلف بغير الله تعالى
- ٤٦٥ أ - ما هو الحلف الفاصل في الخصومات؟
- ٤٦٦ ب - هل ينعقد الحلف بغيره سبحانه؟
- ٤٦٧ ج - هل يجوز الحلف بغير الله أو لا؟
- ٤٦٩ عرض المسألة على القرآن
- ٤٧١ عرض المسألة على الأحاديث
- ٤٧٦ (١١) ابن تيمية والحلف على الله بحق الأولياء
- ٤٨٧ (١٢) ابن تيمية وتكريم مواليد أولياء الله ووفياتهم
- ٤٩٠ أ - هل الاحتفال بالمواليد شرك؟
- ٤٩٢ ب - هل الاحتفال بالمواليد بدعة؟
- ٤٩٢ ج - لو كان خيراً لأقامه السلف

الصفحة

الموضوع

٤٩٤

كلمة أخيرة

٤٩٤

الدليل الأخير «لا تجعل قبري وثناً يعبد»

٥٠٣

(١٣) ابن تيمية وإهداء ثواب العمل الصالح إلى الموتى

٥٠٨

استغفار الملائكة للمؤمنين

٥٠٩

انتفاع الميت بالصوم والحج النيايين

٥١٠

انتفاع الميت بالصدقة عنه

٥١١

النذر لأولياء الله

٥١٢

المعيار هو النيّة لا ظاهر العمل

٥١٤

نظرية المحققين من أهل السنّة

٥١٥

فتوى فقهاء أهل السنّة

٥١٧

شبهات ثلاثة والإجابة عنها

٥٢٢

(١٤) ابن تيمية والبكاء على الميت

٥٢٨

دليل المانعين

٥٢٩

فقه الحديث

٥٣٢

(١٥) ابن تيمية تسمية الأبناء بعبد النبي أو عبد الحسين

٥٣٣

جواب الشبهة

الصفحة

الموضوع

الفصل السادس

محمد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة الوهابية

- | | |
|-----|--|
| ٥٣٩ | نشأته ووفاته |
| ٥٣٩ | استشفاف بوادر الضلال من كلماته |
| ٥٣٩ | اتفاق الشيخ ومحمد بن سعود |
| ٥٣٩ | بدء الدعوة ونشرها |
| ٥٣٩ | صدام بين ابن عبد الوهاب وأمير عيينة |
| ٥٣٩ | تكفير محمد بن عبد الوهاب جميع المسلمين |
| ٥٣٩ | حروبه مع المسلمين |
| ٥٤١ | تاريخ الوهابية |
| ٥٤١ | مؤسسها، ناصرها وتطورها |
| ٥٤٢ | نشأته ووفاته |
| ٥٤٣ | استشفاف بوادر الضلال من كلماته |
| ٥٤٥ | انتقال عبد الوهاب إلى «حريملة» |
| ٥٤٧ | اتفاق الشيخ ومحمد بن سعود |

الصفحة	الموضوع
٥٤٨	بدء الدعوة ونشرها
٥٤٩	الوهابية أو السيف
٥٥٠	صدام بين ابن عبد الوهاب وأمير «العينة»
٥٥٤	سراب لا ماء
٥٥٧	أهل البيت أدرى بما فيه
٥٥٨	تكفير محمد بن عبد الوهاب جميع المسلمين
٥٦٧	تكفير المسلمين شعارهم الوحيد
٥٦٨	سؤال وجواب
٥٧٠	الرادون على محمد بن عبد الوهاب
الفصل السابع	
تاريخ الإمارة القبلية السعودية	
٥٨٠	فتريات حكم العائلة السعودية
٥٨١	الفترة الأولى لحياة العائلة (١١٣٧ - ١٢٣٣ هـ)
٥٨١	١- إمارة محمد بن سعود: (١١٣٧ هـ - ١١٧٩ هـ)
٥٨٢	البعثة الوهابية إلى مكة

الصفحة

الموضوع

٥٨٣

الصدام مع حاكم الرياض

٥٨٥

٢- عبدالعزيز بن محمد بن سعود (١١٧٩- ١٢١٨ هـ)

٥٨٥

احتلال الأحساء عام ١٢٠٧ هـ

٥٨٧

تدمير كربلاء والتصفية الجسدية

٥٨٩

احتلال الطائف عام ١٢١٧ هـ

٥٩٠

استيلاء الوهابيين على مكة في سنة ١٢١٨ هـ

٥٩١

طرد الوهابيين من مكة المكرمة

٥٩٣

٣- سعود بن عبدالعزيز (١٢١٨- ١٢٢٩ هـ)

٥٩٤

محاصرة الوهابيين جدة ١٢١٩ هـ

٥٩٥

محاصرة مكة والمدينة سنة ١٢٢٠ هـ ثانياً

٥٩٧

غزو الوهابيين لبلاد الشام

٦٠٠

٤- عبدالله بن سعود (١٢٢٩- ١٢٣٤ هـ)

٦٠٠

تدمير الدرعية

٦٠٣

الفترة الثانية للإمارة القبلية السعودية (١٢٤٠- ١٣٠٩ هـ)

٦٠٣

٥- تركي ابن أخيه عبدالعزيز (١٢٣٩- ١٢٥٠ هـ)

٦٠٤

٦- مشاري بن عبدالرحمن (١٢٥٠ هـ)

الصفحة

الموضوع

- ٦٠٥ ٧- فيصل بن تركي (١٢٥٠ - ١٢٥٣ هـ)
- ٦٠٥ ٨- خالد بن سعود (١٢٥٣ - ١٢٥٥ هـ)
- ٦٠٦ ٩- عبد الله بن ثنيان (١٢٥٥ - ١٢٥٨ هـ)
- ٦٠٧ ١٠- فيصل بن تركي (١٢٥٨ - ١٢٧٨ هـ)
- ٦٠٧ ١١- عبدالله بن فيصل بن تركي (١٢٧٨ هـ - ١٢٨٤ هـ)
- ٦٠٨ ١٢- سعود بن فيصل بن تركي (١٢٨٤ هـ - ١٢٩١ هـ)
- ٦٠٩ ١٣- عبدالرحمن بن فيصل
- ٦١٢ الفترة الثالثة للإمارة القبلية السعودية (١٣١٩ - ...)
- ٦١٢ ١٤- عبدالعزيز بن عبدالرحمن (١٣١٩ - ١٣٧٣ هـ)
- ٦١٣ عبدالعزيز يتحالف مع الإنجليز
- ٦١٦ التوسع السعودي بعد التعاون مع بريطانيا
- ٦١٧ هجوم الوهابيين على الحجاز
- ٦١٧ هجوم الوهابيون على الحجاج اليمانيين وقتلهم
- ٦١٨ هجوم الوهابيين على الحجاز عام ١٣٤٣ هـ
- ٦١٩ هجوم الوهابيين على شرقي الأردن
- ٦١٩ استيلاء الوهابيين على مكة المكرمة سنة ١٣٤٣ هـ

الصفحة

الموضوع

- ٦٢٠ تنازل الحسين عن العرش لصالح ولده علي
- ٦٢٢ اكتساح قبور البقيع
- ٦٢٧ الصراع الداخلي بين عبدالعزيز وأتباعه
- ٦٣١ ثورة الإخوان
- ٦٣٤ أزمة الثالثة يواجهها عبدالعزيز
- ٦٣٦ زوجاته وأولاده
- ٦٣٦ نهاية العهد
- ٦٣٧ ١٥ - سعود بن عبدالعزيز (١٣٧٣ - ١٣٨٤ هـ)
- ٦٣٩ ١٦ - فيصل بن عبدالعزيز (١٣٨٤ - ١٣٩٥ هـ)
- ٦٤١ ١٧ - خالد بن عبدالعزيز (١٣٩٥ - ١٤٠٢ هـ)
- ٦٤٢ زلزال جهيمان في مكة
- ٦٤٤ فتوى وعَاظ السلاطين ضد المستأمنين بحرم الله
- ٦٤٦ ١٨ - الملك فهد واستقدامه قوى الكفر

الفهارس

٦٥٣

فهرس المصادر

٦٧٧

فهرس الكتاب